مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

آفاق الثقافة والتراث

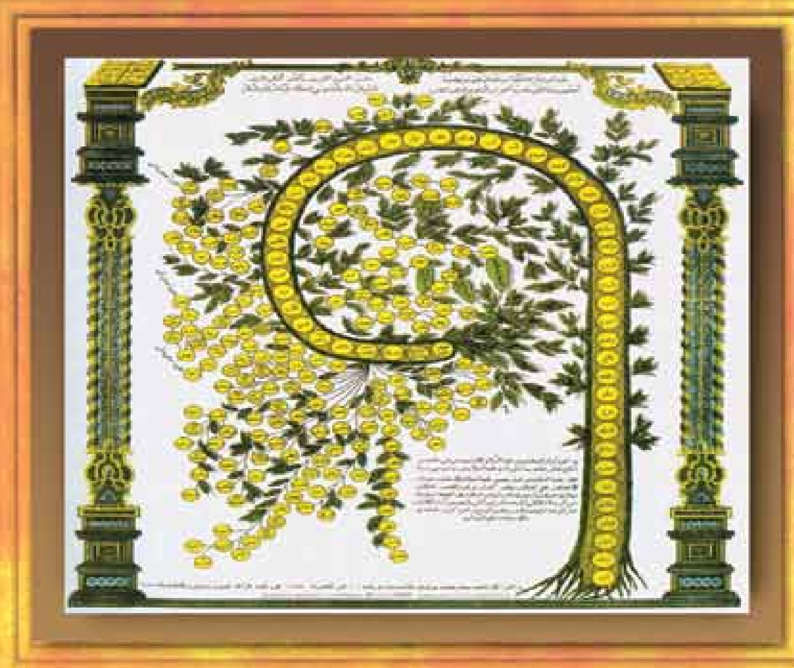
مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الحادية والعشرون : العدد الثالث والثمانون ـ ذو القعدة ١٤٣٤ هـ / أيلول (سبتمبر) ٢٠١٣ م



شجرة النسب النبوي من وضع علماء تاتارستان بروسيا الاتحادية



Family tree of the Prophet (PBUH) as prepared by the scholars of Tatarstan, Russian Federation

شروط النشر في المجلة

١ – أن يكون الموضوع المطروق متميّزًا بالجدّة والموضوعية والشمول والإثراء المعرفي، وأن يتناول أحد أمرين:

– قضية ثقافية معاصرة، يعود بحثها بالفائدة على الثقافة العربية والإسلامية، وتسهم في تجاوز المشكلات الثقافية.

– قضية تراثية علمية، تسهم في تنمية الزاد الفكري والمعرفي لدى الإنسان العربي المسلم، وتثري الثقافة العربية والإسلامية بالجديد.

٢ – ألاّ يكون البحث جزءًا من رسالة الماجستير أو الدكتوراه التي أعدّها الباحث، وألاّ يكون قد سبق نشره على أيّ نحو كان، ويشمل ذلك البحوث المقدمة للنشر إلى جهة أخرى، أو تلك التي سبق تقديمها للجامعات أو الندوات العلمية وغيرها، ويثبت ذلك بإقرار بخط الباحث وتوقيعه.

٣ – يجب أن يُراعى في البحوث المتضمنة لنصوصٍ شرعية ضبطها بالشكل مع الدقّة في الكتابة، وعزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٤ – يجب أن يكون البحث سليمًا خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع مراعاة علامات الترقيم المتعارف عليها في الأسلوب العربي، وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

٥ – يجب اتّباع المنهج العلمي من حيث الإحاطة، والاستقصاء، والاعتماد على المصادر الأصيلة، والإسناد، والتوثيق، والحواشي، والمصادر، والمراجع، وغير ذلك من القواعد المرعية في البحوث العلمية، مع مراعاة أن تكون مراجع كلّ صفحة وحواشيها أسفلها.

٦ – بيان المصادر والمراجع العلمية ومؤلفيها في نهاية كلّ بحث مرتبة ترتيبًا هجائيًّا تبعًا للعنوان مع بيان جهة النشر وتاريخه.

٧ – أن يكون البحث مجموعًا بالحاسوب، أو مرقونًا على الآلة الكاتبة، أو بخطٍ واضح، وأن تكون الكتابة على وجهٍ واحد من الورقة.

٨ – على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن حياته العلميّة مبيّنًا، اسمه الثلاثي ودرجته العلمية، ووظيفته، ومكان عمله من قسم وكلية وجامعة، إضافةً إلى عنوانه وصورة شخصية ملونة حديثة.

٩ – يمكن أن يكون البحث تحقيقًا لمخطوطة تراثية، وفي هذه الحالة تتبع القواعد العلمية المعروفة في تحقيق التراث، وترفق بالبحث صور من نسخ المخطوط المحقّق الخطّية المعتمدة في التحقيق.

١٠ – أن لا يقلّ البحث عن خمس عشرة صفحة، ولا يزيد عن ثلاثين.

ملاحظات

١ – ترتيب البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

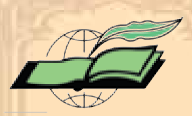
٢ – لا تُرد البحوث المرسلة إلى المجلة إلى أصحابها، سواء نشرت أو لم تنشر.

٣ – لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيئة تحرير المجلة إلاّ لأسباب تقتنع بها هيئة التحرير، وذلك قبل إشعاره بقبول بحثه للنشر.

٤ – تستبعد المجلة أيّ بحثٍ مخالف للشروط المذكورة.

٥ – تدفع المجلة مكافآت مقابل البحوث المنشورة، أو مراجعات الكتب، أو أيّ أعمال فكرية.

٦ – يعطى الباحث نسختين من المجلة.



مركــــز جمعـــة المـــاجـــد للثقـــــــافة والتـــــــراث
Juma Al Majid Center for Culture and Heritage

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته، و بعد ،

فإنه يسرنا أن نبعث إليكم بنسخة من العدد (٨٣) من مجلة آفاق الثقافة و التراث.

راجين التفضل بإرسال إشعار التسلم المرفق بالمجلة إلينا.

مع خالص شكرنا و تقديرنا لحسن تعاونكم معنا

و تفضلوا فائق الاحترام و التقدير

Dear Sir ;
Attached is one copy of Afaq Al-Thaqafa wa Al- Turath magazine, issue No (83). Please send back the enclosed receipt of Acknowledgement after filling in the required infomation.
Thank you for your kind cooperation
We remain

Gift ☐ إهداء

Exchange ☐ تبادل

Subscription ☐ اشتراك

قسيمة اشتراك
Subscription Order Form

سنة One Year ☐ | أكثر من سنة More Than One Year ☐ | عدد السنوات of Years ☐

للأعداد : .... Issues | عدد النسخ : .... of Copies:

ابتداء من تاريخ : .... Subscription Date :

شيك Check ☐ | حوالة مصرفية Bank Draft ☐ | حوالة بريدية Postal Draft ☐

التاريخ : .... Date : | التوقيع : .... Signature :

إشعار بالتسلم

Acknowledgement of Receipt

Name : .... الاسم الكامل :

Institution .... المؤسسة :

Address .... العنوان :

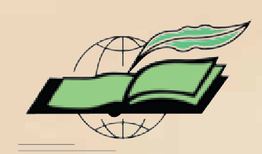
P.O. Box : .... صندوق البريد :

No. of Copies: ☐ عدد النسخ : Issues No.: ☐ العدد :

Subscription ☐ اشتراك Exchange ☐ تبادل Gift ☐ إهداء

Signature : .... التوقيع : Date : .... التاريخ :





تصدر عن قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية
بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
دبي - ص.ب. ٥٥١٥٦
هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+
فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+
دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@almajidcenter.org
الموقع الإلكتروني: www.almajidcenter.org

السنة الحادية والعشرون : العدد الثالث والثمانون ـ ذو القعدة ١٤٣٤ هـ / أيلول (سبتمبر) ٢٠١٣ م

رقم التسجيل الدولي للمجلة

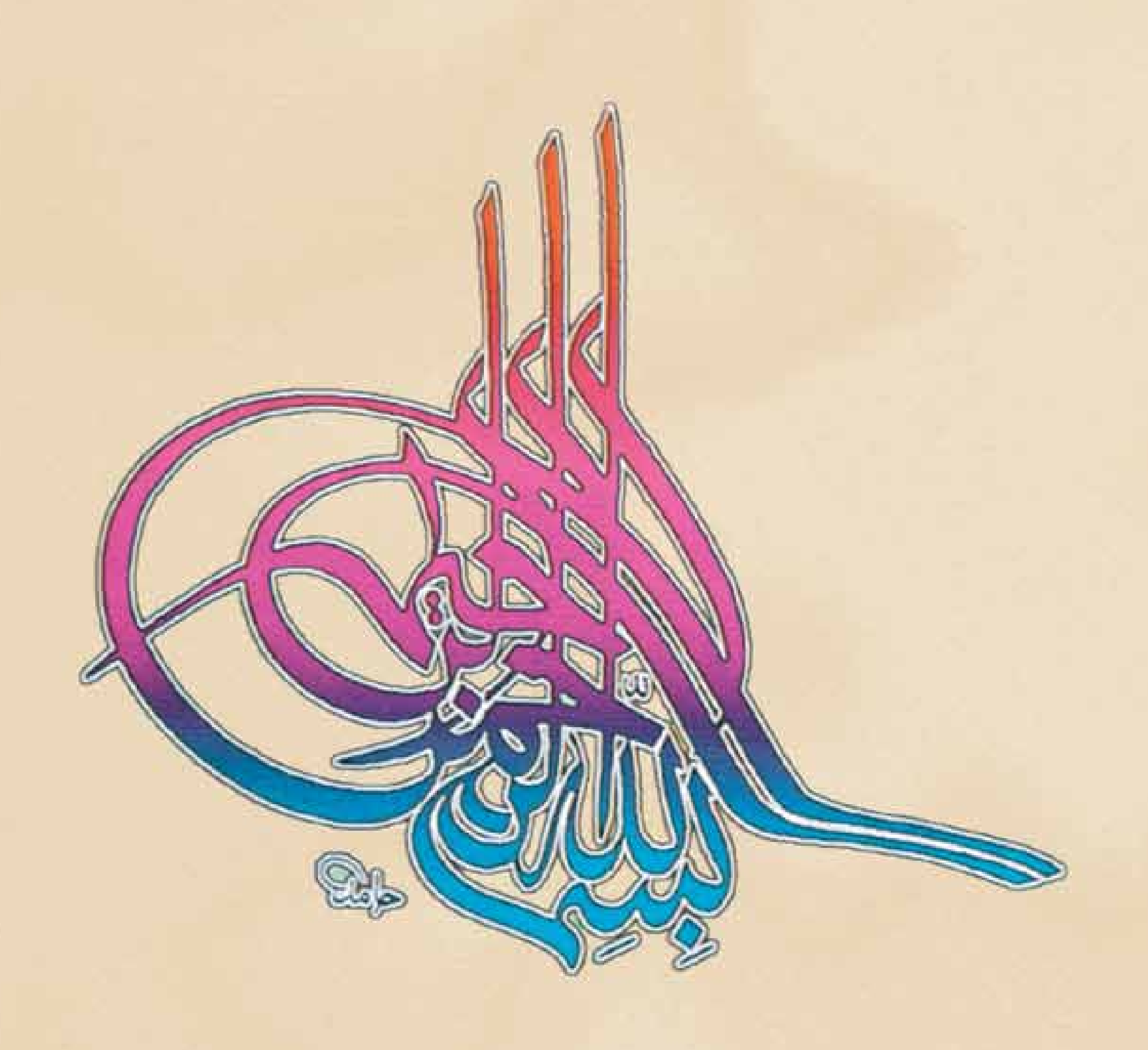
ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

المجلة مسجلة في دليل
أولريخ الدولي للدوريات
تحت رقم ٣٤٩٣٧٨

الاشتراك السنوي

	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهم	١٥٠ درهم
الأفراد	٧٠ درهماً	١٠٠ درهم
الطلاب	٤٠ درهماً	٧٥ درهماً

الفهـــــرس



مكتبة مولانا أبو الكلام أزاد بجامعة علي جرا إرث حضاري ورصيد تاريخي

تعد مكتبة مولانا أبو الكلام آزاد بجامعة علي جرا – الواقعة في مدينة علي جرا بولاية أوترا برادتش بالبلاد الهندية – من أنفس المكتبات الجامعية في الهند، ويعد قسم المخطوطات من أهم الأقسام الموجودة بالمكتبة.

وقد بلغت محتويات هذا القسم من المخطوطات - بلغاتها المتنوعة التي تزيد على عشر لغات - ما مجموعه ١٤٥٧٥ عنوان، وأكثر هذه اللغات حظاً هي اللغة الفارسية، التي كانت لغة مسلمي الهند قبل اعتماد الأردية، حيث يبلغ عدد العناوين بها ٨٢٣٧ عنوان، ثم تليها اللغة العربية، حيث يبلغ عدد العناوين بها ٥١٣٨ عنوان، ثم اللغة الأردية، حيث يبلغ عدد العناوين بها ١٠٨١ عنوان، ثم تأتي باقي اللغات بأعداد قليلة، وقد أجري هذا الإحصاء في ٣١ / ٠٣ / ٢٠٠٤م، ما يعني أن هذا العد قد يكون تغير ولو قليلاً نحو الزيادة؛ لأن المخطوطات تفد على المكتبة باستمرار؛ إما إهداء من الأهالي وإما شراء منهم، وكل الذي نتحدث عنه من هذه المخطوطات هو من الأصول.

وقد جمعت هذه المخطوطات من روافد وقنوات متعددة؛ فمنها ما كان شراء من الأهالي سواء كان ذلك نسخا فردية أو مجموعات، وهناك ما كان على سبيل الإهداء والوقف، وهنا نجد مجموعة قيمة ومتفردة من تلك المكتبات التي حصلت عليها الجامعة إهداء من أصحابها العلماء، أو من عائلات علمية توفي كبيرها الذي كان يقوم على المكتبة، فقامت بإهدائها للجامعة. ومن أهم هذه المجموعات (المكتبات الخاصة)، نجد؛ مجموعة سبحان الله، وعدد مخطوطاتها: ٢٣٩٩، ومجموعة متحف الجواهر، وعدد مخطوطاتها: ١٦٤٣، ومجموعة حبيب كنج، وعدد مخطوطاتها: ١٦١٦، ومجموعة فرنجي محل، وعدد مخطوطاتها:١٥٥٢، ومجموعة سليمان، وعدد مخطوطاتها: ١٤١٢، ومجموعة عبد السلام، وعدد مخطوطاتها: ٥٧٥، ومجموعة أحسن، وعدد مخطوطاتها: ٣٥٣، ومجموعة قطب الدين، وعدد مخطوطاتها: ٢٣٥، ومجموعة شيفتا، وعدد مخطوطاتها: ٢٠٩، ومجموعة منير علم، وعدد مخطوطاتها: ١١٧، ومجموعة أقتاب، وعدد مخطوطاتها ١١٥، وغيرها من المجموعات الصغيرة التي لا يتسع المجال لذكرها.

أما العلوم التي تتضمنها هذه المخطوطات فهي موضوعات متعددة؛ القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف وعلومه، والسيرة النبوية وكتب التراجم، والتاريخ، والفلسفة، والعلوم الطبيعية التجريبية، وعلم الفلك، وكتب الطب والصيدلة والتشريح، وعلم النباتات، والديانات، والسفر، والأدب، والفنون الجميلة... إلخ وكذلك يوجد خطابات لشخصيات مهمة، ورسومات دقيقة.

ويوجد بالمكتبة مجموعة جيدة بخط مؤلفيها، وكذلك مجموعة من النسخ الفريدة في العالم. ومثل هذه الكنوز- عادة- لا تكون متاحة للجميع، أو لمن أراد الاطلاع عليها وقت ما شاء، بل يكون ذلك وفق شروط وإجراءات؛ حتى يتمكن الباحث من الاطلاع على مثل تلك النسخ.

ومن جملة النسخ المحجوبة نذكر ما يأتي:

- قطعة من القرآن الكريم بالخط الكوفي يعتقدون أنها كتبت بخط يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
- نسخة من القرآن الكريم تحتوي على ٣٠ ملفاً، وكل ملف يحتوي على جزء. وهذا العمل المميز هو للحداد: الخطاط الشهير في محكمة شاهاجاهان.
- نسخة من القرآن الكريم للإمبراطور موغال أورنغزاب
- نهج البلاغة: في مجلدين، كتب سنة ٥٣٨ هـ، ويعد ثاني أقدم نسخة في العالم.
- مدن الجواهر: لولي الله الفيرانجي محلي لكناؤو(ت ١٨٥٣م)، هو تعليق على القرآن الكريم، وهو نسخة فريدة في العالم.
- مثنوي للشاعر الصوفي الكبير مولانا جلال الدين الرومي، هذه النسخة كتبت بخط عبد القادر الرافي سنة ٧١٢ هـ. ويرجح أن هذه المخطوطة هي أقدم نسخة للمثنوي.
- حلنمة، لبايازيد الأنصاري: ترجمة لبايازيد الأنصاري في عهد الأكابر، قام بجمعها العلامة علي محمد بن أبي بكر القنضاري، وهي نسخة وحيدة في العالم.
- طويل المتشابهات في الأخبار والآيات، لعبد القادر البغدادي(ت ٤٢٩هـ).
- جوهرة أشعار العرب، جمعها أبوالخطاب القرشي، نسخت سنة ٩٩٨هـ.

فالمكتبة بحق جديرة بالاهتمام بل زيارتها وشد الرحال إليها لمن تيسر له الحال وأسعفه المال، وكل ذلك بتوفيق الحليم المنان

الدكتور عزُّ الدِّين بن زغيبة
مدير التحرير

أثر السياسة الشرعية في وظيفة الولاية العامة

أ.د.نور الدين صغيري
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - قسم العلوم الإسلامية
جامعة عمار ثليجي - الأغواط - الجزائر

مقـالات

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد كثر الحديث في هذه الأيام عبر وسائل الإعلام ، وأصبحت حديث العام والخاص في كل الأندية ولم تصر من المحرمات وخاض فيها من يعرف ومن يهرف ؛ لذا ارتأيت أن أكتب بحوثًا حول الموضوع أبدأ فيها بهذا البحث الذي يوضح المصطلحات ، ويبين معالم السياسة الشرعية وعلاقة ذلك بالولاية العامة .

فمن المسلم به أن سياسة الدنيا وظيفة أساسية لولي الأمر بالإضافة إلى القيام على الدين والمحافظة عليه، إذ بهما يتحقق معنى الخلافة والإمامة التي هي أعلى رئاسة في الأمة. ولا بد لهذه السياسة أن تستند إلى الشرع وتعتمد عليه إن أريد لها أن تكون سياسة شرعية، ولا يكون ذلك إلا بالاجتهاد الذي خُوِّله ولي الأمر وارتبطت به الولاية العامة عمومًا.

وعنونت للموضوع بـ: السياسة الشرعية وظيفة الولاية العامة.

ولتحديد مفهوم السياسة الشرعية كما تداولها العلماء من الفقهاء وغيرهم، ثم لبيان حقيقة الاجتهاد الذي تعتمد عليه السياسة الشرعية ومدى ارتباط الولاية العامة به جعلت ذلك في مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم السياسة الشرعية .

المبحث الثاني: الاجتهاد جوهر السياسة الشرعية وصِلة الولاية العامة به .

المبحث الأول: مفهوم السياسة الشرعية .

تعد السياسة الشرعية من أعقد المفاهيم التي تداولها العلماء وأكثرها غموضًا؛ لتأخرها في الظهور من الناحية التاريخية أولاً، حيث لم تظهر إلا في وقت متأخر من حركة الفقه الإسلامي، فقد ظهرت في زمن شاع فيه التقليد بين الدارسين للفقه من جهة، وفي زمن تراجعت فيه الحضارة

الإسلامية وابتعد المجتمع الرسمي، أو قلِ السلطةَ، عن تعاليم الإسلام في ممارسته للسياسة من جهة أخرى، ثم لتعرضها ثانيًا، لتقلبات كثيرة واضطراب في الموقف من هذا المفهوم على المستوى العلمي، ويعد السبب الأخير الأكثر تأثيرًا في مراوحة هذا المفهوم مكانَه منذ قرون عديدة وإلى حد الساعة. ونحن نحاول أن نميط اللثام عن هذه الحقائق من أجل الوصول إلى رؤية أوضح في الموضوع من خلال هذين الفرعين:

المطلب الأول: مفهوم السياسة .

السياسة في اللغة من ساس الأمر سياسة: قام به، يقال: سوِّس فلان أمر بني فلان إذا كلِّف سياستهم[١]. وورد في الحديث: «**ثم كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي**»[٢]. فالسياسة في اللغة: القيام بالأمر سواء أكان عظيما أم حقيرًا، وسواء أكان عامًا أم كان خاصًا، فهي القيام على الأمر بما يصلحه. ثم اختصت بالأمر العام، أي: أمور الناس وشؤونهم العامة التي لا يستقل الأفراد برعايتها والقيام بها. واعتبر بعض الباحثين هذا المعنى مفهومًا بسيطًا للسياسة لم تعرف العرب غيره[٣]. أما معنى السياسة في الاصطلاح، فإليك بيانه عند علماء المسلمين قديمًا، وعند الباحثين المعاصرين حديثًا.

البند الأول: مفهوم السياسة عند العلماء قديمًا .

تعرف السياسة عند العلماء المسلمين قديمًا بمفهوم شامل يكاد يقارب ما يمكن أن نسميه فن الحياة، ومن هذه التعريفات:

تعريف أبي البقاء الكفوي: «السياسة هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل»[٤]. «وهي من الأنبياء على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم، ومن السلاطين والملوك على كل منهم في ظاهرهم لا غير، ومن العلماء ورثة الأنبياء على الخاصة في باطنهم لا غير، والسياسة البدنية تدبير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة»[٥]. وعرفها بعض العلماء بقوله: «فالسياسة هي التدبير المؤدي إلى مصلحة الدارين... وهي لين من غير ضعف، وشدة من غير عنف، ووضعهما في مكانهما اللائق بهما. ووضع أحدهما مكان الآخر فساد في التدبير»[٦]. واستنادًا إلى هذا المفهوم الشامل، يقسم بعض العلماء السياسة إلى خمسة أنواع: السياسة النبوية، والملوكية، والعامية، والخاصية، والذاتية[٧]. وقسمها الأصفهاني إلى أربعة: سياسة الأنبياء، وسياسة الولاة، وسياسة الحكماء، وسياسة الفقهاء والوعظة[٨].

ثم اختص مدلول السياسة بمعنى أقل شمولاً، حيث ارتبط برعاية الحياة الاجتماعية، وتدبير أمور الرعية، وهو المعنى الذي يريده الفقهاء والعلماء المهتمون بالشأن العام مما يتعلق بتسيير شؤون الحياة الاجتماعية والنظام الذي يجمعها.. ويسمى عندهم بالسياسة المدنية. فمن التعريفات التي قيلت في هذا المعنى:

تعريف الدهلوي: حيث عرف سياسة المدينة بأنها «... الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة»[٩]، فهي عنده: الحكمة والقدرة العقلية التي يكون موضوعها المحافظة على رباط الاجتماع الإنساني ومنعه من التحلل والتفكك، وتركز تعريفه على سياسة المدينة بوجه خاص، حيث يحدد الدهلوي مقصوده بالمدينة بقوله: «وأعني بالمدينة جماعة متقاربة تجري بينهم المعاملات ويكونون أهل منازل شتى»[١٠].

وهو يشبه المدينة بالجسم الذي يتكون من أعضاء متعددة، لكل عضو وظيفته. ودور السياسة هو القيام بحماية هذا الجسم من أن يصاب بالآفات في بعض أجزائه، ثم علاجه منها إن أصيب فعلاً[١١].

وقال بعض العلماء: «السياسة المدنية: علم بمصالح جماعة متشاركة في المدنية ليتعاونوا على مصالح الأبدان وبقاء نوع الإنسان؛ فإنَّ للقوم أن يعاملوا النبي والحاكم والسلطان كذا، وللنبي والحاكم والسلطان أن يعامل كل منهم قومه ورعاياه كذا. ثم السياسة المدنية قسمت إلى قسمين إلى ما يتعلق بالملك والسلطنة، ويُسمَّى: علم السياسة، وإلى ما يتعلق بالنبوة والشريعة، ويُسمَّى: علم النواميس»[١٢].

بينما اعتبر الغزالي السياسة أصلاً من أصول الصناعات التي تعد من فروض الكفاية كالحياكة والفلاحة... فالسياسة عنده صنعة؛ لأن السياسي يعالج المشكلات الحادثة بناء على ما كسبه من علوم ومعارف تهيأ بها ليقوم بذلك[١٣]. وهذا بناء على تقسيمه العلوم إلى قسمين: علوم شرعية أي مستفادة من الأنبياء، وأخرى غير شرعية تستفاد من العقل، أو من التجربة، أو من السماع.. وهو تقسيم يشترك فيه مع كثير من العلماء الذين اعتنوا بتقسيم العلوم. ولا يعني هذا التقسيم نفي إقرار الشريعة لتلك العلوم، وإنما هو تقسيم منهجي بحسب المصدر الذي تستمد منه لتمييزها عن بعضها في المناهج وأصول الأدلة ولبيان شرف كل منها.

إلا أنَّ مفهوم السياسة أخذ منحى آخر عند الفقهاء، حيث تركز المقصود به على مفهوم (سياسة الرعية) الذي كان سائدًا في بعض القرون، حيث كان يغلب عليه معنى الزجر والعقوبة لضبط سلوك العامة فيما ظهر من أحوالهم. هذا ما يمكن فهمه من تعبيرات الكثير من الفقهاء خاصة. حيث تناولوا الأحكام المتعلقة به بالدراسة، فغلب عليه طابع التشريع. يظهر ذلك في التعريف الذي يذكر فيه المقريزي أن السياسة رسمت بأنها: «القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال»[١٤]. فهذا التعريف يختلف عن التعريفات السابقة، من حيث إنه جعل السياسة مجموعة من الأحكام، تغطي مجالات من القانون العام حيث عرفها بأنها قانون مرسوم، له غاية معينة، وهي رعاية الآداب والنظام وحفظ المصالح العامة... وهذا المعنى اعتبره الغزالي طريقًا للسياسة لا عينَها، إذ يقول: «الفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم»[١٥].

أما التعريفات السابقة فتتعلق بعلم السياسة، حيث تركز على عبارات معينة، كالعلم، والحكمة... والمعرفة التي يكتسبها العقل من الملاحظة والتجربة.. فالسياسة هنا هي التدبير، بمعنى إجراء الأمور على علم العواقب، والتدبير -كما سبق- إنما هو لله تعالى حقيقة، أما نسبته للعبد فلا يكون إلا على سبيل المجاز[١٦]. فيصدق بالحقيقة على شريعة الله المنزلة، بوصفها ثمرة للتدبير الإلهي، بينما يتنزل بالمجاز على جد الإنسان في امتثالها وتوسمها في حياته على النفس وعلى الغير. لذلك فالتعريفات السابقة تشمل كل ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام الاعتقادية والخلقية والعملية كما نبه ابن عابدين بعد إيراده التعريف[١٧]. ولكنّ هذه الأحكام ليست سوى آثار وثمرات للسياسة التي وضعتها، فكأن السياسة هي المنهج والطريقة التي تتألف هذه الأحكام لتحقق في مجموعها أهدافًا معينة ومحددة سلفًا.

أما التعريف الذي نقله المقريزي، فيركز على الأحكام التي تعد نتاجًا لهذه السياسة على المستوى القانوني، سواء أكانت هذه الأحكام مستمدة من العقل، أم كان استمدادها من الشرع.

ومن خلال هذه التعريفات، يتبين أن السياسة عند علماء المسلمين لها مفهومان، مفهوم عام يتعلق بتدبير الحياة العامة والخاصة بما يوافق الشرع ليخلص إلى تحصيل مصالح الدارين. ومفهوم خاص يتعلق بتدبير الحياة العامة من قبل الحاكم، إلا أنَّ بعضهم يركز على السياسة كعلم وعمل وممارسة لها أهداف ووسائل لتحقيقها، ومنهم من يطلقها على الأحكام والقوانين التي تنظم هذه الممارسة، وهذا الأخير هو مسلك الفقهاء.

إلا أنه رغم هذا الاختلاف في تحديد مفهوم السياسة حسب زاوية النظر التي ينظر منها كل صاحب علم، فإن العلماء المسلمين بكافة مجالاتهم ومناهجهم وتخصصاتهم العلمية، لا يختلفون في أنَّ السياسة هي التدبير الذي يتأسس على الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، حيث يأخذ في الاعتبار أن للحياة الإنسانية امتدادًا إلى ما بعد الموت، وأنَّ على الإنسان أنْ يأخذ بزمام الحياتين ويسوسهما بما فيه صلاحه فيهما مرجحًا في ذلك أدومهما إذا حدث تعارض ووجب عليه الاختيار بينهما.

البند الثاني: السياسة عند المعاصرين.

تجدر الإشارة إلى أنَّ التفاعل الذي حدث بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية، وطغيان الحضارة الغربية على الحياة العامة في مجتمعاتنا الحديثة والمعاصرة، قد كان له أثر كبير في ترسيم المفاهيم الغربية في مجالات كثيرة من العلوم، خاصة تلك العلوم التي لا تستند في تأسيسها على الشرع، وإنما تأخذ أغلب مبادئها من العقل ومن التجربة والملاحظة... والعلوم الإنسانية والاجتماعية هي أكثر العلوم تأثرًا بهذه الظاهرة، ولأن العلوم السياسية هي من هذا الصنف، فقد تتأثر بالبيئة الاجتماعية التي تنشأ فيها وتعكس كثيرًا من خصوصياتها.

ورغم كثرة ما كتب حول السياسة من تحليلات مطولة في كل ما يتعلق بها من مجالات وأشكال ونظم وممارسات، ورغم أن الباحث بإمكانه أن يجمع عشرات التعريفات للسياسة وعلم السياسة[١٨]، «فلا يزال تعريف السياسة وتحديد جوهرها، وضبط دلالاتها الاصطلاحية -بشكل منهاجي ثابت- فقيرًا إلى حد كبير، ولا تزال الجهود التي بذلت في هذا الميدان قليلة إلى درجة تثير الانتباه...»[١٩]. وقد يكون الربط القائم بين مفهوم السياسة وبين الخبرة الأوروبية من أهم الأسباب التي تقف وراء صعوبة تحديد هذا المفهوم عندنا، إذ لا يزال ينظر إليه في المجال المعرفي المعاصر على أنه ربيب الفكر الوضعي وإفراز لمنطلقاته المعرفية..[٢٠]. فالسياسة عند الغربيين هي كما تعرفها بعض القواميس: «فن حكم المجتمعات الإنسانية وممارسته»[٢١] أو هي «فن حكم الدولة وإدارة علاقاتها مع الدول الأخرى»[٢٢]، إذ ينظرون إلى السياسة بمفهوم أعمق يتصل بالدولة والدستور والنظام السياسي، على خلاف المفهوم البسيط السائد عند العرب والذي يتمثل في أنها القيام على الأمر بما يصلحه[٢٣].

ولعل أغلب الباحثين الذين حاولوا تعريف السياسة في منظور علماء المسلمين لم يقفوا على ما أنجزه هؤلاء وما دونوه من أفكار، واعتقد كثير منهم أن تراث هؤلاء العلماء قاصر على الإنتاج الفقهي البحت من غير أن ينظروا، ولا حتى

أن يعرضوا في بحوثهم محاولات هـؤلاء العلماء لتعريف السياسة؛ سجل حامد ربيع منذ عقدين من الزمن أن جانبًا كبيرًا من التراث السياسي الإسلامي لا يزال غير مغطى بالدراسة ولا باهتمام الباحثين في المجال[٢٤].

ثم ظهرت عدة محاولات معاصرة لتعريف السياسة؛ فقد تجد من يصف السياسة بأنها: فن أساليب الحكم، أو علم الحكم بحكمة[٢٥]، أو أن جوهر السياسة «هو مجموعة الحقائق الثابتة الكامنة في شتى المجتمعات، والتي تجعل منها مجتمعات سياسية، ومن النشاط الذي ينبعث عنها-داخل هذه المجتمعات أو فيما بينها- نشاطًا سياسيًا»[٢٦].

وقد تلفى من يرى أن السياسة ليست شيئًا واحدًا لا يعتريه الغموض؛ لأنَّ لها مفاهيم ومستويات وممارسات متعددة، إذ تشمل من الناحية النظرية والمنهجية عدة مجالات: الفلسفة السياسية التي تبحث فيما يجب أن يكون عليه الحال انطلاقًا من قيم معينة، وعلم السياسة الذي يبحث فيما عليه واقع الحال بشكل وصفي تفسيري، وفن السياسة الذي يمثل جسرًا يربط بين ما يجب أن يكون عليه الحال، وواقع الحال، وهو المقصود عند الحديث عن السياسة بأنها (فن الممكن)»[٢٧]. والممارسة السياسية تعني محاولة تحقيق غايات وأهداف الجماعة (ما يجب أن يكون) مع الأخذ في الاعتبار واقع حال الجماعة، سواء أفي الداخل أم في علاقاتها مع الجماعات الأخرى (ما هو كائن)»[٢٨].

بينما تجد من يرى أن «السياسة في الأنموذج المعرفي المستمد من الوحي، ليست فن الممكن، وإنما القيام على الأمر بما يصلحه والتقويم والحمل على الإصلاح ولو كرها»[٢٩].

إنَّ القول بأنَّ السياسة فن الممكن، عبارة فضفاضة وتحتمل أوجها متعددة؛ فقد تكون سعيًا في سبيل تحقيق الغايات السامية للجماعة، أو تكون ادعاء لذاك باستعمال الوسائل الملتوية للوصول إلى الغايات المشبوهة. ولعل هذا ممَّا يبرر الريب والتحفظ، تجاه السياسة، حيث اكتسب هذا المصطلح سمعة غير طيبة في الاستعمال العام والممارسة اليومية[٣٠]. إلا أنَّ ذلك ليس مبررًا لاتخاذ موقف سلبي من السياسة، فيمكن للسياسة أن تكون طريقًا إلى تحقيق غايات الإسلام وأهداف المجتمع الذي يدين به وخلافة الأمة على هذه الأرض. وهو المعنى الذي تواضع عليه العلماء، ومفاده أنها الحكمة أو العلم الذي يبحث في الكيفيات الناجعة لتحقيق خلافة الإنسان في الأرض وتحقيق معاني عبوديته لله تعالى أملاً فيما عنده من الخير. فقد سبق علماؤنا إلى ملاحظة أنَّ السياسة صنعة ومهارة يكتسبها الإنسان من مصادر أخرى للعلم غير المصادر الشرعية حتى تكون ملكة يقدر بها على معالجة الأمور العامة على وجه يوافق الحق والعدل.

إنَّ التقسيم المنهجي سابق الذكر يدعو إلى التفريق بين علم السياسة، والسياسة، والفلسفة السياسية؛ فعلم السياسة يعتمد على العقل والتجربة والملاحظة، ليصل إلى «مجموعة من المبادئ والقواعد التي أثبت التجريب صحتها، والتي تتعلق بعملية صنع القرارات الملزمة لكل المجتمع... تلك القرارات التي تتناول قيما مادية ومعنوية مختلفة»[٣١]. علم السياسة لا يخضع للأفكار الفلسفية، وإن كان قد يتأثر بها في صياغة نتائجه، حيث يركز على أمرين: «تفسير السلوك والتنبؤ به بإصدار أحكام محددة وواضحة وصحيحة، ثم تبين ما يجب اختياره من بين السياسات المختلفة»[٣٢].

أما الممارسة السياسية، وقد يطلق عليها:

السياسة، فهي تنطلق من مسلمات عقيدية أو فلسفية تتعلق بالقيم والمثل العليا التي تؤمن بها لبناء مجتمع أو نظام سياسي مثالي، وتضع لها أهدافا تعمل على تحقيقها، وتوظف في سبيل ذلك كل ما أنتجه علم السياسة من قواعد ومبادئ ومعرفة في المجال. لذلك، قد تشترك الأمم في ما يتوصل إليه من معارف وقواعد ومبادئ تتعلق بالسياسة وتعمل كل منها على توظيفها، وفقا لمنطلقاتها في سبيل تحقيق أهدافها، لتفرز سياسية مختلفة.

المطلب الثاني: السياسة الشرعية .

عندما تكون السياسة بأبعادها الثلاثة، منطلقة من العقيدة الإسلامية، محتكمة إلى الشريعة، منسجمة مع مقاصدها وأهدافها، لا تتعارض مع أحكامها، يطلق عليها: السياسة الشرعية، نسبة إلى الشريعة الإسلامية. وقد كان لهذه العبارة ظروف نشأت فيها وتطورت إلى أن عم تداولها، حيث لم تُستعمَل ولا جرت على الألسنة إلا في القرن الثامن الهجري أو بعده بقليل. وفيما يلي سنبين ظروف نشأة هذا المصطلح، والمعاني التي تلبس بها، والحكم الشرعي الذي يتعلق به

البند الأول: نشأة المصطلح .

يعد شيخ الإسلام ابن تيمية أول من استعمل هذه العبارة للتعبير عن السياسة، فقد كتب رسالة سماها: (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، وجعل مدارها على آية الأمراء من سورة النساء، فمن بين ما قال في تقديمه لهذه الرسالة ما نصه: «وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة»[٣٣]. فتعني السياسة الشرعية في نظر ابن تيمية القيام بالولاية العامة على ما يقتضيه الشارع في أداء الأمانات والحكم بالعدل بوضع الحقوق في مواضعها، عامة كانت أم خاصة. ثم تبعه في هذا الاصطلاح تلميذه ابن القيم في كتابه (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية)، إلا أنه ركز اهتمامه على شرعية اعتماد القرائن وغيرها من وسائل الإثبات مما لم يرد به الشرع.

ولقد مثلت جهود كل من ابن تيمية وابن القيم ضربًا من المقاومة والإنكار لما شاع في وقتهما من تدخل ما سمي في ذلك الوقت بوالي السياسة في الأحكام والفصل في الخصومات من غير رجوع إلى أحكام الشرع، وإنما بمطلق الرأي أو بالاحتكام إلى قانون جنكيزخان الذي سمي آنذاك بـ(الياسا)[٣٤]. وهذا ما جعل المقريزي ينكر لفظة السياسة التي شاعت في زمنه، ويصفها باللفظة الشيطانية، وقال إن بعض الناس ينطق بها وهم لا يدركون معناها ولا أبعادها مستشهدًا بقول الله تعالى: ﴿...وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[٣٥]، وأن أصلها يعود إلى لفظة (الياسا) وإنما لاكها المصريون بألسنتهم حتى أصبحت تعرف بينهم بـ(السياسة) لتقابل حكم الشرع؛ حيث كان في وقتهم قضاء شرعي يتولاه القضاة الذين يتبعون الشريعة في أحكامهم، وقضاء موازٍ، فرض نفسه بالقوة في زمن ضعفت فيه الخلافة وتوزعت السلطة بين قادة العسكر، يقوم به والي السياسة الذي يجهل الأحكام الشرعية بل قد يتعمد مخالفتها.

وهذا ما يفسر اعتماد ابن تيمية لمصطلح السياسة الشرعية، حيث أراد أن يثبت لأولي الأمر في زمنه أن الدين الإسلامي شامل وعام لكل مناحي الحياة، وأن ما يحتاجه الولاة من السياسة موجود فيه لا يحتاج إلى الرجوع إلى شرائع أخرى من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل[٣٦]، وليفرق

بين السياسة التي توافق الشرع والتي تخالفه، ثم تتابع عدد من الفقهاء على هذا الاصطلاح حتى شاع استعماله[٣٧].

البند الثاني: معاني السياسة الشرعية.

ثم إنَّ مصطلح السياسة الشرعية لم يستقر إطلاقه عند الفقهاء على معنى واحد، فقد استعملوه في عدة معان؛ بعضها عام، وبعضها خاص بجوانب مفهومة من كلمة سياسة[٣٨]. إلا أن أشهر ما عرفت به السياسة الشرعية عند علماء المسلمين معنيان: معنى عام، ومعنى خاص.

فالمعنى العام: هو: «تدبير مصالح العباد على وفق الشرع»[٣٩]. أما المعنى الخاص للسياسة الشرعية، فهو مستعمل بمعنى: «التوسعة على ولاة الأمور في أن يعملوا ما تقضي به المصلحة مما لا يخالف أصول الدين وإن لم يقم عليه دليل خاص»[٤٠].

والمعنى الأخير هو استعمال الفقهاء، قال ابن نجيم ناقلاً عن فقهاء الحنفية: «وظاهر كلامهم ههنا أن السياسة: هي فعل شيء من الحاكم لمصلحة يراها وإن لم يرد بذلك الفعل دليل جزئي»[٤١].

ويرى عبد الوهاب خلاف أن المعنيين غير متباينين وبينهما صلة وثيقة، من حيث إن تدبير المصالح على الوجه الأكمل لا يتم إلا إذا كان ولاة الأمور في سعة من العمل بالمصالح المرسلة. ولذلك لا يوجد في نظره ما يمنع أن يراد بالسياسة الشرعية معنى يعم المعنيين، وينتظم جميع البحوث المقررة[٤٢]. فكانت السياسة الشرعية عنده هي «... تدبير الشؤون العامة للدولة الإسلامية بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار مما لا يتعدى حدود الشريعة وأصولها الكلية، وإن لم يتفق وأقوال الأئمة المجتهدين... والمراد بالشؤون العامة للدولة، كل ما تتطلبه حياتها من نظم سواء كانت دستورية أم مالية أم تشريعية أم قضائية أم تنفيذية، وسواء أكانت من شؤونها الداخلية أم علاقاتها الخارجية»[٤٣].

وبهذا أسس للمعنى المتداول اليوم للسياسة الشرعية بمعناها العام والتي «هي تدبير أمور الناس وشؤون دنياهم بشرائع الدين»[٤٤]. وبهذا فهي تعد امتدادًا لمعنى الخلافة عند العلماء والتي هي: «خلافة (أو نيابة) عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به[٤٥]».

أما السياسة الشرعية بالمعنى الخاص، فـ «هي ما يراه الإمام أو يصدره من الأحكام والقرارات، زجرًا عن فساد واقع، أو وقاية من فساد متوقع، أو علاجًا لوضع خاص»[٤٦]. وذلك استنادًا إلى تعريف ابن عقيل الذي وضعه ردًّا على فقهاء الشافعية إذ أنكروا مشروعية العمل بالسياسة، قال: «السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي»[٤٧]. فهي تصرف من الإمام يحدث أثرًا في الناس بجلب المصلحة ودفع المفسدة، ولا يشترط في كل فعل أن يكون له سابقة من فعل النبي ﷺ. وكأنه جعل منها سلطة ذات صبغة تشريعية فيما لا نص فيه خلافًا للشافعية الذين لا يقرون له بذلك.

وهذا الموقف هو الذي تبناه خلاف في تعريفه السابق، ولكن مع اختلاف في محل الاستثناء: «وإن لم يتفق وأقوال الأئمة المجتهدين» ردًّا على بعض الأفكار، والاتجاهات الداعية إلى التزام ما جاء عن الفقهاء وعدم الخروج عليه؛ إذ سادت في عصره عقلية الجمود على الموروث الفقهي في مواجهة الزحف الغربي.

وإذا كان هذا الموقف في وقته معقولاً، فإن

الاستمرار على هذا الضرب من التعريف للسياسة الشرعية في وقتنا اليوم، ليس له ما يبرره. كتعريفها بأنها: «هي تلك الأحكام المستنبطة الناجمة عن تدخل ولاة الأمور في حركة التشريع استهدافًا لمطلق المصلحة، وإن خالفوا أقوال الفقهاء المتبوعين الذين قد يعملون الأقيسة العامة النظرية أو يعملون على تطبيق الكليات على الجزئيات، دون تبصر وتقدير لما يتصل بها من ملابسات أو ما يكون لها من آثار عملية»[٤٨].

ولعبد الرحمن تاج مفهوم آخر للسياسة الشرعية بالمعنى العام وبالمعنى الخاص؛ فهي بالمعنى العام تشمل كل أحكام الفقه الإسلامي المدون[٤٩]، أما بالمعنى الخاص فهي: «الأحكام التي تنظم بها مرافق الدولة، وتدبر بها شؤون الأمة، مع مراعاة أن تكون متفقة مع روح الشريعة نازلة على أصولها الكلية محققة أغراضها الاجتماعية، ولو لم يدل عليها شيء من النصوص التفصيلية الجزئية الواردة في الكتاب أو السنة»[٥٠]. وليس هذا الأخير سوى المعنى العام للسياسة الشرعية الذي سبق ذكره، أما المعنى الأول فلم يقل به أحد من العلماء.

ننتهي إلى أن السياسة الشرعية في معناها العام، وكما استقر عند أغلب الباحثين المعاصرين، هي: تدبير أمور الدولة بما يتوافق مع أحكام الشريعة ومقاصدها. ويمكن إطلاق «فقه السياسة الشرعية» على ما ترتب على ذلك من أحكام لتمثل في مجموعها القوانين التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وتضبط تصرفات أولي الأمر تجاه حقوق الناس. وقد اتخذت عند المعاصرين أبعادًا أوسع في مواجهة المفاهيم الغربية للسياسة، إذ أصبحت تمثل تجسيدًا حيًّا لأسلوب الحياة العامة التي ينبغي أن يلتزم بها المجتمع الإسلامي ويتميز بها عن غيره من المجتمعات. فذهب غير واحد من العلماء إلى القول بأن نسبة السياسة إلى الشريعة يراد منها أن تتخذ هذه السياسة من الشرع منطلقًا ومصدرًا لها، وتتخذ منه منهاجًا وغاية لها[٥١]، فهي تجعل من عقائده مرجعية فكرية عليا، وتجعل من خطته التشريعية منهجًا لها، وتتخذ من مقاصده التشريعية مقاصد وغايات تسعى إلى تحقيقها. وهذا ما يعطي للسياسة الشرعية أبعادًا أوسع، وربما يخرجها إلى ما يمكن أنْ نسميه سياسة الإسلام للمجتمع، أو منهج الإسلام في الحكم.

أما المعنى الخاص للسياسة الشرعية فيستقر على أنه: السلطة التقديرية التي منحها الشارع لولي الأمر خارج إطار الحكم الشرعي الثابت بدليل من الأدلة الشرعية المعروفة عند الفقهاء. وهذا ما لم يختلف عليه فقهاء المذاهب، إلا ما نسب لبعض الشافعية من خلاف في حدود هذه السلطة التقديرية، ونقلت إلينا مناظرات لهم مع ابن عقيل الحنبلي[٥٢].

البند الثالث: حكم السياسة الشرعية ودليلها.

البحث في حكم السياسة الشرعية ودليلها يتعلق بالمعنى الخاص للسياسة الشرعية، التي تعني التوسعة على الحكام في القضايا المستحدثة التي لم يرد بشأنها دليل شرعي، دون أن يكون في هذه التوسعة خروج عن الشريعة، أو مناقضة لأحكامها ومبادئها ومقاصدها، فهي سلطة تقديرية ممنوحة لولي الأمر كما سبق بيانه، وهو الأمر الذي كان محل أخذ ورد بين الفقهاء.

والسياسة الشرعية بهذا المعنى ضرورية لإدارة شؤون الدولة وما تقتضيه طبيعة الحكم من تجاوب مع الحوادث وسرعة معالجتها. ولهذا كان إنكار السياسة الشرعية -بهذا المعنى- أمرًا فيه مضرة

بالمجتمع الإسلامي وتعطيل للشريعة ذاتها.

ويذكر ابن القيم الجوزي أن الحكام في عصره وقبل عصره قد استحدثوا (قوانين سياسية) بآرائهم وأهوائهم بمعزل عن الشرع، لمَّا ضيق عليهم الفقهاء بجمودهم على التقليد لمذاهبهم وتعصبهم لها، فترك هؤلاء الشرع وساروا في وضع الأحكام دون استفتاء له ولا رجوع إليه(٥٣). وإذا كنا لا نرى أنَّ السبب الحقيقي والوحيد وراء ذلك هو جمود الفقهاء، وإنما ساهمت فيه معطيات اجتماعية وتاريخية لا مجال للتفصيل فيها، إلا أن لظاهرة تعصب أصحاب المذاهب، ومن ثمَّ جمود الفقه، دورًا في إيجاد المناخ الملائم له.

وكان أكثر المذاهب توسعًا في السياسة الشرعية، المذهب الحنفي حتى إن منهم من عرف السياسة بأنها «حكم لم يرد به الشرع»(٥٤)، ولكنهم يقصدون بها العقوبات غير المحددة شرعًا، ولذلك انتهى ابن عابدين وهو من محققي الحنفية إلى القول: «والظاهر أن السياسة والتعزير مترادفان، ولذا عطفوا أحدهما على الآخر لبيان التفسير كما وقع في الهداية والزيلعي وغيرهما، بل اقتصر في الجوهرة على تسميته تعزيرًا، وسيأتي أن التعزير تأديب دون الحد، من العزر بمعنى الرد والردع، وأنه يكون بالضرب وغيره، ولا يلزم أن يكون بمقابلة معصية، ولذا يضرب ابن عشر سنين على الصلاة، وكذلك السياسة ... وقالوا: إن التعزير موكول إلى رأي الإمام، فقد ظهر لك بهذا أن باب التعزير هو المتكفل لأحكام السياسة»(٥٥).

والمرجح أن إطلاق لفظ السياسة على العقوبات ووسائل الردع التي يتخذها ولاة الأمور في مواجهة انحراف أفراد الرعية عمومًا هو اصطلاح عام عند الفقهاء. والذي يتتبع أقوالهم في هذا المجال ينتهي إلى مثل هذه القناعة، ويجد دلالات كثيرة تدعو إلى استبعاد فكرة اختصاص الحنفية بهذه المطابقة بين السياسة والعقوبة (وأحيانًا التعزير). منها على سبيل المثال، تقسيم ابن برهان أحكام الشريعة إلى أربعة أقسام: «العبادات والبياعات والمناكحات، والسياسات التي تدخل ضمنها أبواب الجنايات.. فهذه العقوبات المجراة على أهل الفساد هي للنظام والمصلحة...»(٥٦). ويعني ذلك من كلامه أن المقصود بالسياسات هو العقوبات الرادعة لأهل الفساد، منها ما نص الشارع عليه وهي الحدود والقصاص، ومنها ما ترك للاجتهاد وهي التعازير.

ثم إنَّ من الحنفية من جعل السياسة أخص من التعزير بقوله: «السياسة تغليظ جزاء جناية لها حكم شرعي حسما لمادة الفساد»(٥٧)، وقول آخر: «السياسة شرع مغلظ»(٥٨). وتبعهم في ذلك فقهاء من المذاهب الأخرى، وألحق بهذا المعنى كل ما له علاقة بالعقوبات ورفع الظلم ومعاملة أهل الفساد بما يستحقون، كوسائل الإثبات التي توسعوا فيها، لأن الوقوف عند البينات الشرعية قد أدى إلى التلاعب بالعدالة والتحايل عليها...

وهذا ما حدا ببعض الفقهاء إلى تقسيم السياسة إلى نوعين: سياسة ظالمة تحرمها الشريعة، وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم، وتدفع كثيرا من المظالم، وتردع أهل الفساد، ويتوصل بها إلى المقاصد الشرعية، فالشريعة توجب المصير إليها، والاعتماد عليها في إظهار الحق(٥٩). كما أن هذا أيضًا ما يفسر التضارب الذي يجده الباحث بين أقوال العلماء في شأن السياسة بين مؤيد ومعارض، فالسياسة الظالمة هي ما شنع من أجله أبو الفرج بن الجوزي على الحكام بقوله: «ومن أعظم خطأ السلاطين والأمراء نظرهم في سياسات متقدميهم وعملهم بمقتضاها من غير

نظر فيما ورد به الشرع، ومن خطئهم تسمية أفعالهم الخارجة عن الشرع سياسة، فإن الشرع هو السياسة لا عمل السلطان برأيه وهواه. ووجه خطئهم في ذلك أن مضمون قولهم يقتضي أن الشرع لم يرد بما يكفي في السياسة فاحتجنا إلى تتمة من رأينا؛ فهم يقتلون من لا يجوز قتله، ويفعلون ما لا يحل فعله، ويسمون ذلك سياسة»[٦٠]. كما أن هذا ما حمل الفقهاء الذين دافعوا عن توسيع سلطة الحكام في هذا المجال، كابن القيم، إلى اصطلاح (السياسة الشرعية) بدل لفظ السياسة بإطلاق، لتمييز ما هو جائز في الشرع عن غيره.

ثم إنَّ المفهوم الخاص للسياسة الشرعية في وقتنا الحالي، قد أصبح يمثل، في نظر غالبية الباحثين المعاصرين، مصدرًا تشريعيًا إضافة إلى المصادر الأخرى، إلا أنه خاص بالحكام وولاة الأمر عامة. ومن الباحثين من يشبهها بالمصلحة المرسلة والاستحسان وسد الذرائع، استنادًا إلى ما لاحظه عند دراسة المسائل التي مثل بها الفقهاء للسياسة الشرعية، لولا أنها تختلف عنها من بعض الوجوه؛ منها: أن السياسة الشرعية تحتاج إلى تدخل ولي الأمر من أجل التنفيذ، ومنها: أن الحكم المستند إلى السياسة ليس من الفقه العام الذي لا يتغير، بل من الفقه المرن الذي يختلف باختلاف الأزمان والأحوال...بل وحتى باختلاف أشخاص ولاة الأمور أنفسهم[٦١]. ويؤيد هذا الرأي أن القرافي عندما أراد أن يؤسس للسياسة الشرعية جعل المصلحة المرسلة من بين أدلته[٦٢]، إلا أن تسمية مثل ذلك تشريعًا إنما يقبل تجوزًا.

والسياسة الشرعية، بوصفها سلطة تقديرية لولي الأمر، لها ما يؤيدها من سيرة الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، ففي عهدهم كثير من الأعمال والتصرفات التي يمكن تصنيفها من هذا القبيل. وقد تلقتها الأمة بالقبول، فلم يُروَ عن أحد من الصحابة على ذلك نكير؛ وعليه فمهما كانت تصرفات أولي الأمر في حدود ما سمح به الشرع لهم، دخلت في مسمى السياسة الشرعية، أما إذا خالفت حدود الشريعة، فقد خرجت عن صفة الشرعية، ولم يجز إقرار ولي الأمر على اتخاذها أو العمل بمقتضاها.

استعمل علماء الإسلام مضمون السياسة بإطلاق واستعملوه مرتبطًا بالشريعة ولكن ذلك لا يعني أن السياسة عندهم ما خرج عن الشريعة، وإنما اعتبروها صناعة وفنًّا للحكم يتطلب من دارسه وممارسه اكتساب علوم أخرى بالإضافة إلى علوم الشريعة، وهي تتضمن أصول التعامل مع العامة والخاصة ومعرفة منازل الناس وضبط سير الحياة العامة وإدارة العلاقات الاجتماعية إلى غير ذلك... من زاوية إتقان ذلك والإبداع فيه وتحقيق الأهداف المرجوة منه بأقل التكاليف الممكنة[٦٣]. واختص مضمون السياسة عند الفقهاء، سواء باستعمالها مطلقة أم مقيدة بوصف الشرعية، بما يمارسه صاحب الولاية من اجتهاد في فرض النظام وتدبير المصالح، وما يتخذه من وسائل لتنفيذ أحكام الشريعة وتحقيق مقاصدها على الخلق... وربما زاد بعضهم في تخصيصها بضرب من هذه السياسة يتعلق بالعقوبات والزواجر مما له مساس بالحريات والحقوق.

المبحث الثاني: الاجتهاد جوهر السياسة الشرعية وصلة الولاية العامة به .

لقد كان النبي ﷺ في حياته يمارس دوره كرسول مبلغ ونبي هاد، كما كان أيضًا يقوم بدور القائد والرئيس الذي يتولى الشؤون العامة في الأمة، وكان القاضي الذي يلجأ إليه الناس للفصل بينهم في مخاصماتهم، وقد حفظ عنه الصحابة كل ذلك، وتناقله المسلمون جيلاً بعد جيل. وليتمكن الفقهاء

أثر السياسة الشرعية في وظيفة الولاية العامة

من التمييز بين ما طبيعته التشريع الدائم، وما طبيعته التصرف الجزئي القائم على الاجتهاد في معالجة أوضاع وقتية، كان لابدَّ لهم من التفريق بين تصرفات النبي ﷺ بحسب الصفة التي تصرف على أساسها؛ بصفته نبيًّا وبصفته حاكمًا وبصفته إمامًا، وهو أمر يدل على أن الولاية لا تنفصم عن الاجتهاد، فهي لصيقة به ولا يمكن أن تكتمل حقيقتها إلا به. فيحق لنا التساؤل بعد ذلك عن طبيعة الاجتهاد المنوط بالولاية العامة وما يتعلق بها من السياسة الشرعية، وهو ما يتبين في الفروع الثلاثة التالية.

المطلب الأول: التمييز بين أنواع تصرفات النبي ﷺ.

يجب التمييز بين ما صدر عنه ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات، بغرض التبليغ، وبين ما صدر عنه من مثل ذلك بوازع الجبلة أو دافع المعاش على سبيل الرأي، انسجامًا مع معارف قومه وعاداتهم وسبل ضربهم في الأرض مما لا يتعلق بتبليغ الرسالة، وإنما يخضع لمعطيات البيئة ومقدّرات العصر[٦٤]. وليس هذا موضع بيان ذلك فهو في الموسوعات الأصولية، إلا أن من ضروب السنة التي صدرت عن النبي ﷺ ما ظاهره التشريع ولكنه لا يقصد به التشريع الدائم الذي يلزم الأمة على مدى العصور، بل قد يكون معالجة لحادثة جزئية أو تعاملاً مع ظرف طارئ، فيختلف التعامل معه في استنباط الأحكام الشرعية وفي وجوب الاتباع.

البند الأول: أنواع تصرفات النبي ﷺ.

يقصد بالتصرف ما صدر عن النبي ﷺ من فعل أو قول أو تقرير، وترتبت عليه آثار شرعية، من إنشاء حقوق أو إلزام بها أو إطلاق أمر أو تقييده أو إباحة... إلى غير ذلك. قال القرافي: «اعلم أن رسول الله ﷺ هو الإمام الأعظم والقاضي الأحكم والمفتي الأعلم... فجميع المناصب الدينية فوضها الله إليه في رسالته، وهو أعظم من كل من تولى منصبا منها في ذلك المنصب إلى يوم القيامة...»[٦٥].

فقسم العلماء تصرفاته ﷺ بحسب الأوصاف التي كان يتصف بها وفق المناصب الشرعية التي خوله الله تعالى، حتى يميزوا بين ما كان مقصودًا به التشريع العام وبين ما نظر فيه لأسباب جزئية أو لمصالح وقتية. ففرقوا بين تصرفاته بوصفه نبيًّا ورسولاً مبلغًا، وبين تصرفاته بوصفه قاضيًا، وتصرفاته بوصفه إمامًا وقائدًا للمسلمين، ويختلف معنى التقيد بسنة رسول الله ﷺ بحسب كل جانب من هذه التصرفات[٦٦]. قال السبكي: «النبي ﷺ يتصرف بالفتيا والسلطنة، وكل من الأمرين ناشئ عن الله تعالى، فإنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى. ويظهر أثر التصرفين من العموم والخصوص، فالتصرفات بالفتيا شرع عام أبد الآبدين ودهر الداهرين، وبالسلطنة قد يختص في كل زمان بحسب المصالح»[٦٧].

فاتفق العلماء على وجوب التمييز بين هذه التصرفات عند الاستدلال، «غير أن غالب تصرفه ﷺ بالتبليغ، لأن وصف الرسالة غالب عليه[٦٨]. ثم تقع تصرفاته ﷺ منها ما يكون بالتبليغ والفتوى إجماعا، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالقضاء، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالإمامة، ومنها ما يختلف العلماء فيه لتردده بين رتبتين فصاعدا..»[٦٩]، فيختلفون في الأخذ بمقتضى تصرفه وفقا لذلك.

والتصرف بالإمامة أمر مستقل عن الرسالة، لأن الرسالة لا يدخل فيها إلا التبليغ عن الله تعالى، ولا تستلزم أن يكون قد فوضت إليه السياسة

العامة، لأن من الرسل الذين بعثهم الله تعالى من لم يتول إمامة ولا أنشأ دولة، فما فعله النبي ﷺ أو قاله مما يتعلق بتسيير شؤون الدولة يعد أمـرًا زائـدًا على مقتضى الرسالة الـذي يقتصر على التبليغ[٧٠]. هذا ما أثبته القرافي بقوله: «وأما تصرفه ﷺ بالإمامة فهو وصف زائد على النبوة والرسالة والفتيا والقضاء، لأن الإمـام هو الذي فوضت إليه السياسة العامة في الخلائق، وضبط معاقد المصالح ودرء المفاسد وقمع الجناة وقتل الطغاة وتوطين العباد في البلاد إلـى غير ذلك مما هو من هـذا الجنس. وهـذا ليس داخـلاً في مفهوم الفتيا ولا الحكم ولا الرسالة ولا النبوة»[٧١]. واجتهاده في ذلك ليس ملزمًا للأمة ولا للإمام إذا رأى المصلحة في غيره.

ولما كان الإمام بعد النبي ﷺ يتولى المناصب الدينية المتعلقة بالولاية العامة، كانت نسبة الإمام إلى المفتي والقاضي كنسبة الكل إلى الجزء، إذ الإمام المستكمل شروط الإمامة، له أن يقضي وأن يفتي، وله أن يفعل أكثر من ذلك مما ليس بفتيا ولا قضاء مما هو من أعمال الإمامة ولا يشاركه فيها القاضي ولا المفتي. ولاختلاف الأساس الذي ينبني عليه منصب كل منهم اختلفت طبيعة عمل كل من هذه المناصب وبالتالي طبيعة الاجتهاد الذي يُعتمد فيه. «وظهر حينئذ أن القضاء يعتمد الحجاج، والفتيا تعتمد الأدلة، وأن تصرف الإمامة الزائد على هذين يعتمد المصلحة الراجحة أو الخالصة فـي حق الأمـة، وهـي غير الحجة والأدلـة»[٧٢]. فالتفريق بين عمل الولاة وعمل القضاة يرجع إلى اختلاف طبيعة الإمامة عن طبيعة القضاء. وهو المعيار الـذي اعتمده المـاوردي في التفريق بين نظر الأمـراء ونظر القضاة في الجرائم؛ يوسع من سلطة الأمير ويضيق من سلطة القاضي عند الاستبراء وقبل ثبوت الحد... ويعلل ذلك بقوله: «لاختصاص الأمير بالسياسة واختصاص القضاة بالأحكام»[٧٣].

إن الأحكام التي أصدرها ﷺ بوصفه إمامًا تعد أحكامًا شرعية نافذة في الناس الذين شملهم حكمه وعاشوا تحت سلطته، كالأحكام التي ترتبت على إبرامه معاهدات مع أمم أخرى، أو تصرفاته في أموال العطايا وتوزيعها... إلى غير ذلك. فليس على عامة المسلمين بعده أن يفعلوا مثل فعله، ولا على الأئمة من بعده أن يلتزموا مثل ما فعله حرفيًا، ولا أن يتقيدوا في ذلك بشيء سوى ما تقتضيه المصلحة العامة للمسلمين، على ألا يخرجوا عن الحدود المرسومة للصلاحيات التي خولهم الشارع التحرك في دائرتها. فإن رأى إمام أو رئيس دولة المصلحة في الاتباع بحرفية تلك الأحكام أو بعضها التزم بها، وإن رأى المصلحة تقتضي الأخذ بوجوه أخرى ضمن الحدود العامة المرسومة تبليغًا، كان عليه أن يتبع مقتضى المصلحة[٧٤]. ومثال ذلك: المعاهدة التي أبرمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ويهود خيبر، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ونصر الله المسلمين، فقضى النبي ﷺ، استجابة لطلب اليهود، بأن يبقيهم في الأرض على أن تكون ملكا للمسلمين، ثم أقرهم أبوبكر رضي الله عنه عليها، ثم لما جاء عمر رضي الله عنه، اقتضت المصلحة أن يخرجهم منها ففعل[٧٥].

البند الثاني: آثار التفريق بين تصرفاته ﷺ.

ومغزى التفريق بين تصرفاته ﷺ بحسب اختلاف أوصافه، أن آثارها في الشريعة مختلفة، فكل ما قاله أو فعله على سبيل التبليغ يكون حكمًا عامًا ثابتًا إلـى يوم القيامة، يخاطب به كل حي ويأتيه بإرادته إن كان مطلوبًا أو مباحًا، ويجتنبه

إن كان منهيا عنه.. أما ما تصرف به عليه الصلاة والسلام بوصف الإمامة لا التبليغ، فلا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الإمام، وأما تصرفه بوصف القضاء، فلا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم حاكم، لأن سبب تصرفه بوصف الإمامة ووصف القضاء يقتضي ذلك[٧٦]. والمعنى، أن ما فعله النبي ﷺ بطريق الإمامة أو القضاء لا يجوز لأحد الإقدام عليه بدعوى أن الرسول ﷺ قاله أو فعله، إلا بإذن الإمام أي بتصريح من الدولة، أو بحكم قضائي بحسب طبيعة التصرف[٧٧].

ثم إن العلماء قد يتفقون على كون بعض تصرفاته بالفتوى، أو بالإمامة أو بالقضاء، ويختلفون في تنزيل بعض التصرفات على واحد منهما، فيترتب على ذلك اختلاف في حكم هذا التصرف أو ذاك بحسب تكييف المجتهد للموقف. وينضبط كل ذلك بتحديد الفقيه لموقفه من قضية أعم، وهي: هل الغالب في تصرفاته ﷺ الفتوى، أم الإمامة؟ قال السبكي: «... فإذا قال ﷺ قولاً أو فعلاً، ظهر من أي التصرفين هو، فلا إشكال، وإن لم يظهر فالأغلب عند علمائنا يحمل[٧٨] على التصرف بالفتيا، وعند الحنفية بالعكس...»[٧٩]. ومن الأمثلة التي تضرب في ذلك: إحياء الموات؛ أجراه الشافعية على الفتوى، وأجراه الحنفية على الإمامة، فيجتهد الإمام فيما يراه الأصلح عندهم. ومنها سلب القتيل في قوله ﷺ «من قتل قتيلا فله سلبه» أجراه الشافعي على الفتوى فيكون حكمًا شرعيًا ملزمًا، ويترتب عليه أن يكون السلب للقاتل مطلقا، وأجراه أبو حنيفة على الإمامة فلا يكون السلب للقاتل إلا إذا اشترطه له الإمام في الغزوة[٨٠].

ومن الفوائد التي تؤخذ من تقسيم تصرفات النبي ﷺ أيضًا، أن تصرفاته بالإمامة والقضاء تتضمن الخطوط العريضة لمنظومة الأحكام الخاضعة للسياسة الشرعية والمبادئ العامة التي تهيمن عليها. وهي ما يعتبرها البوطي توقيفًا من النبي ﷺ وتبليغًا منه للأمة، وكذلك القواعد العامة التي تحكم القضاء مما يتعلق بقيمة البينات والقرائن وأصول الحجاج[٨١]. ولكنَّ هذه في نظرنا ليست أحكاما تفصيلية، وهي تؤخذ من تصرفات النبي ﷺ بالقصد الثاني.

فظهر بالبيان السابق أن طبيعة تصرفات النبي ﷺ في حياته ليست على نسق واحد من حيث الاستدلال بها، والسبب أن منها ما سبيله التشريع ووضع الأحكام للأمة من أجل امتثالها على مر الزمان، ومنها ما هو معالجة لأوضاع ظرفية وتجاوب مع معطيات الواقع الذي عاشه النبي ﷺ مع المسلمين. هذا مع أن العلماء متفقون على أن النبي ﷺ يمكن له الاجتهاد في كلا الضربين من التصرف، غير أن اجتهاده في الأحكام وأمور التشريع ملزم للأمة على خلاف اجتهاده في المصالح بوصفه إماما.

المطلب الثاني: ارتباط الولاية بالاجتهاد.

انتهينا سابقا إلى أن السياسة الشرعية بمعناها الخاص هي مُكنة للتعامل مع الوقائع الاجتماعية والقانونية والقضائية والاقتصادية والسياسية... بحيث يكون لولي الأمر صلاحية القيام بما يجب من إحقاق الحق، وإحلال العدل والسلم الاجتماعي ودفع الجور والظلم والفساد، وأنها بالمعنى العام ممارسة وظيفة الولاية في أوسع مجالاتها ونطاقها، إذ تعني تدبير أمور الناس وشؤون دنياهم بشرائع الدين؛ وكلا المعنيين يجعلان من السياسة الشرعية وسيلة لمواجهة المشكلات المتجددة وغير المحصورة للمجتمع المسلم، بما في يد ولي الأمر من نصوص شرعية، وما خولته الشريعة

من ولاية وقدرة على التصرف بما يستتبعه من تفكير وتدبير واجتهاد في تحصيل الخير للمجتمع المسلم ودفع الشرور عنه، والأخذ بيده نحو الفلاح في الدنيا والآخرة. ومن هنا كان الاجتهاد لصيقًا بصاحب الولاية حتى قال بعض العلماء: «والولاية اجتهاد»[٨٢].

ولا يعني ذلك ما يراه بعض الباحثين أن السياسة الشرعية أداة للاستدلال المصلحي على الأحكام، يستعملها أولو الأمر في صنع القرارات التي تحقق المصلحة العامة في النوازل، أو تدفع الضرر العام بالاستناد إلى الأصول والقواعد الكلية في الشريعة[٨٣]، إذ لا يمكن اعتبار السياسة الشرعية أداة استدلالية، لأنها لا تتضمن منهجًا ولا طريقة لمعرفة الأحكام على غرار المصلحة المرسلة والاستحسان وغيرها من الأدلة التي اعتمدها الفقهاء في الاجتهاد. فعندما استعملها من استعملها بالمعنى الخاص، إنما عنى بها توسيع سلطة ولي الأمر في تقدير العقوبات زيادة على الحدود المشروعة، سواء فيما لم ينص على عقوبته، أو نص على ذلك لكن العقوبة أصبحت غير رادعة لأهل الفساد في ظرف ما..[٨٤]، أو لاعتماد طرق في الإثبات لم ترد بها النصوص الشرعية..[٨٥]

وإنما برز النقاش عند الفقهاء حول السياسة ومدى شرعيتها، لما توسع الولاة والأمراء في سلطتهم، ونالوا من أبشار الناس وأموالهم من غير سبب شرعي ولا دليل يدل عليه. أما أصل تصرف الولاة بالسياسة فهو أمر مسلم عندهم، لأن السياسة هي مهمة ولي الأمر أساسًا، وتعتمد فيما تعتمد على تجارب الأولين، والتأمل في النتائج التي ترتبت عنها، مما يكسب ولي الأمر حكمة في النظر وتقديرًا صحيحًا للأمور[٨٦]. وهذا هو موضوع علم السياسة عندهم.

وعلى رأس الحكم والمقاصد التي شرعت الولاية من أجلها، تحقيق السلم الاجتماعي من خلال فض النزاع ومنع التشاجر والفوضى داخل المجتمع، وتقوم ولاية القضاء بمعالجة ما يحدث من ذلك بين الأفراد في المجتمع من خلال النظر في القضايا الحاصلة والمعروضة عليها، بينما لا يتوقف دور الولاية العامة (التنفيذية) عند ذلك، فإن دورها يتسع ليشمل اتخاذ الوسائل اللازمة لمنع حصول مثل هذه النزاعات ووقوع الظلم والحيف على الناس، وهذا مما يخولها التدخل بمعالجة الأمور وضبطها لمنع التظالم بين الناس، ودرء تعسف أصحاب الولايات والوظائف والأعمال التي يحتاجها الناس... ومن هنا اختلفت الإمارة عن القضاء وكانت أوسع منه اجتهادا[٨٧].

والعلماء متفقون على أن الإمام أحق بالتصرف في شؤون الإمامة، وأن على الأمة بعد أن تسند له السلطة اختيارًا منها، أن توكل تصريف الأمور إليه من غير افتيات عليه ولا معارضة له[٨٨]؛ ذلك أن أوجه المصالح التي ينظر فيها الإمام متقاربة في نظر الشارع ولا سبيل إلى الترجيح، إلا إذا كان الأمر مفوضًا إلى جهة واحدة تأخذ بزمام الأمور وتمضي المصالح من غير تردد ولا تضارب.. وهو مقتضى حديث معاذ إذ بعثه النبي ﷺ إلى اليمن واليا عليها، فقد أقره على الاجتهاد عندما لا يجد لما يعرض له من الحوادث حكما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال: «أجتهد رأيي ولا آلو»[٨٩].

ثم إن الاجتهاد يطلق ويراد به المعنى الأعم وهو: بذل الوسع في معرفة الأحكام بالنص الخفي، ومعنى أخص وهو: ما يعرف به الحكم من غير رجوع إلى نص أو أصل معين كقيم المتلفات[٩٠]. ولابد للسياسة من أمارة يحصل بها الظن، وقد

مقالات

يسمى دليلاً توسعًا، وإنما سمي الاجتهاد فيها سياسة؛ لأن إجراء أحكامها موكول إلى نظر ذي الولاية، فيجب طاعته مهما اقترنت بطاعة الله سبحانه وتعالى وظهرت المصلحة التي لا يعارضها مفسدة أعظم منها حال إصدارها[٩١].

هذا وإن معنى اجتهاد ولي الأمر يتعدى مجرد معرفة الأحكام الشرعية وتنفيذها ليصل إلى معنى أكثر إيجابية في التدبير والتخطيط، وكل ذلك من قبيل الاجتهاد في معناه الواسع. وقد كان الإمام مالك يحيل على رأي الإمام في كثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية العامة التي لم يرد فيها حكم عن النبي ﷺ ولا نزل بشأنها حكم في القرآن الكريم. ومن الأمثلة على ذلك: ما ورد في الموطأ أن التنفيل في الغنيمة موكول إلى اجتهاد الإمام[٩٢]، وأن نصيب العامل يحدده الإمام..[٩٣]

بل إن ذلك شأن كل صاحب ولاية، فقد نص الفقهاء على وجوب تفويض الأمر إليه وعدم منازعته فيه حتى لا تختلف آراؤهم مستدلين بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[٩٤]. قال الماوردي: «فجعل تفويض الأمر إلى وليه سببًا لحصول العلم وسداد الأمر..»[٩٥]

وقال الجويني في تخيير الإمام: «فإن الخيرة من أحكام الشريعة»[٩٦]، وفي أن اجتهاد الإمام مقدم على اجتهاد غيره قال: «..فإن الاجتهادات بجملتها لا وقع لها بالإضافة إلى الإمام، وهو يستتبع المجتهدين أجمعين ولا يتبع أحدا»[٩٧]. وفي إلزام القاضي المحكوم عليه باجتهاده حتى لو كان هذا المحكوم عليه مجتهدا قال: «.. فإن استتبع مجتهدًا فالسبب فيه أنه وإن ساواه في الاجتهاد، فقد أربى عليه بالولاية، وهي تقتضي الاستيلاء والاستعلاء والاحتواء على تفنن الآراء.»[٩٨]. فالولاية العامة في نظره تقتضي أن يأخذ صاحب الولاية برأيه من كان تحت ولايته. وقال القاضي عبد الجبار: «وقد ثبت أن للحاكم (أي القاضي) أن يلزم غيره الحقوق باجتهاده، وإن كان ذلك الغير في العلم والعقل بمنزلته، سواء وافق اجتهادنا أو خالفه»[٩٩]، كما نص الباقلاني على عدم صحة اشتراط مذهب معين على الخليفة عند مبايعته[١٠٠].

وجاء في الصواعق المحرقة، في نقد الثوار وظلمهم للخليفة عثمان رضي الله عنه «..أن المجتهد لا يعترض عليه في أموره الاجتهادية، لكن أولئك الملاعين لا فهم لهم ولا عقل»[١٠١].

فالولاية من حيث كونها ولاية تقتضي أن لصاحبها سلطة تقديرية، ومن مظاهر هذه السلطة التقديرية، النظر في المصالح مما لا يتعلق بحكم شرعي، ومنها، الحيز الذي يتركه النص للملاءمة بين تطبيق النص وبين الواقع[١٠٢]. فوالي الصدقات مثلاً، إذا كان من عمال التفويض، أي صاحب ولاية، يأخذها فيما اختلف فيه الفقهاء على رأيه واجتهاده لا على اجتهاد الإمام، ولا على اجتهاد أرباب الأموال. ولا يجوز للإمام أن ينص له على قدر ما يأخذه، إلا إذا كان من عمال التنفيذ[١٠٣]، وعمال التنفيذ ليسوا ولاة على الحقيقة.

ومن هنا يتبين لنا أن الولاية ترتبط، بطبيعتها، بالاجتهاد وسلطة التقدير، وأن هذا هو الأصل فيها. وإنما يطلق على باقي المناصب التي لا تتضمن الاجتهاد ولاية تجوزًا، من باب أن لها سلطة التنفيذ، أما أن تكون ولاية تامة فلا. ثم إن للاجتهاد ضروبًا تختلف بحسب الأمر المجتهد فيه والثمرة المبتغاة منه؛ فقد تكون الغاية منه التوصل إلى الحكم الشرعي، وقد تكون غايته

معرفة أصلح الأمور وأوفقها للمجتهد له، وهذا ما نتبينه حالاً.

الفرع الثالث: طبيعة اجتهاد الولاية .

بعد أنْ تبين أنَّ لصاحب الولاية الحق في الاجتهاد سواء أفي تعيين المصالح، أم في إدراك الحكم الشرعي وتنزيله، نفصل ما ألمحنا إليه من أن الاجتهاد الذي يوكل لصاحب الولاية عند معالجته للأمور العامة المتعلقة بشؤون الحكم على نوعين: اجتهاد في الحكم الشرعي، ويشترك فيه كل من بلغ درجة من العلم تؤهله للاجتهاد، فهو ليس حكرًا على الولاية. والنوع الثاني: اجتهاد في تبيُّن وجه المصلحة، وهو لا يحتاج إلى التمكن من أداوت النوع الأول من الاجتهاد، وإنما يتطلب من القائم به الحكمة والتبصر والقدرة على معرفة خفايا الأمور وتقدير عواقبها... وله صلة بشرط من شروط الولاية أطلق عليه العلماء لفظ (الكفاية). كما نتعرض لتصحيح بعض المفاهيم التي تخلط بين النوع الثاني من الاجتهاد وبين المصلحة المرسلة التي تتعلق بالنوع الأول منه.

البند الأول: الاجتهاد نوعان .

تبيّن آنفًا أن السياسة في الأصل عند علماء الإسلام هي استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة، فهي ليست قاصرة على ولاة الأمور بل تشمل الأنبياء والعلماء أيضا.. فالإسلام قد فوض هذا الإصلاح للعلماء وأولي الأمر كل حسب طبيعة ما وكل إليه. «وإذا كان الإسلام غايته إصلاح حال الناس، وإقامة العدل فيهم وخطته وطريقته اليسر بهم ورفع الحرج عنهم فهو بلا ريب كفيل بكل سياسة عادلة، ويجد كل مصلح في أصوله وكلياته متسعًا لكل ما يريد من إصلاح، ولا يقصر عن شأن من شؤون الدولة»[١٠٤].

وهناك من يرى أن مجال الاجتهاد لا يعدو أحد قسمين: قسم يتضمن أمورًا متعلقة بالأحكام الشرعية المختلفة، مما لم ينص الكتاب والسنة عليه، لارتباطها بمصالح غير ثابتة مع الزمن، فترك المجال فيه للاجتهاد في الحكم الشرعي بما له من شروط وضوابط معروفة كما يدل على ذلك حديث معاذ بن جبل. وقسم هو أمور دنيوية محضة لا تعلق لها بشيء من الأحكام الشرعية كشؤون الصناعة والفلاحة والزراعة من حيث كونها قائمة على التجارب والخبرات الطبيعية، وأمره موكول إلى عقول الناس وخبراتهم كما يدل عليه حديث «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»[١٠٥]. على أن تكون هذه التجارب لم يتعرض لها التشريع سلبًا ولا إيجابًا، لتكون مفتوحة للاجتهاد، مع أنه قد تبنى عليها الأحكام الشرعية التي ربطها الشارع بالظروف والمصالح القائمة على تلك الخبرات[١٠٦].

وهو رأي يظهر فيه نوع من التناقض، من ناحية أنه يصف تلك الخبرات بأنها لا تعلق لها بالأحكام الشرعية، ثم يستدرك بأنه قد تبنى عليها الأحكام الشرعية التي ربطها الشارع بالمصالح القائمة على تلك الخبرات. والصحيح أن هذا النوع من الاجتهاد لا يطلب فيه صاحبه معرفة خطاب الشارع الذي يطلب بالنوع الأول من الاجتهاد، وإنما يطلب به تعيين المصالح بعد أن عرف أن الشارع قد ناط حكمه بها. على أن هذه التجارب لا تقتصر على المعارف المادية من زراعة وصناعة... وإنما تتعداها إلى كل ما يحصله الإنسان من علم وخبرة في المجال الإنساني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي...

ومسؤولية ولي الأمر في هذا النوع الثاني من الاجتهاد لا تقف عند مجرد الإباحة حتى يصدق عليه حديث «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»، لأنه

مخاطب على سبيل الوجوب بتتبع المصالح بكافة أنواعها والأخذ بأوفرها وأرجحها. ومن هنا كان الاجتهاد الذي يضطلع به ولي الأمر في ممارسته لسياسة أمور الأمة نوعان: اجتهاد في معرفة الحكم الشرعي، واجتهاد في تدبير المصالح.

أولا: الاجتهاد في الحكم الشرعي .

يخطئ من يظن أن الاجتهاد في الحكم الشرعي قاصر على فهم النصوص الشرعية من الكتاب والسنة؛ حقيقةً، إن هذه هي الأصول التي يرجع إليها المجتهد أولاً في اجتهاده، إلا أن ثمة طرقًا كثيرة أخرى يلجأ إليها إذا ما عازه نص منهما، يجملها الشوكاني بقوله: «واجتهاد الرأي كما يكون باستخراج الدليل من الكتاب والسنة، ويكون بالتمسك بالبراءة الأصلية أو بأصالة الإباحة في الأشياء أو الحظر على اختلاف الأقوال في ذلك أو التمسك بالمصالح أو التمسك بالاحتياط»[١٠٧]، أي أن الوقائع التي لم يرد بشأنها نص وليس لها نظير تقاس عليه، يبحث الفقيه عن حكمها في غير ذلك من الأدلة ليتوصل إلى الحكم الشرعي، بناء على الأدلة أو أساليب الاجتهاد الأخرى التي نجدها في كتب الأصوليين، وقد عدوا منها ما يقارب العشرين دليلاً، على ما بينهم حول بعضها من أخذ ورد، ولكن كل فقيه يأخذ بما يطمئن إليه قلبه وما ينتهي إليه نظره من هذه الطرق. ولا مأخذ على أحد من العلماء في ذلك، حيث يمكن لولي الأمر أن يستند إلى اجتهاد أي منهم في هذه الأحكام مادام اجتهاده معتبرًا. وهذا النوع من الاجتهاد ليس من السياسة الشرعية بمعناها الخاص في شيء.

ثانيا: اجتهاد التدبير .

التدبير هو السعي إلى عمل مأذون بصورة غير صورته أو بإيجاد وسائله، فهو إيجاد الأسباب وتهيئة الظروف لإجراء الأمور على وفق العواقب، فكلما كان تقدير عواقب الأمور أقرب إلى الحقيقة، كان الساعي إليها أقرب إلى بلوغ غايته منها. والتدبير في يد الولاية العامة هو النظر في المصالح والمفاسد العامة التي تقع أو يحتمل وقوعها... والعمل على جلب ما أمكن من المصالح التي تتعلق بالأمة، ودفع المفاسد عنها وتهيئة البيئة التي توفر لها الحياة الكريمة وتمكنها من أداء رسالتها في خلافة الله في الأرض وتبليغ دعوة النبي ﷺ لكافة البشر.

والاجتهاد في التدبير لا يحتاج إلى الأدوات التي يستعملها المجتهدون في الأحكام الشرعية، وإنما يحتاج إلى نوع آخر من المقدرة التي تخول صاحبها استباق الأحداث وتقدير آثارها قبل أن تقع ومعالجتها بحكمة عندما تقع... فهو ملكة وكفاية تخول صاحبها الأخذ بزمام الأمور والمبادرة إلى تحصيل المصالح إذا لاحت ملامحها في الأفق. وهو توظيف الإمكانات والمقدرات البشرية والاقتصادية والعلاقات السياسة... في صالح المجتمع من أجل تنميته وتحسين أوضاعه، وفي صالح الدولة التي تحكمه من أجل تقويتها وتعزيز مكانتها.

لأجل ذلك، يفرق العلماء بين اجتهاد الأحكام واجتهاد التدبير بأن الأول لا يجوز نقضه بحال، طبقا للقاعدة المعروفة عند الفقهاء والأصوليين: «الاجتهاد لا ينقض باجتهاد مثله» والثاني يجوز نقضه إذا اقتضت المصلحة ذلك[١٠٨]. فـ «إذا رأى الإمام شيئا ثم مات أو عزل، فللثاني تغييره حيث كان من الأمور العامة... (لأن) هذا حكم يدور مع المصلحة، فإذا رآها الثاني وجب اتباعها»[١٠٩].

فإذا تبين الفرق بين نوعي الاجتهاد اللذين تمارسهما الولاية العامة، وكان اجتهاد التدبير يعتمد على المصلحة، واجتهاد الأحكام الشرعية

يعتمد المصلحة المرسلة ضمن أدلته، أمكن أن يحدث بعض اللبس والتداخل بين المصلحتين. فلابد من رفع اللبس من خلال التعريف بالمصلحة المرسلة والصلة التي تربطها بالسياسة الشرعية.

البند الثاني: المصلحة المرسلة .

وصف المصلحة بأنها مرسلة معناه إطلاقها من أي قيد يربطها بحكم شرعي، أو يحدد لها قدرًا معينًا أو توقيتًا محددًا. إلا أن هذا المصطلح قد أخذ مفهومًا متداولاً عند الأصوليين في باب القياس، وهو المصلحة التي لم يرد من الشرع ما يشهد لها بالاعتبار أو الإلغاء. وهذا ما يمكن أن يحدث اللبس بينها وبين المصلحة المطلقة التي وكل أمر تدبيرها إلى المكلف عموما وإلى ولي الأمر بشأن الأمة خصوصًا.

والمصلحة المرسلة كما عرفت عند الأصوليين هي: «كل مصلحة تكون من جنس المصالح التي يقررها الشارع الإسلامي بأن يكون فيها محافظة على النفس أو الدين أو النسل أو العقل أو المال، ولكن لم يشهد لها أصل خاص حتى تصلح قياسًا، فإنها يؤخذ بها على أنها دليل قائم بذاته»[١١٠]. أو «هي كل منفعة داخلة في مقاصد الشارع دون أن يكون لها شاهد بالاعتبار أو الإلغاء»[١١١]. فخرج بهذا التعريف: كل ما يظن منفعة مما لا يدخل في المقاصد الكلية، فيستثنى المرسل الغريب الذي يهمل باتفاق. وخرج كل ما كان منصوصًا عليه أو مجمعا على حكمه أو كان للإمام أن يتصرف فيه بموجب حق الإمامة. وكل مصلحة عارضها نص أو قياس صحيح لأن المعارضة تبطل الإرسال. وخرج كل مسألة هي مناط مصلحتين معتبرتين متعارضتين لتدخل في باب التعارض والترجيح كمسألة الترس التي ذكرها الإمام الغزالي[١١٢].

هذا المعنى للمصلحة المرسلة هو ما انتهى إليه عدد من العلماء كالقرافي والشاطبي من المالكية[١١٣] وإلكيا الهراسي من الشافعية[١١٤] و... وغيرهم[١١٥]. ولذلك قرروا بأن المصالح المرسلة بهذا المعنى قال بها جل العلماء من أصحاب المذاهب وغيرهم، منهم من صرح بها ومنهم من أدخلها في عموم القياس...[١١٦].

وهو ما انتهى إليه المحققون من المعاصرين أيضا، حيث ذهبوا إلى أن المصلحة المرسلة ليست خاصة بالمذهب المالكي، ولكن أخذت بها كل المذاهب وإن لم يصرحوا بذلك، كما أخذ بها الصحابة الكرام[١١٧]. وإنما حصل اللبس عند الأصوليين في تقرير مذاهب الأئمة فيها: من حيث تحديد مضمونها؛ إذ منهم من يعتبر المصلحة المرسلة هي المناسب التحسيني المعارض لقواعد الشرع[١١٨]، وليس هذا هو المفهوم المتداول للمصلحة المرسلة، ومن حيث عدم تحرير محل النزاع؛ فمن نظر إليها كدليل مستقل إضافة إلى الأصول الأربعة: الكتاب والسنة والقياس والإجماع قرر فيها خلافًا بين الأئمة، ومن نظر إليها من حيث مطلق الاعتبار في الاستدلال قال بالاتفاق على اعتبارها[١١٩].

وقد ناط الشاطبي وغيره من العلماء محل حجية المصلحة المرسلة بما سكت عنه في الشريعة ولم تكن مظنة العمل به في وقت النبي ﷺ ثم وجدت بعده، فيشرع له أمر زائد يلائم تصرفات الشرع في مثله. وهي من أصول الشريعة.. إلا أنها لا تدخل في العبادات، وإنما هي راجعة إلى حفظ أصل الملة وحياطة أهلها في تصرفاتهم العادية، مستدلاً على ذلك بأن مالكًا رغم استرساله في القول بالمصالح المرسلة كان متشددًا في العبادات ألا تكون إلا على ما كانت عليه في الأولين[١٢٠].

أثر السياسة الشرعية في وظيفة الولاية العامة

وقد يفند ما ذهب إليه الشاطبي من اقتصار مالك على المصالح العادية دون العبادات، أن له بعض الاجتهادات في العبادات بموجب المصلحة المرسلة، ومثال ذلك: ما ذهب إليه في زكاة التاجر المدير الذي لا تنضبط له أوقات شراء عروضه، فقد أفتى بأنه إذا حال عليه الحول من يوم ابتداء تجارته، أن يقوّم ما بيده من العروض ثم يضم إلى ذلك ما بيده من العين، وما له من الدين الذي يرتجى قبضه، إن لم يكن عليه دين مثله... فإذا بلغ ما اجتمع عنده من ذلك نصابًا أدى زكاته. وقد ذكر ابن رشد مذهب مالك المخالف لمذهب الجمهور[١٢١]، وقال إنه شبه النوع هنا بالعين لئلا تسقط الزكاة رأسا عن المدير. ثم علق على هذا الاجتهاد بقوله: «وهذا هو أن يكون شرعًا زائدًا أشبه منه بأن يكون شرعا مستنبطًا من شرع ثابت، ومثل هذا هو الذي يعرفونه بالقياس المرسل، وهو الذي لم يستند إلى أصل منصوص عليه في الشرع، إلا ما يعقل من المصلحة الشرعية فيه. ومالك رحمه الله يعتبر المصالح وإن لم تستند إلى أصول منصوص عليها»[١٢٢].

ويلاحظ أن كلًّا من الشاطبي وابن رشد يستعملان عبارة (شرع زائد) في تكييف الاجتهاد بالمصلحة المرسلة، وذلك هو التكييف الحقيقي لها لأن المجتهد يقرر حكمًا شرعيًا بناء على ما ظهر له من المصلحة الشرعية، فيكون الحكم الذي وصل إليه الفقيه بهذا الطريق ملزمًا له ولمن يتبعه من المقلدين باقتضاء الشرع لا بأمر صاحب الولاية، وهذا ما يوضح بشكل جلي أن المصلحة المرسلة ليست المصلحة التي يوكلها الشرع إلى صاحب الولاية ويخوله أن يلزم الناس فيها بأمره. وبيان ذلك يكمن في الحقائق الآتية:

إن المصلحة المرسلة علامة يستند إليها الفقيه لتقرير حكم شرعي دائم وثابت لا يخضع للتغيير إلا إذا تغير اجتهاده، بحيث يربط بها الحكم الشرعي بوصف ظاهر معين كما ذهب الإمام مالك في زكاة التاجر المدير الذي لا تنضبط له أوقات شراء عروضه.

والمصالح المرسلة ترجع إلى مصالح كلية مستقرأة من عموم أحكام الشريعة، ولكنها في إثبات حكم شرعي جزئي ليست ذات دلالة قاطعة، فليس بالضرورة ما ثبت بشكل كلي يثبت في الجزئي. ولذلك كان القياس أقوى من المصالح المرسلة، لأنه جزئي يلحق بجزئي في معناه، فاتفقوا على القياس، واختلفوا في المصلحة المرسلة[١٢٣].

إنكار بعض العلماء للمصلحة المرسلة والاستحسان هو في إثبات شرع زائد يكون فيه خرق لأحكام ومحرمات ثابتة في الشريعة، مما يعد الأخذ به تشريعا لا ينبغي إلا لمن له حق التشريع[١٢٤]. وربما كان سبب الإنكار أيضًا عدم إرجاع المصلحة إلى أصول الشريعة، واعتبارها بمطلق النظر العقلي كما أشار إليه الجويني[١٢٥]. ويؤيد هذا المعنى تصنيف ابن النجار المصلحة المرسلة في الضرب المخالف للقواعد من المناسب. كما يؤيد ذلك أيضًا الأمثلة التي يضربونها عند الحديث عن المصالح المرسلة، كتعذيب المتهم من أجل الإقرار، وقتل ثلث الأمة لاستبقاء ثلثيها، وجدع الأنف واصطلام الشفة (أي قطعها)... وهو ما أنكر العلماء نسبته إلى الإمام مالك، وقال ابن برهان: هو أجل من أن ينسب إليه مثل ذلك[١٢٦].

حاول بعض العلماء وضع ضوابط للأخذ بالمصلحة المرسلة حتى تكون محل اتفاق، فعلق الجويني صحة الاستدلال بها على ضوابط تلتقي مع ضوابط المعنى في القياس في أنها تخضع للمعارضة والنقض، وشرّط ثبوتها عدم مناقضتها

لأصول الأدلة[١٢٧]. بينما وضع الشاطبي ضوابط أكثر وضوحًا للأخذ بها، وهي ثلاثة: أن تكون المناسبة فيها معقولة غير أنها جارية على دون المناسبات التي إذا عرضت على العقول تلقتها بالقبول، فهي أقل من القياس من حيث ظهورها للمجتهد من جهة، وليست من التعبدات التي لا مدخل فيها للقياس من جهة أخرى. وأن تكون ملاءمة لمقاصد الشارع، فلا تناقض أصلاً من أصوله ولا دليلاً من أدلته[١٢٨]. وأخيرًا: أن يكون حاصل الأخذ بها يرجع إلى حفظ أمر ضروري من باب «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، فهي من الوسائل لا من المقاصد، ولا يلزم أن يكون ما ثبت بها من وسائل على كيفية معينة، بل يصح منها كل ما يؤدي إلى مقصد الشارع، أو يرجع إلى رفع حرج لازم، فهو إما متمم للضروري أو أنه حاجي، ويكون في هذه الحالة من باب التخفيف المؤدي إلى رفع الحرج، فلا يثبت بها ما يؤدي إلى زيادة في التكليف. ومثاله رأي الإمام مالك في المولي إذا أبى الفيء أو الطلاق، حيث اختلف الفقهاء، هل يطلق عليه القاضي أو يحبس حتى يطلق؟ فقال يطلق القاضي عليه. قال ابن رشد: «وسبب الخلاف معارضة الأصل المعروف في الطلاق للمصلحة، فمن راعى الأصل المعروف في الطلاق قال لا يقع طلاق إلا من الزوج، ومن راعى الضرر الداخل من ذلك على النساء قال يطلق السلطان، وهو نظر إلى المصلحة العامة، وهذا هو الذي يعرف بـ «القياس المرسل» والمنقول عن مالك العمل به، وكثير من الفقهاء يأبى ذلك»[١٢٩].

البند الثالث: صلة المصلحة المرسلة بالسياسة الشرعية.

مهما كان مدى الاتفاق أو الاختلاف الدائر بين العلماء على حجية المصلحة المرسلة، فإنها تتعلق بدقيقة من الدقائق العلمية التي لا يتناولها بالدرس إلا العلماء الراسخون في العلم من المجتهدين، وقد يحتاجها أولو الأمر في بعض القضايا التشريعية، إلا أنها لا يمكن أن تبلغ ما أولاها كثير من الباحثين من الأهمية التي تصل إلى درجة القول بأن العمل السياسي يعتمد على المصلحة المرسلة، وأن كل ما يفعله الإمام، بل أغلب قضايا العمل السياسي والأهداف السياسية التي تواجه النظام السياسي تدخل في المصالح المرسلة من حيث الاستدلال بها والاستناد إليها في عملية صنع القرارات السياسية المتعلقة بالمصلحة العامة[١٣٠].

فمثل هذا الرأي يفترض أن ولي الأمر ممنوع من التصرف إلى أن يجد له مخرجًا عن طريق المصلحة المرسلة، وهذا إن كان مقبولاً في المعنى الضيق للسياسة الشرعية الذي يقصد به المبالغة في التعزير أو تغليظ العقوبة، بسبب معارضتها لأصل حرمة النفس، فإنه لا يكون مقبولاً في المعنى العام لها. ذلك أن الإمام مأمور بالسعي لتحصيل المصالح التي ينوب عن الأمة في القيام بها، وهي في مجملها مصالح مطلوبة في الشرع أو مباحة على أقل تقدير.

فربما كان اختلاف العلماء في المصلحة المرسلة قد ألقى بظلاله على الموقف من السياسة الشرعية؛ لأن النقاش الواقع في هذه القضية يتعلق بمدى ما يفتح أمام الولاية العامة من سلطان على الحقوق الخاصة للأفراد أو ما يسمى الآن بالحقوق والحريات، وهي مصالح ضرورية في نظر الشارع. فالمساس بهذه الحقوق والكليات لا ينبغي إلا بدليل من الشرع لقول النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق**

الإسلام، وحسابهم على الله»[١٣١]، وحقها هو ما ألزم به الشارع واقتضاه.

لذلك رأينا الجويني يشنع على المسترسل في المصلحة المرسلة بإقامة عقوبة أو مصادرة مال من غير دليل من الشرع، وبالجملة؛ الإخلال بالكليات الخمس التي هي في مرتبة الضرورة، فلا يجوز لولي الأمر ولا لغيره المساس بها من غير دليل يدل على جواز ذلك. وقال ردًّا على ما افترضه رأيًا للإمام مالك: «.. لو صح التمسك بكل رأي من غير قرب ومداناة، لكان العاقل ذو الرأي، العالم بوجوه الإيالات، إذا راجع المفتين في حادثة فأعلموه أنها ليست منصوصة في كتاب ولا سنة، ولا أصل لها يضاهيها، لساغ له والحالة هذه أن يعمل العاقل بالأصوب عنده والأليق بطرق الاستصلاح. وهذا مركب صعب لا يجترئ عليه متدين، ومساقه رد الأمر إلى عقول العقلاء، وأحكام الحكماء، ونحن على قطع نعلم أن الأمر بخلاف ذلك»[١٣٢]. فلابد إذن من الاجتهاد في الحكم الشرعي من أهله لأن المسألة تشريعية وليست سياسية[١٣٣].

وقد استدل القرافي على جواز السياسة الشرعية بمعنى التوسعة على الحكام بعدة أدلة، منها المصلحة المرسلة. فهذه الأدلة أو الوسائل الاجتهادية هي أدوات في يد المجتهد لتلمس الحكم الشرعي من مظانه، وليس عملاً سياسيًا ردعيًا كما يعتقد بعض الناس خطأً. وقد يلجأ ولي الأمر إلى المصلحة المرسلة إذا كان مجتهدًا لمعرفة الحكم الشرعي، أو يكل الأمر إلى من يفعل ذلك من المجتهدين، إلا أنه لا يعتمد عليها اعتمادًا تامًّا، بل هي لا تمثل في مجاله سوى طريق من طرق معرفة الأحكام الشرعية.

نخلص من كل ما سبق إلى أن للسياسة الشرعية معنيين: أما بالمعنى العام، فهي تدبير أمور الدولة بما يتوافق مع أحكام الشريعة ومقاصدها. ويمكن إطلاق «فقه السياسة الشرعية» على ما ترتب على ذلك من أحكام لتمثل في مجموعها القوانين التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وتضبط تصرفات أولي الأمر تجاه حقوق الناس. ولقد أصبحت تمثل في عصرنا تجسيدا لأسلوب الحياة العامة التي ينبغي أن يلتزم بها المجتمع الإسلامي ويتميز بها عن غيره من المجتمعات. وهذا مغزى وصفها بالشرعية، إذ تلتزم الإسلام عقيدة ومنهجًا تشريعًا وغاية، مما يعطي للسياسة الشرعية أبعادًا أوسع، لتعبر عن منهج الإسلام في الحكم.

أمّا السياسة الشرعية بمعناها الخاص فهي: السلطة التقديرية التي منحها الشارع لولي الأمر خارج إطار الحكم الشرعي الثابت بدليل من الأدلة الشرعية المعروفة عند الفقهاء. وهذا المعنى يمثل حقيقة الاجتهاد الذي لا تنفك عنه الولاية العامة، والذي أطلقنا عليه اسم (اجتهاد التدبير)، وهو يختلف عن الاجتهاد في الحكم الشرعي من حيث طبيعته ومن حيث الوسائل المعتمدة فيه فضلا عن الغرض المتوخى منه. حيث يسعى ولي الأمر من خلاله إلى سياسة الأمة سياسة شرعية من خلال تدبير أمورها بالسعي إلى الاستكثار من المصالح واستفراغ الوسع في دفع المفاسد، وتلك هي وظيفة الولاية العامة.

خلاصة البحث

تبين لنا من خلال هذا البحث أن بيد ولي الأمر نوعين من الاجتهاد؛ اجتهاد في الحكم الشرعي، واجتهاد في تدبير المصالح، وأن المصلحة المرسلة لا تمثل سوى أداة من أدوات الاجتهاد التي يستعملها كما يستعملها غيره في الوصول إلى الحكم الشرعي، وأن المصلحة المنوطة به أوسع من مدلول المصلحة المرسلة، إذ هي قوام تدبير

المصالح التي كلف بالقيام عليها للمحافظة على كيان الأمة ووجودها.

الحواشي

١. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، ١٠٧/٦.

٢. أخرجه الإمام البخاري كتاب الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل. والإمام مسلم من رواية أبي هريرة كتاب الإمارة باب الإمام جنّة..

٣. ينظر: أحمد مبارك البغدادي، دراسات في السياسة الشرعية عند فقهاء أهل السنة، مكتبة الفلاح، الكويت ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، ص٤٠. فالسياسة عند العرب في رأيه ذات بعد أحادي، لذلك اشتق بعض العلماء تفريعات متعددة يمارسها السلطان مثل سياسة العامة وسياسة الخاصة. ومعنى كونها أحادية البعد حسب رأيي، أنها لا تعتمد على تفاعل العلاقات بين القوى الاجتماعية، وإنما تكون من طرف واحد هو السائس.

٤. أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣، ص٥١٠. ونسبه بعض العلماء إلى ابن عقيل، ينظر: محمد بن حسين بيرم المشهور ببيرم الأول (ت١٢١٤هـ)، رسالة في السياسة الشرعية، تحقيق: محمد الصالح العسلي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص١٢١.

٥. أبو البقاء الكفوي، المرجع السابق، ص٥١٠. وقوله: "السياسة البدنية" ربما ليس هو المراد ولعل الصواب: "السياسة المدنية".

٦. جمال الدين أبوبكر، المعروف بابن تبانة المصري (٦٨٦-٧٦٨هـ)، المختار من كتاب تدبير الدول، دراسة وتحقيق: إبراهيم عيد صايل، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ١١/١-١٢. ويرى أن ملاك الأمر في السياسة الترغيب والترهيب، وليس يتهيأ للسائس عمل بمصلحة، ولا إزالة مفسدة، إلا بالترغيب والترهيب. فالسياسة ميزان هما كفتاه، وبتعديل السائس إياهما يستقيم أمرها. ينظر: المرجع نفسه، ٩٨/١-٩٩.

٧. ينظر: أحمد الصنعاني، الغصون المياسة، المرجع السابق، ص٢٧.

٨. ينظر: الأصفهاني، الذريعة، المرجع السابق، ص٣٨٥.

٩. الدهلوي، حجة الله البالغة، المرجع السابق، ٨٥/١.

١٠. الدهلوي، حجة الله البالغة، المرجع السابق، ٨٥/١.

١١. تتطور المدينة في نظر الدهلوي إلى الخلافة التي تجمع بين وحدات كثيرة من المدن؛ لكل واحدة منها رئيس أو ملك، ثم يخضع هؤلاء الرؤساء لرئيس واحد هو الخليفة.

١٢. عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون المسمى: دستور العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م ١٤٠/٢.

١٣. ينظر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المرجع السابق، ٣٠/١. وينظر أيضًا: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، ٦٤/١-٦٥. حيث يذكر أن العلوم التي يكتسب منها الإنسان ملكة لحل المشكلات العارضة بناء على علمه هو نوع من الصنعة حتى لو كان يمارسها بذهنه ولسانه وليس بيده. وهو المسلك الذي سلكه الأصفهاني في تقسيمه لأنواع الصناعات. ينظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، المرجع السابق، ص٣٨٥.

١٤. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧، ٢٢٠/٢. وقد بنى الفعل للمجهول مما يدل على أنه ناقل لاصطلاح متعارف عليه. وينظر أيضًا: زين بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن نجيم، البحر الرائق، دار المعرفة، بيروت، د ت، ٧٦/٥

١٥. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المرجع السابق، ٣٠/١

١٦. ينظر: الجرجاني، التعريفات، المرجع السابق، ص ٦٣. قال: "إجراء الأمور على علم العواقب، وهي لله تعالى حقيقة وللعبد مجازا". وقد سبق تعريف التدبير في الفصل الثاني.

١٧. ينظر: محمد أمين الشهير بابن عابدين، حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الابصار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ١٧٨/٤.

١٨. ينظر على سبيل المثال: ناجي عبد النور، المدخل إلى علم السياسة، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، ٢٠٠٧، ص ١٤-١٧.

١٩. محيي الدين قاسم، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٢٣. من بين الأسباب التي قد تبرر ذلك، حداثة علم السياسة حيث تشكّل أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

٢٠. محيي الدين قاسم، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٢٤.

٢١. ينظر: قاموس روبير مادة: POLITIQUE nf

"Art et pratique du gouvernement des sociétés humaines" petit Robert1, Paris, 1979, p1476.

٢٢. ينظر: قاموس ليتري الفرنسي مادة: POLITIQUE nf

"l' art de gouverner un Etat et de diriger ses relations avec les autres Etats". Le nouveau Littré, editions Garnier, Paris, 2008*

٢٣. ينظر: البغدادي، دراسات في السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص ٤٠-٤١ .

٢٤. حامد ربيع، مقدمة تحقيقه على سلوك المالك في تدبير الممالك، المرجع السابق، ص٧٩. صدرت أول طبعة لهذا الكتاب سنة ١٩٧٩م، إلا أن مضمون ملاحظة المحقق لا تزال تصدق على وضعية البحث في المجال السياسي عندنا، على الرغم من صدور دراسات لاحقة كثيرة، إلا أنها في الغالب لا تزال تركز على الإنتاج الفقهي.

٢٥. محمد عزيز الحبابي، من الحريات إلى التحرر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢، ص٣٥.

٢٦. محيي الدين قاسم، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٢٤.

٢٧. ينظر: تركي الحمد، السياسة بين الحلال والحرام، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٠، ص١٣٥.

٢٨. المرجع نفسه، ص١٣٥.

٢٩. حامد قويسي، الوظيفة العقيدية، المرجع السابق، ص٦١، نقله عن سيف الدين عبد الفتاح، بناء علم سياسة إسلامي، (١٩٨٨).

٣٠. يصور ذلك قول البوطي: "لقد كانت كلمة (سياسة) تعني فيما مضى؛ سلوك سبيل الحكمة والتعقل إلى الهدف المنشود، فكانت مطية ذلولا وسبيلا معبدة إلى بلوغ الغايات السامية. ولما كان إقامة سلطان الدين على المجتمع وفي النفوس أسنى الغايات وأنبلها، فلا غرو أن تكون السياسة هي الخادم الأمين لتحقيق هذه الغاية" البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام، المرجع السابق، ص٣١.

٣١. ناجي عبد النور، المدخل إلى علم السياسة، المرجع السابق، ص١٦.

٣٢. ناجي عبد النور، المدخل إلى علم السياسة، المرجع السابق، ص١٧.

٣٣. ابن تيمية، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٦.

٣٤. يروي المقريزي الأسباب التي أدت إلى انتشار العمل بهذا القانون خاصة في مصر والشام، حيث كان لتنفذ المماليك على زمام الأمور الدور الأكبر في الاحتكام إليه، فقد كانوا مسلمين إلا أنهم كانوا يتحاكمون فيما بينهم إلى هذا القانون ويرجعون إلى الحاجب وهو منصب ظهر أولاً لهذه المهمة، ثم تطاول على القضاة ونافسهم في الفصل بين أصحاب الخصومات مع تغريمهم والاسترزاق من وراء ذلك. ينظر له: المواعظ، المرجع السابق، ٢/٢٢١.

٣٥. سورة النور، الآية ١٥.

٣٦. روى المقريزي قصة استفحال أمر الحاجب وتغلبه على القاضي، وهو أن قاضي القضاة الحنفي جمال الدين عبدالله التركماني حكم سنة ٧٥٣هـ في قضية دين مستحق لتجار من الروم على تجار من مصر ادعوا الإعسار فحبسهم القاضي وأراد أن يعلن إفلاسهم، فاشتكى تجار الروم إلى السلطان، فأمر السلطان الحاجب سيف الدين جرجي بإخراج التجار من السجن وألزمهم حتى ردوا ما عليهم من دين، وأنكر السلطان على القاضي ما فعله، ومنعه من النظر في أمر التجار والمدينين. ومن ذلك الحين تمكن الحاجب من التحكم على الناس بما شاء. ينظر، المقريزي، المواعظ والاعتبار، المرجع السابق، ٢/٢٢٢.

٣٧. وقد كتب عدد من الرسائل بهذا العنوان منها: السياسة الشرعية لقطلوبغا ولابن عابدين، ثم لبيرم الأول إلى عبد الله خلاف وعبد الرحمن تاج...

٣٨. ناصر علي خليفة، الظروف المشددة والمخففة في عقوبة التعزير في الفقه الإسلامي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٤١٢هـ،١٩٩٢م، ص٢٠٣. وقد ذكر لها ثلاثة معان: -المعنى العام الذي هو: القيام بكل ما يصلح الأمة، وهذا أوسع استعمال للمصطلح، -وبمعنى ما فيه مصلحة ولو لم يرد به نص، -والمعنى الثالث: السياسة بمعنى تغليظ العقوبة، ويشمل العقوبة غير المقدرة وهو التعزير. المرجع نفسه، ص ٢٠٤-٢٢١.

٣٩. عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٤. يرى عبد الوهاب خلاف أنه مستعمل عند غير الفقهاء، ولم يذكر من هـؤلاء، والأظهر أنه يقصد الذين كتبوا في الأخلاق والأدب السياسي.

٤٠. عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٤.

٤١. ابن نجيم، البحر الرائق، المرجع السابق، ١١/٥. وأورده ابن عابدين في حاشيته، المرجع السابق، ١٧٨/٤.

٤٢. عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٥. ثم يخلص إلى التعريف الذي اختاره.

٤٣. عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص١٥.

٤٤. يوسف القرضاوي، السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ، ص٣١. يفرق القرضاوي بين السياسة الشرعية وبين فقه السياسة الشرعية. فالأولى هي السياسة القائمة على قواعد الشرع وأحكامه وتوجيهاته، وليست كل سياسة توصف بأنها شرعية، فكثير منها تعادي الشرع ومنها ما لا يبالي به ويحكم فلسفات مختلفة. أما فقه السياسة الشرعية فهو مرادف عنده للفقه السياسي، والذي هو أحد جوانب الفقه الإسلامي الرحب فيشمل الأحكام التي تنظم علاقة الحاكم بالمحكوم. وهو المجال الذي يغطيه في عصرنا القانون العام بفروعه المختلفة، ودرسه الفقهاء ضمن أبواب الموسوعات الفقهية، كما خصصوا له مؤلفات عرفت باسم الأحكام السلطانية. المرجع نفسه، ص١٥، ٢٦.

٤٥. ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق، ص١٥٩.

٤٦. القرضاوي، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٣١.

٤٧. ينظر ابن القيم الجوزي، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص١٣، عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص١٧.

٤٨. محيي الدين قاسم، السياسة الشرعية، ص١٣٤. تجدر الملاحظة أن تعريف خلاف كان فيه رد على دعاة الجمود على اجتهادات أصحاب المذاهب والتزام أقوالهم من غير نظر إلى تغيّر الظروف التي أطلقوا فيها هذه الأقوال نبذًا للاجتهاد وركونا إلى التقليد، وليس فيه طعن على الفقهاء ولا في قدرتهم على إدراك الأمور والتبصر بها.

٤٩. ينظر: عبد الرحمن تاج، من منشورات مجلة الأزهر، عدد رمضان ١٤١٥هـ، ١/٨-٩.

٥٠. عبد الرحمن تاج، المرجع السابق، ١٢/١. وقد أخذ بهذا المعنى بعض الباحثين في دراساتهم. ينظر على سبيل المثال: محمد محمد عبد الحي عبد القادر، السياسة الشرعية وأثرها في تحقيق مصالح الناس، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، دت، ص ٦، ٢٠.

٥١. يوسف القرضاوي، السياسة الشرعية المرجع السابق، ص٢٦

٥٢. نقل ذلك ابن القيم في الطرق الحكمية، المرجع السابق، ص١٣. وقد ظن بعض الباحثين أن تلك المناظرات كانت بين ابن عقيل والإمام الشافعي، وليس كذلك، لبعد الزمن بينهما، وأغلب الظن أن هذه المناظرات كانت بين ابن عقيل والفقيه الشافعي المعروف بـ إلكيا الهراسي، حيث كان معاصرًا لابن عقيل، وتذكر بعض المعاجم أن له مناظرات مع الحنابلة.

٥٣. ابن القيم الجوزي، الطرق الحكمية، المرجع السابق، ص١٣. ربما يؤيد هذا الطرح ما جاء في المواعظ للمقريزي عن القاضي الذي أثبت إعسار التجار. إلا أن اعتبار ذلك تضييقا من الفقهاء فيه نظر، فالتوصيف الحقيقي لهذه الحالة هو أن الفقهاء جمدوا على ظواهر الأحكام مخالفين مقاصد الشرع في إحقاق الحق، مع ضعفهم وقلة نفوذهم بإزاء هؤلاء الأمراء..

٥٤. محيي الدين قاسم، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٩٨. نقله عن حاشية الطهطاوي على الدر المختار، ٦٢/٢ وعلق على ذلك بأنه عرف السياسة بأنها تجاوز للشرع. وفيه نظر.

٥٥. ابن عابدين، رد المحتار، المرجع السابق، ١٧٨/٤.

٥٦. أحمد بن علي بن برهان البغدادي، الوصول إلى الأصول، المرجع السابق، ٢٣٤/٢. قال: "وذلك من حيث الجملة، أما التفاصيل فلا نضمن ظهور المصلحة فيها.. أي فهي ظاهرة في الكليات دون الجزئيات".

٥٧. إبراهيم بن يحيى خليفة الشهير بدده أفندي (ت ٩٧٣هـ)، السياسة الشرعية، تحقيق: فؤاد عبد المنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، دت، ص١٩.

٥٨. الطرابلسي، معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام، دار الفكر، دم، دت، ص١٩٩.

٥٩. ينظر: داده أفندي، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص١٩.

٦٠. أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، ط٢، مكتبة دار الباز مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ١/١١٧.

٦١. ينظر: ناصر الخليفي، الظروف المشددة والمخففة في عقوبة التعزير في الفقه الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٢٠٨-٢١٢. وانظر وقارن بابن القيم الجوزي، الطرق الحكمية، المرجع السابق، ص١٣ وما بعدها. .

٦٢. ينظر نص القرافي: برهان الدين إبراهيم بن علي بن أبي القاسم بن محمد بن فرحون، المرجع السابق، ١٥٣/٢.

٦٣. قسم العلماء العلوم العملية إلى شرعية وحكمية وأساس ذلك ما كان مصدره الشرع وما كان مصدره العقل والحكمة. ينظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، المرجع السابق، ٣٧/١.

٦٤. سبق تفصيل هذه المسألة في الفصل الثاني من هذا البحث.

٦٥. القرافي، الفروق، المرجع السابق، ٢٠٥/١-٢٠٦. وانظر في التفريق بين تصرفات النبي ﷺ: علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، دت، ص ١٨١-١٨٢.

٦٦. ينظر في ذلك: البوطي، السنة مصدرًا للتشريع، المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤. والشيخ على الخفيف، السنة التشريعية، المرجع السابق، ص ٣٣٦-٣٣٧. ويعتقد ابن عاشور أن القرافي هو أول من اهتدى إلى النظر في هذا التمييز والتعيين. ينظر له: مقاصد الشريعة، المرجع السابق، ص٢٠٧. وحقيقة الأمر أن القرافي ناقل في ذلك عن غيره من العلماء، وقد تمهد ذلك عند علماء المذاهب المؤسسين: أبي حنيفة ومالك والشافعي، ولم يكن القرافي إلا جامعا لمذاهبهم ومحررا لموضع الخلاف عندهم حتى خصص رسالة كاملة في الموضوع بعد أن أوردها في كتاب الفروق كإحدى المسائل.

٦٧. تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، الأشباه والنظائر، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ٢٨٥/٢-٢٨٦.

٦٨. يسجل القرافي هنا مذهب جمهور الفقهاء القاضي بأن الغالب في تصرفاته ﷺ هو التبليغ، وهو مذهب الإمام مالك خلافا لأبي حنيفة.

٦٩. القرافي، الفروق، المرجع السابق، ٢٠٦/١.

٧٠. قال القرافي: "فكم من رسل لله تعالى على وجه الدهر قد بعثوا بالرسائل الربانية، ولم يطلب منهم غير التبليغ لإقامة الحجة على الخلق من غير أن يؤمروا بالنظر في المصالح العامة". الإحكام، المرجع السابق، ص ١٠٦.

٧١. القرافي، الإحكام، المرجع السابق، ص١٠٥.

٧٢. القرافي، الإحكام، المرجع السابق، ص٥٦.

٧٣. الماوردي، الأحكام السلطانية، المرجع السابق، ص٣٦٣.

٧٤. ينظر: البوطي، السنة مصدرًا للتشريع، المرجع السابق، ص٢٤.

٧٥. ٧٥- ينظر: إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد الجزء الأول دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٦ هـ، ١٩٧١ م، ٤١٤/٣-٤١٥.

٧٦. ينظر: القرافي، الفروق، المرجع السابق، ٢٠٦/١.

٧٧. ينظر: القرافي، الإحكام، المرجع السابق، ص١٠٨.

٧٨. وردت العبارة في هذه الطبعة من الأشباه والنظائر على النفي: (لا يحمل)، إلا أن مذهب الشافعية والجمهور على حمل غالب تصرفاته ﷺ على الفتيا، وهو مقتضى التفريعات التي أوردها السبكي لاحقًا. ولعله خطأ في الطباعة.

٧٩. السبكي، الأشباه والنظائر، المرجع السابق، ٢٨٥/٢-٢٨٦.

٨٠. السبكي، الأشباه والنظائر، المرجع السابق، ٢٨٦/٢.

٨١. البوطي، السنة مصدرًا للتشريع، المرجع السابق، ص٢٦.

٨٢. وهو أبو بكر بن العربي في كتابه: العواصم من القواصم، المرجع السابق، ص٨٧.

٨٣. فوزي خليل، المصلحة العامة، المرجع السابق، ص١١٤.

٨٤. وهو ما انتصر له ابن عقيل من الحنابلة وجادل الشافعية فيه. وقد لجأ إليها الحنفية بشكل خاص لأنهم لا يرون القياس في الحدود والكفارات، كما في جرائم اللواطة والسحاقة الشبيهة بالزنا، فلم يلحقوها به قياسًا، وإنما جعلوا عقوبتها من باب السياسة. وبذلك يكون تحديد عقوبتها سلطة تقديرية لولي الأمر في نظر الحنفية، أما عند باقي الفقهاء ممن يقولون بالقياس فتلحق بجريمة

الزنا قياسًا، فلا يكون ذلك الحكم من باب السلطة التقديرية. ينظر في اختلاف الحنفية مع الجمهور في إجراء القياس في الحدود والكفارات: شهاب الدين محمود بن أحمد الزنجاني، تخريج الفروع على الأصول، تحقيق: محمد أديب صالح، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص ٢٦٩-٢٧١. مصطفى سعيد الخن، أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ص ٥٠٧-٥٢١.

٨٥. وهو موقف جمهور الفقهاء من المذاهب المختلفة. ودافع عنه بعض الحنابلة كابن تيمية وابن القيم...

٨٦. هذا ما قدم به ابن الوزير المغربي لرسالته في السياسة، ضمن مجموعة رسائل السياسة الشرعية، تحقيق: محمد إسماعيل الشافعي، وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ص٩١. وقد قسم السياسة إلى ثلاثة أنواع: سياسة السلطان نفسه، وسياسته خاصته، وسياسته رعيته. ووضع لكل نوع قواعد مستقاة من هدي الإسلام ومن الحكمة النافعة في حسن أدائه مهمته في صلاح رعيته وفي المحافظة على سلطانه، ص ٩١-١٠٨. وانظر ما جاء في مفهوم السياسة أعلاه.

٨٧. يلاحظ ذلك في تناول الفقهاء الذين كتبوا في الأحكام السلطانية للسلطات المخولة للولايات المختلفة والفروق التي وضعوها للتمييز بينها.

٨٨. ينظر في ذلك: الماوردي، الأحكام السلطانية، المرجع السابق، ص٥٠. القاضي أبو يعلي، الأحكام السلطانية، المرجع السابق، ص٢٨.

٨٩. رواه أبو داود، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء. والحديث يعد أصلا للاجتهاد عند العلماء.

٩٠. أحمد بن عبد الله الصنعاني، الغصون المياسة، المرجع السابق، ص٣٢.

٩١. المرجع نفسه، ص٣٣.

٩٢. مالك بن أنس، الموطأ، المرجع السابق، ص ٣٦٦-٣٦٧.

٩٣. المرجع نفسه، ص ٢١٥-٢١٦.

٩٤. سورة النساء، الآية ٨٣.

٩٥. الماوردي، الأحكام السلطانية، المرجع السابق، ص١٠١.

٩٦. الجويني، الغياثي، المرجع السابق، ص٤٦٥.

٩٧. المرجع نفسه، ص١٢٦. وفي ص ٢١٦-٢١٧ ما مفاده أن الإمام إذا دعا إلى موجب اجتهاده وجب على من دعاهم متابعته، فإن أبوا قاتلهم، وقتالهم مبني على القطع، لا على الظن، لأن مخالفة الإمام محرمة. لأنه لو لم يتعين اتباع الإمام في مسائل التحري (الاجتهاد) لبقيت الأمور على الخلاف المعهود بين الفقهاء، ولما تم حسم الأمر.

٩٨. المرجع نفسه، ص٢٩٩.

٩٩. أبو الحسن عبد الجبار الأسدآبادي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: عبد الحليم محمود وسليمان دنيا، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دم، دت، المجلد٢٠ قسم٢، ص١٥٥.

١٠٠. ينظر: التمهيد، المرجع السابق، ص٢٣١.

١٠١. ابن حجر الهيثمي، الصواعق المحرقة، المرجع السابق، ص١٧٥.

١٠٢. مصطفى كمال وصفي، مصنفة النظم الإسلامية، ص٢٥٠.

١٠٣. ينظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٠٨.

١٠٤. عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص٢٣.

١٠٥. البوطي، ضوابط المصلحة، المرجع السابق، ص٦٤. الحديث رواه مسلم. ×سبق في الفصل الثاني

١٠٦. البوطي، ضوابط المصلحة، المرجع السابق، ص٦٣.

١٠٧. الشوكاني، إرشاد الفحول، المرجع السابق، ص٣٤٤.

١٠٨. ينظر: القرافي، الإحكام، المرجع السابق، ص١٧٧-١٩٣، ابن فرحون، تبصرة الحكام، المرجع السابق، ١٠٨/١.

١٠٩. أحمد بن محمد الحنفي الحموي، غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ٣٢٠/١-٣٢٩. وما بين قوسين إضافة منا ليستقيم المعنى في السياق.

١١٠. محمد أبو زهرة، أصول الفقه، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص ٢٦٠-٢٦١. قال: "وهذه هي التي تسمى مصلحة مرسلة أو استصلاحا". وقد نسب القول بالمصالح المرسلة، إلى المالكية والحنابلة، مع أن الحنابلة، حسب ما وقفت عليه عند بعض علمائهم، ينكرون القول بالمصالح المرسلة. ينظر مثلا: ابن النجار، الكوكب المنير، المرجع السابق، ١٦٩/٤-١٧١. وابن قدامة المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ص١٥٠.

١١١. البوطي، ضوابط المصلحة، المرجع السابق، ص٢٨٨.

١١٢. ينظر في ذلك: البوطي، ضوابط المصلحة، المرجع السابق، ص ٢٨٨-٢٨٩. والترس هنا هو ما يعرف اليوم بالدرع البشري.

١١٣. ينظر: الشاطبي، الموافقات، المرجع السابق، ٤١/٣. شهاب الدين القرافي، شرح تنقيح الفصول المرجع السابق، ص٣٠٦.

١١٤. نقل ابن برهان عن إلكيا الهراسي (شمس الإسلام) أن الخلاف بين العلماء في الاستدلال المرسل راجع إلى اللفظ، أما حظ المعنى فإنه مسلم من الجواب، ثم نقل حوارا بين القاضي الباقلاني وبين من يرى الاستدلال المرسل، ومما جاء فيه أن الإمام الشافعي رجع إلى الاستدلال المرسل الملائم لأوضاع الشرع مع أنه لا يستند إلى أصل خاص، كقوله في الرجعية؛ إنها معتدة فيحرم وطؤها، لأن العدة تربص لأجل صيانة الرحم، والصيانة مع التسليط على شغل الرحم متضادان، والشرع لا يرد بالمتناقض، فما قسنا على أصل خاص، ولكنا نعلم من كلي أنه لا يرد بالمتناقض. ينظر: ابن برهان، الوصول إلى الأصول، المرجع السابق، ٢٨٧/٢-٢٩١.

١١٥. بل إن هذا من بين المعاني التي أقرها الغزالي في المستصفى وقال إنه لا خلاف في اعتمادها والأخذ بها، وهي المصلحة التي ترجع إلى حفظ مقصود علم كونه مقصودا بالكتاب والسنة والإجماع وكون هذه المعاني مقصودة عرفت لا بدليل واحد بل بأدلة كثيرة لا حصر لها ولذلك تسمى مصلحة مرسلة. ينظر: المستصفى، المرجع السابق، ٣١١/١. وذهب ابن برهان إلى أن الاستدلال المرسل صحيح ويعمل به إذا كان ملائما لأوضاع الشرع، ومردود إذا كان مخالفا لها، وأن ما نقل عن الإمام مالك من القول بالثاني (أي المخالف لأوضاع الشرع) فغير صحيح وقد نسب إليه بالظن والاستنتاج المبني على وهم وخطأ في التقدير. ينظرله: الوصول إلى الأصول، المرجع السابق، ٢٩١/٢-٢٩٤.

١١٦. يرى أبو زهرة أن الحنفية والشافعية لم يعتبروا المصلحة المرسلة أصلاً قائمًا بذاته وإنما أدخلوها في باب القياس. ينظر: أصول الفقه، المرجع السابق، ص٢٦١.

١١٧. ممن ذكر ذلك: محمد المرير، الأبحاث السامية في المحاكم الإسلامية، معهد الجنرال فرنكو للأبحاث العربية الإسبانية، تطوان، ١٩٥١م، ٤٠/١-٥٢. وضرب أمثلة على ذلك. البوطي، ضوابط المصلحة، المرجع السابق، ص٣٥٤ وما بعدها. وأبو زهرة وغيرهم...

١١٨. وعلى هذا المعنى صنفها ابن النجار في الكوكب المنير، المرجع السابق، ١٦٨/٤-١٧٠. وهو ما يفهم من سياق كلام الغزالي في المستصفى.

١١٩. هذا ما انتهى إليه البوطي في ضوابط المصلحة، المرجع السابق، ص ٣٤٧-٣٤٨. ويؤيد هذه النتيجة ذلك التضارب الظاهر من كلام الغزالي في كتبه الأصولية، ويبرز ذلك بشكل واضح في المستصفى.

١٢٠. ينظر: الشاطبي، الموافقات، المرجع السابق، ٢٨٥/٣. وانظر له أيضًا: الاعتصام، دار اشريفة، دت، دم،، ٣٦٦.

١٢١. مقتضى مذهب الجمهور، كما ذكر ابن رشد، أن لا يجب على المدير شيء من الزكاة، لأن الحول إنما يشترط في عين المال لا في نوعه، والإمام مالك إنما قال بهذا الرأي فرارا من إسقاط الزكاة عن المدير، وهذا هو عين المصلحة لأن المدير عادة أوفر مالا من المحتكر فهو أولى بالزكاة. ويبدو أن القرضاوي لم يتبين كلام ابن رشد بشكل دقيق، فنص في كتابه: فقه الزكاة، على أن الإمام مالكا يتفق مع الجمهور في زكاة المدير ويختلف معهم في زكاة المحتكر، ثم ساق كلام ابن رشد على أنه تعليق على رأي مالك في المحتكر، والأمر ليس كذلك. نعم إن الإمام مالكا يختلف مع الجمهور في أنه لا يوجب الزكاة على المحتكر إلا حولا واحدا، كما يختلف معهم أيضا في المدير. ينظر: ما كتبه القرضاوي، فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة، ط٢٠، مكتبة رحاب، الجزائر، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص ٣٣٩-٣٤٠

١٢٢. أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد (ت٥٩٥هـ)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ، ١١١/٣-١١٢. هذا مع أن الإمام مالكا يرى مع الشافعي أن إخراج القيم في الزكوات بدل المنصوص عليه غير جائز ترجيحًا لمعنى العبادة فيها، وكونها عبادة يجعل إخراجها على غير الجهة المأمور بها فاسدًا. وهذا على خلاف أبي حنيفة الذي يجيز إخراج القيمة في الزكوات بناء على أنها حق واجب للمساكين بالدرجة الأولى، وإنما خصت أنواع معينة بالذكر تسهيلاً على أرباب الأموال لأنه قد لا يتيسر لهم دفع القيمة. ينظر: ابن رشد، المرجع نفسه،١٠٩/٣-١١٠. ويلاحظ هنا نوع تضارب في أخذ الإمام مالك بالمصلحة المرسلة، إذ كان الأوفق

بمذهبه، وحتى لو غلب في الزكاة جانب العبادة، أن يجيز أخذ القيمة في الزكوات لمصلحة الفقير والغني على السواء.

١٢٣. يعتقد ابن عاشور أن المصالح المرسلة أولى بالاعتبار من القياس، لأن القياس جزئي ثابت بالظن في جزئي، أما المصالح المرسلة فكلية مستقرأة من عموم مصالح الشريعة. ينظر له: مقاصد الشريعة، المرجع السابق، ص ٣٠٨-٣١٣. ولا يغيب عن ذهن الباحث أن المصالح المرسلة إنما ينظر فيها إلى جنس المصلحة وإلى جنس الحكم، وهو بعيد إذا ما قورن بالقياس الذي يشترط فيه عين الحكم أو نوعه في عين الوصف أو نوعه، وهو ظن راجح أو أقرب إلى اليقين.

١٢٤. مثال ذلك: إنكار الغزالي على الحنفية قبولهم لشهادة الأربعة في الزنا إذا اختلفوا في أي زاوية رأوه، وقالوا يحد استحسانا، لأنه لعله كان يزحف في زنية واحدة في الزوايا الأربع، وعلق قائلاً: فاستباح سفك دم مسلم بمثل هذا الاستحسان. ينظر: ابن برهان، الوصول إلى الأصول، المرجع السابق، ٣٢٠/٢. وقول الغزالي في المنخول من تعليقات الأصول، تحقيق: محمد حسن هيتو، ط٣، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ص٤٧٩.

١٢٥. ينظر: الجويني، البرهان في أصول الفقه، المرجع السابق، ١٦٤/٢.

١٢٦. ينظر: ابن برهان، الوصول إلى الأصول، ٢٩١/٢. هذا مع أن الجويني ينسب إلى الإمام مالك أنه يجيز لولاة الأمر القتل في التهم العظيمة. ينظر له: البرهان، المرجع السابق، ١٦٩/٢.

١٢٧. ينظر: الجويني، البرهان، المرجع السابق، ١٧٠/٢-١٧١.

١٢٨. ونص في الموافقات على أنه يشترط في الأصل الذي لم يشهد له نص معين، وكان ملائما لتصرفات الشارع، ومنه الاستدلال المرسل، أن يكون قد صار بمجموع أدلته مقطوعا به. ينظر: الشاطبي، الموافقات، ٣٢/١.

١٢٩. ابن رشد، بداية المجتهد، المرجع السابق، ٤٢٣/٤. وفي موضع آخر ذكر مسالة قتل الرجل بالمرأة قصاصا، في معارضة قوله تعالى "والأنثى بالأنثى"، قال: "والاعتماد في قتل الرجل بالمرأة هو النظر إلى المصلحة العامة" المرجع نفسه ٣٤/٦.

١٣٠. هذا ما يراه فوزي خليل، المصلحة العامة، المرجع السابق، ص ٩٤-٩٦. بل إن الريسوني ذهب إلى أن السياسة الشرعية تقوم أساسا على المصلحة المرسلة، هذه المصالح التي تتسع يوما بعد يوم، وتتزايد بتزايد حجم الأمة وحاجاتها، بل هي تمس كيانها ومصيرها، وتؤثر على أرزاقها وكرامتها، وعلى انحطاطها أو تقدمها... ينظر: أحمد الريسوني، نظرية المقاصد، المرجع السابق، ص ٢٩١-٢٩٢.

١٣١. رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم". ورواه مسلم بلفظ قريب، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله.

١٣٢. الجويني، البرهان في أصول الفقه، المرجع السابق، ١٦٤/٢. ويرد القرافي على الجويني في تشديده على الإمام مالك، بأنه استرسل في كتابه الغياثي واجترأ على ما لم يقل به المالكية رغم إنكاره عليهم، وكذلك الغزالي في شفاء الغليل. ينظر: القرافي، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، المرجع السابق، ص ٣٥١.

١٣٣. ويعتقد م رشيد رضا أن العلماء لم يصرحوا بحجية المصالح المرسلة مع اعتبارهم كلهم لها خوفا من أن يتخذ أئمة الجور إياها حجة لاتباع أهوائهم، وإرضاء استبدادهم في أموال الناس ودمائهم، فرأوا أن يتقوا ذلك برد جميع الأحكام إلى النصوص ولو بضرب من القياس الخفي، فجعلوا المصالح المرسلة من أدق مسائل العلة في القياس. ينظر: تفسير المنار، المرجع السابق، ١٦٥/٧. ونعتقد أن غرض العلماء علمي، يهدف إلى ضبط الاجتهاد في الشرع وليس سياسيًا يعتمد المناورة مع الحكام وأصحاب السلطة والنفوذ.

ثبت المصادر و المراجع

- إبراهيم بن يحيى خليفة الشهير بدده أفندي (ت٩٧٣هـ)، السياسة الشرعية، تحقيق: فؤاد عبد المنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، دت.
- ابن القيم الجوزي، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
- ابن الوزير المغربي لرسالته في السياسة، ضمن مجموعة رسائل السياسة الشرعية، تحقيق: محمد إسماعيل الشافعي، وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

- ابن تيمية، السياسة الشرعية.
- ابن خلدون، المقدمة.
- ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- ابن منظور، لسان العرب.
- ابن نجيم، البحر الرائق.
- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
- أبو الحسن عبد الجبار الأسدآبادي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: عبد الحليم محمود وسليمان دنيا، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دم، دت، المجلد٢٠ قسم٢.
- أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، ط٢، مكتبة دار الباز مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م
- أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد (ت٥٩٥هـ)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ.
- أحمد الريسوني، نظرية المقاصد
- أحمد الصنعاني، الغصون المياسة
- أحمد بن علي بن برهان البغدادي، الوصول إلى الأصول
- أحمد بن محمد الحنفي الحموي، غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
- أحمد مبارك البغدادي، دراسات في السياسة الشرعية عند فقهاء أهل السنة، مكتبة الفلاح، الكويت ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م
- إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد الجزء الأول دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٦ هـ، ١٩٧١ م
- برهان الدين إبراهيم بن علي بن أبي القاسم بن محمد بن فرحون.
- البغدادي، دراسات في السياسة الشرعية.
- البوطي، ضوابط المصلحة.
- البوطي، محمد سعيد رمضان، على طريق العودة إلى الإسلام.
- تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، الأشباه والنظائر، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م
- تركي الحمد، السياسة بين الحلال والحرام، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧
- الجرجاني، التعريفات.
- جمال الدين أبوبكر، المعروف بابن تبانة المصري (٦٨٦-٧٦٨هـ)، المختار من كتاب تدبير الدول، دراسة وتحقيق: إبراهيم عيد صايل، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م،
- حامد ربيع، مقدمة تحقيقه على سلوك المالك في تدبير الممالك .
- حامد قويسي، الوظيفة العقيدية.
- الدهلوي، حجة الله البالغة.
- زين بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن نجيم، البحر الرائق، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- شهاب الدين محمود بن أحمد الزنجاني، تخريج الفروع على الأصول، تحقيق: محمد أديب صالح، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- الطرابلسي، معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام، دار الفكر، دم، دت
- عبد الرحمن تاج، من منشورات مجلة الأزهر، عدد رمضان ١٤١٥هـ.
- عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون المسمى: دستور العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية.
- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، دت.
- الغزالي، محمد أبو حامد: المنخول من تعليقات الأصول، تحقيق: محمد حسن هيتو، ط٣، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

- إحياء علوم الدين.
- القرضاوي، يوسف، فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة، ط٢٠، مكتبة رحاب، الجزائر، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ.
- محمد أبو زهرة، أصول الفقه، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- محمد المرير، الأبحاث السامية في المحاكم الإسلامية، معهد الجنرال فرنكو للأبحاث العربية الإسبانية، تطوان، ١٩٥١م.
- محمد أمين الشهير بابن عابدين، حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الابصار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- محمد بن حسين بيرم المشهور ببيرم الأول (ت١٢١٤هـ)، رسالة في السياسة الشرعية، تحقيق: محمد الصالح العسلي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- محمد عزيز الحبابي، من الحريات إلى التحرر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢م.
- محمد محمد عبد الحي عبد القادر، السياسة الشرعية وأثرها في تحقيق مصالح الناس، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، دت.
- محيي الدين قاسم، السياسة الشرعية.
- مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- مصطفى سعيد الخن، أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- المقريزي، المواعظ والاعتبار.
- ناجي عبد النور، المدخل إلى علم السياسة، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، ٢٠٠٧م.
- ناصر الخليفي، الظروف المشددة والمخففة في عقوبة التعزير في الفقه الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ناصر علي خليفة، الظروف المشددة والمخففة في عقوبة التعزير في الفقه الإسلامي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٤١٢هـ،١٩٩٢م.





علم السِّيَر
"القانون الدَّولي والعلاقات الدَّولية"
التنوع في إطار الوحدة

الدكتور/عثمان جمعة ضميرية
أستاذ مشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الشارقة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد تناول الفقهاء المسلمون علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول الأخرى في أبواب السِّير والجهاد من كتبهم الفقهية. فنشأ بذلك((علم السِّير)) وهو قواعد التعامل مع غير المسلمين في دار الإسلام ودار الكفر في السلم والحرب، ويرادف علم القانون الدولي الإسلامي. فقد شرع العلماء في المرحلة الأولى من عهد العباسيين يتدارسون سيرة الرسول ﷺ وسيرة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين، بوصفها المثال الأوفى الذي ينبغي عليهم أن يتدارسوه للوصول إلى معرفة الأسلوب الذي كانوا يصرّفون به الشؤون العامة في الحكم، وقد أسفرت هذه الأبحاث التي كان يقوم بها العلماء عن نظرة جديدة إلى السِّير، وحولت طابعها القائم على السرد التاريخي إلى نظام أصولي من المعايير.

جهود العلماء الأوائل: كان الفقهاء المتقدمون من الصدر الأول يتناولون موضوع السِّيَر إما في((باب الجهاد)) أو في أبواب أخرى كالمغازي والغنائم، والردة وعهد الأمان والجزية. وتفاوتت عنايتهم واهتمامهم بهذا الجانب تأليفاً وتدريساً. وكان من أوائل الفقهاء الذين أَوْلوا هذا الجانب من الفقه عناية خاصة: الإمام عامر بن شراحيل الشَّعبِيُّ(توفي١٠٣هـ)، والإمام أبو عَمرو عبد الرحمن بن محمد الأَوْزَاعيُّ(توفي١٥٧هـ)، والإمام سفيان بن سعيد الثَّوْرِيّ(توفي١٦١هـ)، والإمام أبو إسحاق الفَزَاريُّ(توفي ١٨٦هـ). إلا أن الإمام أبا حنيفة النُّعمانَ بنَ ثابتٍ(توفي١٥٠هـ) وتلاميذه الأوائل كالإمام أبي يوسف القاضي(توفي١٨٢هـ) والإمام محمد بن الحسن الشيباني(توفي١٨٩هـ)،

كان لهم القِدْح المعلَّى في ذلك. ومن ثمَّ يبدو أن الكلمة قد صارت مصطلحاً فنياً يشيع استعماله بين الفقهاء في مختلف العصور.

جهود الإمام محمد بن الحسن الشَّيباني: ثم جاء ثاني تلامذةِ أبي حنيفةَ، محمد بن الحسن الشيباني(١٣٢-١٨٩هـ)، فأوْلى هذا الجانب العناية والاهتمام، وكتب في ذلك كتابين هما: ((السِّير الصغير)) و((السِّير الكبير)). وهذا الأخير كتاب نفيس، غزير المادة، جمّ الفوائد، استوعب أصول هذا العلم، واستقصى غرائب مسائله، ولم يقتصر فيه على ما ذهب إليه أعلام المذهب الحنفي، بل أورد كثيرًا من مذاهب الآخرين، وناقش أصحابها في حججهم. وباختصار شديد، نقول: إنه يضع أسس العلاقات الدولية في حال السلم والحرب، فيبين معنى السِّيَر والجهاد، وأهميته وغايته، ويحدد علاقة أهل الذمة بالمسلمين، وما يخصهم من أحكام، وينظّم حالة السِّلم، ويضع أسس التنظيم والعلاقات في حال الحرب مبيناً مشروعية الجهاد، وإقليم الدولة ومدى سريان النصوص القانونية فيها من حيث الزمان والمكان، وسياسة الحرب في الإسلام وتحديد المقاتلين، وبدء الدعوة للحربيين قبل الحرب، وما يتبع ذلك من آثار في الأموال والأشخاص، كما يحدد العلاقة مع المحايدين، وينظم حال الحياد، ويفصل أحكام المعاهدات والصلح والمستأمنين، وغير ذلك ممَّا يبحثه اليوم علماء القانون الدولي العام، وهذا كلُّه يُعْلِي من شأن هذا الكتاب وقيمته، فهو بحق أول كتاب في القانون الدولي العام والخاص في العالم كلِّه.

موضوع البحث وأهميته:

في هذا العصر الذي ألمحتُ إلى مكانته العلمية، نشأت العلوم الإسلامية، واستقرّت أصولها ومصطلحاتها فكان من العلوم ما يُعنى بأصول الدين وما يقوم عليه من إيمان وتوحيد، أو الفقه الأكبر في الدين- على حدّ عبارة الإمام أبي حنيفة رحمه الله-، ومنها ما يُعنى بالآداب والأخلاق أو التربية والسلوك، ومنها ما يُعنى بالأحكام العملية الفرعية، وهو علم الفقه.

وهكذا تعددت العلوم وتطورت مناهجها، وكان علم الفقه في مقدمتها. وعنه تفرعت علوم أخرى واستقلت بالبحث والتدوين، فكان علم السِّيَر أو القانون الدَّولي والعلاقات الدولية - بالتعبير المعاصر- واحدًا من هذه العلوم التي استقلَّت بالتأليف والتدوين، وله مفهومه وأسسه وخصائصه.

وهذا ممَّا دعا إلى كتابة هذا البحث لبيان ذلك كله، ولإبراز جهود العلماء المسلمن وريادتهم في تأسيس هذا العلم قبل أن يعرفه الغربيون بسبعة قرون، أي قبل أن يظهر آباء القانون الدولي الغربي أمثال هوغو غروسيوس الهولندي وفيتوريا الإسباني وغيرهما ممن يزعم بعضهم أنهم هم الذين أسسوا هذا العلم، وفي هذا وضعٌ للحق في نصابه، وإعادة الفضل إلى أهله وذويه، علاوة على بيان أثر الإسلام في القانون الدولي والعلاقات الدولية.

خطة البحث:

ونعقد لهذا الغرض بعد هذه المقدمة تمهيدًا وأربعة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: مفهوم القانون الدولي الإسلامي أو علم السِّيَر.

المبحث الثاني: التطور التاريخي لتدوين علم السِّيَر.

المبحث الثالث: الإمام محمدبن الحسن الشيباني مؤسس القانون الدولي في العالم.

المبحث الرابع: أسس القانون الدولي الإسلامي: علم السِّيَر.

المبحث الخامس: أهم خصائص القانون الدولي الإسلامي وسماته.

الخاتمة: وفيها الخلاصة وأهم النتائج والتوصيات.

منهج البحث:

ونعالج البحث - إن شاء الله تعالى- بطريقة علمية، تنهج منهجًا وصفيًا استقرائيًا مقارنًا، كما تعتمد المنهج التاريخي، وبذلك تتكامل أنواع المنهج في الدراسة العلمية. فهو منهج وصفي يستند إلى التحليل باستقراء الجزئيات وتصنيفها وترتيبها، مع التوثُّق والتأكد من صحة نسبة الأقوال، وما يكتنفها من شروح وتفسيرات. وهو أيضًا منهج استنباطي يستخدم القواعد الأصولية واللغوية، وينطلق من الجزئيات إلى الحقائق العامة، وهو منهج مقارن يقابل الآراء والأقوال ببعضها ويوازن بينها، كما يوازن بين الأحكام الفقهية والقوانين المعاصرة في القانون الدولي والعلاقات الدولية.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، ومنه نستمد العون والتوفيق والسداد.

المبحث الأول:
مفهوم القانون الدولي الإسلامي
((علم السِّيَر)).

إنَّ مصطلح القانون الدولي من المصطلحات الحديثة التي لم يستخدمها الفقهاء المسلمون، ومع ذلك فليس من نتائج عدم استخدام هذا المصطلح أنَّ الفقه الإسلامي لم يَعرف الأحكام القانونية الدولية، فقد عرفها ولكن في إطار آخر، حيث تناول الفقهاء علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول الأخرى في أبواب الجهاد، وفيما كتبوه عن السِّير والمغازي، وفي بعض المؤلفات عن الخراج والسياسة الشرعية كذلك[١].

وقد سميت هذه الأحكام بالسِّير - جمع سيرة - لأنها طريقة معاملة المسلمين لغيرهم. فلا نكون مغالين إذا قلنا إنَّ أئمة الإسلام وفقهاءه عُنُوا منذ البدء بوضع أسس القانون الدولي، وإنْ كانت هذه الأسس تخص أحكام أو قانون الحرب في أكثرها، وقد وجد الإسلام منذ نزوله أعداء مناضلين، فحارب من حاربه وسالم من سالمه، ووضع الحدود والقواعد لحربه وسلمه وما يعرض له فيهما من المسائل الكثيرة التي تتعلق بالمحاربين والمسالمين، وأشباه ذلك مما أحلَّه الفقه الإسلامي أسنى مكان، حتى إنه ليمكن أن يقال: إنه عُنِي بما تقدم من القواعد واتسع لها صدره أكثر من غيرها من الأحكام السياسية، لأنها نشأت مع الإسلام ونمت بنموِّه، وكانت نتيجة لازمة للجهاد والفتوحات الإسلامية العظيمة[٢].

وهذا يدعونا لتعريف علم((السِّير والمغازي)) وموضوعه ونشأته، لنتعرف من خلاله على علم العلاقات الدولية والقانون الدولي الإسلامي، إن كان لا محالة من نقل هذا المصطلح إلى مجال العلوم الشرعية والفقه الإسلامي. ونمهِّد لذلك بتعريفٍ لغوي للسيرة والمغازي.

أولاً: السيرة في اللغة العربية.

- السين والياء والراء: أصلٌ يدلُّ على مضي وجريان. يقال: سار يسير سيرًا ومَسِيْرًا، وتسْيارًا، ومسارًا، ومَسِيْرَة، وسَيْرُورَةً. وذلك كله يكون ليلاً ونهارًا.

والتَّسْيَار، والسُّيَرَة: الكثير السير. قال الشاعر:

فألقتْ عصا التَّسيار منها وخيَّمتْ

بأرجاءِ عذبِ الماءِ بِيْضٌ مَحَافِرُه

والسيرة: الطريقة في الشيء، والسنَّة، لأنها تسير وتجري. يقال: سار الوالي سيرة حسنة. ويقال: هم على سيرة واحدة: أي على طريقة واحدة. وقال اللِّحياني: إنه لَحَسَنُ السيرة.

ويقال: سارت، وسرتها أنا. قال الشاعر الهُذَليُّ:

فلا تَجْزَعَنْ مِنْ سِيْرة أنتَ سِرْتَها

فأَوَّلُ راضٍ سنَّةً من يَسِيْرُها

أي: أنت جعلتها سائرة في الناس. ومنه يقال: سار المَثَلُ أو الكلام في الناس، أي شاع وذاع. يقال: هذا مَثَلٌ سائر.

والسيرة - كذلك: الهيئة والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، غريزية أو مكتسبة. يقال: فلان له سيرة حسنة، وسيرة قبيحة. فهي تستعمل في السَّيْر المعنوي حيث قالوا في عمر بن عبدالعزيز: سار فينا بسيرة العُمَرين. وقوله تعالى عن عصا موسى -عليه السلام-: ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾[٣]. أي: الحالة التي كانت عليها من كونها عودًا أو عصًا وليست ثعبانًا[٤].

ثانياً: السيرة في الاصطلاح الشرعي العام.

- كانت السيرة عند علماء الحديث قسمًا من أقسام علم الحديث أو السنة حيث قالوا في تعريف السنة: ((هي ما أُثِر عن النبي -ﷺ- من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلقية أو سيرة، سواء كانت قبل البعثة أو بعدها))[٥]. وهي بهذا ترادف الحديث عند بعض العلماء، واقترنت كلمة أو مصطلح((السيرة)) بكلمة((المغازي)) ويقصد بهما سيرة النبي -ﷺ- ومغازيه وحروبه. وقد كان التأليف والكتابة فيهما وفي الجهاد إنما يشكل أبوابًا في كتب الحديث النبوي والسنة النبوية التي جمعها رجال الحديث ورتَّبوها على كتب وأبواب مستقلة، فنجد في((الصحاح)) و((السنن)) من حديث رسول الله -ﷺ- كتاباً في((الجهاد والسِّير)) أو كتابًا في((المغازي)) -بجانب كتب الإيمان والعبادات والمعاملات والآداب والأخلاق- على نحو ما نجده في((الموطأ)) للإمام مالك ابن أنس(١٧٩ هـ)، وفي((صحيح البخاري)) (٢٥٦هـ) وفي((صحيح مسلم))(٢٦١ هـ) وفي سائر كتب السنن والحديث.

كما أن علماء التاريخ جعلوا الكتابة فيهما نوعًا من الكتابة التاريخية وفناً من فنونه، بل هو يأتي في المرتبة الأولى فيها على نحو ما نجده في تصنيف الإمام السَّخاوي لفنون التاريخ[٦]، ولذلك ظهر مؤرخون للسيرة النبوية - بجانب رجال الحديث - نصوا عزائمهم على جمع أخبارها ورواية أحداثها، وهؤلاء المؤرخون كانوا بالطبع من رجال الحديث ورواته، إلا أن اهتمامهم بأمر السيرة النبوية جعل لهم نوعًا من التفرد في هذا الميدان[٧].

وموضوع السيرة والمغازي هو عرض حياة الرسول -ﷺ- بذكر الأخبار التي تروى عنه -ﷺ- بالروايات المسندة مرتَّبة على السنين، بحسب وقوع الحوادث التي تشير إليها الأحاديث والأخبار[٨]. فهي إذن تبحث في حياة الرسول -ﷺ- منذ إرهاصات مولده حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وتبحث في حياة صحابته الذين جاهدوا معه وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وفي تاريخ انتشار الإسلام الذي ابتدأ بنزول الوحي على النبي -ﷺ- إلى أن دانت الجزيرة العربية به ودخل الناس في دين الله أفواجًا[٩].

وفي مرحلة تالية: أطلقت كلمة ((السيرة)) على السيرة الذاتية للشخص أو قصة حياته وترجمته.

ثالثاً: السِّير في اصطلاح الفقهاء:

أشرت فيما سبق إلى أنَّ أصل معنى السيرة

هو حالة السير أو الهيئة، ثمَّ نقلت إلى معنى الطريقة والمذهب، ثمَّ غلبت عند الفقهاء على أمور المغازي والجهاد وطريقة المسلمين في المعاملة مع الكافرين والباغين وغيرهما من المستأمنين والمرتدين وأهل الذمة[١٠]. وسواء أفي ذلك الحرب أم السلم. وقد ورد أمثالها عن الخلفاء الراشدين:

أخرج ابن إسحاق أن رسول الله -ﷺ- أمر بلالاً أن يدفع اللواء إلى عبدالرحمن بن عوف في غزوة دُوْمَةِ الجَنْدَلِ، وقال له: ((اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا مَنْ كفر بالله، لا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً. فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم))[١١].

وأخرج ابن سعد بسنده عن ابن عباس أن رسول الله -ﷺ- كتب إلى الأكبر بن عبدالقيس كتاباً جاء فيه:((... أنهم آمنون بأمان الله ورسوله على ما أحدثوا من القُحَم في الجاهلية، وعليهم الوفاء بما عاهدوا، ولهم ألا يُحْبَسُوا عن طريق المِيرة، ولا يُمْنَعُوا صوب القطر، ولا يُحْرَمُوا حريمَ الثِّمار عند بلوغه. والعلاء بن الحضرمي أمين رسول الله -ﷺ- على بَرِّها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها، وأهلُ البحرين خفراؤه من الضَّيم، وأعوانُه على الظالم، وأنصاره في الملاحم. عليهم بذلك عهدُ الله وميثاقه، لا يبدِّلوا قولاً ولا يريدوا فُرْقة.ولهم على جند المسلمين: الشركةُ في الفيء، والعدلُ في الحكم، والقَصْدُ في السِّيرة، حكمٌ لا تبديلَ له في الفريقين كليهما. واللهُ ورسولهُ يشهد عليهم))[١٢].

وكيما يتضح هذا المعنى، نستقرئ بعض تعريفات الفقهاء للسِّير - مع مراعاة الترتيب التاريخي في عرض أقوالهم - ثمَّ نستخلص من ذلك تعريفًا يجمع ما قالوه:

قال السَّرْخَسِيّ (٤٨٣ هـ): ((السِّير جمع سيرة. وبه سمي كتاب ((السِّير الصغير)) للشيباني، لأنه بيَّن فيه سيرة المسلمين في المعاملة مع المشركين من أهل الحرب، ومع أهل العهد منهم؛ من المستأمنين وأهل الذمة، ومع المرتدين الذين هم أخبث الكفار بالإنكار بعد الإقرار، ومع أهل البغي الذين حالهم دون حال المشركين، وإن كانوا جاهلين وفي التأويل مبطلين))[١٣].

وقال النووي(٧٧٦ هـ):((السِّيَر: جمع سيرة وهي الطريقة. وترجموه[١٤] بكتاب السير؛ لأن الأحكام المذكورة فيه متلقاة من رسول الله -ﷺ- في غزواته. ومقصودهم به: الكلام في الجهاد وأحكامه. وترجمه بعضهم بـ((كتاب الجهاد)) وترجمه في كتاب((التنبيه)) بـ((باب قتال المشركين))[١٥].

وتناول العلماء والكاتبون المعاصرون تعريف علم السِّير بالبحث، فقال الشيخ محمد أبو زهرة -رحمه الله-: ((يراد بالسِّير أحكام الجهاد والحرب، وما يجوز فيها وما لا يجوز، وأحكام الصلح والموادعات، وأحكام الأمان وممن يجوز، ثمَّ أحكام الغنائم والفدية والاسترقاق، وغير ذلك مما يكون في الحروب وأعقابها.

وفي الجملة: هو باب تنظيم العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم في السلم وفي الحرب، وإن كان أكثر الكلام في الحرب))[١٦].

رابعاً: القانون الدولي الإسلامي.

لم يستخدم فقهاء الشريعة مصطلح((القانون الدولي))، لأنه من المصطلحات الحديثة[١٧]، وقد استخدم علماء الإسلام كلمة((القانون)) -بصيغة المفرد- كذلك عنوانًا على مؤلفات في فنون مختلفة كاللغة والتوحيد والفقه منذ قرون، فكان هذا مؤشرًا على جواز ذلك، وأنه لا محذور

مقالات

فيه، ما لم يتعدَّ التسمية إلى التأثر بمضمون أجنبي عن الإسلام.

وفي العصر الحديث درج كثير من الكتَّاب والمؤلفين في الفقه الإسلامي على استخدام كلمة القانون في فروع كثيرة من الفقه مضافة إلى الإسلام أو الشريعة. ولعل ذلك كان نتيجة الدراسة المقارنة بين الشريعة والقانون، ورغبة في تقريب أحكام الفقه الإسلامي إلى الدارسين غير المتخصصين من دارسي القانون الوضعي، ولأسباب أخرى غير ذلك.

ولذلك حاول بعض الباحثين والكاتبين تعريف القانون الدولي الإسلامي، وفيما يلي طائفة من هذه التعريفات:

عرَّفه الدكتور محمد حميدالله الحيدر آبادي بأنه((ذلك القسم من قواعد القانون والعرف في الدولة، ومن الالتزامات التي تضمنتها المعاهدات التي ترعاها الدولة الإسلامية القائمة فعلاً أو قانوناً في تعاملها مع الدول الأخرى القائمة فعلاً أو قانوناً))[١٨].

وعرَّفه الدكتور نجيب أرمنازي بأنه ((مجموع القواعد التي يتعين على المسلمين التمسك بها في معاملة غير المسلمين، محاربين أو مسالمين، سواء كانوا أشخاصاً أم دولاً، وفي دار الإسلام أم في خارجها)) ويدخل في جملة هذه القواعد: أحوال المرتدين والبغاة وقطاع الطريق[١٩].

المبحث الثاني:

التطور التاريخي لتدوين((علم السِّير)).

إنَّ الأحوال السياسية للدولة الإسلامية واتساع الفتوحات الإسلامية كان لهما أثرهما في التمهيد لتدوين أحكام العلاقات الدولية وصِلات المسلمين بغيرهم من الحربيين والذميين والمعاهدين، وإن اهتمام فقهاء الإسلام بهذا الجانب من الفقه جعلهم يفردونه بالتأليف: تمهيدًا لقواعده، وبسطاً لأحكامه، وبياناً لآثاره. ولذلك سَنُلّمع هنا إلى التطور التاريخي لتدوين((علم السِّير)) عند الفقهاء، بعد أن ألمحنا إلى عناية علماء السيرة والمغازي والحديث بهذا الجانب مع أثارة من منهجهم الذي يقوم على سرد الوقائع والحوادث ضمن ما اتخذوه من منهج علمي دقيق في الرواية يقوم على الإسناد.

وكان الفقهاء المتقدمون من الصدر الأول يتناولون موضوع السِّيَر إما في ((باب الجهاد))، أو في أبواب أخرى كالمغازي والغنائم، والردة وعهد الأمان والجزية. وتفاوتت عنايتهم واهتمامهم بهذا الجانب: تأليفًا وتدريسًا، وكان من أوائل الفقهاء الذين أولوا هذا الجانب عناية: الإمام الشَّعبِيُّ، والأوزاعيُّ، والثَّورِيّ، والفَزَاريُّ، إلا أن أبا حنيفة وتلاميذه كان لهم القِدح المعلَّى في ذلك:

فالإمام الشَّعْبِيّ (عامر بن شراحيل ت ١٠٣ هـ) كان من فقهاء الكوفة ومحدِّثيها[٢٠]، وهو صاحب السفارة بين عبدالملك بن مروان وملك الروم. وكان له عناية بالسِّير؛ تدريسًا وتعليمًا، فقد أخرج الخطيب البغدادي بسنده عن نافع قال: سمع ابنُ عمر الشَّعْبِيَّ وهو يحدّث بالمغازي فقال: لكأن هذا الفتى شهد معنا. وأخرج أيضًا عن عبدالملك بن عمير قال: مرَّ ابن عمر بالشَّعْبِيّ وهو يقرأ المغازي، فقال ابن عمر: كأنه كان شاهدًا معنا[٢١].

وأخرج الحارثيُّ في((مسنده)) عن القاسم ابن معن عن أبي حنيفة عن الهيثم عن عامر الشَّعْبِيّ قال: كان يحدث عن المغازي وابن عمر رضي الله عنه يسمعه، فقال حين سمع حديثه: إنه يحدّث كأنه شهد القوم[٢٢].

وأخرج الطبراني بسند رجاله ثقات، قال: كان

الشَّعْبِيّ يحدّث بالمغازي فمر ابن عمر فسمعه وهو يحدّث بها، فقال: لهو أحفظ لها مني وإن كنت شهدتها مع رسول الله -ﷺ-[٢٣].

وأما الأوزاعي: شيخ الإسلام وعالم أهل الشام: (أبو عمرو، عبدالرحمن بن عمرو بن يُحْمَد، ت ١٥٧ هـ)، فقد كان من الأئمة المجتهدين، وله مذهب انتشر في بلاد الشام ودخل بلاد الأندلس ثمَّ اضمحل في منتصف القرن الثالث الهجري، وكان ثقة مأموناً فاضلاً خيراً، كثير الحديث والعلم والفقه[٢٤].

وكان له عناية خاصة بالسير: تأليفًا وتدريسًا وعملاً؛ بل كان من أسبق العلماء تصنيفًا للكتب فهو صاحب كتاب((السِّير)) الذي صنفه للرد على بعض آراء أبي حنيفة في السير، ولما بلغ صاحبه الإمام أبا يوسف ردَّ عليه واحتج لمذهب شيخه بكتابه((الرد على سِيَر الأوزاعي)) كما ردَّ عليه أيضًا الإمام محمد بن الحسن الشيباني في كتابه((السِّير الكبير))[٢٥] ولكن كتاب الأوزاعي لم يصلنا بنصه مفردًا، وإنما نجده في كتاب أبي يوسف حيث يذكر رأي أبي حنيفة في المسألة ثمَّ يتلوه برأي الأوزاعي، ويعقب على ذلك أبو يوسف فيذكر دليل شيخه أو ما يذهب هو إليه مع الدليل، كما أن الإمام الشافعي حفظ لنا هذين النصين في كتابه((الأم)) حيث ينقل كلام الأوزاعي كما جاء في كتاب((الرد))، وينقل معه بالحرف كلام أبي يوسف ثمَّ يعقِّب عليه بقوله: قال الشافعي، وذلك في عامة أبواب الكتاب، فكأنه نسخة ثانية لكتاب أبي يوسف.

وكان الأوزاعي - رحمه الله - من العلماء المجاهدين الذائدين عن ديار الإسلام المرابطين في ثغورها[٢٦]، فكان يمارس عملياً أحكام الجهاد وما يتعلق به، وتوفي مرابطاً في ثغر بيروت ببلاد الشام[٢٧].

وأما الثَّوْرِيّ: (سفيان بن سعيد بن مسروق، ت١٦١ هـ) فهو شيخ الإسلام، وإمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، الكوفيُّ، أحد الأئمة المجتهدين الذين كانت لهم أتباع، وهو مصنف كتاب ((الجامع))[٢٨].

وفي هذا القرن أيضًا: كتب الإمام الفَزَارِيُّ (شيخ الإسلام، إبراهيم بن محمد بن الحارث، ت ١٨٦هـ) رحمه الله كتاباً في ((السِّير)). وكان رحمه الله من أعيان العلماء الفقهاء والمحدثين، يُعَدُّ في فقهاء الكوفة؛ لأنه نشأ فيها، ويعدّ أيضًا من فقهاء الشام؛ لمرابطته فيها وأخذه العلم عن فقيهها الأوزاعي.

وكان يلقب بشيخ الثغور لمرابطته فيها وجهاده حتى إنه قضى نحبه في ((المصيصة))[٢٩] التي كان يرابط فيها[٣٠].

وكتابه ((السِّيَر)) يعالج فيه موضوع المغازي والسِّيَر والجهاد وأحكامها الفقهية وما يتعلق بذلك من نفير وتجهيز عدة، وعقد ألوية وترتيب صفوف، وحملٍ في سبيل الله، وقسم الغنيمة، وبيان حكم المرتد، وعلاقة المسلمين بأهل الذمة والمحاربين. وقد امتدحه الشافعي - رحمه الله - فقال: ((لم يصنف أحدٌ في السِّير مثل كتاب أبي إسحاق الفزاري))[٣١].

أما أول من صنف في((السِّير)) واتخذ هذا المصطلح للدلالة على ما نسميه اليوم بالقانون الدولي الإسلامي، فهو الإمام أبو حنيفة النعمان ابن ثابت(١٥٠ هـ) وهذا ما يميل إليه الباحثون في هذا العلم. وفي هذا يقول الدكتور محمد حميدالله: ((لعل اتخاذ هذا المصطلح((السِّير)) للدلالة على القانون الدولي الإسلامي كان في القرن الثاني

الهجري فقد عرف أبو حنيفة (ت ١٥٠ هـ) بأنه أول من استعمل مصطلح ((سيرة)) لتمييز مجموعة دروسه التي كان يلقيها عن قوانين الإسلام في الحرب والسلم، وقد نشرت هذه الدروس منقحة على أيدي عدد من تلاميذه. وصل إلينا منها بصورة من الصور كتابا ((السِّير الصغير)) و((السِّير الكبير)) للشيباني (ت١٨٩هـ) وقد نقد فقيهَ العراق أبا حنيفة فقيهٌ معاصر له هو إمام الشام الأوزاعي(ت ١٥٧ هـ). ولم يصلنا ما كتبه الأوزاعي، ولكن وصلنا ما نشره رداً عليه تلميذ أبي حنيفة الشهير أبو يوسف(ت ١٨٢ هـ) باسم((الرد على سير الأوزاعي))، ويشير الشافعي(المولود ١٥٠ هـ) كذلك إلى سير الأوزاعي في كتاب((الأم)) كما يشير إلى سير الواقدي(ت ٢٠٧ هـ) ومن ثمَّ يبدو أن الكلمة قد صارت مصطلحاً فنياً يشيع استعماله بين الفقهاء في مختلف العصور))[32].

المبحث الثالث:

الإمام محمد بن الحسن الشيباني مؤسس القانون الدولي في العالم.

كان الإمام محد بن الحسن الشيباني أول من أفرد للعلاقات الدولية مؤلفات خاصة تتناول أحكام السلم والحرب، وأحكام الصلح والمعاهدات، وأحكم الأمان والسفراء، وآثار قيام الحرب وسياسة المسلمينفي تنظيمها، وما يجوز وما لا يجوز في ذلك كله. وله في هذا كتابان: أحدهما(السير الصغير) الذي كتبه أولاً، وقد رواه عن أبي يوسف وقرأه عليه توثقاً من النص وصحة نسبة الرأي، والثاني(السير الكبير) وهو أوسع من الأول، كما أنه من آخر كتب الإمام محمد تأليفاً، وفيه إفاضة وشرح أكثر وأوسع كما يظهر من عنوان الكتابين ومن مادتهما من خلال الشروح التي وصلتنا.

وفي هذا المبحث نخص بالاهتمام كتاب (السير الكبير) ومعه الشرح الممتع القيم الذي وضعه عليه شمس الأئمة السرخسي المتوفى في القرن الخامس الهجري ما بين(٤٨٣-٤٩٠هـ).

ولبيان قيمة هذا الكتاب وأهميته نذكر أن محمداً - رحمه الله - لما فرغ من الكتاب أمر أن يكتب هذا الكتاب في ستين دفترًا، وأن يحمل على عجلة إلى باب الخليفة.

فقيل للخليفة: قد صنف محمد كتاباً يحمل على العجلة إلى الباب. فأعجبه ذلك وعدَّه من مفاخر أيامه. فلما نظر فيه ازداد إعجابه به. ثمَّ بعث أولاده إلى مجلس محمد - رحمه الله - ليسمعوا منه هذا الكتاب.

ومن الطريف في نقل الكتاب وروايته: أن إسماعيل بن توبة القزويني، مؤدب أولاد الخليفة، كان يحضر معهم ليحفظهم كالرقيب، فسمع الكتاب، ثمَّ اتفق أن لم يبق من الرواة إلا إسماعيل ابن توبة وأبو إسماعيل الجوزجاني، فهما رويا عنه هذا الكتاب[33].

وهذا الكتاب النفيس الكبير امتدحه العلماء القدامى وأثنوا عليه، فقد تقدم ما قالوه في دقة مسائل هذا الكتاب وبخاصة في أبواب الأمان، وهي تدل على دقة الإمام محمد في اللغة والنحو. ويحتوي على مجموعة كبيرة من المسائل، فقد قال الإمام العلامة السِّمْنَانِيّ: كتاب ((السِّير الكبير)) فيه أربعة آلاف خبر، بيَّن أحكامها، وتكلَّم على تأويلاتها، فلا يمكن ذلك إلا إذا كان هذا الكتاب من الكتب الكبار))[34].

ومن العلماء المحدثين المهتمين بالقانون الدولي، يقول الدكتور نجيب أرمنازي في أطروحته ((الشرع الدولي في الإسلام)): ((هو كتاب غزير

علم السِّيَر "القانون الدَّولي والعلاقات الدَّولية" التنوع في إطار الوحدة

المادة، جمّ الفوائد، قد استوعب أصول هذا العلم، واستقصى غرائب مسائله، ولم يقتصر فيه على ما ذهب إليه أعلام المذهب الحنفي، بل أورد كثيراً من مذاهب الآخرين، وناقش أصحابها في حججهم))[٣٥].

وقال الشيخ محمد أبو زهرة عن((شرح السِّير)) للسرخسي: ((وهو شرح قيِّم يؤيِّد ما جاء في الكتاب بالآثار الثابتة في كتب السنة، مما عساه يكون قد روي بغير طريق محدِّثي العراق والمدينة، ويؤيِّده بالأقيسة الفقهية، في عبارة جليلة، بيِّنة واضحة، تجمع بين إشراق الديباجة من الناحية البيانية ودقة التعبير))[٣٦].

وتحدث عنه الدكتور محمد الدسوقي في أطروحته((الإمام محمد بن الحسن الشيباني وأثره في الفقه الإسلامي)) فقال:

((وأما كتاب السِّير الكبير؛ فهو عمل فريد في بابه، لم يؤلف فقيه غير الإمام محمد مثله في موضوعه، سواء أكان الذين تقدموا عليه أم تأخروا عنه. وليس معنى هذا أن الإمام محمداً اخترع كتابه اختراعًا، فالمعروف أن بعض الفقهاء الذين تتلمذ لهم محمد تحدثوا عن السِّير، كالإمام أبي حنيفة والأوزاعي وأبي يوسف، ولكن كل ما جاء عن هؤلاء الأئمة في هذا الموضوع كان يدور في نطاق محدود من القضايا، وكان أشبه بالمحاولات الأولى بالنسبة للبحث الشامل المفصل الذي كتبه الإمام محمد، فاستحق أن يكون - عن جدارة - رائد التفكير في القانون الدولي في العالم كله. لقد استقى الإمام محمد مادة كتابه من الآثار والأخبار من علماء عصره فقهاء ومحدّثين، وكانت هذه المادة الأساس الذي أقام عليه محمد عمله المبتكر الرائع الذي يشهد له بغزارة العلم وعمق التفكير، وشمول النظرة، ودقة التفصيل والتبويب والتفريع))[٣٧].

- وهذا كلُّه يُعْلِي من شأن هذا الكتاب وقيمته، فهو بحق أول كتاب في القانون الدولي العام والخاص في العالم كلِّه،وهذا يضع تاج فَخَارٍ على هامة الإمام محمد، ويجعله رائد القانون الدولي، قبل أن يتفطن علماء القانون الوضعي إلى أهمية هذا الفرع من القانون والكتابة فيه، ممَّا جعلهم يلتقون على إنشاء جمعية دولية باسم ((جمعية الشيباني للقانون الدولي)) في((غوتنجن)) بألمانيا، وقد انتخب لرئاستها آنذاك(١٩٥٥م) الفقيه المصري الدكتور عبدالحميد بدوي، وتهدف هذه الجمعية إلى التعريف بالشيباني وإظهار آرائه ونشر مؤلفاته المتعلقة بأحكام القانون الدولي الإسلامي.

ثمَّ أعاد تنظيم هذه الجمعية المستشرق العراقي مجيد خدوري[٣٨]، الذي أخرج كتاب((السِّير في أرض الحرب))، وهو مأخوذ من كتاب ((الأصل)) للإمام محمد، وهو يختلف عن كتاب((السِّير الكبير)) الذي وضعه مستقلاً بهذا الإسم وشرحه السَّرْخَسِيّ - كما أسلفنا -.

وهذا يُسْلِمُنا إلى بيان شروح وطبعات الكتاب واللغات التي نُقل إليها:

ذكر بعض من كتب عن الإمام محمد بن الحسن أن((السِّير الكبير)) توجد منه نسخ خطية في مكتبات استانبول في تركيا. ولكن المعروف أنه لا يوجد مستقلاً، وإنما توجد نسخ له ممزوجة مع شروحه، ومن ذلك:

- شرح الإمام محمد بن أحمد السَّرْخَسِيّ (المتوفى سنة ٤٩٥ هـ)، وقد طبع هذا الشرح في حيدر آباد في الهند عام (١٩٣٦ م) ويقع

في أربع مجلدات. كما نشرته جامعة الدول العربية (معهد المخطوطات) بالقاهرة ما بين عامي(١٩٧١ - ١٩٧٢ م) بتحقيق صلاح الدين المنجد للأجزاء الثلاثة الأولى، ثمَّ أكمل بتحقيق الجزأين الرابع والخامس، فاكتمل في خمسة أجزاء ضخمة، ثمَّ صورت عنها طبعة جديدة.

وكانت جامعة القاهرة قامت بإخراج طبعة أخرى له محققة، عام (١٩٥٨ م)، فصدر عن مطبعتها الجزء الأول فقط، وقد كتب التمهيد والتعليقات الشيخ (محمد أبو زهرة) وحقق النصوص ووضع فهارسه (مصطفى زيد)، ولم يكتمل هذا المشروع للجامعة.

- وللسير الكبير شرح آخر بعنوان ((تيسير المَسِيِّر في شرح السير الكبير)) بقلم محمد المنيب العينتابي، ومنه نسخة خطية بمكتبة عارف حكمة بالمدينة النبوية، تقع في(٤٩٠) صفحة، مصنّفة في المكتبة برقم(٢٥٤/٧١)، وهي تعليقات على شرح السرخسي للسِّير.
- وقد ترجم شرح السَّرْخَسِيّ وأصله إلى لغات أخرى، فقام الشيخ محمد المنيب العينتابي بترجمته إلى اللغة التركية، في عهد السلطان محمود خان العثماني، ليكون مصدرًا من مصادر معرفة أحكام الجهاد في الإسلام، وليسهل على قواد الجيش والمجاهدين في الدولة معرفة هذه الأحكام في الدولة العثمانية. وصدرت هذه الترجمة عام (١٢٤١ هـ) في استانبول، وتقع في مجلدين اثنين.
- وترجمته منظمة اليونسكو إلى اللغة الفرنسية، ونقل إليها جزءًا منه المستشرق ((دي كروزه)) ونشره في جريدة آسية، في الأعوام(١٨٥١، ١٨٥٢، ١٨٥٣ م)[٣٩].

وقد لا يساعدنا المقام على أن نعرض بالتفصيل لكل أبواب الكتاب بأجزائه الخمسة، ولا تقديم دراسة وافية عنها، فحسبنا أن نشير إلى عدد أبواب كل جزء وأهم محتوياته:

- يضم الجزء الأول من الكتاب خمسين بابًا تنتظم(٥٦٢) مسألة، تقع بعد المقدمة في(٣٧٠) صفحة، يليها فهارس للأحاديث والأعلام والأماكن والاستدراكات والتصويبات.

ومن الأبواب التي يشتمل عليها هذا الجزء: فضيلة الرباط في سبيل الله، الإمارة ووصايا الأمراء، مبعث السرايا، الرايات والألوية، القتال في الأشهر الحرم، السلاح والفروسية، الحرب وكيف يعبّأ لها، من أسلم في دار الحرب، أموال المعاهدين، الجهاد مع الأمراء، الخُمس والصدقة، ما يجب من طاعة ولي الأمر وما لا يجب، قتال النساء مع الرجال وشهودهن الحرب، سجدة الشكر وصلاة الخوف، الأمان وفيه بحوث كثيرة.

ويقع الجزء الثاني في(٣٢٣) صفحة يليها فهارس متنوعة كالتي سبقت الإشارة إليها، وهو يضم الأبواب من(٥١ - ٩٠) وتشتمل على المسائل من(٥٦٣ - ١٤٦٦)، وفيه تتمة أبواب الأمان المتنوعة الشاملة لشروط الأمان وأركانه ومن يعقده، والحديث عن الرسل(السفراء) والمستأمنين والحكم في أهل الحرب، ثمَّ أبواب الأنفال، مما كان خالصاً للرسول -ﷺ-، والنفل في دار الحرب، وما يبطل فيه النفل وما لا يبطل، والسلّب والنفل لأهل الذمة والعبيد، والاستثناء فيه، وغير ذلك مما يتصل بهذه المباحث الهامة في سياسة المسلمين الحربية.

وأما الجزء الثالث فيقع في (٣١٥) صفحة ويتضمن الأبواب(٩١ - ١١٣)، وفيه أبواب الأنفال والسهمان للخيل وغيرها في دار الإسلام ودار

الحرب، ودخول المسلمين دار الحرب، والغنيمة، وكيفية قسمة الغنيمة وبيان من يستحقها، وقسمة الخمس والغنائم.. الخ.

ويبحث الجزء الرابع في الأبواب(١١٤ - ١٥٩) مسائل كثيرة متنوعة، داخل الأبواب عن: الأسارى والحكم فيهم، والتجار الذين يدخلون دار الحرب، وما جاء في الخيانة في الغنيمة، والسبايا والنفقة عليهنَّ والعدة، وهدية أهل الحرب، وما يكون إحرازًا للغنيمة وما لا يكون، ثمَّ ما يصيبه الأسراء والذين أسلموا من دار الحرب، والمستأمنين يأخذون أموال أهل الحرب، وما يحرزه المشركون ويظهرون عليه من أموال المسلمين، والفداء، والاستعانة بأهل الشرك، وما يكره إدخاله دار الحرب وما لا يكره، وما يكره قتله من أهل الحرب وما لا يكره وكيفية سياسة الحرب بما فيها من قواعد إسلامية رائعة... الخ. ويقع هذا الجزء في(٥٧٣) صفحة.

وينتهي هذا السِّفْر النفيس بالجزء الخامس الذي يقع في حوالي(٦٥٠) صفحة تضم الأبواب (١٦٠ - ٢١٨) وفيها المسائل من(٣٣٦١ - ٤٥٧٢)، وهو يتضمن أبواباً هامة مثل: أبواب الموادعة، نكاح أهل الحرب، إثبات النسب من أهل الحرب ومن السبايا، الحدود في دار الحرب، ما يجب من النصرة للمستأمنين وأهل الذمة، معاملة المسلم المستأمن مع أهل الحرب في دار الحرب، مواريث القتلى... باب الأسير والمفقود، باب المرتد في دار الحرب وما يتعلق بالمرتدين من أحكام مختلفة، العين(الجاسوس)، ما يختلف أهل الحرب وأهل الذمة في الشهادتين والوصايا، من أسلم على شيء فهو له، الحبيس في سبيل الله، الوصية بالمال في سبيل الله، باب العشور في أهل الحرب، باب الجزية، الخمس من المعادن والركاز يصاب في دار الحرب، ما يصدق فيه المسلم على إسلام الكافر، الدعاء إلى الإسلام، باب الاستبراء، خروج العبد بأمان من دار الحرب، العبد يعتق بالإسلام أو لا يعتق؟

وإذا أردنا أن نوجز ما في الكتاب باختصار شديد، قلنا: إنه يضع أسس العلاقات الدولية في حال السلم والحرب، فيبين معنى السير والجهاد، وأهمية الجهاد وغايته، ويحدد علاقة أهل الذمة بالمسلمين، وما يخصهم من أحكام، وينظم حالة السلم، ويضع أسس التنظيم والعلاقات في حال الحرب مبيناً مشروعية الجهاد، وإقليم الدولة ومدى سريان النصوص القانونية فيها من حيث الزمان والمكان، وسياسة الحرب في الإسلام وتحديد المقاتلين، وبدء الدعوة للحربيين قبل الحرب، وما يتبع ذلك من آثار في الأموال والأشخاص، كما يحدد العلاقة مع المحايدين، وينظم حال الحياد، ويفصل أحكام المعاهدات والصلح والمستأمنين... وغير ذلك مما يبحثه اليوم علماء القانون الدولي.

ونختم الكلام على ((السِّير الكبير)) بأمرين:

(أولهما) طريقة محمد في الترجيح بين الآراء الفقهية المعروفة وقتها. وذلك أنه((سلك في هذا الكتاب للترجيح طريقًا سوى ما ذكره في سائر الكتب، وهو أنه نظر فيما اختلف فيه أهل العراق، وأهل الشام، وأهل الحجاز، فرجَّح ما اتفق عليه فريقان، وأخذ به دون ما تفرَّد به فريق واحد. وهذا خلاف ما هو المذهب الظاهر للحنفية في الترجيح أنه لا يكون بكثرة العدد.

ووجه ما اعتبره محمد هاهنا: أن مثل هذا الاختلاف إنما يترتب على اشتباه الأثر فيما فعله رسول الله -ﷺ- في المغازي، وكان ذلك أمرًا ظاهرًا، فتهمة الغلط فيما تفرَّد به فريق واحد

تكون أظهر من تهمة الغلط فيما اجتمع عليه فريقان))[٤٠].

(الأمر الثاني) صلة كتاب ((السِّير)) للشيباني بكتاب ((المغازي)) للواقدي. فقد نقل الحافظ ابن حجر العَسْقَلاَني عن أبي حاتم الرازي أنه قال: كتاب ((السِّير)) أصله للواقدي، رواه محمد عن الواقدي[٤١].

والذي يبدو أن الحافظ - رحمه الله - لم يكن قد اطلع على كتاب ((لسِّيَر)) للإمام محمد، أو أنه نقل عن ابن أبي حاتم بالواسطة نقلاً مختلفاً وأقرّه؛ لأن الموازنة بين ((مغازي الواقدي)) وكتاب ((السِّير الكبير)) تظهر بجلاء أن موضوعيهما مختلفان، فالأول يبحث في غزوات الرسول -ﷺ-، والثاني في أحكام الجهاد والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وهذه وإن كانت متلقاة من مغازي رسول الله -ﷺ- وسيرته - كما سيأتي تفصيلاً - إلا أن ذلك لا يعني أن هذا الكتاب مأخوذ من ذاك، ولا يمنع ذلك من الرواية عنه والاستشهاد ببعض الحوادث لتكون أدلة لما يذهب إليه، فقد ذكر العلامة الكَرْدَري أن الواقدي كان يجيء إلى محمد بن الحسن فيقرأ عليه ((المغازي))، ويقرأ الواقدي عليه ((الجامع الصغير))[٤٢]. فهو قد يروي عنه بعض الوقائع والآثار. وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك، لأن كتاب ((السِّير الكبير)) لم يصلنا إلا مجرداً من الإسناد ضمن شرح السَّرَخسِيّ.

المبحث الرابع:

أُسس القانون الدولي الإسلامي.

المقصود بالأسس: مجموعة الأحكام والقواعد العَقَدية والتشريعية التي يقوم عليها (علم السّيَر) أو القانون الدولي الإسلامي، وتؤثر فيه. وفيما يلي إشارات سريعة إلى أهم هذه الأسس.

١- الأسس العَقَديَّة للقانون الدولي:

عُني القرآن الكريم -كما عنيت السنة النبوية- بالعقيدة التي تقوم على أساس الإيمان بالله تعالى رباً متفردًا بالخلق، وإلهاً متفرِّدًا بالأمر والنهي، فلا عبودية إلا له، وبذلك يتحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله، يتحرر وجدانُه وعقلُه حريةً حقيقية. فالدولة الإسلامية والأمة المسلمة لها مثاليَّة لم تنعم بها أي دولة كبرى سبقتها أو جاءت بعدها، وهذه المثالية التي هي دعامة الدولة الإسلامية، هي عقيدة التوحيد.

والتوحيد له معنى سياسي وقانوني، لم يفطن له الكثيرون، فالتوحيد ثورة ضد طغيان الفرد ووقاية ضد ظلم الإنسان للإنسان. وهل هناك تحرر من طغيان البشر أروع من الإيمان بأن الله هو خالق الكون، وأن القوة لله جميعاً، وأن السلطة لله وحده، وأن الخير بيده سبحانه وإليه المصير؟ هذا المعنى ردَّ للفرد شعوره بشخصيته وبكرامته، وبأن له حرمة في نظر القانون، وأنه لا توجد قوة في الأرض تستطيع أن تجرده من حقوقه كإنسان.

ونجد هذه الآيات الكريمة وأمثالها في بيان الصلة بين العقيدة وأحكام القانون الدولي: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٤٣].

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[٤٤].

﴿ فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٤٥].

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ

علم السِّيَر "القانون الدَّولي والعلاقات الدَّولية" التنوع في إطار الوحدة

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[٤٦].

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٤٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٤٨].

ومن هنا كانت أحكام العلاقات الدولية - كغيرها من جوانب الفقه الإسلامي - ذات اعتبارين: قضائي ودياني.

وهذه الخاصية أفاضت على الأحكام هيبة واحترامًا في عقول المخاطبين بالتشريع، وأورثتها سلطاناً على النفوس، كان به الفقه الإسلامي شريعة مدنية ووازعًا أخلاقيًا في وقت معًا؛ لما فيه من قدسية المصدر القرآني الآمر، ومن الزاجر الديني الباطن إلى جانب القضاء الظاهر، فلا يحتاج الإنسان إلى قوة مصلتة عليه دائمًا لتلزمه الخضوع لإيجابه، ولا يجد في الإفلات من سلطان حكمه غنيمة - إن استطاع الإفلات - سواء أكان عظيماً أم ضعيفاً[٤٩].

كما ترتب على هذه الخاصية أيضًا أن يكون لمخالفة الحكم الشرعي جزاء يتحمله المخالف، وهو يشمل الثواب عند الطاعة والعقاب أو الضمان عند المخالفة، والجزاء قد يكون دنيوياً يتولاه الحاكم، أي السلطة العامة في الدولة، وقد يكون جزاء أخروياً عند الله تعالى يوم القيامة، ولكن للتوبة أثر في سقوط العقاب عند الله تعالى ولها أثر في سقوط بعض العقوبات في الدنيا[٥٠].

أما في القوانين الوضعية فلا نجد لذلك مثيلاً، حقيقة أن كل قانون وضعي جديد يقدم له بمذكرة إيضاحية يبين فيها السبب في وضعه والطرق التي سلكها فيه، والغاية منه، إلى آخر ما تُعْنَى به أمثال هذه المذكرات لكل تشريع جديد. لكن هذا شيء آخر. إنه بذلك يقنع المخاطب حقاً بأنه يدعى إلى التزام تشريع يحقق العدالة لا العدل فقط، وأن في هذا الالتزام والنزول على هذه التشريعات رضا الله ورضا رسوله وثواباً للإنسان نفسه في هذه الدار الدنيا وفي دار الأخرى، وليس بعد هذا ما يبعث على طاعة القانون[٥١].

٢ - الأخلاق والقِيَم العليا:

تمتزج العقيدة بالأخلاق، فتهذِّب النفسَ وتربِّي الضمير، فتجعل منه محكمة داخلية في نفس المسلم، يُنْصِف من نفسه قبل أن ينتصف هو من الآخرين، وتحمله على الامتثال والالتزام بالأحكام عن طواعية واختيار.

وقد ألمحنا آنفاً إلى بعض الآيات القرآنية الكريمة التي توجب الالتزام بقانون الأخلاق الإسلامية في العلاقات الدولية، تمامًا كما هي ملزمة في العلاقات الفردية، وقد جاءت السنة النبوية وأعمال الخلفاء الراشدين وسيرتهم في الجهاد والعلاقات الدولية تطبيقًا عمليًا لذلك، ثمَّ بنى الفقهاء كثيرًا من أحكامهم في العلاقات الدولية والجهاد على هذا الأصل العظيم. ومن ذلك: الحفاظُ على الكرامة الإنسانية، وإعلاءُ مكانة الجوانب الشعورية والنفسية، ووجوبُ الوفاء بالعهد، والتحرُّز عن الغدر حتى ولو غدروا بنا، وتحريمُ المُثْلَة بالأعداء في الجهاد، وتحريمُ قتل غير المقاتلين، وتحريمُ استعمال آلاتٍ وأدواتٍ يعمُّ ضررها، وغيرها من المبادئ الأخلاقية التي ستأتي - إن شاء الله تعالى - في مواضعها.

وقد أدرك بعض الكاتبين في القانون الدولي -من غير المسلمين- قيمةَ هذه الخاصية ومكانتَها، حيث إن الإسلام بوصفه منهجًا للحياة، فإنه يشدد على أهمية المبادئ الخلقية في العلاقات الدولية،

بصرف النظر عن العقيدة الدينية، وإن العقيدة الإسلامية - بوصفها أساسًا للأخلاق - دفعت المسلمين لاتِّخاذ موقفٍ رائع من التسامح نحو غير المسلمين، والتحلّي بمبادئ إنسانية يعكسها لنا مضمون الأحكام التي استنبطوها لحالة الحرب ولسير المعارك مع الأعداء. والواقعُ التاريخيُّ الإسلامي - وهذا يصدق على البشر أجمعين - يُظْهِر لنا أنَّ أي نظام اجتماعي، على الصعيد الدولي، يفقد معناه إذا خلا كلياً من المبادئ الأخلاقية[٥٢].

وهذ أفاض على الأحكام هيبة واحتراماً في عقول المخاطبين بالتشريع، وأورثها سلطاناً على النفوس، كان به الفقه الإسلامي شريعة مدنية ووازعاً أخلاقياً في وقت معاً؛ لما فيه من قدسية المصدر القرآني الآمر، ومن الزاجر الدينيِّ الباطن إلى جانب القضاء الظاهر، فلا يحتاج الإنسان إلى قوة مصلتة عليه دائمًا لتلزمه الخضوع لإيجابه، ولا يجد في الإفلات من سلطان حكمه غنيمة - إن استطاع الإفلات - سواء أكان عظيمًا أم ضعيفاً[٥٣].

كما ترتب على هذا أيضًا أن يكون لمخالفة الحكم الشرعي جزاء يتحمله المخالف، وهو يشمل الثواب عند الطاعة والعقاب أو الضمان عند المخالفة. والجزاء قد يكون دنيوياً يتولاه الحاكم، أي السلطة العامة في الدولة، وقد يكون جزاء أخروياً عند الله تعالى يوم القيامة، ولكن للتوبة أثر في سقوط العقاب عند الله تعالى ولها أثر في سقوط بعض العقوبات في الدنيا[٥٤].

٣- العدل الحقيقي المطلق:

تقوم أحكام العلاقات الدولية على العدل الحقيقي، بل تهدف إلى تحقيق أعدل سيرة ممكنة للحاكم المسلم في مجال العلاقات الدولية، وتتنزه عن اعتبارات الأنانية والظلم والصراع على المصالح الذاتية. وحتى في المعاملة مع الأعداء لا يجوز أن تحملنا العداوةُ لهم وبُغْضُهم على أن نتنكَّب جادَّة العدل؛ فإنَّ شريعة الله تعالى هي شِرْعةُ الحقِّ والعدل المطلق.

وقد أرست الآياتُ القرآنية الكريمة هذا الأصلَ الكبير، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[٥٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٥٦].

كما حكت الآيات القرآنية الكريمةُ واقعةً عمليّةً حيث تنزلت لتبرئ ساحة يهودي اتُّهم بالسرقة، بل لتقيم ميزان العدالة الذي لا يميل مع الهوى ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أياً كانت الملابسات والأحوال، وأمرت النبيَّ -ﷺ- ألا يجادل عن الذين اتهموه بذلك لأنهم يختانون أنفسهم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[٥٧].

ثمَّ جاء الواقع التاريخي شاهدًا صادقًا على ذلك، والأمثلة تعزُّ على الحصر، حسْبُنَا منها الإشارة إلى واقعتين اثنتين:

(الأولى): حُكْم القاضي ((جُمَيْع بن حاضِر)) على جيش المسلمين في الخروج من((سَمَرْقَنْد))[٥٨] بعد فتحها دون إنذار، تحقيقاً لهذا العدل المطلق[٥٩].

و(**الثانية**): حين ردّ أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجرَّاح -رضي الله عنه- على أهل الذمة في بلاد الشام ما جبي منهم من الجزية والخراج ؛ لأنه كان قد اشترط لهم أن يمنعهم ويدافع عنهم، وهو لا يقدر على ذلك لما رأى تجمع الروم[٦٠].

٤ - الوفاء بالعهود والمواثيق:

والأصل في ذلك: كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، التي ترسي هذا المبدأ الأصيل في العلاقات الدولية وفي غيرها. ففي الوفاء بالعهد أوالعقد، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾[٦١]. وقال تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾[٦٢]. ويأمر الله تعالى بإتمام العهود إلى مدتها فيقول:) ﴿ فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[٦٣].

ومنذ أن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه - رضوان الله عليهم - في مكة المكرمة والدعوة في مهدها لا تتجاوز أم القرى، يعلم الله تعالى أن المسلمين سيكون لهم دولة قوية. وقد تحمل القوة أهلَها على التهاون بالعهود والمواثيق تحقيقًا لمصلحة قريبة أو ثأرًا لمظلمة سابقة، فكان من حكمة الله تعالى أن يأتي التأكيد على الوفاء بالعهد والتحذير من الغدر في التعامل مع الأمم الأخرى، فقال الله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[٦٤].

أما الأحاديث النبوية فقد جاءت بتفصيلات أوسع في الوفاء بالعهود والنهي عن الغدر والخيانة والنقض، حسبنا أن نشير إلى طرفٍ منها:

عن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:((أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَرَ))[٦٥]. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:((إن الغادر يُنْصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلان ابن فلان)). وقال:((لكل غادر لواء عند اسْتِهِ يوم القيامة، ألا ولا غادرَ أعظمُ غدراً من أميرِ عامَّةٍ))[٦٦].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تَخُنْ خانك))[٦٧].

من الواقع التاريخي الإسلامي:

وإذا كان للوفاء بالعهد أثره في الالتزام بالمعاهدات الدولية واستقرارها فإنه كذلك يجعل المعاهدين عونًا للمسلمين ويزرع في نفوسهم الثقة بهم، فقد أخرج القاضي أبو يوسف أن أبا عبيدة بن الجراح لما صالح أهل الشام واشترط لهم وعليهم شروطاً كان الصلح عليها، قالوا له: اجعل لنا يومًا في السنة نُخْرِج فيه صلباننا بلا رايات، وهو يوم عيدنا الأكبر. ففعل ذلك وأجابهم إليه، فلم يجدوا بُدَّاً أن يفوا لهم بما شرطوا، ففتحت المدن على هذا. فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين وحسن السيرة فيهم صاروا أشدَّاء على عدوِّ المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً مِنْ قِبَلِهم يتحسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا، فأتى أهلَ كلِّ مدينة رسلُهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعاً لم يُرَ مثله، فأتى رؤساء أهل كل مدينة إلى الذي خلَّفه أبو عبيدة فأخبروه بذلك[٦٨].

مقارنة:

وبالمقارنة نجد البَوْن شاسعًا بين تأكيد الإسلام على الوفاء بالعهد وشروطه ومنع الغدر، حتى غدا ذلك أصلاً عظيمًا في العلاقات الدولية والاجتماعية، وبين واقع غير المسلمين في القديم والحديث، وتعاملهم مع المسلمين بالغدر وعدم الوفاء، حتى اعترف بذلك كُتَّابهم ومنهم ((فوشيه)) الذي يقرر أن النبي -ﷺ- قد أوصى أتباعه بمراعاة المعاهدات وتنفيذ نصوصها، قبل أن تظهر في الغرب قاعدة احترام المعاهدات. بل في وقت كان الغرب يغطُّ فيه في دياجير الجهالة والظلمة، ولم يكن فيه أي احترام لذمةٍ أو عهد أو ميثاق، وإنما كانت القاعدة هي الكذب والخديعة والغدر، حتى أنَّ الكنيسة الكاثوليكية في القرن السابع عشر قد قامت بإعفاء الأمراء الكاثوليك من الالتزام بالمعاهدات التي أبرموها مع الكفار وغير المؤمنين بالكاثوليكية، ومنها المعاهدات المبرمة مع البروتستانت، فكان ذلك شهادة لا يرقى إليها الشك - إذ هي شهادة من الأعداء - تدل على عظمة الإسلام وأحكامه وسموِّ مبادئه التي تقوم على الحق والعدل اللَّذين قامت بهما السموات والأرض[٦٩].

المبحث الخامس:
خصائص القانون الدولي الإسلامي.

تتميز أحكام القانون الدولي الإسلامي ((علم السِّير)) بمجموعة من القابليات أو الخصائص التي تُفْرِدُها عن غيرها من الأنظمة القانونية. ويمكن أن نبرز - بإيجاز - أهم الخصائص التي تتميز بها أحكام القانون الدولي والعلاقات الدولية في الإسلام:

١ـ أحكام القانون الدولي في الإسلام ترجع في أسسها العامة إلى الوحي:

وهذه الخاصية هي أهم الخصائص، وعنها تنبثق سائر الخصائص؛ فالإسلام دين رباني، ومنهج إلهي كامل مترابط، ينظم الحياة ويحكم كافة جوانبها. وبما أن القانون الدولي الإسلامي ((علم السِّير)) جزء من الفقه الإسلامي الذي يقوم على الشريعة - كتاباً وسنة - فإنه يقوم على الوحي الإلهي. هذا الوحي الذي نجده في كتاب الله الكريم، وسنة رسوله العظيم، الذي لا ينطق عن الهوى. ففي هذين المصدرين نجد جماع الأحكام الشرعية في كل جوانب الحياة، بما في ذلك أحكام العلاقات الدولية. وكل فقيه مقيَّد في استنباطه للأحكام بنصوص هذين المصدرين أو الأصلين الأساسيين عندما تسعفه النصوص بذلك، وإلا فهو مقيَّد باستلهام روح الشريعة ومقاصدها وأصولها[٧٠].

وهذه الخاصية تميز أحكام العلاقات الدولية في الإسلام عن سائر الأنظمة والقوانين الوضعية التي يضعها الناس لأنفسهم في القديم والحديث. لذلك لا نجد لها من الهيبة والاحترام ما نجده للتشريع الإلهي الذي يقوم على الوحي المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الوحي الذي تكفل الله تعالى بحفظه[٧١].

وهي كذلك ضمانة لتوحيد كلمة الأمة كلها على منهج واحد ونظام واحد عندما تلتقي على هذا الوحي بما فيه من موازين لا تضطرب ولا تتأرجح ولا تتأثر بالهوى والعصبية والدوافع الذاتية.

٢ـ أحكام السِّير والعلاقات الدولية في الإسلام تخاطب الفرد والدولة:

إنَّ الشريعة الإسلامية خطاب عام للمكلفين،

علم السِّيَر "القانون الدَّولي والعلاقات الدَّولية" التنوع في إطار الوحدة

أفـرادًا وجماعات، وهـم محل للتكليف بوصفهم أفـرادًا وبوصفهم جماعات، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[٧٢].

وفي كثير من الآيـات القرآنية الكريمة يتوجه الخطاب مباشرة إلـى الإنسان الفرد كما يتوجه إلى الجماعة والأمـة، وهذا أمر واضح في القرآن الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾[٧٣].

فالخطاب هنا مـوجّـه للفرد، ثـمَّ يتوجه إلـى الجماعة بمثل قوله تعالى:

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[٧٤].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[٧٥].

وينبني على ذلـك: أنـه إذا أخذنـا الخطاب المباشر معيارًا للشخصية القانونية وجب علينا أن نرتب على ذلك نتيجةً حتميةً، وهي أن الإنسان بوصفه إنسـانـاً هـو محل التكليف فـي الشريعة الإسلامية لأن النصوص الشرعية تخاطبه خطابًا مباشرًا، فتلزمه بالتكليف وتكسبه الحقوق، وتبشره بالثواب وتوقع عليه الجـزاء بطريق مباشر[٧٦]. فليست أحكام العلاقات الدولية قاصرة على الدول، بل هي مفتوحة عامة شاملة تقوم أصلاً على الكيان الفردي، سواء أكان الفرد منفرداً أم في جماعة أم في تشكيل سياسي باسم دولة.

بينما يثير مركز الفـرد فـي القـانـون الدولي الوضعي جدلاً كبيرًا، حيث يصر الشراح التقليديون على أن القانون الدولي هو قانون الـدول فحسب، ولا يرتبون للفرد حقوقاً أو واجبات دولية بصفة مباشرة، وإنما اعتبروه مجرد محل لهذه القواعد. أمَّا الإسلام فقد اعترف للفرد بالشخصية القانونية الدولية منذ خمسة عشر قرناً، دون تفريق بين الرجال والنساء ودون تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الإقليم.

٣ - وحدة القانون الداخلي والخارجي ((السِّير جزء من الفقه الإسلامي)):

جاء الإسلام ليكون ديناً عالمياً للناس جميعاً، لذلك لم يفرق الإسلام في خطاب التكليف بين الفرد والجماعة على اختلاف صورها؛ لأن الخطاب في الإسلام صادر من رب العالمين وموجه إلى بني البشر جميعاً – كما رأينا – وشريعة الإسلام تهدف إلى تنظيم الأفراد والجماعات والشعوب والأمم في منظمة عالمية، متحدة في العقيدة وفي المبادئ والأصول الكلية التي تحكم العلاقات. والشريعة الإسـلامـيـة تنتظم كـافـة الـعـلاقـات الإنـسـانـيـة، فردية أكانت أم جماعية، سواء أفيما بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع الإسلامي ذاته أم بين المجتمع الإسلامي بوصفه وحدة قائمة بذاتها وبين المجتمعات الأخرى المختلفة معها في العقيدة في وقت السلم ووقت الحرب على حد سواء.

وإذا أردنـا استعمال المصطلحات القانونية الحديثة فـإنـه ينبني على هـذا: أنـه يجتمع في الشريعة الإسلامية كل أحكام القانون الدولي وكل أحكام القانون الداخلي بفروعه المختلفة، أو بتعبير آخـر: إن الشريعة الإسلامية قانون واحد يشمل القـانـون الـدولـي والقـانـون الـداخـلـي معاً، وينتظمهما في وحدة قانونية أو في نظام قانوني واحد. فالقانون الدولي والقانون الداخلي هما –في الشريعة الإسلامية– فرعان لنظام واحـد، دون أن يكون لأحدهما الصدارة على الآخر من حيث القوة القانونية، فكلاهما يتساوى مع الآخـر، لأن

طبيعة أحكامهما واحدة، ولأن مصدر كلٍّ منهما واحد، وهدف كل منهما واحد. والشريعة ليست نظامًا قانونيًا داخليًا فحسب أدمجت فيه الأحكام والقواعد الدولية، وليست نظامًا دوليًا فحسب أدمجت فيه الأحكام والقواعد القانونية الداخلية. وإنما هي نظام وشريعة عالمية تنتظم العلاقات الداخلية والدولية معًا، ويسري الفرع الداخلي منها في النطاق الإقليمي للدولة الإسلامية العالمية، بينما تسري أحكام الفرع الدولي منها على العلاقات ما بين الدولة الإسلامية، وبين غيرها من الدول الأخرى[٧٧].

وتأسيساً على هذه الخاصية؛ فإن أحكام العلاقات الدولية في الإسلام تستمد من مصادر التشريع الإسلامي كأي فرع من فروع الفقه. وهي المصادر الأصلية: ((الكتاب والسنة والإجماع والقياس)) ثمَّ المصادر التبعية الأخرى، فلا فرق بين مصادر القانون الداخلي والخارجي.

٤ - أساس الإلزام في القانون الدولي الإسلامي:

يقوم النظام الإسلامي على الالتزام الذاتي بقواعد العلاقات الدولية لأنه جزء من قانونه الداخلي، أي ولو بدون معاهدة أو عرف دولي، وبصرف النظر عن قوة الدولة الإسلامية وسيادتها وقدرتها على الدول الأخرى، فالقانون الدولي الإسلامي يستند إلى إرادة الدولة الإسلامية - شأنه في ذلك شأن أي قانون إسلامي آخر في البلاد، وحتى الالتزامات المفروضة بمقتضى معاهدات ثنائية أو متعددة الأطراف ((دولية)) فإن لها نفس الأساس. فهو التزام ذاتي سببه التكليف الشرعي باعتبار أن أحكام الشريعة الإسلامية خطاب ملزم للمسلم في ذاته، فهو يطبق أحكام وقواعد السِّير في مجالها، كما تطبق أي قاعدة شرعية أخرى في مجالها. وكلها على وجه الالتزام وعلى وجه حكمها الشرعي من الوجوب أو الندب أو الإباحة أو الكراهة أو التحريم. فإنه - على سبيل المثال - إذا طلب العدو الأمان أو الذمة، فيجب إجابته إلى ذلك فرضاً بنص القرآن الكريم على ذلك: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾[٧٨].

وأساس الإلزام بهذه الأحكام -وسائر الأحكام- أنها أوامر الله سبحانه وتعالى لعباده، فهو وحده الحاكم الآمر الواجب الطاعة، وهو مقتضى الإيمان بالله وتوحيده وعبادته. ولذلك اتفق العلماء على أن الحاكم هو الله سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يستحق أن ينفذ حكمه على الخلق إلا من كان له الخلق والأمر.

وبالمقارنة بين النظرية الإسلامية والقانون الوضعي في ذلك:

نلمح شبهًا بين أفكار نظرية القانون الطبيعي التي تنتمي إلى المدرسة الموضوعية والأصول التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية، فهناك إطار ثابت من القواعد الشرعية، هو الذي وردت فيه النصوص القطعية أو المحكمة. وهو ما يتفق مع فكرة وجود قواعد أبدية سرمدية ثابتة وخالدة مع الزمن التي يقوم عليها القانون الطبيعي. يبقى خلاف جوهري بين أفكار شرَّاح القانون الطبيعي في جملتهم وبين الشريعة، يتصل بمصدر هذه القواعد؛ ففي الشريعة: المصدر هو إرادة الله تعالى، أما في القانون الطبيعي: فهو طبيعة الأشياء أو مقتضيات العقل، إلى غير ذلك من الأفكار[٧٩].

وهذا الشبه بين القانون والشريعة إنما جاء نتيجة التأثير الإسلامي على أصحاب هذا الاتجاه الذين درسوا الثقافة الإسلامية وعلوم الإسلام، وكانت فكرة القانون الطبيعي قد ملكت أفئدة رجال الدين والفلسفة والقانون في أوربا العصور

الوسطى، وكلهم نشأوا في بيئة إسلامية الثقافة، ودرسوا الثقافة الإسلامية وكان رائدهم الأول توما الاكويني، ثمَّ أمثال سوارز وإيالا وفيتوريا، ويكفي للكشف عن ثقافتهم الإسلامية أنهم ما بين علماء في الفلسفة والتاريخ والقانون، وأنهم من بيئة إسلامية الثقافة هي إسبانيا، إحدى مراكز الإشعاع الإسلامي. وكذلك العالم الإيطالي(لينيانو) والأستاذ(جنتليس) الإيطالي بجامعة أكسفورد، والأستاذ الألماني(بوقندورف)، وكلها بيئة إسلامية الثقافة، ثمَّ جاء من هولندا عالمها الشهير(غروسيوس) الذي تأثر بكتابات المسلمين وعلى الأخص الإمام محمد بن الحسن الشيباني، وإن كانوا يخفون مصادر تأثرهم خشية الإرهاب الديني الذي كانت تعيشه أوربا في تلك العصور[٨٠].

٥ً - الثبات في أصوله ومصادره، والمرونة في تلبية الحاجات والوقائع المتجددة:

وقد قامت الأدلة الشرعية على ذلك الثبات فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٨١]. وقال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[٨٢].

وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٨٣].

وقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٨٤]. أي لا تبديل لدين الله. وهو خبر بمعنى النهي، أي: لا تبدلوا دين الله[٨٥].

ونضرب بعض الأمثلة على هذا الثبات في مجال العلاقات الدولية لبيان ذلك الأثر الفريد الذي ينشئه ثبات أحكام هذه العلاقات، فمن مبادئ العلاقات الدولية: احترام الكرامة الإنسانية في السلم والحرب، والحفاظ على حقوق غير المسلمين في دار الإسلام، والعدالة التي ينبغي أن تتغياها الحكومة المسلمة وتلتزم بها في التعامل مع المسلمين وغير المسلمين، والوفاء بالعهود والمواثيق حتى مع الأعداء، وعدم الغدر حتى ولو غدروا هم بنا، والفضيلة والأخلاق في المعاملات ... وعالمية الدعوة الإسلامية، وحق المسلمين -بل واجبهم- في الدعوة إلى دين الله تعالى، لأن الإسلام كلمة الله الأخيرة لهذه البشرية فلا بد من إبلاغها لهم، وحقيقة أن العلاقة التي تربط بين المسلمين هي آصرة العقيدة والإيمان، وأنه لا ولاء بين المسلمين والمشركين والكفار، وإن كان هذا لا يمنع من البر بهم والإحسان إليهم في المعاملة، ووجوب إعداد المسلمين للقوة التي يحافظون بها على كيانهم ويرهبون بها عدوهم، لأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ... الخ.

ولهذا الثبات فائدة عظمى، لأنه يؤدي إلى اطمئنان الأفراد وأمنهم من المفاجآت والتقلبات، ووضوحِ أسس العدالة والنظام للكافة من أهل دار الإسلام في الدولة الإسلامية والمقيمين الأجانب. وهذا كله يؤدي إلى الثقة والازدهار، وينتج أفضل الظروف للتقدم الاجتماعي والاقتصادي وحسن العلاقات الدولية وسيادة الأخلاق والآداب والفضيلة بسبب معرفة كل ذي حقٍّ حقَّه، فتمتنع أسباب الصراع والاستغلال والغدر، وغير ذلك مما يحرض على الرذيلة وانتهاز الفرص بسبب ضعف القانون والعدالة.

إلا أن ثبات الأحكام لا يعني جمود الفقه وعجزه عن مواجهة الوقائع الجديدة وتلبية حاجات الأمة هذه، فإن في مصادر التشريع الإسلامي مرونة وخصوبة وسعة تتنافى مع الجمود.

ومن الأمثلة على هذه المرونة والحركة في

النظام السياسي الإسلامي: شكل الحكومة الإسلامية، فلم تحصر الشريعة شكل الحكومة في قالب ضيق، وإنما فسحت له المجالات الصحيحة المتعددة، واكتفت بمبادئ عامة رحيبة تضبط هذا الشكل السريعَ التغيُّرِ بطبيعته دون أن تحد من حركته الصحيحة، ولعله من أجل ذلك تعمد رسول الله -ﷺ- ألا يحدد أبا بكر -رضي الله عنه- خليفة له على الرغم من فضله على سائر الصحابة ...

ومن نافلة القول أن نؤكد على أن هذه المرونة لا تعني بأي حال من الأحوال خروجاً على حكم شرعي ثابت، سواء أكان كلياً أم جزئياً، لأنها محكومة بضوابط دقيقة، حتى لا يؤدي التطور إلى التشويه والتدهور والخروج على أحكام الله التي يحتاج إليها البشر، فإن المرونة والتطور يختلفان عن الهدم والانطلاق بلا حدود، الأمر الذي تتخذه بعض الاتجاهات المعاصرة في الحياة الاجتماعية والقانونية.

ومن هنا يمكن أن نصوغ هذه الخاصية بعبارة تجمع الثبات والمرونة في سياق واحد مع ضابط ذلك وميزانه، فنقول مع الأستاذ سيد قطب - رحمه الله -: إنها خاصية ((الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت))[٨٦].

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نقول: إن القانون الدولي ظاهرة حديثة ذات جذور موغلة في القدم، ولكن نشأته علمًا مستقلاً حديثًا ارتبطت بالدول الأوربية التي تعصبت تعصبًا واضحًا ضد الدولة الإسلامية(دار الإسلام)، ثمَّ تضافرت جملة من العوامل جعلته قانونًا دوليًا، وهذا الحكم ينصبُّ على هذا العلم في النطاق الأوربي.

أما في النطاق الإسلامي: فإن الإسلام قد وضع أصول هذا العلم منذ قيام الدولة الإسلامية في المدينة، ثمَّ أفرده العلماء بالتدوين تحت اسم((السِّير)). وكان من روّاده أبو حنيفة، والأوزاعي، والثَّوْريّ، والفزاري، إلا أن الذي له فضل التدوين والتأصيل وأفرده علمًا مستقلاً هو الإمام محمد بن الحسن الشيباني. وقد تأثر آباء القانون الدولي، وبخاصة المدرسة الإسبانية، بالفكر الإسلامي، وفي مقدمتهم جروسيوس، وكان لكتب الإمام محمد وفكره أثره في ذلك.

وتميّز القانون الدولي الإسلامي((علم السِّير)) بأنه جزء من الفقه، يقوم على الوحي، وترتبط أحكامه بالعقيدة والأخلاق فيكون ذلك أساسًا للالتزام والإلزام، وقد أولى عناية للفرد فجعله من أشخاص القانون الدولي، ومن خصائصه الثبات في مصادره بما يؤدي إلى الاستقرار، والمرونة التي تلبي الحاجات والوقائع المستجدة.

وأما النتيجة النهائية التي ينبغي تسجيلها بإيجاز فهي المكانة التي تبوأها الإمام محمد بن الحسن الشيباني، وريادته للقانون الدولي في العالم كله، فهو قد سبق جروسيوس الذي يلقبونه بـ((أبي القانون الدولي العام)) بتسعة قرون تقريبًا. ويذهب كثير من الكتاب ومؤرخي القانون إلى أن جروسيوس أخذ كثيرًا من آرائه عن الإمام الشيباني، ويدل على هذا أنه كان منفيًا في(الآستانة) بالدولة العثمانية عام(١٦٤٠م)، فهو إذًا قد اطلع على نظام الإسلام واطّلع على ما كتبه الشيباني لاهتمامه بهذا الجانب. والمقارنة بين أبحاث جروسيوس التي جعلته في مركز الأبوة للقانون الدولي وما كتبه الشيباني تومئ إلى سبق الشيباني وتأثيره. وكذلك كان الآباء الدوليون قبل جروسيوس متأثرين بالثقافة الإسلامية، إذ أنهم من بيئات إسلامية الثقافة وهم أمثال: بييريلو،

وآيالا، وفيتوريا، وسواريز، فأكثرهم من إسبانيا وإيطاليا، وكلتاهما تأثرتا بالإسلام كما هو معروف تاريخيًا، ولكنهم أخفوا هذا التأثر خشية من سلطة رجال الدين النصراني والكنيسة التي كانت تسيطر على الأفكار والأموال، فقالوا بنظرية القانون الطبيعي، وهي عند التحقيق ليست سوى مبادئ الإسلام.

ولذلك استحق الإمام الشيباني ذلك التنويه وتلك المكانة حتى أنشأ الأوربيون ((جمعية الشيباني للقانون الدولي)) في فرنسا سنة ١٩٣٢م، وفي ألمانيا سنة ١٩٥٥، ثمَّ أعاد تنظيم هذه الجمعية في أمريكا مجيد خدوري. وقد أحلُّوا جميعاً الإمام الشيباني محلاً رفيعاً في القانون الدولي العام ولقّبوه بأبي القانون الدولي، كما فعل كروزه، وبورغشتال وخدوري وغيرهم..

التوصيات: وإذا كان الأمر كذلك فإن مما يمكن أن يقترح في هذا المجال هو العناية بجمع ما كتبه الإمام محمد ابن الحسن الشيباني وغيره من أئمة الفقه الذين عُنوا بهذا الجانب من التشريع الإسلامي، - وهو مفرَّق في مكتبات العالم - وتحقيقه تحقيقًا علميًا، وإعادة ما طبع منه دون تحقيق، وخدمة هذه المؤلفات بفهرستها بفهارس كاشفة عن كل ما فيها من أحكام ومبادئ وقواعد، ثمَّ ترجمتها إلى اللغات الأجنبية ترجمة دقيقة مع شروحات حيال بعض القضايا التي قد تلتبس أو تكون موضع شبهة.

وكذلك من الأهمية بمكان أن يتوافر عدد من الباحثين ممن يجمعون بين الثقافتين الشرعية والقانونية لدراسة آراء الإمام الشيباني في جميع مسائل العلاقات الدولية بتعمق وشمول، وكذلك لدراسة آراء الأئمة الآخرين الذين توفروا على الاهتمام بهذا الجانب كالإمام أبي إسحاق الفزاري والأوزاعي وغيرهما[٨٧]. ولعل مما يساعد على ذلك أن يفتح الباب للتسجيل في الدراسات العليا في تحقيق هذا التراث المتعلق بالقانون الدولي والعلاقات الدولية.

الحواشي

١. عن ((قواعد العلاقات الدولية في القانون الدولي والشريعة الإسلامية)) د. جعفر عبدالسلام، ص(٣١).
٢. انظر:((الشرع الدولي في الإسلام)) د. نجيب أرمنازي، ص(٤٤ - ٤٥).
٣. سورة طه، الآية(٢١).
٤. انظر:((معجم مقاييس اللغة)) لابن فارس: ١٢٠/٣ - ١٢١،((الصِّحاح)) للجوهري: ٦٩١/٢،((أساس البلاغة)) - للزمخشري: ٤٧٣/١،((المعجم الوسيط)) مجمع اللغة العربية: ٤٦٧/١.
٥. انظر:((السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي))، د. مصطفى السباعي، ص(٤٧).
٦. انظر:((الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ)) للسخاوي، ص(٥١٨) ضمن كتاب((علم التاريخ عند المسلمين)) تأليف روزنتال، ترجمة صالح العلي.
٧. انظر: ثبتاً بأسماء مؤرخي السيرة والمغازي في((الإعلان بالتوبيخ)) للسخاوي، ص(٥٢٥ - ٥٢٦)، و((نشأة - التدوين التاريخي)) د. حسين نصار، ص(٢٧) وما بعدها.
٨. انظر:((حدائق الأنوار في سيرة النبي المختار)) لابن الديبع الشيباني، ص(٣) من مقدمة المحقق.
٩. انظر:((فقه السيرة النبوية)) تأليف منير محمد الغضبان، ص(١٣).
١٠. انظر:((أنيس الفقهاء)) للقونوي، ص(١٨١)،((كشاف اصطلاحات الفنون)) للتهانوي: ١٧٠/١،((الكليات)) للكفوي: ٣٨/٣،((فتح القدير)) للكمال بن الهمام: ٢٧٧/٤.
١١. انظر:((سيرة ابن هشام)): ٦٣٢/٢.
١٢. ((الطبقات الكبرى)) لابن سعد: ٢٨٣/١.
١٣. ((المبسوط)) للسرخسي: ٢/١٠.
١٤. الترجمة بمعنى العنوان.

١٥. انظر: ((تهذيب الأسماء واللغات)): ١٥٩/٣، ((روضة الطالبين)): ٢٠٤/١٠ كلاهما للنووي.

١٦. انظر: تقديم الشيخ أبي زهرة لكتاب ((السِّير الكبير)) للإمام محمد بن الحسن الشيباني بشرح السَّرْخَسِيّ، ص(٣٣).

١٧. ويشير الدكتور صبحي محمصاني - كذلك - إلى أن الفقهاء المسلمين نادراً ما يستعملون كلمة ((القانون)) وإنما استعملوا مكانها كلمة الشرع والشريعة والحكم الشرعي. وللكلمة اليوم ثلاثة معان، أولها - وهو الأعم - يقصد به المدونة أو مجموعة الأحكام، وثانيها يراد به الشرع والشريعة بوجه عام، وأخيراً تطلق على كل قاعدة من قواعد المعاملات المالية الإلزامية. وهذا الأخير من صفاته أنه يتعلق بالمعاملات المدنية دون العبادات خلافاً للفقه الإسلامي. ((فلسفة التشريع في الإسلام)) ص(١٧ - ١٨).

١٨. انظر: كتابه ((دولة الإسلام والعالم)) ص(١٤) ترجمة فتحي عثمان.

١٩. انظر: ((الشرع الدولي في الإسلام)) د. نجيب أرمنازي، ص(٤٤).

٢٠. انظر ترجمته في: ((الطبقات الكبرى)) لابن سعد: ٢٤٦/٦ - ٢٥٦، ((تاريخ بغداد)) للخطيب: ٢٢٧/١٢ - ٢٣٣، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم: ٣١٠/٤ - ٣٣٨، ((تذكرة الحفاظ)): ٧٩/١ - ٨٨، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي: ٢٩٤/٤ - ٣١٩، ((شذرات الذهب)) لابن العماد: ١٢٦/١ - ١٢٨.

٢١. ((تاريخ بغداد)): ٢٣٠/١٢.

٢٢. انظر: ((مسند الحارثي)) ضمن ((جامع المسانيد)) للخوارزمي: ٢٩٧/٢، ((مسند الإمام أبي حنيفة)) بشرح الملا علي القاري، ص(٤١١ - ٤١٢) (الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت).

٢٣. رواه الطبراني ورجاله ثقات. انظر: ((مجمع الزوائد ومنبع الفوائد)) للهيثمي: ٢٣/١٠.

٢٤. انظر ترجمته في ((الطبقات الكبرى)) لابن سعد: ٤٨٨/٧، ((طبقات خليفة بن خياط)) ص(٣١٥ - ٣١٦)، ((حلية الأولياء)): ١٣٥/٦ - ١٤٩، ((مشاهير علماء الأمصار)) لابن حبان، ص(١٨٠)، ((تهذيب التهذيب)): ٢١٦/٦ - ٢١٩، ((تذكرة الحفاظ)): ١٧٨/١ - ١٨٥، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي: ١٠٧/٧ - ١٣٤، وللدكتور عبدالله الجبوري رسالة عن ((الإمام الأوزاعي وفقهه)) (طبع بغداد)، وللدكتور صبحي محمصاني ((فقه الإمام الأوزاعي وتعاليمه القانونية)).

٢٥. انظر: ((الرد على سير الأوزاعي)) لأبي يوسف، ص (٣ - ٤)

٢٦. الثغور جمع لكلمة ثغر، وهو الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو على البلاد. انظر: ((المصباح المنير)) للفيومي: ٨١/١.

٢٧. انظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي: ١٠٧/٧.

٢٨. انظر: ((طبقات ابن سعد)): ٣٧١/٦ - ٣٧٤، ((الجرح والتعديل)) لابن أبي حاتم: ٥٥/١ - ١٢٦، ((تذكرة الحفاظ)): ٢٠٣/١ - ٢٠٧. ((تاريخ بغداد)): ١٥١/٩- ١٧٤.

٢٩. المصيصة - بفتح الميم وكسر الصاد المشددة- مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين إنطاكية وبلاد الروم، تقارب مدينة طرسوس. انظر: ((معجم البلدان)) لياقوت الحموي: ١٤٤/٥ - ١٤٥.

٣٠. انظر: ترجمته في ((تذكرة الحفاظ)): ٢٧٣/١ - ٢٧٤، ((سير أعلام النبلاء)): ٥٣٩/٨ وما بعدها، ((تهذيب التهذيب)) للحافظ ابن حجر: ١٣١/١ - ١٣٢.

٣١. انظر: ((كتاب السير)) للفزاري، ص(٧٨).

٣٢. ((دولة الإسلام والعالم)) د. حميدالله، ص(٢٣ - ٢٤).

٣٣. ((شرح السِّير الكبير)): ٣/١ - ٤.

٣٤. انظر: ((روضة القضاة)) للسمناني: ١٢٥٦/٣.

٣٥. ((الشرع الدولي في الإسلام)) د. نجيب أرمنازي، ص(٤٥).

٣٦. ((شرح السِّير الكبير)) ص(٣٦) من مقدمة الشيخ أبو زهرة رحمه الله.

٣٧. ((الإمام محمد بن الحسن)) د. الدسوقي، ص(٣٥٩ - ٣٦٠).

٣٨. انظر: ((شرح السِّير الكبير)) للسرخسي، ص(٣) من تقديم الدكتور صلاح الدين المنجد، ((القانون الدولي الإسلامي: كتاب السِّير للشيباني)) تحقيق وتقديم د. مجيد خدوري، ص(٧٢ - ٧٣)، تقديم الشيخ محمد أبي زهرة لطبعة جامعة القاهرة من ((شرح السِّير)) للسرخسي، ص(١)، ((القانون والعلاقات الدولية في

الإسلام)) د. صبحي محمصاني، ص(٤٢).

٣٩. بروكلمان، المرجع السابق، وسزكين أيضاً: المصدر نفسه، د. خدوري، ص(٧٢)،((بلوغ الأماني)) ص(٦٤)،((تقديم الشيخ أبي زهرة للسير الكبير)) ص(٣٥ – ٣٦).

٤٠. انظر:((تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة)) لابن حجر، ص(٣٦٢). وبالرجوع إلى نص كلام أبي حاتم في((الجرح والتعديل)):(٢٢٧/٧) نجد العبارة مختلفة تماماً، فقد قال عبدالرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول:((وجدت في كتاب السِّير لمحمد بن الحسن صاحب الرأي عن الواقدي أحاديث، فلم يضبطوا عن محمد بن الحسن، فرووا عن محمد بن الحسن عن الواقدي أحاديث، ورووا الباقي عن محمد ابن الحسن عن مشايخ الواقدي..)) وبين العبارتين بون شاسع؛ إذ ليس في عبارة((الجرح والتعديل)) ما يشير إلى أن أصل((السِّير)) للواقدي.

٤١. انظر:((تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة)) لابن حجر، ص(٣٦٢). وبالرجوع إلى نص كلام أبي حاتم في((الجرح والتعديل)):(٢٢٧/٧) نجد العبارة مختلفة تماماً، فقد قال عبدالرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول:((وجدت في كتاب السِّير لمحمد ابن الحسن صاحب الرأي عن الواقدي أحاديث، فلم يضبطوا عن محمد بن الحسن، فرووا عن محمد بن الحسن عن الواقدي أحاديث، ورووا الباقي عن محمد ابن الحسن عن مشايخ الواقدي..)) وبين العبارتين بون شاسع، إذ ليس في عبارة((الجرح والتعديل)) ما يشير إلى أن أصل((السِّير)) للواقدي.

٤٢. ((مناقب أبي حنيفة)) للكردري، ص(٤٢٤).

٤٣. سورة الأنفال، الآية(٦١).

٤٤. سورة النساء، الآية(٧٥).

٤٥. سورة التوبة، الآية(٤).

٤٦. سورة البقرة، الآية(١٩٠).

٤٧. سورة البقرة، الآية(١٩٤).

٤٨. سورة المائدة، الآية(٨).

٤٩. انظر:((المدخل الفقهي العام)) للزرقا: ٢١٩/١ – ٢٢٠،((دولة الإسلام والعالم)) ص (١٨ و١١٠).

٥٠. انظر:((بدائع الصنائع)) للكاساني: ٤٢٩٥/٩ – ٤٢٩٦،((الأم)) للإمام الشافعي: ١٣٣/٤ – ١٣٤،((المغني)) لابن قدامة: ٣٠٨/١٠ – ٣١١.

٥١. انظر:((التشريع الإسلامي)) د. محمد يوسف موسى، ص(٦٦ – ٦٧).

٥٢. انظر:((القانون الدولي الإسلامي))، كتاب السِّير للشيباني، ص(٨٦ – ٨٧) من مقدمة الدكتور مجيد خدوري.

٥٣. انظر:((المدخل الفقهي العام)) للزرقا: ٢١٩/١ –٢٢٠،((دولة الإسلام والعالم)) ص (١٨ و١١٠).

٥٤. انظر:((بدائع الصنائع)) للكاساني: ٤٢٩٥/٩– ٤٢٩٦،((الأم)) للإمام الشافعي: ١٣٣/٤– ١٣٤،((المغني)) لابن قدامة: ٣٠٨/١٠ –٣١١،((التشريع الجنائي الإسلامي)) عبدالقادر عودة: ٣٢٥/١ – ٣٥٥،((العقوبة في الفقه الإسلامي)) محمد أبو زهرة(٢٤١ – ٢٥٥)،((دولة الإسلام والعالم))، ص(٣١).

٥٥. سورة النساء، الآية(٥٨).

٥٦. سورة المائدة، الآية(٨).

٥٧. سورة النساء، الآيات(١٠٥ – ١٠٧). وانظر القصة في((سنن الترمذي)): ٣٩٥/١٨ – ٣٩٩، مع ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري، ((تفسير الطبري)) ١٨٣/٩، ((تفسير البغوي)): ٢٨٣/٢ – ٢٨٤، وانظر: ما كتبه الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – بقلمه البليغ في((الظلال)): ٧٥١/٢ – ٧٥٣.

٥٨. سمرقند بلد مشهور في جمهورية أوزباكستان، على بعد(١٣٠) ميلاً جنوب شرق بخارى. فتحت في عهد معاوية صلحاً على يد سعيد بن عثمان بن عفان، ثمَّ أعاد فتحها قتيبة بن مسلم في خلافة الوليد سنة(٩٣ هـ). انظر:((معجم البلدان)): ٢٤٦/٣ – ٢٥٠،((الموسوعة العربية)) لفريق من الأساتذة، ص(٤١٦ – ٤١٧).

٥٩. انظر:((تاريخ الطبري)): ٥٦٨/٦ – ٥٦٩، ((فتوح البلدان)) للبلاذري: ٥١٩/٣،((الكامل)) لابن الأثير: ١٦٢/٤ – ١٦٣.

٦٠. انظر:((الخراج)) لأبي يوسف، ص(١٤٩ – ١٥٠).

٦١. سورة المائدة، الآية(١).

٦٢. سورة الإسراء، الآية(٣٤).

٦٣. سورة التوبة، الآية(٤).

٦٤. سورة النحل، الآيتان(٩١ – ٩٢)، وانظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص: ١٩٠/٢.

٦٥. أخرجه البخاري في الإيمان: ٨٩/١، ومسلم في باب خصال المنافق: ٧٨/١.

٦٦. أخرجهما البخاري في الجهاد: ٢٨٣/٦، ومسلم في باب الأمر بالتيسير: ١٣٦١/٣.

٦٧. أخرجه أبو داود في البيوع: ١٨٥/٥، والترمذي في البيوع: ٤٧٩/٤ وقال: ((حسن غريب))، والإمام أحمد في ((المسند)): ٤١٤/٣، وصححه الحاكم في ((المستدرك)): /٤٦، واختلف فيه تصحيحاً وتضعيفاً. انظ: ((نصب الراية)) ١١٩/٤، ((تلخيص الحبير)) ٩٧/٣..

٦٨. انظر القصة كاملة في ((الخراج)) لأبي يوسف ص(١٤٩ - ١٥١).

٦٩. انظر: ((حضارة العرب)) تأليف غوستاف لوبون، ص(٣٣٠ - ٣٣١)، ((الشرع الدولي في الإسلام)) د. أرمنازي، ص(٤٠ - ٤١)، ((المعاهدات الدولية)) د. أحمد أبو الوفا ص(١٢٤ - ١٢٥)، ((آثار المعاهدات بالنسبة للدول غير الأطراف)) د. محمد مجدي مرجان، ص(٢٣).

٧٠. انظر: ((التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي)) د.محمد يوسف موسى، ص(٦٠ - ٦١).

٧١. انظر: ((الموافقات)) للشاطبي: ٥٨/٢ - ٦٢.

٧٢. سورة الحجرات، الآية(١٣).

٧٣. سورة المائدة، الآية(٦٧).

٧٤. سورة آل عمران، الآية(١٠٤).

٧٥. سورة البقرة، الآية(١٤٣).

٧٦. ((أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية)) د. حامد سلطان، ص(١٨٠ - ١٨١)

٧٧. ((أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية)) د. حامد سلطان، ص (١٨٢ - ١٨٣). وانظر أيضاً ((الشخصية الدولية)) د. محمد كامل ياقوت، ص(٢٣٨) وما بعدها، ((القانون والعلاقات الدولية في الإسلام)) د. صبحي محمصاني، ص(٣٨)، ((الشرع الدولي في الإسلام)) د. نجيب أرمنازي، ص(٤٩ و١٧٥).

٧٨. سورة التوبة، الآية(٦).

٧٩. ((قواعد العلاقات الدولية))، ص(١٣٠).

٨٠. انظر: ((الشخصية الدولية)) د. محمد كامل ياقوت، ص(٢٧١ - ٢٧٣).

٨١. سورة الحجر، الآية(٩).

٨٢. سورة يونس، الآية(٦٤).

٨٣. سورة الأنعام، الآية(١١٥).

٨٤. سورة الروم، الآية(٣٠).

٨٥. انظر: ((تفسير البغوي)): ٢٧١/٦، ((المحرر الوجيز)) لابن عطية: ٢٥٩/١٢.

٨٦. ((الخصائص)) ص(٨٥).

٨٧. وتجدر الإشارة هنا إلى المشروع الكبير الذي قام به الأستاذ الدكتور أحمد أبو الوفا، أستاذ القانون الدولي العام بجامعة القاهرة، حيث أصدر موسوعة: ((الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام)) القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، وتقع في أحد عشر مجلداً، وفيها مجلد خاص عن أثر أئمة الإسلام في العلاقات الدولية.

أهم المصادر و المراجع

١. أبجد العلوم، لصدِّيق خان. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨.

٢. أبو حنيفة: حياته وعصره، آراؤه وفقهه، محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي ١٣٦٦.

٣. الآثار، لمحمد بن الحسن الشيباني، كراتشي، ١٤٠٧ هـ.

٤. أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية، د. حامد سلطان. دار النهضة العربية، ١٩٨٦.

٥. الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم، الناشر زكريا يوسف، مطبعة العاصمة.

٦. الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي. مؤسسة الحلبي بمصر، ١٣٧٨ هـ.

٧. اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى، لأبي يوسف، تصحيح أبو الوفاء الأفغاني، ١٣٥٨ هـ.

٨. إرشاد الساري شرح البخاري، للقسطلاني. دار الكتاب، بروت، ١٩٧٥م.

٩. الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ محمود شلتوت، الطبعة الرابعة. دار الشروق.

١٠. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، مكتبة نهضة مصر، ١٣٩٢ هـ.

١١. الأصل (أو المبسوط)، للشيباني، مطبعة إدارة القرآن، كراتشي.

علم السِّيَر "القانون الدَّولي والعلاقات الدَّولية" التنوع في إطار الوحدة

١٢. أصول السرخسي، لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدرآباد، ١٣٧٢ م.

١٣. الأم، للإمام الشافعي. مطبعة الشعب، ١٣٢١ هـ.

١٤. البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نُجَيم. دار المعرفة، ١٣١١.

١٥. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. مطبعة الإمام.

١٦. تقريب التهذيب، لابن حجر. تحقيق محمد عوامة، حلب، ١٤٠٦ هـ.

١٧. تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، دار الكتب العلمية، عن الطبعة المنيرية.

١٨. التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٠.

١٩. الجامع الصغير، للشيباني مع شرحه النافع الكبير، لأبي الحسنات اللكنوي، كراتشي بالباكستان.

٢٠. الجامع الكبير، للشيباني، نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية بالهند، طبع مصر.

٢١. رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين. مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٨٦ هـ.

٢٢. حدائق الأنوار في سيرة النبي المختار، لابن الديبع الشياني، تحقيق عبد الله الأنصاري، دولة قطر.

٢٣. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، لآدم متز. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧.

٢٤. خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب. دار الشروق، بيروت، ١٤٠٣.

٢٥. الخطط المقريزية، للمقريزي، دار العرفان، بيروت.

٢٦. الدُّر النَّقي في شرح ألفاظ الخِرقي، لابن عبد الهادي، دار المجتمع بجدة، ١٤١١.

٢٧. الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية، د. صبحي محمصاني. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣ هـ.

٢٨. الرسالة المحمدية، للسيد سليمان الندوي. مكتبة دار الفتح بدمشق، ١٤٠١.

٢٩. الرسالة، للإمام الشافعي. تحقيق أحمد شاكر، دار التراث، ١٣٩٩ هـ.

٣٠. الروض الأُنُف للسهيلي. المطبعة الجمالية، ١٣٣٢ هـ.

٣١. سنن الترمذي مع تحفة الأحوذي، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦ هـ.

٣٢. السِّير الكبير، للشيباني بشرح السرخسي، الإعلانات الشرقية، ١٩٧١ م.

٣٣. السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة، بيروت. عن طبعة الحلبي.

٣٤. السِّير والتراجم، محمد عبد الغني حسن. دار المعارف بمصر، ١٩٥٥.

٣٥. الشخصية الدولية في القانون الدولي والشريعة، محمد كامل ياقوت. عالم الكتب، ١٩٧٠ م.

٣٦. شرح السِّير الكبير، للسرخسي. تحقيق صلاح الدين المنجد، ١٩٧١ م.

٣٧. شرح صحيح مسلم، للنووي. دار الكتاب العربي، عن طبعة المطبعة المصرية.

٣٨. الشرع الدولي في الإسلام، د. نجيب أرمنازي. مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٣٤٩.

٣٩. الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، علي علي منصور. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٩٥.

٤٠. شريعة الله وشريعة الإنسان، علي علي منصور. سلسلة كتابك، دار المعارف بمصر.

٤١. صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي ١٣٧٤ هـ.

٤٢. علم أصول الفقه، للشيخ عبد الوهاب خلاّف. دار القلم، بالكويت، ١٩٨٨.

٤٣. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني. دار الفكر، عن الطبعة المصرية.

٤٤. عون المعبود، شرح سنن أبي داود، للعظيم آبادي المكتبة السلفية بالمدينة ١٣٨٨.

٤٥. فتوح البلدان، للبلاذري. تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٦ م.

٤٦. فقه السيرة النبوية، منير محمد غضبان، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤١٠.

٤٧. القانون الدولي الخاص، مصطفى الحفناوي. منشورات كلية الشريعة، مطبعة الأزهر، ١٣٧٤.

٤٨. القانون الدولي العام في السلم والحرب، الشافعي بشير. منشأة المعارف، ١٩٧١ م.

٤٩. القانون الدولي العام وقت السلم، حامد سلطان. دار النهضة العربية، ١٩٧٦ م.

٥٠. القانون الدولي العام، إبراهيم العناني. دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٥.

٥١. القانون الدولي العام، حامد سلطان وآخرين. جامعة القاهرة، ١٩٧٧ م.
٥٢. القانون الدولي العام، علي ماهر. مطبعة الاعتماد، ١٣٤٢ هـ.
٥٣. القانون الدولي العام، محمود سامي جنينة. دار التأليف للطباعة، ١٩٣٨ م.
٥٤. القانون الدولي، حسني جابر. دار النهضة العربية.
٥٥. قانون السلام في الإسلام، د. محمد طلعت الغنيمي. منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٨.
٥٦. القانون والعلاقات الدولية في الإسلام، د. صبحي محمصاني. دار العلم للملايين.
٥٧. كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي. المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ١٣٨٢،
٥٨. كشف الأسرار عن أصول البزدوي، للبخاري، دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٩. الكليَّات، لأبي البقاء الكفوي، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٨٢.
٦٠. اللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير. دار صادر، بيروت، ١٤٠٠.
٦١. مبادئ القانون الدولي العام، عبد العزيز سرحان. دار النهضة، ١٩٨٠
٦٢. مبادئ القانون الدولي العام، محمد حافظ غانم. الطبعة الرابعة، ١٩٦٤.
٦٣. المبسوط، للسرخسي. دار المعرفة، بيروت، عن الطبعة الأولى بمصر.
٦٤. مجلة القانون والاقتصاد. يصدرها أساتذة كلية الحقوق بجامعة القاهرة.
٦٥. المجلة المصرية للقانون الدولي. تصدرها الجمعية المصرية للقانون الدولي.
٦٦. المدخل الفقهي العام، مصطفى أحمد الزرقا. مطابع الأديب، دمشق، ١٣٩٢.
٦٧. المسند، للإمام أحمد بن حنبل. طبعة المكتب الإسلامي، ١٤٠٥ هـ.
٦٨. المشروعية الإسلامية العليا، علي جريشة. مكتبة وهبة، ١٣٩٦.
٦٩. المشروعية في النظام الإسلامي، د. مصطفى كمال وصفي. مطبعة الأمانة، ١٣٩٠.
٧٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧.
٧١. المصنَّف، لابن أبي شيبة، الدار السلفية بالهند، ١٤٠٣هـ.
٧٢. المصنَّف، لعبد الرزاق، نشر المجلس العلمي بالهند، ١٤٠٣ هـ.
٧٣. مصنفة النظم الإسلامية، د. مصطفى كمال وصفي. مكتبة وهبة، ١٣٩٧.
٧٤. المطلع على أبواب المقنع، للبعلي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٣٨٥.
٧٥. المعجم الوسيط. إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
٧٦. المُغْرِب في ترتيب المُعْرِب، للمطرِّزي، حلب، سورية، ١٣٩٩.
٧٧. المغني شرح مختصر الخرقي، لابن قدامة، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
٧٨. الملكية ونظرية العقد، محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي، ١٩٧٧.
٧٩. الموطأ، للإمام مالك بن أنس، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.
٨٠. الموطأ، رواية محمد بن الحسن، مع التعليق الممجَّددار القلم بدمشق، ١٤١٢
٨١. ميثاق الأمم والشعوب في الإسلام، د. عبد الفتاح حسن. مطبعة الأزهر، ١٣٧٨.

الحياة الفكريَّة والأدبيَّة واللُّغويَّة بفاس خلال القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر الهجريّين (دراسة في عوامل ازدهارها ومظاهرها)

الدكتور الحاج بنيرد
باحث في التراث والمخطوطات
ولاية الشلف - الجزائر

تَمْهِيد:

إنَّ ارتباط الحياة الثَّقافيَّة والفكريَّة واللُّغويَّة بالحياة الاجتماعيَّة والسَّياسيَّة ارتباطٌ وثيقٌ معروف لا يخلو منه زمان ولا مكان ولا جيل من النَّاس، بل هما وجهان لعملة واحدة، فكلما ازدهرت هذه ازدهرت تلك، ولا يتخلَّف عن هذا القانون العام إلا ما شذّ، من نحو الحياة العلميَّة والفقهيَّة أثناء مرحلة النّكبة بالأندلس، فقد ازدهرت فيها الحياة اللُّغويَّة والفكريَّة وأنجبت أشهر علمائها على مدى ثمانية قرون من تاريخها كابن مالك النّحوي (ت ٦٧٢هـ)، وابن عصفور الإشبيلي (ت٦٦٩هـ)، ولسان الدّين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، وأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) وغيرهم.

وهذا الكلام يتأكّد بشقّيه في حالة المغرب الإسلامي خصوصًا في أزمانه المُتأخّرة، فنرى ذلك بوضوح عبر أقطاره، فعلى الرغم من وحدة الزّمان والمكان والمعتقد والمذهب، وحتّى العرق والنّسب إلا أنّنا لاحظنا تفاوتًا علميًّا وحضاريًا بين أقطاره فحيثما ازدهرت الحياة الاجتماعيّة والحضاريَّة والسَّياسيَّة تفتَّحت القريحة وتفتَّقت الأذهان، وهذا يُدعِّم تحدِّي نظريَّة العُمران لعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) للزَّمان والمكان[1].

فإذا أخذنا حواضر كمدينة تلمسان في عصر الزّيانيين (٦٣١هـ - ٩٦٢هـ)[2]، أو مدينة فاس منذ نشأتها إلى عهود متأخّرة فنراها قد امتدَّت شهرتهما الآفاق وقصدهما العلماء والطَّلبة من الشَّرق والغرب، وبالأخصّ مدينة فاس التي كانت تُضاهي مدن المشرق والأندلس حِضارة وعلمًا حتَّى غدت مرادفة للعلم والفقه، فلا تُذكر إلا به ولا

يكاد يخلو ذكره إلا بها.

ولقد وصلت الحياة الفكريَّة بها أعزّ أيَّامها في القرن الثامن الهجري مع المرينيّين، فكثر علماؤها وازدهرت مساجدها بالأعيان والعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، حتّى قيل فيها: «لا يوجد بها موضع شبر إلا وفيه عالم أو وليّ صالح»[٣].

وقد خصَّها بالتَّأليف والتَّأريخ وترجمة أعيانها ما لا يُحصى كثرة، وما ذلك إلا لما ذكرناه، منها على وجه التَّمثيل:

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس[٤]، لابن أبي زرع الفاسي (ت ٧٤١هـ)، بدأ فيه من تاريخ تأسيسها على يد الأدارسة سنة ١٨٢هـ إلى سنة ٧٢٦هـ.
- الذَّخيرة السَّنِيَّة في تاريخ الدَّوْلة المَرينيَّة[٥]، لأبي الحسن علي الجزنائي (ت بعد ٧٦٦هـ)، وله أيضًا:
- زهرة الآس في أخبار مدينة فاس[٦]، واختصره بكتاب:
- جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس[٧].
- الرّوض العطر الأنفاس بأخبار الصَّالحين من أهل فاس[٨]، لأبي عبد الله محمّد بن محمّد المعروف بابن عَيْشُون الشَّرّاط (ت ١١٠٩هـ).
- جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس[٩]، لأحمد بن محمد المكناسي الشّهير بابن القاضي (ت ١٠٢٩هـ).
- ومن المُحْدَثين كتاب (الاستئناس بتراجم فضلاء فاس) للحافظ أحمد بن محمد بن الصّدّيق الغماري (ت ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)، وكتاب (فاس عاصمة الأدارسة) [١٠] للشّيخ محمد بن محمد الزمزمي الكتاني (ت١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- كما خصّها الأجانب بالتّأليف مثل (فاس في عصر بني مرين) للكاتب روجيه لوتورنو، وترجمه من الإسبانية إلى العربية نيقولا زيادة[١١] وغيرها كثير.

١- الحياة الفكرية والثقافيّة بفاس وعوامل ازدهارها:

لقد ارتبطت الحياة والفكريَّة والعلميَّة بفاس منذ نشأتها بنظيرتها في الأندلس غالبًا بحكم قرب المكان ووحدة المذهب والعُرف، وحتَّى تناغم الحياة السياسيَّة بين الضَّفَّتين الّتي سادها بعض الأحيان الخلاف والعداء وأحيانًا أخرى التَّوافق والولاء، ولم تتبلور الحياة العلميَّة بشكل لافت وريادي في مدينة فاس إلا بعد اتّخاذها مركز حكم المرينيّين بعد سنة ٦٤٨هـ، فأصبحت عاصمة العلم والفقه في المغرب وما جاوره، واستمرَّت على ذلك ردحا طويلاً من الزمن[١٢].

والفضل يرجع إلى بني مرين الّذين ناصروا التَّعليم العالي مناصرة فعَّالة في فاس بحيث إنَّه يمكن اعتبارهم المؤسَّسين الحقيقيِّين لجامعة القروِيِّين، وفي عهدهم انتشرت المدارس استجابة للواجب الدِّيني والسِّياسي، وفيها تمَّ تخصيص المدارس لإيواء الطَّلبة الوافدين من كلّ مكان، وهذا ما أدَّى بالطَّبع إلى نشوء التّيّار الصّوفي وتأسيسه[١٣].

ولقد غلبت العلوم الدِّينيَّة على التَّدريس بفاس، والتي تشمل التَّفسير والحديث والتَّوحيد وخاصَّة الفقه، وكانت العلوم اللُّغويَّة والطَّبيعيَّة والرِّياضيَّة ضعيفة بعض الشَّيء إلا ما لابُدَّ منه للفقيه والمحدّث والمفسّر. كما كان المحور الأساسي في العلم هو نقل التُّراث من جيل إلى جيل للحفاظ

عليه، ويظهر ذلك خصوصًا من خلال العناية بالسَّند في رواية الكتب وإقرائها، وغلبة علوم النّقل على علوم الدّراية، والاهتمام بالإجازات. وفي هذه المرحلة نشأت عاداتٌ جديدة كالاحتفال بالمولد النّبويّ الشَّريف الّذي رسَّمه السُّلطان أبو يعقوب المريني سنة ٦٩١هـ[١٤].

كما ساعدت حياة التّقشّف على صبر النّاس على العلم والفقه فنشأت بذلك نخبة مُثقفة بفاس تُضاهي بها وتُفاخر المشرق، ولها دورٌ في الحياة السياسيّة والفكريَّة خصوصًا في القرن العاشر الهجري وما بعده.

ومع حلول القرن الحادي عشر الهجري تشكَّل بمدينة فاس نسيجٌ اجتماعيّ وثقافيّ مُتنوّع وحيويّ لا توقفه ظروف ولا يَحُدُّ من نشاطاته ملابسات الحياة من سياسة واقتصاد وتجارة، فورثت بذلك مخلّفات العصور السّابقة بحلوها ومرّها.

ولقد اجتمعت عوامل عدّة لتوفّر ذلك الجوّ الثقافي الأصيل الرّاقي فكرًا وحضارة وفقها وسياسة، ممّا جعلها تصمد في وجه الغزو الأجنبي، ففاقت غيرها من حواضر المغرب والمشرق، وشُدَّت الرّحال إليها من جميع الأقطار طلبًا للأمن أو طلبًا للرزق أو رغبة في العلم، وما ذلك إلا لاجتماع عوامل كثيرة مكّنتها أن تكون من أهم عواصم العالم الإسلامي ومن أشهر مراكز الإشعاع الفكري والحضاري، ونستطيع أن نجتهد في إبراز هذه العوامل فيما يأتي:

أ- تأسيس مدينة فاس نفسها، فقد بناها إدريس الأصغر (ت ٢١٣هـ) بن إدريس الأكبر (ت ١٧٥هـ) بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن السّبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وذلك سنة ١٨٢هـ، وقد ظلّت عاصمة للأدارسة حتى سنة ٣١٧هـ[١٥].

وقد يتساءل مُتسائل فيقول: ما علاقة تأسيسها على يد الأدارسة وسقوطها في وقت مبكّر بازدهار العلوم بها حتّى عهود متأخّرة؟

والجواب أنّه عُرف عن المغاربة عمومًا محبَّة أهل البيت وتوقيرهم وتَوَلّيهم ونصرتهم حين فرّوا من المشرق والحجاز، فوجدوا فيهم حُسن العزاء وتمام الولاء، ولا أدلّ أيضًا على ذلك من أنّ كثيرًا ممّن طمحت نفسه إلى السّلطة منهم كان ينتسب إليهم ولو زُورًا كما قيل في شأن المرابطين والمرينيين وادّعاء المهدويَّة.

وقد ذُكر أنَّ إدريس لمَّا أراد الشُّروع في بنائها رفع يديه وقال: «اللّهمّ اجعلها دار علم وفقه، يُتلى فيها كتابك، وتُقام بها حدودك، واجعل أهلها متمسّكين بالسّنّة ما أبقيتها» ثمّ أخذ المِعْوَل بيده فابتدأ بحفر الأساس[١٦]، فصارت مدينة فاس بذلك مأوى للغرباء، من دخلها أو سكنها صَلُحَ حاله بها، وقد نزلها كثير من العلماء والفقهاء والصّلحاء والأدباء والشّعراء والأطباء وغيرهم، فهي في القديم والحديث دار علم وفقه وحديث وعربية.

واتّصفت بصفة البركة والقداسة والولاية عند المغاربة عمومًا، ولا يزالون يُعظّمونها ويُولُونها أكبر الاهتمام لمكانة إدريس الأزهر (ت ٢١٣هـ) بها ومقامه المشهور هناك، فقصده الزَّائرون وتبرّك بها النّاس، وجاورت ثراه العلماء ورغّبوا في ذلك[١٧]، ولا زالت مدينة فاس في نموّ وزيادة وتكاثر، خصوصًا مع قدوم المهاجرين الأوائل من أهل القيروان، فبنوا جامعا نُسب إليهم وهو «جامع القرويين» سنة ٢٤٥هـ، وصار أقدم جامعة للدّراسات العليا في العالم، ونافسه في هذه المهمّة «جامع الأندلس» الذي أسّسه المهاجرون الأندلسيّون الأوائل[١٨].

مقالات

ب- ومن أهمّ عوامل إشعاع مدينة فاس فكرا وحضارة هو وُفُور الأمن واستقرار الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة بها عبر مختلف عهودها، خصوصًا عندما كانت عاصمة للمرينيّين ثم السّعديّين، فسكنها السّلاطين والأمراء، وتوفّرت المنعة ونفوذ أحكام أهل الحلّ والعقد بها، وهذا لا يعني أنها كانت بمنأى عن الاضطرابات والفتن، ولكنّها إذا ما قيست بغيرها من حواضر المغرب الإسلامي فهي أوفر أمنًا وأقرب إلى الدَّعَة والحضارة والاستقرار.

ولكنّها مع أُفول أيّام عزّ السّعديين صارت إلى الفوضى والاضطرابات، وتجاذبتها أطراف الصّراع فلحقها ما لحقها من الخراب، وقد كانت وفاة السّلطان المنصور السّعدي سنة ١٠١٢هـ نكبة في تاريخ المغرب عمومًا ومدينة فاس بشكل أخصّ؛ إذ تنازع أبناؤه المُلْك من بعده وتقاتلوا قتالاً عظيما ومزّقوا الدّوْلة السّعْديّة الّتي كانت حصنًا منيعًا يحتمي به المغرب كلّه من غزو الإسبان والبرتغاليين، فأفضى بهم ذلك إلى تبديد ملكهم واستأثر كلّ أحد منهم بجهة من جهات المغرب أو حتّى بمدينة من مدنه، وكان أمر فاس بيد الشّيخ المأمون ابن المنصور السّعدي حتّى قتل سنة ١٠٢٢هـ، فورثه ابنه عبد الله بن الشّيخ، ثم أخوه عبد الملك وهو آخر الأمراء السّعديّين بفاس وتوفي سنة ١٠٣٦هـ، ولا يزال أمرها في اضطراب وفوضى وفشوّ الفساد وظهور قُطّاع الطرق، فقام أهل الزّاوية الدّلائية[١٩] بواجب تغيير المنكر والأخذ على يد الظّالم وملأوا الفراغ الذي تركه السّعديّون، فدخل السّلطان محمد الحاج بن محمد الدّلائي مدينة فاس سنة ١٠٥١هـ[٢٠]، فأعاد لها حُرمتها، ومع ذلك فقد ظلّت محلا لصراع طويل مع الدّولة العلويّة النّاشئة الّتي كانت تزحف على مدن الجنوب المغربي على يد السّلطان محمد بن الشّريف السّجلماسي (ت ١٠٧٥هـ)، ثمّ تولّى أخوه السُّلطان الرَّشيد بن الشّريف (ت ١٠٨٣هـ) أمر المغرب فحارب الدّلائيّين وهزمهم في معركة بطن الرُّمّان ودخل فاس سنة ١٠٧٩هـ[٢١]، وقصد الزَّاوية الدّلائية فأجلى أهلها وخرّب دُورَها وجعل مركز ملكه مدينة مكناسة الزّيتون، ولأوّل مرة منذ قرون عديدة يخرج الدّور السّياسي الرّيادي من مدينة فاس إلى غيرها من مدن المغرب، وذلك لعداء سَوَادِها للدّولة النّاشئة وتمرّدهم عليها[٢٢].

غير أنّ المُلفت للنّظر هو أنّ الحركة العلميّة قد استمرّت على سابق عهدها إن لم نقل أنّها قد ازدادت ثراء ونماء وتنوّعًا، ولاسيّما بعد سقوط دولة الدّلائيين فقد هاجر إليها علماؤها وأدباؤها، وهم صُدُور علماء زمانهم، وكذلك بعد استقرار الأوضاع نسبيًا في عهد ثالث سلاطين الدّولة العلويّة وهو السّلطان إسماعيل بن علي الشّريف (ت ١١٣٩هـ)، والّذي طالت أيّام حكمه وحسنت سيرته في رعيّته بالعلم والحزم، وقد اُعتبِر واسطة عقد العلويّين في عهودهم الأولى[٢٣].

ج- ومن عوامل ازدهارها الفكري والحضاري اهتمام الأمراء والسّلاطين بالعلم واحتفاؤهم بالعلماء والأدباء، بل كان منهم العلماء والأدباء.

ففي عهد المرينيّين (٦٤٨هـ - ٨٧٦هـ) اشتهر بالعلم منهم أبو سعيد عثمان بن يعقوب المريني (ت ٧٣١هـ) وابنه أبو الحسين علي بن عثمان (ت ٧٥٢هـ) وحفيده أبو عنان فارس بن علي (ت٧٥٩هـ) وهذا الأخير كان يُناظر العلماء ويُعظّم الصُّلحاء[٢٤].

وإليهم يرجع الفضل في بقاء مذهب الإمام مالك (ت ١٧٥هـ) في بلاد المغرب الأقصى، وقد اشتدَّت عنايتهم بعلوم العربيّة[٢٥]، وبرز في هذه

المرحلة العديد من العلماء والأدباء والشعراء، كابن رُشَيْدٍ السّبتي (ت ٧٢١هـ)، وابن بطوطة الطنجي الرحالة (ت ٧٧٩هـ)، ومالك بن المرحّل السّبتي (ت ٦٩٩هـ)، وبدأت في أيّامهم العناية بمختصر خليل والرّسالة وعلم الفرائض، ونُصِّبت لها كراسي تدريس بجوامع فاس وفي مقدمتها «جامع القرويين»، ومنهم الفقيه المتصوّف محمد بن الحاج الفاسي (ت ٧٣٧هـ) صاحب (المدخل) في الفقه، كما اعتنوا بشرح أمهات النحو واللغة كشرح كتاب سيبويه لابن رُشَيْدٍ السّبتي (ت٧٢١هـ)، وشرح عبد الرحمان المكودي الفاسي (ت ٨٠٧هـ) على ألفية ابن مالك، وفيها أُلِّفَ متن (الآجُرُّوميّة) في النّحو لأبي عبد الله محمد ابن آجرُّوم الصنهاجي الفاسي (ت ٧٢٣هـ)، وتُعدّ هذه المرحلة بداية تفوّق مدينة فاس على غيرها من أقطار المغرب[٢٦].

أما في العهد الوطاسي (٨٧٦هـ-٩٦١هـ) فقد تراجعت الحركة الفكرية، ولم يَعْرف هذا العهد الكثير من العلماء المُبْرِزين كما كان من قبل، بينما انتشرت الكتاتيب والزّوايا وكثُر حفظة القرآن الكريم وألفية ابن مالك والرسالة ومختصر خليل مع قلة العناية بعلوم الدّراية، وخاصّة غياب استفادتهم من النّحو في إصلاح ألسنتهم، وتميّزت بانكبابهم البالغ بعلوم الفقه[٢٧]، وقلّ فيها النُّسَّاخ واشتدّ غلاء الكتب، والتي كانت تباع بالمزاد العلني يوم الجمعة قرب جامع القرويين، وبقيت تلك عادة سارية إلى يوم النّاس هذا[٢٨].

ومن علماء هذه الفترة محمّد بن علي الزّواويّ (ت ٨٥٩هـ)، وأبو عبد الله محمّد بن أحمد ابن غازي الفقيه (ت ٩١٩هـ)، وأبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت ٩١٤هـ)، وولده عبد الواحد (ت ٩٥٥هـ) قاضي فاس ومفتيها، وتلميذه عبد الوهاب ابن محمد الزّقّاق الفاسي (ت ٩٦١هـ) وغيرهم[٢٩].

أمّا في العهد السّعدي (٩١٥هـ- ١٠٦٩هـ) فقد ورثوا مخلّفات المرحلة السّابقة من تأخّر فكريّ وحضاريّ، وفوضى واضطرابات سياسية واجتماعية، فعملوا على تحقيق الأمن وصَدّ الغُزاة الأجانب عن حَوْزة مملكتهم، وقد تصدّر العلماء في عصرهم الحياة السياسية بل كان من سلاطينهم العلماء كالسّلطان أبي عبد الله محمد المهدي (ت٩٦٤هـ) وقد عُرف بالشّيْخ لتفقهه بفاس والسّوس، ومنهم ابنه أحمد المنصور الذّهبي (ت١٠١٢هـ) الذي أخذ عن علماء عصره مثل أحمد بن علي المنجور الفاسي (ت ٩٥٥هـ)، وقد كانت ولايته ولاية علم وحضارة، فاستوزر العلماء وبسط لهم في مجلسه ولا يقطع أمرًا دون مشورتهم، وأجازه علماء المشرق والمغرب، واعتنى بمكتبة جامع القرويين، ومآثره جليلة وهو واسطة عقد السّعديّين فقد طالت أيّام ملكه، وأمنت به البلاد وهابه الغزاة وعزّت في دولته العلماءُ والأدباء، وهو معدود من جملتهم[٣٠].

وبالجملة فقد كان لسلاطين الدَّولة السَّعدية وُلوعٌ بالأدب والفقه والطبّ[٣١]، وأتقنوا العربيَّة وترجموا بعض أعمال الأجانب إليها، وتوفَّرت الكتب وصار لكل جامع مكتبة ملحقة به، وهذا رغم الفتن والاضطرابات التي تلت عصرهم الذّهبي بعد وفاة أحمد المنصور الذّهبي سنة ١٠١٢هـ، وممّا زاد في ثراء الحياة الفكريَّة بالمغرب هو وجود الزَّاوية الدَّلائية في القرن الحادي عشر الهجري وامتداد شهرتها في الآفاق بعلمائها وأدبائها وصُلحائها.

ولا نُغالي أبدًا إذا قلنا إنَّ أغلب علماء المغرب عبر تاريخه كانوا في هذه المرحلة من حيث

عددُهم ومؤلفاتهم، لكثرة الزوايا العلمية وثراء ساحات الجوامع بحِلَق العلم والدرس ووفرة الكتب والمؤلفات.

وبرز العديد من الفقهاء في أيّام السّعديّين منهم أبو زكريا يحيى بن محمد السّرّاج (ت١٠٠٨هـ)، وعبد الواحد بن أحمد بن عاشر الفاسي (ت١٠٤٠هـ)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي (ت ١٠٧٢هـ)، والعلّامة الفقيه المُتكلّم النّحوي أحمد بن علي المَنْجور الفاسي (ت٩٩٥هـ).

كما انتشر علم الكلام وقامت سُوقه ونفقت بضاعته، وعكفوا على شرح (أمّ البراهين) لمحمد ابن يوسف السنوسي التلمساني (ت ٨٩٥هـ) وغيرها من متون الكلام والمنطق[٣٢].

وقد برز في التّصوّف أبو العباس أحمد التادلي (ت ١٠١٣هـ)، وفي النّحو محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي المعروف بالمُرابط (ت ١٠٨٢هـ) ويُعرف بسيبويه زمانه، وفي الطب أبو القاسم الفشتالي (ت ١٠٥٩)، وفي الرياضيات محمد بن محمد المكناسي (ت ٩٨١هـ)، ومحمد بن أحمد الرسموكي الجُزُوليّ (ت ١٠٢٠هـ) [٣٣] وغيرهم كثير.

وأمّا في عهد الدّولة العلويّة الحديثة (١٠٦٩هـ-.....) فقد ورثوا حركة علمية تميّزت بالفُتور والتّراجع في حواضر المغرب كفاس ومُرّاكش بسبب التناحر بين السعديين بعد أفول شمسهم في عهد المنصور الذهبي (ت ١٠١٢هـ)، ولكنها بالمقابل كانت نشيطة وثرية في البوادي بفعل نشاط الزوايا كالزاوية الدلائية والعياشية[٣٤].

وأمّا الزّاوية الدّلائيّة التي يُعْزَى إليها فضل بقاء علوم اللغة والأدب والفقه في القرن الحادي عشر فقد تشتَّتَتْ وهُدِّمت دُورُها وخُرِّبت معاهدها على يد السّلطان العلوي الرشيد بن علي الشريف (ت١٠٨٣هـ) بسبب أطماعها السياسية، ومع ذلك فقد انتقل إشعاعها إلى مدينة فاس وغيرها بعد هجرة علمائها وجلائهم إليها، وقد حوّل الرّشيد العلوي مركز سلطته إلى مكناسة الزيتون، لشدّة الاضطرابات بمدينة فاس، التي فقدت بريقها الذي اكتسبته طيلة قرون[٣٥].

وفي عهد السُّلطان إسماعيل (ت ١١٣٩هـ) عاد الاستقرار إلى البلاد ونشطت الحركة العلمية بعض الشيء وخصوصًا بفاس بفضل المهاجرين الدِّلائيين وغيرهم، وقد شابهت هذه الفترة الفترات السَّابقة من حيث اهتمام الأمراء والسَّلاطين بالعلم والعلماء؛ منهم السّلطان إسماعيل الذي عفا عن الدِّلائيين إكرامًا لعلمائهم وصلحائهم، وقد برز منهم أيضًا ابنه أبو عبد الله محمد بن السلطان إسماعيل (ت ١١١٨هـ) الذي كان ماهرًا بالنّحو والبيان والمنطق والكلام والأصول، وكان حريصًا على مجالسة العلماء ويبالغ في تعظيمهم وإكرامهم، لكنّه ثار على أبيه وحصلت فتنة عظيمة انتهت بمقتله بمكناسة سنة ١١١٨هـ[٣٦]، ومع ذلك فقد أكرم السّلطان أصحابه وجلساءه من العلماء ولم يعاتبهم منهم العلامة الفقيه أبو عبد الله المَسْناوي (ت ١١٣٦هـ).

وتميَّزت الحياة الفكريَّة في المراحل الأولى للعلويّين بمراقبة السُّلطة من خلال إصلاحات السُّلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت ١١٩٣هـ)، فسَنَّ قوانين تحدّد نشاط القضاء والإمامة والإفتاء والتدريس[٣٧]، كما أمر بالاهتمام بمصادر التشريع والتفسير وكتب الحديث، والرّجوع إلى المدوّنة في الفقه والرّسالة، ومن أراد شرح مختصر خليل فإنما يكتفي بشرح بهرام ابن عبد الله الكبير

(ت٨٠٥هـ)، ومحمد بن يوسف المَوَّاق (ت ٨٩٧هـ)، ومحمد بن محمد الحطاب (ت ٩٥٤هـ)، وعلي بن الحسن الأجهوري (ت ١٠٦٦هـ)، ومحمّد بن عبد الله الخرشي الكبير (ت ١١٠١هـ) لا غير، ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق والفلسفة وغلاة التّصوّف وكتب القصص فليتعاط ذلك في داره مع أصحابه، وذلك لأنها تصُدّ العامّة عن تعلّم الضّروريّ من علوم دينهم، وقد أُبْطِل هذه المرسوم بعد وفاته[٣٨].

وقد اشتهر في هذه المرحلة علماءٌ أفذاذ، منهم محمد بن ناصر الدّرعي (ت ١٠٨٩هـ) الذي اشتهر بعلوم الفقه واللغة، والعلامة عبد القادر بن علي الفاسي الفقيه (ت ١٠٩١هـ)، وابنه الأديب الفقيه عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت١٠٩٦هـ)، وواسطة عقدهم وشمس سمائهم هو أبو عليّ الحسن بن مسعود اليوسي الأديب الفقيه المتكلّم (ت ١١٠٢هـ)، والذي قال فيه أبو سالم العياشي (ت ١٠٩٠هـ): [البسيط].

مَـنْ فَـاتَـهُ اَلْحَسَـنُ اَلْبَصْـرِيُّ يُـدْرِكُـهُ

فَلْيَصْحَبِ الْحَسَنَ اَلْيُوسِيَّ يَكْفِيهِ[٣٩]

ومنهم أيضًا أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي (ت ١١٣٦هـ) أحد أركان جامعة القرويّين، وأبو علي الحسن بن رحّال المَعْداني المكناسي (ت ١١٤٠هـ)، ومحمد بن عبد الرحمان بن زكري الفاسي (ت ١١٤٤هـ) وغيرهم كثير.

د- ومن مصادر تموين الثّقافة المغربيَّة وثراء الحياة الفكرية بفاس هجرة العلماء إليها من مختلف أصقاع العالم من المشرق والمغرب، وما من بلد من بلاد المسلمين إلا وفيه من هاجروا إلى فاس وعمّروها وزرعوا فيها حضاراتهم وثقافاتهم وعلومهم، فصارت بلدًا حيويًّا لا يعرف الرّكود مع ما عانته من الحروب والمجاعات والجوائح، فما إن تركد بها الحياة وتجفّ ينابيعها حتّى تعود كما كانت أو أكثر ببركة دعاء بانيها، فصارت تُضاهي بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة في أعزّ أيامها، وقد أتاها النّاس من كلّ صوب وحدب على اختلاف نواياهم، طلبًا للإمارة أو العلم أو الرّزْق أو خوفًا من مكروه وطلبًا للأمن.

فمن المشرق هاجر إليها إدريس الأكبر، وبناها ابنه إدريس الأصغر، ثمّ تلتها رحلات عرب الحجاز والعراق، أو الذين سكنوا القيروان وانتقلوا إليها وبنوا جامعة القرويّين التي تنسب إليهم.

ومنها هجرة القادريّين إليها وهم بيت علم شهير بفاس، غادر أسلافهم العراق سنة ٦٥٦هـ بعد استيلاء التتار على بغداد، فاستقرّوا أوّلاً بالأندلس سنة ٦٧١هـ، ثمّ قدم فرعٌ منهم وهو محمّد بن محمّد القادري إلى فاس أواخر القرن التاسع الهجري[٤٠].

وأمّا من الأندلس فقد هاجر إليها الألوف من النّاس خصوصًا بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ، فلم تزل وفود الأندلس تصل إليها إلى عهود متأخرة، وقد ساهموا في انتعاش الفقه والصّنائع بها بعد أنَّ كادت تندرس معالمها؛ إذ انتقلت عائلات علميّة لا تحصى إلى المغرب وكافة الأقطار، غير أنَّ غالبيتهم كانوا بالمغرب الأقصى لاعتبارات عديدة منها قرب المسافة، وللمرابطة بالثغور لحماية المغرب من الغارات الصّليبية من جهة، وطمعًا في استرداد الأندلس مرّةً أخرى، إضافةً إلى توفّر الجوّ الاجتماعيّ والفكريّ والسّياسي المشابه لما تركوه بالأندلس، فوجدوا العزاء والثّراء والنّصرة من المغاربة، وبَصْمتُهم بفاس في القرن العاشر الهجري وما بعده واضحة، ولهم بها شطرٌ من المدينة القديمة يُعرف بعُدْوَة الأندلس وفيها «جامع

الأندلس» نسبة إليهم[٤١].

ولو استقصينا العلماء الذين هاجروا إليها لوجدناهم جَمًّا غفيراً يفوق الحصر، تفرقت أسماؤهم بين كتب الأدب والتّراجم، ومنهم على سبيل المثال:

- بيت الشرفاء الصّقليّين ويدعون بالطاهريّين نسبة إلى جدّهم الطاهر الصقلي القادم على مدينة مُرّاكش من صِقِلِّية بالأندلس فراراً من النّصارى الذين غزوا بلدهم سنة ٣٦٦هـ[٤٢]، وكانوا فقهاء علماء، فوقعت لهم فتن ومحن فتنقلوا عبر البوادي والمدن إلى أن استقرّوا أخيرا بفاس، ومن علمائهم قاضي قضاة الموحدين عبد الله بن طاهر (ت ٥٦٧هـ)[٤٣]، ومنهم الفقيه المحقّق أبو العباس أحمد ابن قاسم الفاسي الشّهير بالقبّاب (ت ٧٧٩هـ) من شيوخ الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، وله مناظرات مع العلامة سعيد العُقباني (ت ٨١١هـ) [٤٤]، ومن أخلافهم أحمد بن محمد الصِّقلي (ت ١١٧٧هـ)، وغيرهم كثير ممّا لو تتبّعناه لخرجنا عن المقصود وإنّما غايتنا الإشارة والتّمثيل.

- ومن الجزائر رحل إليها العلماء والطّلبة للإفادة والاستفادة والاستزادة، وكانت من أهمّ المدن التي هاجروا إليها فرادى وجماعات، ولاسيّما بعد استيلاء العثمانيين على مدينة تلمسان في القرن العاشر، وظلت موجة الهجرة نحو المغرب مستمرّة حتّى بعد استقرار الأوضاع للعثمانيّين، ومعظم العائلات التي شاع أمرها بتلمسان في القرن التّاسع الهجري انتقلت إلى هناك في القرن الذي يليه، ومن أشهرهم أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت٩١٤هـ) الذي فرّ إلى فاس طلبًا للأمن والنّجاة، فأنزلوه منزلاً مباركًا وصيّروه مُدرّسا للنّحو والفقه بجامع القرويين، وخلفه ابنه عبد الواحد الونشريسي (ت ٩٥٥هـ) وقد تولّى قضاء فاس سبعة عشر عاما وكان له مجلس لا يحضره إلا كبار العلماء[٤٥].

- وأكبر موجة من الهجرة نحو المغرب حَدَثت بعد فشل الحملة السّعديّة على تلمسان، فقد رافق السّلطان السّعدي عند عودته إلى بلاده كثير من العلماء الذين كانوا قد أيّدوا دخوله إلى تلمسان سنة ٩٦٨هـ، ومنهم محمّد بن أحمد الوقّاد التّلمساني (ت ١٠٠١هـ) الذي تولّى الإفتاء والتّدريس والقضاء بفاس وغيرها، ومنهم أبو عبد الله محمّد بن عبد الرّحمن المغراويّ (ت٩٨١هـ) الذي غادر تلمسان إلى فاس سنة ٩٥٨هـ وصار مُفتيها وشيخَ الجماعة بها[٤٦]، وخلّف ابناً له يُسَمّى مُحمّد المُرابط (ت١٠١٤هـ) الذي تولّى مثله الخطابة بالقرويّين وجامع الأندلس[٤٧]، وأبرزهم بلا منازع أبو العباس أحمد بن محمد المقري (ت١٠٤٠هـ) الذي تولّى خطابة القرويين وإمامتها بعد وفاة الشّيخ الهواري سنة ١٠٢٢هـ، ولكنّه خرج منها فرارا من السّلطان السّعْدي الذي طلب من العلماء الإفتاء بجواز تسليم مدينة العرائش على ساحل المغرب إلى النّصارى[٤٨]، ومنهم محمّد بن عبد الكريم الجزائري (ت ١١٠٢هـ) الذي قَدِم فاس سنة ١٠٨٣هـ في عهد السّلطان إسماعيل الشريف العلوي (١١٣٩هـ) فأكرمه وأجلّه وأقام هناك حتّى مات، ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد القسنطيني الشّريف (ت١١١٦هـ) الّذي تفقّه بزواوة والجزائر ثُمّ دخل فاس للاستزادة حتى صار من كِبار

الحياة الفكريّة والأدبيّة واللغوية بفاس خلال القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريين (دراسة في عوامل ازدهارها ومظاهرها)

مُدرِّسيها، وتخرّج به علماء فاس أمثال محمد بن عبد السلام بناني (ت١١٦٣هـ) وغيره[٤٩].

هـ- ومن أهمّ عوامل استمرار الحياة الفكريّة بفاس ودَيْمُومتها هو وجود العائلات العلمية الفاسيّة أو ما يُعرف بِبُيُوتات فاس، جمع بعضها إسماعيل ابن الأحمر (ت ٨٠٧هـ) في كتابه (بيوتات فاس الكبرى)، وذكر كثيرا منها عبد الكبير بن هاشم الكتاني (ت ١٣٨٢هـ) في العصر الحديث في كتابه (زهر الآس في بيوتات فاس).

وقد برز بشكل خاصّ بيت العلماء القادريّين الّذين قدموا إلى فاس في القرن التاسع الهجري - كما أشرنا، وبيتهم جمع بين شرف النّسب وشرف العلم، ونبَغ منهم علماء كثيرون خصوصًا في القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين، منهم أبو محمّد عبد السّلام بن الطّيّب بن محمّد القادري الفاسي (ت ١١١٠هـ)[٥٠]، وولداه الطيب بن عبد السّلام القادريّ (ت ١١٥٧هـ)، وقاسم بن عبد السّلام القادري (ت ١١٥١هـ)، وحفيده محمّد ابن الطيب القادري مؤرّخ المغرب صاحب (نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني) وغيرها من كتب التاريخ و الأنساب[٥١].

ومن هذه البيوت بيت عبد القادر بن علي الفاسي اسماً لا نسبًا (ت ١٠٩١هـ)، والذي أخذ العلم كابرًا عن كابر وورثه لأبنائه وأحفاده وأصهاره، واستمرّ العلم فيهم أزيد من ثلاثمائة سنة[٥٢]، وهو أخذ عن أبيه وأعمامه، وأخذ عنه أبناؤه محمّد بن عبد القادر، وعبد الرحمن بن القادر (ت ١٠٩٦هـ)، ومنهم حفيده محمد بن عبد القادر (ت ١١١٦هـ)، وغيرهم كثير من أبناء عمومتهم، وقد كانوا جميعا من أركان العلم والفقه بفاس.

ومن أبرزها عائلة الدِّلائيّين الّذين أنشأوا زاويتهم بإقليم تادلا، ودخل أغلبهم مدينة فاس بعد سقوط إمارتهم وزاويتهم سنة ١٠٧٩هـ، فأَثْرَوا الحياة الأدبية والفكرية بفاس ثراء لا يُعْرف مثله خاصّة في العلوم اللّغوية والنّحوية، وأبرزهم أبو عبد اللّه محمّد المرابط بن محمّد بن أبي بكر الدّلائي (ت١٠٨٩هـ) شارح (التّسهيل) وغيره، وقد أخذ عن والده، وأخذ عنه ابنه محمد (ت١٠٩٩هـ)، وأخوه محمد المسناوي (ت ١٠٥٩هـ)[٥٣]، ومنهم أبو عبد اللّه محمد الحاج الدّلائي سلطان فاس نحوا من أربعين سنة (ت ١٠٨٢هـ) قبل انتزاع المُلْك منه من العلويّين، وهو أديب بارع رثى زاويتهم بقصيدة أوّلها: [اَلطّويلُ]

أُكَلِّفُ جَفْنَ اَلْعَيْنِ أَنْ يَنْثُرَ اَلدُّرَّا
فَيَأْبَى وَيَعْتَاضُ اَلْعَقِيقُ بِهَا جَمْرَا[٥٤]

وما يُلاحظ على هذه الفترة هو توارث العائلات العلميّة لخِطط الإمامة والإفتاء والقضاء، فقد توارثت عائلة الفاسي الفُتيا والتدريس بجامع القرويين، كما توارثت العائلة البُوعنانيّة قضاء فاس وتوارثت العائلة البنانية تدريس الفقه والنوازل.

وهذه ظاهرة عامّة في سائر بلاد المغرب، فقد تولّت مثلا عائلة سعيد بن إبراهيم قَدّورة (ت ١٠٦٦هـ) الإفتاء بالجامع الكبير بالجزائر لمُدَّة تزيد عن القرن[٥٥]، وفي تونس تولت عائلة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر العَفَّاني التونسي (ت ١٠٣٧هـ) إمامة جامعة الزيتونة مائة وثلاثا وسبعين سنة[٥٦]، وصار ذلك عُرْفاً عندهم، بل يأنفون من تولية من ليس منهم أحد أمورهم ولو كان خليقا بذلك[٥٧].

ونريد أن نركّز قليلاً في هذا السّياق على الجوانب اللُّغويّة والأدبيّة بفاس خلال القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين:

أ- الحياة الأدبيّة بفاس خلال القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين:

لقد عرفت الحياة الأدبيَّة والعلميَّة رُكودًا كبيرًا في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين بفاس في عهد بني وطّاس، بينما صادف منتصف القرن العاشر قيام السّعديّين بشؤون المغرب، والّذين عُـرف عنهم الاهتمام بالأدب والعلم، وهم في الأصل أئمّة علماء[٥٨]، وما قيل من ازدهار الأدب في عهدهم فمُرْتبط أساسًا بهجرة الأندلسيّين إلى بلاد المغرب، وقد ظلت الآداب والعلوم في منحىً تصاعديٍّ حتّى بلغت ذروتها في عهد السّلطان أبي العباس أحمد المنصور السّعدي (ت ١٠١٢هـ)؛ الّذي يُعتبر العصر الذّهبي للدّولة السّعدية، ففيه اجتمع شمل الشّرفاء السّعديّين بعدما تناحروا زمنا طويلاً، حيث استصرخ السّلطان مُحمّد بن عبد الله السّعدي بالبرتغال والإسبان ليستردّ ملكه بعد خلع بيعته فكانت إثرها معركة وادي المخازن أو الملوك الثّلاث سنة ٩٨٦هـ، والتي أسفرت عن موته وموت ملك البرتغال، فاشتدّت إثرها شَوْكة السّعديّين وبايعوا أبا العباس المنصور ولم يخالف بيعته أحد من المغاربة، فطالت أيّامه وحَسُنت سيرته وقصده العلماء والصّلحاء والأدباء، إضافة إلى كونه عالمًا أديبًا أجازه علماء المغرب وعلماء مصر وغيرهم[٥٩].

وقد صار بلاطه شبيهًا ببلاط العباسيين فمن دونهم، تُقام بين يديه المناظرات العلمية وتُنشد القصائد والمدائح فيُجيزها ويُجزل العطاء لأصحابها، كما يُسجِّلون أيّامه ويتغنّون بمآثره، من ذلك مثلا تَوَجُّه جيشه إلى أعماق إفريقيا للغزو وتوسيع نطاق مملكته فعاد غانمًا منتصرًا، فاحتفى الشّعراء بهذا النّصر وتنافسوا في إجادة قصائدهم، فأجازهم وأكرمهم بما تحدّث عنه النّاس دهرًا طويلاً، ومنها ما أنشده الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي الشّاعر المُؤرّخ (ت١٠٣١هـ) بقوله: [الكامل]

جَيْشُ اَلصَّبَاحِ عَلَى اَلدُّجَى مُتَدَفِّقُ
فَبَيَاضُ ذَا لِسَوَادِ ذَلِكَ يَمْحَقُ
وَكَأَنَّهُ رَايَاتُ عَسْكَرِكَ الَّتِي
طَلَعَتْ عَلَى اَلسُّودَانِ بِيضاً تَخْفِقُ[٦٠]س

ومن ذلك التّفنّن في المديح في الأعياد والمناسبات، فالمنصور السّعدي كان معتنيًا بالأعياد والمولد النّبويّ، وخصّه باحتفالات مشهودة يتنافس فيها الشّعراء بقصائدهم ومدائحهم كقول القاضي أبي القاسم بن علي الشّاطبي في المديح النّبويّ: [الكامل]

أَيَعِيشُ فِيكَ عَوَاذِلِي لِسُلُوِّهِمْ
وَأَمُوتُ فِيكَ صَبَابَةً وَغَرَامَا
خَيْرُ اَلْأَنَامِ مُحَمَّدٌ اَلْهَادِي الَّذِي
أَرْدَى اَلضَّلاَلَ وَجَبَّ مِنْهُ سَنَامَا

ثمّ شرع في مدح السّلطان أبي العبّاس المنصور: [الكامل]

خَيْرُ اَلْوَرَى وَإِمَامُهَا اَلْمَنْصُورُ مَنْ
فِي ظِلِّ دَوْلَتِهِ الأَنَامُ أَنَامَا
أَضْفَى عَلَى اَلْأَرْضِينَ ظِلَّ مَهَابَة
فَحَمَى بِهِ حَامَ الْعِبَادِ وَسَامَا[٦١]

وحين أتمَّ بناء قصره البديع سنة ١٠٠٢هـ، وكان قد ابتدأه سنة ٩٨٦هـ وصفه الشّعراء ومدحوا بانيه، كقول عبد العزيز الفشتالي: [الطويل]

حَوَالَيْهِ مِنْ دَوْحِ الرِّيَاضِ خَرَائِدُ
وَغِيدٌ تَجُرُّ مِنْ حَمَائِلِهَا مَرْطَا
وَسَالَتْ بِسَلْسَالِ اللُّجَيْنِ حِيَاضُهُ
بِحَاراً غَدَا عَرْضُ الْبَسِيطِ لَهَا شَطَّا
تَوَسَّمْتَ فِيهَا مِنْ صَفَاءِ أَدِيمِهَا
نُقُوشاً كَأَنَّ الْمِسْكَ يَنْقُطُهَا نَقْطَا
أَقَرَّتْ لَهُ الزَّهْرَاءُ وَالْخُلْدُ وَانْثَنَتْ
أَوَاوِينُ كِسْرَى الْفُرْسِ تَغْبِطُهُ غَبْطَا[٦٢]

ومنه مواساته عندما مرض المنصور مرضًا شديدًا وطال أمره، فلما برئ فرح النّاس بشفائه، وممّا أنشده أبو عبد الله محمّد بن علي الهُوزالي (ق١١هـ) شاعر السّعديين بقوله: [الطّويل]

تَرَدَّى أَذىً مِنْ سَقْمِكَ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ
وَضَجَّتْ لِشَكْوَى جِسْمِكَ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ
وَبَاتَ الْهُدَى خَوْفاً عَلَيْكَ مُسَهَّدَا
وَأَصْبَحَ مَذْعُورَ الْفُؤَادِ النَّدَى الْغُمْرُ
فَلَمَّا أَعَادَ اللهُ صِحَّتَكَ الَّتِي
فَاقَ بِهَا مِنْ غَمِّهِ الْبَدْوُ وَالْحَضْرُ[٦٣]

ولمّا مات المنصور اضطرب أمر المغرب كله، ومرّ بمحنة عصيبة لم يعرفها على مختلف أطواره، فقد تنازع أبناؤه الملك من بعده وتشتّت مملكتهم بينهم ووَهَنَتْ أركانها حتّى طَمَع فيها كلّ من طمحت نفسه إلى الإمارة كالدِّلائيّين والعَلَويّين، وطمع فيها الأجانب وأخذوا منها مدينة العرائش سنة ١٠١٩هـ/١٦١٠م، ولم يزل أمر المغرب في فوضى وفتن متلاحقة طيلة منتصف القرن الحادي عشر، فقام محمّد الحاج بن محمّد الدّلائي (ت ١٠٨١هـ) بتأسيس سلطته سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م واستولى على فاس سنة ١٠٥١هـ[٦٤]، ونافسوا الدّولة العلويّة في الحكم إلى أن ظهر عليهم السّلطان الرّشيد بن الشّريف العلوي سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م.

وقد لعب الدِّلائيون الدّوْر الأهمّ في الحياة الأدبيّة والعلميّة في هذه المرحلة، ولولاهم لانطفأ العلم والأدب بالمغرب، لِمَا عُرِفَ من كثرة علمائهم وفقهائهم وشعرائهم، وحافظ الأدباء والشعراء على الأغراض القديمة من مدح وهجاء ورثاء، ومن أكثرهم شعراً وأغزرهم علما العلامة أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (ت ١١٠٢هـ) الذي عُرف برثائه لزاويتهم بالدِّلاء، وبهجائه لأهل فاس حين أُخِذ إليها، كما عرف بمدحه للعلماء الدّلائيّين شيوخه وأولياء نعمته، كقوله في مدحه لشيخه في القراءات العلامة الشّرْقي بن أبي بكر الدّلائي (ت١٠٧٩هـ) بقوله: [الطويل]

أَقُطْبَ الرَّحَى فِي الْمُقْرِئِينَ بِذَا الْأُفْقِ
وَيَا نَجْلَ قُطْبٍ كَانَ فِي مَقْعَدِ صِدْقِ
وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنْ لَوْ خَلَا الْغَرْبُ كُلُّهُ
مِنَ الْخَيْرِ كَانَ الْخَيْرُ يُرْجَى مِنَ الشَّرْقِي

واستمرار الحركة الأدبيّة في العهد الأوّل للعلويّين إنّما هو بفضل الدّلائيّين في الغالب، كما أنّ كثيرا من السّلاطين العلويّين وأمرائهم كانوا ذَوَّاقين للأدب الرّاقي مُهتمّين بالأدباء والعلماء، فقد ذُكِرَ أنّ الأمير محمّد بن السّلطان إسماعيل (ت١١١٨هـ) كان ينتحل الشّعر وتهزّه أَرْيَحِيَّة الأدب، فقصده النّاس بالقصائد والرّسائل، وذكروا أنّ أخاه الشّريف راسله متمثّلا بأبيات سيف الدّوْلة الحمداني قائلا: [الطويل]

رَضِيتُ لَكَ الْعَلْيَا وَإِنْ كُنْتَ أَهْلَهَا
وَقُلْتُ لَهُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِي فَرْقُ

أَمَـا كُنْـتَ تَرْضَـى أَنْ أَكُـونَ مُصَلِّياً
إِذَا كُنْتُ أَرْضَـى أَنْ يَكُونَ لَكَ اَلسَّبْقُ

والمصلّي هو الثاني من الخيل في الحلبة، والمجلّي هو الأوّل، فطلب عندها الأمير محمّد بن السّلطان إسماعيل من أبي عبد الله المسناوي (ت ١١١٦هـ) وكان من جلسائه أن ينوب عنه في الجواب لأنّه كان من الوافدين عليه حينئذ، فأجابه: [الطويل]

بَلَى قَدْ رَضِيتُ أَنْ تَكُونَ مُجَلِّياً
وَيَتْلُو نَدَاكُمْ فِي اِلْعُلا مَنْ لَهُ اَلسَّبْقُ
وَمَالِيَ لا أَرْضَـى لَكَ اَلْمَجْدَ كُلَّهُ
وَأَنْتَ شَقِيقُ اَلنَّفْسِ إِنْ عُرِفَ اَلْحَقُّ
وَلَكِنْ ذَوُو اَلضَّغْنِ انْتَحَوْا ذَاتَ بَيْنِنَا
فَغَادَرَهَا إِفْسَادُهُمْ وَبِهَا رَنْقُ

ومعنى الرَّنق الكدر[٦٥].

وقد نَفَقَتْ سوق الأغراض الشّعريّة القديمة في هذه المرحلة من مدح ورثاء وفخر، وأمّا شعر الرّقائق فكان له صِيتٌ بعيد وصدى في نفوس أهل الزّمان، لاسيّما مع طغيان التّصوّف وطرقه، ومن هذا النّمط شعر التّهامي محمّد الوزاني (ت١١٢٧هـ) بقوله: [الطويل]

يَظُنُّونَ بِي خَيْراً وَمَا بِيَ مِنْ خَيْرِ
وَلَكِنَّنِي اَلعَبْدُ اَلظَّلُومُ كَمَا تَدْرِي
سَتَرْتَ عُيُوبِي كُلَّهَا عَنْ عُيُونِهِمْ
وَأَلْبَسْتَنِي ثَوْباً جَمِيلاً مِنَ اَلسِّتْرِ
فَلاَ تَفْضَحَنْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ أَعْيُبِي
وَلاَ تُخْزِنِي اَللَّهُمَّ فِي مَوْقِفِ اِلْحَشْرِ

وعند موته رثاه العالم اللغويُّ أبو الحسن عليّ بن أحمد مصباح (ق ١٢هـ) بقصيدة طويلة مطلعها: [الطويل]

رَوَوْا نَبَأً أَبْكَى عُيُونَ الْوَرَى طُرًّا
وَأَصْبَحَ مِنْهُ جَانِبُ اَلدَّهْرِ مُغْبَرًّا
أَتَى وَقُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ سَوَاكِنُ
فَلَمْ يَمْشِ إِلا وَهْيَ مِنْ هَوْلِهِ سَكْرَى

إلى أن قال:

فَقَالُوا قَضَى اَلْحَبْرُ اَلتُّهَامِيُّ نَحْبَهُ
وَأَرْكَبَنَا مِنْ بَعْدِهِ مَرْكَباً وَعْرَا[٦٦]

وقد ولع شعراء هذه الفترة بالمُساجلات الشّعرية والمُعارضات البلاغيّة، فقد خاطب العلامة النّحوي محمّد المرابط الدلائي (ت ١١٨٩هـ) المعروف بسيبويه زمانه الطّيّب الميسوري (ق ١٢هـ) ناظمَ العلوم وشاعرَ الكُلُوم بقوله: [الخفيف]

أَوْحَدُ اَلنَّاسِ فِي عُلاهُ وَمَنْ وَصْـ
فُ فَرَائِدِهِ يَفُوقُ اَلْغَوَادِي
أَنْتَ جِهْبِذُ ذَا اَلزَّمَانِ وَفَرْدٌ
فِي الْمَعَالِي وَمَنْهَلٌ لِلصَّادِي

فأجابه الميسوري بقوله: [الخفيف]

إِنَّمَا أَوْحَدُ الْأَفَاضِلِ فَرْدٌ
وَهْوَ مَنْحَى مَقَاصِدِ الْقُصَّادِ
قَدْ رَأَى نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ تُجْلَى
فِي مِرْآةٍ مَجْلُوَّةٍ مِنْ وِدَادِ[٦٧]

وقد كثُر في هذه المرحلة النّظْم العلمي الذي يهدف إلى تذليل الصّعاب أمام المتعلمين واختصار المعارف الكثيرة لهم في سياق شعري ممتع، من ذلك أرجوزة (المرشد المعين في

الضروري من علوم الدين) لعبد الواحد بن عاشر الأندلسي الفاسي (ت ١٠٤٠هـ) في الفقه المالكي، وفيها ثلاثمائة وسبعة عشر بيتا، أولها: [الرجز]

يَقُولُ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَاشِرِ
مُبْتَدِئاً بِاسْمِ الإِلَهِ الْقَادِرِ

كما نشط علم النّسب خصوصا في القرن الثاني عشر الهجري، وكثرت فيه الأرجاز، كأرجوزة أبي العباس أحمد بن عبد القادر الحسني (ت ١١٣٣هـ) في النّسب، ومطلعها: [الرّجز]

يَقُولُ عَبْدُ اللهِ وَهْوَ أَحْمَدُ
اللهَ رَبِّي الْعَظِيمَ أَحْمَدُ[٦٨]

وأرجوزة محمد بن الطيب القادري (ت١١٨٧هـ): [الرّجز]

وَالْقَادِرِيُّونَ سَمَوْا فِي النَّسَبِ
إِلَى سَمَا الْقُطْبِ الْعَلِيِّ الْمَنْصِبِ
مَا غُيِّرَتْ أَنْسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى
بَيْتِ الْمَجَادَةِ إِلَى بَيْتِ الْعُلا
مِنْ عَالِمٍ لِعَالِمٍ وَسَيِّدِ
لِسَيِّدٍ إِلَى سَمَاءِ السُّؤْدُدِ[٦٩]

وفيه تعداد لمزايا البيت القادري بفاس وذكر أعيانه وأعلامه، وهو - أي البيت القادري - يُعتبر ركناً من أركان الهويّة الفكرية بمدينة فاس.

وعليه فإنّ النّاظر في أدب هذه الفترة وشعرها يكاد يُنسيه بلاطات بغداد والشّام والأندلس، سواء من ناحية الأغراض التّقليديّة أو من ناحية جَوْدة النّظم وسلامة الذّوق وأريحيّة السّلاطين والأمراء لذلك.

وأمّا أدب الرّحلات فلا شكّ في ازدهاره وتنوّعه، فالمغاربة منذ القديم تهفو نفوسهم لزيارة البيت العتيق والمسجد النّبوي، وللاستزادة من العلم والاطّلاع على ثقافات المشرق حجازًا وعراقًا وشامًا ومصرًا، وقد يصادف هذه الرّحلات الكثيرة عالمٌ متفوّق أوأديب مُفْلق فيُسجّل ما رآه وعاينه في الذّهاب والإياب، ومن هذه الرّحلات (رحلة الدرعي) لأحمد بن ناصر الدرعي المغربي (ت ١١٢٩هـ) الذي عاد من المشرق إلى بلاده سنة ١١٢٢هـ، ومنها (الرحلة العياشية) لأبي سالم العياشي (ت ١٠٩٠هـ) وهي أشهر من نارٍ على علم.

وقد تكون الرّحلة لأغراض أخرى كالمهام الدّبلوماسية في اصطلاح عصرنا، من مفاوضة أو استرجاع مفقود أو الوساطة بين الخصوم ونحوها، خصوصًا عندما يكون السفير أو الوزير كاتبًا أديبًا، ونخصّ بالذكر هنا الوزيرَ محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي الفاسي (ت ١١١٩هـ) وزيرَ السلطان إسماعيل العلوي وكاتبَه، أرسله السّلطان إلى البلاط الإسباني وفي جُعْبته مطلبان هما: تحرير مكتبة المخطوطات العربية وفيها خمسة آلاف مخطوط نهبها النصارى عند خروجهم من مدينة العرائش، وإطلاق سراح خمسمائة أسير مسلم، ويبدو أن هذه المهمة قد فشلت[٧٠]، فسجّل الغساني هذه الرحلة وسماها: (رحلة الوزير في افتكاك الأسير)، وهذه الرّحلة على بساطة أسلوبها وخُلُوّها من الأسلوب الأدبي إلا أنّها تحمل في طَيّاتها الكثير من قيم الصّراع الحضاري بين الغرب والشرق[٧١].

ويُعدّ البعد عن الشّروح والحواشي والرجوع بالتأليف الأدبي على نمط المتقدمين من بدع القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريّين، كالاهتمام بالأمثال والحكم وإفرادها بالتّصنيف نحو (مجمع

الأمثال) لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني (ت٥١٨هـ).

وهذا الفنّ ورغم صعوبة التّأليف فيه فقد برع فيه أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي الفاسي (ت ١١٠٢هـ) خِرّيج الزّاوية الدّلائية وساهم فيه إسهاما كبيرا بكتابه (زَهْر الأَكَم في الأمثال والحكم) [٧٢] الذي فاق به المتقدمين وأعجز به المتأخرين على أن يأتوا بمثاله أو ينسجوا على منواله، وإنّه لمسة فريدة بحقّ في التاريخ الأدبي المغاربي على مختلف أطواره وأعصاره.

ب - الحياة اللُّغوية بفاس خلال القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين:

لقد وصل الدّرس اللّغوي والنّحوي والبلاغي خلال فترة النّكبة ببغداد والأندلس إلى الجمود والتّقليد، فنحويو العصر المملوكي مثلا لم يأتوا بجديد ولا مبتكر، وقُصَارى جهودهم بُذِلت في توضيح مسائل النّحْو وتوجيه قواعده والاستدلال لها، مع عرض الآراء المتناقضة أحيانا والموازنة بينها، وترجيح إحداها أحيانا أخرى، ونحا بعضهم إلى وضع المتون التي هي شكل من أشكال اختصار المُدوّنة النّحويّة الضّخمة، ثمّ عَمَدُوا إلى شرحها وتحشيتها والتّعليق عليها أو حتّى اختصار الشّروح والحواشي، ورُبّما انتقاء خلاصتها والتّوفيق بينها بالتّأليف والتّصنيف، وهذا أمر غالب على علماء هذا الزمان، ليس في النّحو فحسب بل في سائر العلوم المُدوّنة، ممّا أدّى إلى تراكم المعارف فصارت تُشكّل ضررًا على المُتعلّمين، وهذا لا ينفي بطبيعة الحال وجود عباقرة أضافوا أشياء كثيرة في النّحْو وغيره من جهة تناوله وتعلّمه، كابن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ) وابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) [٧٣].

وعماد هذه الحركة اللُّغوية والنَّحوية في المشرق والمغرب إنّما هو جالية الأندلس، حتّى قال في ذلك مصطفى صادق الرّافعي (ت ١٩٣٧هـ): «... لهم فطرة عجيبة في قوّةَ الذّاكرة والحفظ، ولو كانت الأندلس مكان العراق وفي جهة من البادية ما ضاع حرف من اللُّغة، ولحفلت الكتب بفنون الأدب العربي، وذلك دأبهم قديمًا وحديثًا... وكانت عنايتهم بكتاب سيبويه فيحفظونه عن ظهر قلب، وفي عهد الموحّدين أخذوا في شرحه والتّعليق عليه والتّنافس في ذلك، منها شرح أبي بكر الخُشَنيّ الجَيَّانيّ (ت ٥٤٤هـ)، وابن خروف الإشبيلي (ت٦٠٩هـ)، وابن الصّائغ (ت ٦٨٠هـ)، وأبو حيّان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) وغيرهم كثير» [٧٤].

ولقد انتشرت الشّروح والحواشي على ألفيّة ابن مالك وألفيّة ابن معطي ومتن الآجروميّة حتى سُمِّي هذا العهد بعهد المُتون والشّروح [٧٥]، وصار النّحو والصّرف يُقاس بمدى حفظ المتون والشّواهد والقدرة على سردها واسترجاعها وبالاطّلاع على الشّروح والحواشي، بل هناك من العلماء من لم يعرف إلا بشروحه وحواشيه على متون النّحو كالشّيخ خالد بن عبد الله الأزهري (ت٩٠٥هـ)، وما يُعاب على هذه الحواشي والشّروح هو كثرة التّعليلات والتّوجيهات والتّنبيهات مما لا يعود بطائل على النّحو وتعليمه، وأيضًا محاولتهم أخذ القاعدة النّحويّة من مادّة الكتاب المُعلّق عليه، وكثيرا ما يكون في العبارة قصور في الدّلالة [٧٦].

وإذا نظرنا إلى بلاد المغرب عمومًا وإلى مدينة فاس بشكل خاصّ وجدناها تسير على هذا النّمط، فقد كانت ألفيّة ابن مالك ولا تزال أهمّ مصدر للدّروس النّحويّة والصّرفيّة، وسيطرت كتبه على الدّرس النّحوي في ساحات الجوامع والزّوايا، وتفاخروا بحفظها وتحصيلها والمداومة على

قراءتها، فكان من نتائج ذلك حواشٍ كثيرة عليها.

فمن حواشي شرح المرادي على الألفيّة في هذه الفترة حاشية قاسم بن محمّد الفاسي المالكي المعروف بابن القاضي (ت ١٠٢١هـ) [٧٧]، وحاشية يحيى بن محمد الشّاوي الجزائري المالكي (ت١٠٩٦هـ) [٧٨]، وحاشية عبد الرّحمن بن إدريس المَنْجرة التلمساني الفاسي (ت ١١٧٩هـ) [٧٩].

وأما شرح ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) فقد حشّاه كثير من مغاربة القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين، منهم محمّد بن سليمان الفاسي الرُّوداني السوسي (ت ١٠٩٤هـ)، وهي الّتي اعتمد عليها أبو العرفان محمّد بن علي الصّبّان (ت ١٢٠٦هـ) في حاشية على شرح الأشموني[٨٠]، وحشّاه أيضًا أبو بكر محمّد بن إسماعيل الشَّنْواني التُّونُسيّ الشّافعي (ت ١٠١٩هـ) [٨١]، وشرَح شواهده محمّد بن عبد القادر الفاسي (ت ١١١٦هـ)[٨٢]، وحشّاه أيضا العلامة أبو عبد الله محمّد بن عبدالرّحمن بن زكري الفاسي (ت١١٤٤هـ) [٨٣]. وغيرها كثير من الحواشي على أمّهات شروح ألفيّة ابن مالك في النّحو، وإنّما اقتصرنا على قليل منها اكتفاء بالتّمثيل، ولأنّ حصرها شيء بعيد المرام.

وهذا المنهج الذي ارتضاه علماء القرنين الحادي عشر والثاني عشر إنّما يُعَبِّرُ عن اقتناع العلماء بقيمة ألفيّة ابن مالك واستغنائهم في الغالب عن غيرها، كما يُشِيرُ أيضا إلى تنافسهم في تدريسها والتّحشية عليها، ولا غرابة أن يدلّ هذا المنهج الّذي اتّبعوه على التّقليد واجترار تراث المُتقدّمين، وإذا بحثنا عن كبار نُحاة هذه الفترة وجدناهم كذلك، فمنهم على سبيل المثال أبو زيد عبدالرّحمن بن محمّد الفاسي (ت ١١١٨هـ) الذي كان يُحسن النّحو مُداومًا على تدريس ألفيّة ابن مالك وحافظًا لـ (توضيح ابن هشام) يقوم على جميع ذلك بحواشيه، يُدَرِّسها بمدرسة الصِّهْريج بعدوة فاس الأندلس[٨٤].

وأمّا الزّاوية الدِّلائيّة فالغالب عليها هو الدّرْس النّحويّ واللّغويّ والأدبي، وإليها يُعْزَى الفضل في تجديد علم النّحو بعد انطماسه، وما من عالم من علماء اللّغة العربيّة في هذا العهد إلا وهو مَدِينٌ لهم، وقد تعمّقوا في دراسة النّحو، ولم يكتفوا بالمتون فحسب، بل رجعوا إلى كتاب سيبويه فقد كان أبو العباس أحمد بن أبي بكر الدلائي (ت١٠٥١هـ) مُدْمنًا على قراءته لا يَعْرف غيره[٨٥]، ومع ذلك فهذا شيء نادر الوجود؛ إذ غالبيتهم كانوا مشتغلين بتدريس متون المُتأخّرين، منهم الشّاذلي ابن محمد بن أبي بكر الدّلائي (ت ١١٠٣هـ) مُدرّس النّحو بزاوية جدّه، حتّى قيل إنّه أقرأ ألفيّة ابن مالك مائة مرّة ومقامات الحريري ثلاثين مرّة[٨٦].

ويُعَدُّ محمّد المُرابط بن محمّد بن أبي بكر الدّلائي (ت ١٠٨٩هـ) سيّدَ قومه في هذا الباب، ويُعْرف بسيبويه زمانه، فهو صاحب المجالس النّحوية العالية التي كان يحضرها الأكابر من العلماء أمثال أبي علي اليوسي (ت ١١٠٢هـ)، وأحمد بن عبد القادر القادري (ت ١٠٧٣هـ) [٨٧]، وله مؤلفات نحوية في غاية الإفادة والحسن لا تقلّ شأنا عن كتب أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، وابن هشام الأنصاري(ت ٧٦١هـ) منها:

- شرح لكتاب (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) لابن مالك، وسمّاه: (نتائج التّحصيل في شرح كتاب التسهيل)، وهو مطبوع.
- فتح اللّطيف على البسط والتّعريف في علم التّصريف، وقد طبع على الحجر سنة ١٣١٦هـ.
- الدّرّة الدّرّيّة في محاسن الشّعر وغرائب العربيّة[٨٨].

وما يُميّز التّأليف في هذا العصر هو الاهتمام بمُتون المتأخّرين وشروح المعاصرين وحواشيهم في النّقل والاستدلال، وأغلبها كان يدور حول مؤلّفات ابن مالك كالألفيّة ولامية الأفعال والتّسهيل مع شروح المتأخرين وحواشي المعاصرين، وقَلَّ أن تجد من ينظر في كتاب سيبويه أو يحتجّ به في مؤلّفاته، وقل مثل ذلك عن كتب ابن جنّي والفارسي وغيرهم.

وهذا الأمر هو أحد الأسباب الّتي جعلت علم النّحو يُشبه علم المنطق والكلام، وهو أيضًا ما أدّى بكثير من الدّارسين إلى نعت هذه المرحلة بالجمود والتّقليد والمُحاكاة، وهذا القول وإن كان فيه الكثير من الصّواب ففيه أيضًا بعض التّجوّز والتّعميم المُنافي للمنهج العلمي القائم على الجَرْد والرّصْد لجميع ظواهر العصر وجزئيّاته، فصحيح أنّهم عكفوا على ألفيّة ابن مالك والآجرّومية وغيرها، ولكنّهم بالمُقابل لم يثنهم إعجابهم بهذه المتون والشّروح على النّقد والاستدراك وإيراد الاعتراضات والفوائد والتّنبيهات، ومن تأمّل مُؤلّفات القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين وجدها مليئة بالتّنبيهات على ما يُورده المُصنّف أو الشّارح، وهذا ليس خاصًّا بالنّحو واللّغة فقط بل في سائر الفنون والعلوم[٨٩].

ومن أفضل النّماذج الدّالّة على ازدهار النّحو بفاس هو كتاب (فيض نشر الانشراح من طيّ روض الاقتراح)[٩٠] في أصول النّحو وجدله للنَّحويّ اللُّغويّ مُحمّد بن الطّيّب بن محمّد الفاسي (ت١١٧٠هـ)، شرح به كتاب (الاقتراح) في أصول النّحو لجلال الدّين السّيوطي (ت ٩١١هـ).

ونريد أن نقف شيئًا ما هنا فنحاول عدَّ مظاهر الإبداع في كتاب (فيض نشر الانشراح) وهي كثيرة، وملامح الخروج فيه عن المألوف جليلة، وذلك من عدّة جوانب:

- فمن حيث الموضوع هو في أصول النّحو، وقلّ ما نجد من علماء هذه المرحلة من اهتمّ به أو نظر فيه.
- ومن حيث طبيعة موضوعه، فعلم أصول النّحو يقتضي دراسة مصادر التقعيد والتنظير من سماع وقياس وجدل وغيرها من مباحث هذا العلم، وهذا يفرض على الباحث فيه أن لا ينقد قواعد النّحو فحسب بل يصل إلى نقد مصادرها ومنابعها أيضا، ممّا يستدعي الاجتهاد واستخدام آلات الفكر والعقل.
- وأمّا من حيث المؤلف ومنهجه فإنّ محمد بن الطّيّب الفاسي (ت ١١٧٠هـ) يُعدّ من أبرز نحاة القرن الثّاني عشر حتى لُقّب بسيبويه زمانه[٩١]، وأمّا من حيث منهجه فهو يميل إلى النّقد والاعتراض على كتاب (الاقتراح)، الذي يُعدّ من أمّهات هذا العلم، ولقد تتبّعه في مواطن كثيرة، كما تتبّع فيه أيضًا كتاب (داعي الفلاح لمخبآت الاقتراح)[٩٢]؛ وهو شرح ممزوج بالمتن لمحمد بن علي بن عَلّان البكري الشّافعي (ت١٠٥٧هـ)، وكلاهما يرجع إلى الفترة المدروسة، وقد أبديا في كتابيهما اجتهادًا واضحًا، وخالفا فيهما المعاصرين في المنهج والموضوع[٩٣]، ونرى أنّ ابن الطّيّب الفاسي قد اعتنى بالاستشهاد وركّز على الحديث النبوي كونه محلَّ خلاف بين النّحاة، وأيّد الاحتجاج به ورَدَّ شُبَهَ المنكرين[٩٤]، والمُلْفت للنّظر أنّ هذه القضية كان قد تجاوزها الزّمان، وحلّ المنطق وعلم الكلام محلّ الاستشهاد بمصادر النّحْو كالقرآن وكلام العرب، ولهذا إذا أمعنت النّظر في مؤلّفاتهم وجدتها قليلة الشّواهد كثيرة الاستنباط والاستقراء والجدل.

- وأمّا ابن الطيب فكان ينتقد النّحاة الأوائل متى رأى الصّواب خلاف ما هم عليه، فهو مثلاً لا يتوانى في نقد أبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) في قوله بجواز إدخال «ال» على كلمتي «كل» و«بعض» لعدم ورود سماع ذلك في كلام العرب[٩٥]، وقُلْ مِثْلَ ذلك عن تلميذه ابن جنّيّ (ت ٣٩٢هـ) وغيرهما.

- ومع ذلك فإنّنا نجده يتعصّب لابن مالك ويتبنّى آراءه وما قضية الاحتجاج بالحديث النّبويّ إلا من ذلك الباب[٩٦]، بل ذهب إلى ذمّ منتقديه كأبي حيّان (ت ٧٤٥هـ)، ورماه بالجهل بعلوم الحديث وأنّه قليل التّحقيق في إيراد المسائل[٩٧].

وابن الطيّب بهذا يعطينا صورة مُقرَّبة للحياة اللّغوية والنّحوية في عصره من خلال تأثّره بابن مالك والذّبّ عنه، وأنّ هذا الدّفاع عن ابن مالك لم يولد من فراغ، بل من صراع نحوي بين المنتقدين لابن مالك والمُتبنّين لآرائه[٩٨]، غير أنّ الغالب هو انتشار مؤلفات ابن مالك بين النّاس ودخولها في مُقرّرات التّدريس عندهم، بدليل كثرة شروحها وحواشيها في هذا العهد.

وأمّا الصّناعة المُعجميّة فلا نكاد نجد لها أثرا، وكان كتاب (القاموس المحيط) لمجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) عُمدة معاجم اللّغة في هذه الحقبة، وإليه المَرْجِع في حلّ مُقْفلات الغريب، لا يكادون ينظرون فيما سواه، ومن طَلَبَه في مُؤلّفاتهم وجده، فكثير ما نرى هذا العنوان في كتب الفقه والنّحْو وغيرها، وعليه اعتمدَت المعاجم القليلة النّاشئة، أو الدّراسات النّقدية في القرن الثّاني عشر الهجري، ونعني هنا بالمعاجم النّاشئة معجم (تاج العروس من جواهر القاموس) للسّيّد محمد مرتضى الحسيني الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، وقد اعتمد على (القاموس المحيط) كثيرًا في وضع معجمه.

ونقصد بالدّراسات النّقديّة كتاب (الوِشاح وتثقيف الرّماح في ردّ توهيم المجد الصّحاح) للعلامة اللّغويّ أبي زيد عبد الرّحمن بن عبد العزيز التّادلي المغربي نزيل مكّة (ت ١٢٠٠هـ)، الذي استنكر عزوف أهل زمانه عن تعلّم اللّغة ومفرداتها، ثمّ أثنى كثيرًا على معجم (الصّحاح) لإسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، وعدّه بمثابة الصّحيحين في كتب الحديث، وردّ على منتقديه كمجد الدّين ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، والّذي تتبّع معجم (الصّحاح) في ثلاثمائة مسألة وخطّأه فيها[٩٩]، فردّ التّادليّ الأمور إلى أصولها، وبيّن فساد اعتراضات ابن الأثير على (الصّحاح) بأقوال أئمّة اللغة، ومع ذلك فهو لم يتعصّب للجوهري ولم يسر معه حيث سار، ولكنّه تعقّبه أيضًا اعتمادًا على (المُزهر في اللّغة) لجلال الدّين السّيوطي (ت ٩١١هـ) [١٠٠].

ويُعتبر معجم (القاموس المحيط) عند المتأخرين من المغاربة أفضل المعاجم عندهم كما قد ذكرنا، ففضّلوه على معجم (الصّحاح)، ومدحه بعضهم بقوله: [الكامل]

مُـذْ مَـدَّ مَجْدُ الدِّينِ فِي أَيَّامِهِ
مِنْ بَعْضِ أَبْحُرِ عِلْمِهِ الْقَامُوسَا
صَارَتْ صِحَاحُ الْجَوْهَرِيِّ كَأَنَّهَا
سِحْرُ الْمَدَائِنِ حِينَ: أَلْقِ يَا مُوسَى

فعارضه الطّيّب بن يوسف الميسوري الفاسي (ت ١٠٥٢هـ) بقوله: [الكامل]

لا وَالَّذِي مَنْ بَعْضُ أَبْحُرِ عِلْمِهِ
قَدْ مَدَّ قَامُوساً بِتِلْكَ الْأَعْصُرِ

مَا غَاصَ فِي الْقَامُوسِ يَوْماً غَائِصٌ

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ صِحَاحُ الْجَوْهَرِي[١٠١]

يشير إلـى أن صاحب (القاموس) اعتمد في تأليف قاموسه على معجم (الصّحاح).

نتائج البحث:

- لقد نشطت حركة التّأليف ببلاد المغرب في القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين في شتّى أصناف المعرفة والعلوم المُدوّنة لاسيَّما في ميادين علم الكلام وفقه النّوازل وآداب العربيّة من شعر ورحلات وأمثال وحكم، وأمّا اللّغة من صرفٍ ونحوٍ وبيانٍ فقد حافظت نسبيًّا على طبيعتها بعد عصر ابن مالك (ت٦٧٢هـ) من شروح وحواش وتعاليق وتقاييد وقَلَّ التَّجديد والابتكار فيها، ولكنّها اصطبغت بصِبْغَة العصر وامتزجت كثيرًا بالمباحث الكلاميّة واستعمال مُصطلحات الفنون الأخرى في الفَنّ المطروق، كما تأثّر أيضًا علمُ الكلام والفقه بالمباحث اللُّغَويّة، وهذه الظّاهرة لها أسبابها، أبرزها أنّ المُؤلفين والعلماء كانوا مَوْسُوعيّين في الغالب؛ إذ الفقيه هو المُتكلّم والمُحدّث والنّحويّ والأديب، ويُعَدُّ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (ت ١١٠٢هـ) من أَرْقَى نماذج علماء هذه المرحلة.

- لقد ساهمت العائلات الفاسيّة العلميّة في استقرار الحركة العلميّة بفاس والمغرب باعتبارها قُطْبَ الرَّحى في العلوم والفنون ببلاد المغرب ومن العواصم العلميّة في العالم، وذلك رغم الاضطرابات الّتي شهدتها خصوصًا بعد وفاة واسطة عقد السّلاطين السّعْديّين أبي عبد اللّه المنصور السّعْدي سنة ١٠١٢هـ، وبفعل هجرات الأندلسيّين والمَشَارقة والجزائريّين إليها من خارج المغرب الأقصى وهجرة الدِّلائيّين من داخله أضفى عليها حيويّة علميّة لا تتوقّف ومصادر فكر حَيّة لا تنضب، وقد كان لهجرة الدِّلائيّين إلى فاس بعد سقوط زاويتهم وتخريبها على يد السّلطان إسماعيل بن الشّريف العلويّ (ت ١١٣٩هـ) أثرًا عظيمًا في تعلّم النّحو واللّغة والأدب بها، ولاسيّما مع احتفاء السّلاطين والأمراء بهم وتهافت الطّلبة عليهم وعلى رأسهم علماء فاس.

- وقد رأينا أنّه قد تكوَّن بفاس نتيجةً لذلك نخبةٌ فكريّة وعلميّة مع مطلع القرن الثّاني عشر الهجريّ تمثّلت في الفقهاء والنّحاة والمُتكلّمين، وأثمرت مُجتهدين في فقه النّوازل والنّحو.

- اكتشفنا في هذا العمل طُغْيانَ النّزعة الكلاميّة وانتهاج المنطق الأرسطي ممّا جَعَلَ الكتب تفتقر إلى الشّواهد الشّعريّة وغيرها، وحَلَّ مَحَلَّها الجَدَلُ والسَّفْسَطَةُ وإيرادُ الأسئلة والتّساؤلات والمُعارضات مع إيجاد أجوبتها ودفع شبهها، وما وُجِدَ من كَمٍّ كبيرٍ من أبيات شعريّة في هذا الكتاب فليس من قبيل الاستشهاد، وإنّما هو في الأغلب من النّظم العلميّ الّذي يسير في ذات السّياق.

وعلى ضوء ما تقدّم فإنّ وصف هذا العصر بالجُمود والتّقليد والتّخلّف ليس على إطلاقه، وأنَّ تعميمَ هذا الحُكْم على ذلك العصر فيه جَوْرٌ وتَجَوُّز، وأنّ هذا الحكمَ والوَصْفَ له نصيبٌ من الصِّحّة إذا ما نظرنا إلى الجوانب السِّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة بفعل الغزو الأوروبي الّذي بات يقرع أبواب استعمار المغرب العربي وغيره. وأمّا إذا ما نظرنا إليه من الجانب الثّقافي والفكري فإنّه قد توهّجت أنواره

بفاس وغيرها، فلا يجدر بنا أن نصف الحركة الفكريّة آنذاك بما هو مُتاح لنا اليوم في عصر تدفّق المعلومات، فهذه الفترة المدروسة قد حافظت على التّراث الثّقافي القديم للثّقافة الإسلاميّة العربيّة، واكتسبت خُصوصيّاتٍ وميزاتٍ من العصر الّذي نشأت فيه، كغلبة المنهج الكلامي والمنطق الأرسطي على سائر الفنون وغزوها لها في مباحثها ومُصّطلحاتها، وهذه ليست ظاهرةً فحسب بل هي منهجٌ ارتضاه علماء القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين (١٧م و١٨م)، فنلفت أنظار الأساتذة والباحثين المُجدّين إلى تسليط الضّوء أكثر عليها وفحص جوانبها ودراستها، لأنّنا نستطيعُ أن نعتبرها حلقةً مفقودة أخرى في تاريخنا الفِكْريّ والثّقافي.

الحواشي

١. انظر: مقدمة ابن خلدون، تحقيق محمد الإسكندري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٤٠٢.
٢. انظر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ابن الأحمر، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، ط١، ٢٠٠١.
٣. انظر: سلوة الأنفاس، ج١ ص ٧.
٤. طبع مرارًا منها بدار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط سنة ١٩٧٢.
٥. طبع لأوّل مرة بالجزائر سنة ١٩٢٠.
٦. طبع لأوّل مرة بالجزائر سنة ١٩٢٢ على يد المستشرق بيل.
٧. طبع بالمطبعة الملكيّة المغربيّة سنة ١٩٦٧ بتحقيق عبد الوهاب بن منصور، وطبعة ثانية سنة ١٩٩١.
انظر: جنى زهرة الآس، المقدمة.
٨. مخطوط بالخزانة العامة رقم : د ٢٤٠٩.
٩. كتاب مشهور، وله طبعات كثيرة منها بتحقيق ودراسة زهرة النظام بمنشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرّباط، وبمطبعة النّجاح الجديدة بالدّار البيضاء سنة ١٩٩٧.
١٠. طبع بلبنان سنة ١٩٧١ ثمّ بمطبعة النّجاح الجديدة بالدّار البيضاء عام ٢٠٠٢.
١١. (انظر: فاس في عصر بني مرين، المقدمة.
١٢. انظر: فاس عاصمة بني مرين، روجيه لوتورنو، ص ١٦٩.
١٣. نفسه، ص ١٧٣.
١٤. نفسه، ص ٢٠١.
١٥. انظر: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، علي الجزنائي، ص ٢٥.
١٦. انظر : سلوة الأنفاس، ج١ ص ٧٣، وجنى زهرة الآس، ص ٢٢، ٢٣.
١٧. انظر: سلوة الأنفاس، ج١ ص ٨٢ وما بعدها.
١٨. انظر: جنى زهرة الآس، ص ٩١.
١٩. الزّاوية الدلائية البكرية أسسها أبو محمد محمد بن محمد بن سعيد الصنهاجي المجاطي (٩١٣هـ-١٠٢١هـ) بإقليم تادلا بالمغرب الأقصى، وقد ابتدأ أمرُها بإطعام الطعام وإيواء المساكين وتعليم العلم والتّصوّف على مبادئ الطريقة الشّاذُلية، ولمّا كثر أتباعها صادفت اختلالَ أمر المغرب فبادروا إلى ملء الفراغ وانتهى أمرهم على يد العلويّين سنة ١٠٧٩هـ. انظر: الزاوية الدّلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، محمد حجي، ص ٢٣ وما بعدها.
٢٠. انظر: الزاوية الدلائية، ص ٢٠٨.
٢١. نفسه، ص ١٦.
٢٢. انظر: النبوغ المغربي الأدب العربي، عبد الله كنون، ج١ ص ٢٦٩.
٢٣. نفسه، ج١ ص ٢٧٠.
٢٤. المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ص ٣٩.
٢٥. نفسه، ص ١٦٤.
٢٦. انظر: النبوغ المغربي، ج١ ص ١٨٨- ٢٢١.
٢٧. المغرب عبر التاريخ، ص ٢٥٣.
٢٨. نفسه، ص ٢٥٤.
٢٩. انظر: النبوغ المغربي، ج١ ص ٢٢٠، وما بعدها.
٣٠. انظر: نشر المثاني في موسوعة أعلام المغرب، ج ٣ ص١١٢٤ وما بعدها.

٣١. انظر: الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، ج٦ ص ٢٣.
٣٢. انظر: النبوغ المغربي، ج١ ص ٢٤٠.
٣٣. انظر: خلاصة الأثر، ج٣ ص ٩٦، والنبوغ المغربي، ج١ ص ٢٤٦-٢٦٦.
٣٤. انظر: النبوغ المغربي، ج١ ص ٢٧٤.
٣٥. فاس عاصمة بني مرين، لوتورنو، ص ٢١٠.
٣٦. انظر: نشر المثاني من موسوعة أعلام المغرب،ج ٥ ص ١٩١١.
٣٧. انظر: النبوغ المغربي، ج١ ص ٢٧٦.
٣٨. نفسه، ج١ ص ٢٧٧.
٣٩. نفسه، ج١ ص ٢٨٦.
٤٠. انظر: الدرر البهية، ج٢ ص ١٨٩.
٤١. انظر: جنى زهرة الآس، الجزنائي، ص ٩١.
٤٢. بيوتات فاس الكبرى، ابن الأحمر، ص ١٦.
٤٣. نفسه، ص ١٧.
٤٤. شجرة النور الزكية، ج٢ ص ٣٨، ٣٩.
٤٥. نفسه، ج٢ ص ١٦٠.
٤٦. شجرة النور الزكية، ج٢ ص ١٦٧.
٤٧. تاريخ الجزائر الثقافي، ج١ ص ٤٢٦.
٤٨. نفسه، ج١ ص ٤٢٦.
٤٩. انظر: نشر المثاني من موسوعة أعلام المغرب، ج٥ ص١٩٠١، ١٩٠٢.
٥٠. انظر: شجرة النور الزكية، ج٢ ص ٢٦٨.
٥١. نفسه، ج ٢ ص٣٢٥، وانظر: معجم الشيوخ، ص٤٦، ٤٧.
٥٢. نفسه، ج ٢ ص ٢٣٧.
٥٣. نفسه، ج ٢ ص ٢٣٤، ٢٣٥.
٥٤. انظر: نشر المثاني من موسوعة أعلام المغرب، ١٥٧٠/٤.
٥٥. انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج ١ ص ٣٥٧.
٥٦. انظر: شجرة النور الزكية، ج ٢ ص ١٨٨.
٥٧. نفسه، ج ٢ ص ١٨٧.
٥٨. انظر: النبوغ المغربي، ج١ ص٢٣٩ وما بعدها، وج١ ص٢٦٠- ٢٦٦.
٥٩. انظر: الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، ج٤ ص ١٧٥ وما بعدها.
٦٠. الاستقصاء، ج ٤ ص ١٢٤، ١٢٥.
٦١. نفسه، ج٤ ص ١٥٤، ١٥٥.
٦٢. نفسه، ج٤ ص ١٣٧، ١٣٨.
٦٣. نفسه، ج٤ ص ٩٢.
٦٤. انظر: الزاوية الدلائية، محمد حجي، ص ٢٠٨.
٦٥. نشر المثاني من موسوعة أعلام المغرب ١٩٤٣/٥.
٦٦. نفسه ١٩٥١/٥.
٦٧. نفسه ١٤١١/٥.
٦٨. نفسه ١٩٩٦/٥.
٦٩. معجم الشّيوخ، ص ٤٦.
٧٠. انظر: رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ١٢.
٧١. انظر: نفسه، ص ١٢، ١٣.
٧٢. طبع بدار الثقافة بالدار البيضاء سنة ١٤٠١هـ بتحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر في ثلاثة أجزاء.
٧٣. شرح الألفية، ابن قاسم، ج ١ ص ٢٣، ٢٤.
٧٤. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ج٣ ص٣١٣-٣١٥.
٧٥. شرح الألفية، ابن قاسم، ج١ ص ٣٠-٣٢ (الدّراسة)، وانظر: موصل النبيل إلى نحو التسهيل، خالد بن عبد اللّه الأزهري، ج١ ص٣ (الدّراسة).
٧٦. نفسه، ج١ ص ٣١، وانظر: وقائع لغوية وأنظار نحوية، سالم علوي، ص ٢١ وما بعدها.
٧٧. انظر: نشر المثاني من موسوعة أعلام المغرب ١٢٠٣/٣.
٧٨. انظر : خلاصة الأثر ٤٨٦/٤.
٧٩. انظر: شجرة النور الزكية ٣٢٩/٢.
٨٠. انظر: نفسه ٢٤٠/٢.
٨١. وهي حاشية لم يكملها (انظر: شجرة النور الزكية ١٧٩/٢).
٨٢. نفسه ٢٧٠/٢.
٨٣. وهي حاشية لم تُكمل أيضًا (انظر: شجرة النور الزكية ٢٨٤/٢).
٨٤. انظر : نشر المثاني ١٩٠٦/٥.
٨٥. انظر: نفسه، ١٣٦٧/٣.
٨٦. انظر: الزّاوية الدلائية، ص ٧٥.
٨٧. انظر: نتائج التحصيل، ج ١ ص ٧٥.

٨٨. انظر: خلاصة الأثر، ج ٤ ص ٢٠٤.

٨٩. انظر: تحقيق حاشية الشنواني على شرح الأزهرية مع دراسة القضايا النحوية والصرفية فيها، رسالة دكتوراه، ص ٨٨.

٩٠. طبع عدة طبعات منها بدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بالإمارات العربية، بتحقيق محمود فجال سنة ٢٠٠٢.

٩١. انظر: نشر المثاني من موسوعة أعلام المغرب ٥/٢١٣٦.

٩٢. انظر: فيض نشر الانشراح، ج١ ص ١١،١٠ (الدّراسة).

٩٣. نفسه، ج١، ص١١.

٩٤. نفسه، ج١، ص ٥٣-٧٨.

٩٥. نفسه، ج١، ص ٩٧.

٩٦. نفسه، ج١، ص ١١١.

٩٧. نفسه، ج١، ص ١٢٢.

٩٨. انظر: ألفية ابن مالك في الميزان، صالح بلعيد، المقدمة.

٩٩. انظر: الوشاح وتثقيف الرماح، ص ٣.

١٠٠. نفسه، ص ٣.

١٠١. نشر المثاني من موسوعة أعلام المغرب ٤/١٤١١.

المصادر والمراجع:

- الاختصار والمختصرات في المذهب المالكي، عبد الكريم قبول، دار الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٦.
- الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠.
- التقاط الدرر، محمد الطيب القادري، تحقيق هاشمي القاسمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- الأندلسيون المواركة، عادل سعيد تستاوي، مطابع إنترناشيونال برس، القاهرة، ١٩٨٣.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ط١، ١٩٧٢.
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان محمد ابن مريم التلمساني، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٩٠٧.
- بيوتات فاس الكبرى، إسماعيل ابن الأحمر، دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط، ١٩٧٢.
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط٢، ١٩٧٤.
- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٨.
- تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، إسماعيل ابن الأحمر، تقديم وتعليق وتحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط١، ٢٠٠١.
- التُّحَف الربانية في جواب الأسئلة اللّمدانية، يحيى الشّاوي الجزائري، تحقيق جمعة مصطفى الفيتوري، المنار الإسلامي، بيروت، د.ت.
- تحقيق حاشية الشّنواني على شرح الأزهريّة مع دراسة القضايا النحوية والصرفية فيها، تحقيق السعيد سليمان مطر، كلية الزقازيق، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر ٢٠٠٥.
- تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الحفناوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، والمكتبة العتيقة، تونس، ط٢، ١٩٨٥.
- توضيح المقاصد والمسالك في شرح ألفية ابن مالك، أبو محمد الحسن بن قاسم المرادي المصري، تحقيق عبد الرحمان علي سليمان، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، أبو الحسن علي الجزنائي، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط١، ١٩٨٧.
- الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين، محمد شقرون الوهراني، لجنة التحقيق بدار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، ط١، ١٩٩٢.
- الحركة العياشية (حلقة من تاريخ المغرب في ق.١٧هـ)، عبد اللطيف الشاذلي سلسلة أطروحات ورسائل جامعية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ط١، ١٩٨٢.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد المحبي، دار صادر، بيروت د.ت.
- الدرر البهية والجواهر النبوية في الأنساب الحسنية والحسينية، إدريس الفضيلي تحقيق أحمد العلوي ومصطفى

العلوي، وزارة الأوقاف المغربية، ١٤٢٠هـ.

• الدّولة المرينيّة على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني (دراسة سياسية حضارية)، رسالة ماجستير نضال مؤيد الأعرجي، كلية التربية، جامعة الموصل صفر ١٤٢٥هـ.

• الرّحلة العياشية، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي، تحقيق سالم الفاضلي وسليمان القريشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٦.

• رحلة الوزير في افتكاك الأسير، محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي، تقديم وتعليق نوري الجراح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

• الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، محمد حجي، المطبعة الوطنية، الرباط، ط١، ١٩٦٤.

• زهر الأكم في الأمثال والحكم، أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٤١٠هـ.

• سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، أبو الفضل محمد خليل بن علي المرادي دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

• سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق محمد حمزة الكتاني، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٩.

• شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة، محمد بن محمد مخلوف، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦.

• فـاس في عصـر بني مرين، روجيه لوتورنو، ترجمـة د. نيقولا زيادة، مكتبة لبنان ١٩٦٧.

• فَيْض نشر الانشراح من طيّ رَوْض الاقتراح، أبو عبد الله محمد بن الطّيّب الفاسي، تحقيق وشرح محمود يوسف فجال، دار البحوث للدّراسات الإسلاميّة وإحياء التّراث، دبي، ط٢، ٢٠٠٢.

• مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، عمر الجيدي، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط١، ١٩٩٣.

• مجلة آفاق التراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، العدد ٤٩، السنة ١٧، أفريل ٢٠٠٥.

• مجلة القلم، مجلة فصلية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة السانية، وهران، العدد ١٣.

• المجموع الكامل للمتون، جمعه وصححه محمد خالد العطار، دار الفكر- بيروت، ط١-٢٠٠٢.

• معجم الشّيوخ، عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

• معجم مختصر في ما ورد في الجواهر الحسان من الألفاظ الغريبة، عبد الرّحمان الثعالبي، دراسة وتحقيق حاج بنيرد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ٢٠٠٦.

• معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف إليان سركيس، مطبعة سركيس القاهرة، ١٩٨٢.

• المقدمة، عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤.

• المغرب عبد التاريخ (من بداية المرينيين إلى عهد السعديين)، إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٧٨.

• موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط١، ١٩٩٦.

• النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط٢، ١٩٦١.

• نتائج التّحصيل في شرح التّسهيل، أبو عبد الله محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدّلائي، تحقيق مصطفي الصادق العربي، مطابع الثورة، بنغازي، د.ت.

• نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط٢، ١٩٦٨.

• الوشاح وتثقيف الرّماح في ردّ توهيم المَجْد الصّحاح، عبد الرّحمان بن عبد العزيز التادلي المغربي، المطبعة الكبرى، بولاق، ١٢٨١هـ.

• وقائع لغوية وأنظار نحوية، سالم علوي، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٠.

• وقفات في تاريخ المغرب، عبد المجيد القدوري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠١.

مصادر صحيفة بشر بن المعتمر

أسامة أبو هلالة
الأردن

طبع العرب الأوائل على البيان وفطموا عليه، فشبوا وشابوا فصحاء بلغاء يتفاخرون بدقة تعابيرهم، وقوة بيانهم، ومتانة أساليبهم، لا يدانيهم أو يجاريهم أحد من الأمم.. حتى أنَّ القرآن نزل متحديًا العرب في صنعتهم وما برعوا فيه.. ولا يكون القرآن معجزا إلا إذا لم يستطع العرب مجاراته.. وهذا ما تمَّ فعلاً.

لم يمض الحال طويلاً، فمع انتشار الإسلام واعتناق الأمم له، اختلط العرب بالعجم فتلاقت الأفكار وتصادمت، وتفرق بعض الناس طوائف ومذاهب، كل ينتصر لما يدعو إليه وهمه تشييع الناس لنصرته. ولما كانت هذه الحال حرص كل فريق على طرق إلزام الحجة وإفحام الخصوم، وفي هذه الظروف، ولدت صحيفة قعدت لعدد من القضايا البلاغية والنقدية وكانت مفتاحًا لباب من النقاش بين العلماء حول ماجاء فيها، إنها صحيفة بشر بن المعتمر يرحمه الله (ت ٢١٠هـ)، فما هي هذه الصحيفة؟ وما موقف العلماء منها قديمًا وحديثًا؟ وما أبرز القضايا التي عالجتها؟ وما مصادرها؟.

هذا ما سأحاول التعرض له في هذه الصفحات القليلة من خلال بعض اللمحات السريعة من السياق التاريخي لمسار العلماء، وبالوقوف على بعض الشواهد التي وجدت من قبل، وهي إنّ دلت فإنما تدل على أن النقد والبلاغة العربية لم يكونا وليدي تلك الصحيفة، بل كانا فطرة جبلت عليهما الطباع، فإن حاد أحدهم في التعبير ينصاع إلى أول تنبيه دون مجادلة أو مهاترة، وهذا ما يفسر عزوف كثير من العلم الأول عن التعليل، فالضوابط والأصول كانت لوازم نفسية ومعرفة بدهية عند أهل الذوق.

مكانة الصحيفة عند العلماء

لا يختلف أحد من العلماء حول مكانة الصحيفة، وما أثارته من قضايا جوهرية تتصل بعلمي البلاغة والنقد، فقد وردت فيها ملامح أساسية لما استقر عليه هذان العلمان، فكيف كان موقف العلماء منها؟.

أولاً: القدماء.

مثلت الصحيفة وثيقة أساسية لبعض القضايا الأدبية والنقدية، ولأهمية هذه الصحيفة فإن أول من أوردها وعرف بها هو الجاحظ يرحمه الله (ت ٢٥٥هـ) في كتابه البيان والتبيين[١]، ثم نقلها وأثبتها صاحب العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي يرحمه الله (ت٣٢٨هـ) [٢]، ومن هنا ولجت الصحيفة باب النقاش والدراسة عند من جاء بعد الجاحظ من العلماء.

فهذا أبو هلال العسكري يرحمه الله (ت٣٥٥هـ) في كتابه الصناعتين يستشهد بقول بشر بن المعتمر فيما أثاره تحت فصل «في كيفية الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه»[٣]. وتبعه ابن رشيق القيرواني يرحمه الله (ت ٤٥٦هـ) في كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه تحت باب «عمل الشعر وشحذ القريحة له» عند حديثه عن وسائل الشعراء لاستدعاء الشعر وأوقات صناعته[٤].

ثم جاء الراغب الأصفهاني يرحمه الله (ت٥٠٢هـ) في كتابه محاضرات الأدباء واستشهد بقول ابن المعتمر في معرض حديثه عن ذم التشدق والتقعر في الكلام[٥].

وتبعه في ذلك الوطواط يرحمه الله (ت ٧١٨هـ) في كتابه غرر الخصائص الواضحة[٦].

لقد كان بعض ما جاء في صحيفة بشر ابن المعتمر أساسًا يحتكم إليه القدماء فيما يثيرونه من نقاشات أدبية ونقدية. فما رأي العلماء في العصر الحديث؟.

ثانيا: المحدثون.

نظر المحدثون إلى صحيفة بشر بن المعتمر كوثيقة تاريخية مهمة لعلمي البلاغة والنقد، حتى ذهب أحمد أمين يرحمه الله (ت ١٩٥٤م) في كتابه «ضحى الإسلام» أن بشرًا يعد مؤسس علم البلاغة[٧]. وفيما يرى د. إحسان عباس يرحمه الله (ت ٢٠٠٣م) في كتابه «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» أن النقد الأدبي ولد في حضن الاعتزال والمتأثرين به وأشار إلى بشر والجاحظ[٨]، وإن كنا نخالفه في ذلك.

وفي ذات الاتجاه تقييم د. بدوي طبانة يرحمه الله (ت ٢٠٠٠م) في كتابه «البيان العربي» لصحيفة بشر، إذ يرى أنها أقدم الآثار التي عرفها تاريخ البلاغة، وما فيها من ضوابط دعائم اللفظ والمعنى ومطابقة الكلام لمقتضى الحال[٩]. ويرى د. شوقي ضيف يرحمه الله (ت ٢٠٠٥م) في كتابه «البلاغة تطور وتاريخ» أن الصحيفة خير ما أُثِرَ عن المعتزلة في البلاغة حتى مطلع القرن الثالث الهجري[١٠].

هذه الأهمية التي أولاها العلماء حديثًا لصحيفة بشر بن المعتمر يرى د. محمود مخلوف رعاه الله أنها مبالغ فيها، إذ سبقتها إشارات وأصول وجهود علماء استقتها الصحيفة وتشربتها[١١].

هكذا تتجلى نظرة المحدثين لصحيفة بشر ابن المعتمر، حيث تشترك حولها الإشادة بها كوثيقة تاريخية مؤسسة لعلم النقد والبلاغة، سواء أكانت هذه النظرة تصب في عربيتها أم ترمي إلى نتيجة تلاقح الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية عند المتكلمين، في إطار الموازنة البلاغية[١٢].

القضايا البلاغية والنقدية في صحيفة بشر بن المعتمر.

تعددت القضايا النقدية والبلاغية في صحيفة بشر بن المعتمر، وهي في جملتها تتمحور حول أربعة محاور، لها أصولها في النقد والبلاغة في العصر

مصادر صحيفة بشر بن المعتمر

الجاهلي، وصدر الإسلام، والعصر الأموي، ومطلع العصر العباسي، فما هي أبرز تلك المحاور؟.

المحور الأول: لحظات الإبداع الفني.

أول ما يفتتح بشر صحيفته الحديث عن النشاط الذهني للمبدع، فينصحه باستغلال ساعات نشاطه، حيث تدر فيها القريحة الإبداع، وتبعث مكامنه، فتكون القريحة في تلك اللحظات مطواعة لرغبة الأديب، يقول: (خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف نسبًا، وأحسن في الأسماع وأحلى في الصور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصدًا خفيفًا على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه).

وبهذا الكلام يقصد بشر أن القريحة لا تتأتى في كل الأوقات، فقد تتمنع على صاحبها مهما كان مبدعًا. ويمكن رصد ذلك في قول الفرزدق (ت١١٠هـ): (أنا أشعر تميم عند تميم، وربما أتت عليَّ ساعة، ونزع ضرس أهون عليَّ من قول بيت)[١٣].

إن تمنع القريحة على المبدع أمر فقهه الجاهليون، وهذا التجاذب بين المنع والعطاء جعلهم يتوهمون الجن مصدرًا يلهم الشعراء ويفتحون عليهم، فلكل شاعر قرينه كامرئ القيس إذ يسمى قرينه لافظ بن لاحظ[١٤]، حتى أن أبا النجم العجلي (ت ١٢٠هـ) يفخر بذكورة شيطانه، إذ يقول[١٥]:

إنِّـي وكُـلَّ شـاعـرٍ مِـنَ البَـشَـرْ
شـيْـطـانُـهُ أُنْـثَـى، وشَـيْـطـانـي ذَكَـرْ

وإن كان أبو نجم جارى ثقافة الشعراء، ووهم الجاهليين، فإن كثير عزة (ت ١٠٥هـ) كان أكثر واقعية منه، فعندما سئل عما يفعله إن تعثر عليه الشعر قال: (أطوف في الرباع المخلية، والرياض المعشبة، فيسهل علي أرصنه، ويسرع إليَّ أحسنه)[١٦]. وإن كان كثير قد أشار إلى أثر المكان في در القرائح، فإن الحطيئة (ت ٥٩هـ) أشار إلى العوامل النفسية فعندما سئل من أشعر الناس؟ قال: (النابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، وجرير إذا غضب)[١٧].

هذا وفي غيره من المواقف ما ينبئ عن إدراك النقد العربي الأول للحظات الإبداع وبواعثه النفسية، والمكانية، والزمنية.

المحور الثاني: علاقة اللفظ بالمعنى.

علاقة اللفظ بالمعنى ثاني ما يقابلنا في صحيفة ابن المعتمر، وهي قضية شائكة في تاريخ النقد العربي، لكن ابن المعتمر، ومن قبل أن يتحزب النقاد، أكد على ضرورة التناسب بين الألفاظ والمعاني، فكل منهما زوج الآخر، ويبني بهما المتكلم بلاغته، إذ يقول: (وإياك والتوعر: فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظًا كريمًا: فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما. فكن في ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا وفخمًا سهلاً، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة،

وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال وكذلك اللفظ العامي والخاص).

هذا الكلام يمكن تفريعه إلى ثلاثة فروع:

١- اللفظ

حذر ابن المعتمر من التقعر والتعقيد اللفظي، وهذا يمكن أن نتلمسه في التوجيه النبوي الكريم، إذ يقول عليه الصلاة والسلام: (..وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون)[١٨]، و من ذلك كان بعض تفضيل عمر رضي الله عنه لشعر زهير بن أبي سلمى، إذ يقول معللاً إعجابه: (كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه)[١٩]، ومن هذا القبيل ما أنشده حماد الراوية (ت١٨٠هـ)، إذ يقول[٢٠]:

وبعضُ قَريضِ القوم أولادُ عَلَّةٍ
يَكُدُّ لسانَ الناطقِ المتحفِّظِ

٢- تعاضد اللفظ والمعنى

ينبه ابن المعتمر على ضرورة أن تواكب المعاني الشريفة ألفاظ كريمة، وبهما تتم الفكرة بأوفى وجوهها. ويمكن الوقوف على ذلك في قصة تحكيم النابغة بين حسان والخنساء رضي الله عنهما في سوق عكاظ، ومما أنشده حسان[٢١]:

لنا الجفناتُ الغُرُّ يلْمَعْنَ في الضُحى
وأسْيافُنا يَقطُرنَ من نَجدَةٍ دَما
ولَدْنا بَنِى العَنقاءِ وابنَيْ مُحرِّقٍ
فأكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابنَما

فعاب النابغة شعر حسان رضي الله عنه، لاستخدامه الجفنات، والضحى، وأسيافنا، وولدنا بنى العنقاء[٢٢]، وذلك كونه في مقام فخر اقتضى منه المعنى ألفاظا تعبر عما يفتخر به، بيد أن الألفاظ التي استعملها قصرت عن آداء حق المعنى المروم.

وفي قصة احتكام امرؤ القيس وعلقمة عند أم جندب حول شاعريتهما شاهد آخر على حذق الجاهليين لما قرره ابن المعتمر، فقد حكمت أم جندب بشاعرية علقمة على زوجها أمرئ القيس، بعد أن طلبت منهما قصيدة في معنى وقافية واحدة، وذلك لأن علقمة وصف فرسه بأكرم من وصف مُناظره[٢٣]، إذ يقول[٢٤]:

فأَدْرَكَهُنَّ ثانياً من عِنانِهِ
يَمُرُّ كمَرِّ الرائحِ المُتَحَلِّبِ

في حين لم يبلغ امرؤ القيس مبلغ علقمة، وقصرت ألفاظه عن شرف ما رامه من معنى، إذ يقول[٢٥]:

فللسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وللساق درَّةٌ
وللزَّجْرِ منه وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

وغير ذلك من الشواهد، مثل طلب علي كرم الله وجهه تغير كلمة (الهند) إلى (الله) عندما أنشد كعب بن زهير رضي الله عنه قصيدته «البردة» في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢٦]، إذ يقول[٢٧]:

إنّ الرّسولَ لسَيْفٌ يُسْتضَاءُ به
مُهنَّدٌ من سيوفِ اللّهِ مَسْلُولُ

وشتان بين المعنيين قبل وبعد تعديل اللفظ.

٣- موافقة اللفظ والمعنى للحال

يرى بشر أنَّ بلاغة المتكلم أو الأديب ليس في شرف ما يتناوله من المعاني أو الألفاظ أو وضاعتهما، إنما بآداء الغاية وتحقيق الهدف

مصادر صحيفة بشر بن المعتمر

وفقًا لما يقتضيه المقام، وهذا الملمح البلاغي يمكن الوقوف عليه في قول الرسول ﷺ: (إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها) [٢٨]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (ياجرير إذا قلت فسدد، ولا تكلف إذا قضيت حاجتك) [٢٩]. فالقول بقدر الحاجة عين البلاغة، يقو الخليل بن أحمد يرحمه الله (ت١٧٠هـ): (يطول الكلام ويكثر ليفهم، ويوجز ويختصر ليحفظ وتستحب الإطالة عند الإعذار، والترهيب، والترغيب، والإصلاح بين القبائل.. وإلا فالقطع أطير في بعض المواقف والطول للمواقف المشهورات) [٣٠].

المحور الثالث: الطبع والصنعة.

عطفًا على ما سبق، فإن بشرًا يتحدث عن القريحة الإبداعية عند الأديب، وقيمة نتاجها فإما أن يكون مبدعًا، أو يتعهد نتاجه ليرقى إلى مستوى الإبداع، أو من هو دونهما، وهذا يتوجب عليه ترك صنعة الأدب، ويشرع في البحث عما يجيده ويستهويه، يقول بشر: (فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام. فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقها ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت في مكانها نافرة من مواضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد، فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقًا مطبوعًا ولا محكمًا لسانك بصيرًا بما عليك وما لك عابك من أنت أقل عيبًا منه ورأى من هو دونك أنه فوقك. فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة واعتاصت عليك بعد إجالة الفكرة فلا تتعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك وسواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لا تعدم الإجبة والمواتاة، إن كنت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق. فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك: فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات: لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع الشهوة والمحبة، فهذا هذا).

تقسيم بشر هذا لأصناف المبدعين قد فطن إليه عرب الجاهلية، إذ صنفوا الشعراء إلى مراتب وطبقات، يقول الحاحظ يرحمه الله: (والشعراء عندهم أربع طبقات. فأولهم: الفحل الخنذيذ. والخنذيذ هو التام. قال الأصمعي: قال رؤبة: «الفحولة هم الرواة». ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المُفْلِقُ، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشُّعرور) [٣١]. إذن فالعرب كانت تصنف الشعراء بحسب أصالة شاعريتهم ومدى انقياد الشعر لهم، وتمكنهم قياده.

أما تعاطي قرض الشعر الموزون، وتثقيف الأديب نفسه بدراسة مذاهب الأدب، فإن ذلك مثلته ظاهرة الرواة في الشعر الجاهلي، وهم الذين يلازمون فحول الشعراء يرون عنهم ويحذقون مذاهب الشعر، حتى لنجد الفرزدق يفتخر بوقوفه على شعر الأولين، إذ يقول [٣٢]:

وَهَبَ القَصائدَ ليَ النَوابغُ إذ مَضَوا
وَأَبــو يَزيدَ وَذو القُروحِ وَجَـرولُ
وَالفَحلُ عَلقَمَةُ الَّذي كانَت لَهُ
حُلَلُ المُلوكِ كَلامُــهُ لا يُنحَلُ
وَأَخــو بَني قَيسٍ وَهُــنَّ قَتَلنَهُ
وَمُهَلهِلُ الشُعَراءِ ذاكَ الأَوَّلُ
وَالأَعشَيـانِ كِلاهُما وَمُرَقِّشٌ
وَأَخـــو قُضاعَةَ قَولُهُ يُتَمَثَّلُ
وَأَخـو بَني أَسَدٍ عُبَيدٌ إِذ مَضى
وَأَبــــو دُؤادٍ قَولُهُ يُتَنَحَّلُ
وَابنا أَبـي سُلمى زُهَيـرٌ وَابنُهُ
وَابــنُ الفُرَيعَةِ حينَ جَدَّ المِقوَلُ
وَالجَعفَرِيُّ وَكانَ بِشرٌ قَبلَهُ
لي مِن قَصائِدِهِ الكِتابُ المُجمَلُ
وَلَقَد وَرِثتُ لآلِ أَوسٍ مَنطِقاً
كَالسُمِّ خالَطَ جانِبَيهِ الحَنظَلُ
وَالحارِثِيُّ أَخو الحِماسِ وَرِثتُهُ
صَدعاً كَما صَدَعَ الصَفاةَ المِعوَلُ

بل إن الرواية في العصر الجاهلي مثلت مدارس شعرية، كمدرسة زهير بن أبي سلمى، فقد كان راوية لعمه أوس بن حجر، وروى شعره الحطيئة وكعب بن زهير[٣٣].

وما سبق يقود للحديث عن ظاهرة الحوليات في الشعر الجاهلي، وهو ما يدعو إليه بشر الطبقة الثانية، وهم الذين لا تسمح لهم الطباع في أول وهلة، ومع أن زهيرًا يعدُّ من عمداء الشعر الجاهلي، إلا أن نهجه هو ما يشير إليه بشر، فقد كان يبقى القصيدة حولاً في حوزته يداوم تقليب النظر فيها حتى تخرج في أبهى صورها، يقول الأصمعي يرحمه الله: (زهير ابن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر. -ويعقب الجاحظ بالقول- وكذلك كل من يجوِّد في جميع شعره، ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة)[٣٤]. إنها صنعة وأي صنعة يقول الحطيئة[٣٥]:

فَالشعرُ صَعبٌ وَطَويلٌ سُلَّمُه
إذا ارتَقى فيهِ الَّذي لا يَعلَمُه
زَلَّت بِهِ إِلى الحَضيضِ قَدَمُه
وَالشعرُ لا يَسطيعُهُ مَن يَظلِمُه
يُريــدُ أَن يُعرِبَهُ فَيُعجِمُه

وأما الصنف الثالث فهم المتسلقون، ويدعوهم ابن المعتمر إلى التحول عن صناعة الأدب والبلاغة إلى أشهى الصناعات إليهم، ويكفينا دلالة على فهم الأولين لمكمن قيمة الإنسان قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (استشهد ٤٠هـ): (قيمة كل امرئ ما يحسن)[٣٦]. وفيما ورد عن عمر بن عبد العزيز ﵁ قوله (استشهد ٩٩هـ): (رحم الله امرأ عرف قدر نفسه)[٣٧].

المحور الرابع: موافقة ومراعاة الحال.

هنا يدعو بشر المتعلمين إلى مراعاة المتلقي، فمستوى الخطاب يجب فيه مطابقة مستوى السامع، لتتولد الفائدة من العملية الإبداعية، يقول ابن المعتمر: (ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقامًا: حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على

أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات. فإن كان الخطيب متكلمًا تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفًا أو معجبًا أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين: إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحسن وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب، تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفًا لكل خلف وقدوة لكل تابع. ولذلك قالوا: العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك..).

ما خطه بشر في هذه السطور ما هو إلا صدى لدعوة أفصح العرب محمد عليه الصلاة والسلام، إذ يقول: (..لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوهم أصلها فتظلموهم) [٣٨]. وقد كان علي كرم الله وجهه يقول: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله)[٣٩]، ويقول الشافعي (ت٢٠٤هـ): (لو أن محمد بن الحسن كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا عنه، ولكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا فنفهمه) [٤٠] وقد سئل الخليل عن مسئلة فأبطأ في جوابها فقيل له: ليس في المسألة كل هذا النظر، فقال: (فرغت من المسألة وجوابها، ولكني أريد أن أجيبك جوابا يكون أسرع إلى فهمك) [٤١].

وإن يكن ذلك توجيه لمراعاة المتلقي، فإن أبا أسود الدؤلي رضي الله عنه (ت ٦٩هـ) قد دعا إلى مراعاة المتكلم نفسه، إذ يقول موصيا ولده: (إذا كنت في قوم فلا تكلمهم بكلام لم يبلغه سنك فيستثقلوك، ولا بكلام هو دونك فيزدروك ويحتقروك) [٤٢].

بهذا يتضح رواج الأصول النقدية والبلاغية التي قررها بشر بن المعتمر في صحيفته في بيئة العربية الأولى، وفي عصر صدر الإسلام، والخلفاء الراشدين؛ حيث العربية المعاصرة للجاهلية وما تبعهما من عربية العصر الأموي، التي سارت على التذوق العربي الفطري، والإشارات اللماحة دون الحاجة إلى التقعيد، إذ كانت تلك الملامح بدهيات ومسلمات عندهم، ولكن الحاجة نشأت إلى مثل صحيفة بشر بعد اختلاط العرب بغيرهم، فوجد الدرس لتعليم العجم ومن فسدت عربيته في المدن، وللتأكيد على حجة الإسلام، وإعجاز بيان القرآن، والرد على المشككين والطاعنين فيه، وما يتصل ببيئة المتكلمين.

الخلاصة:

صحيفة بشر بن المعتمر صحيفة قررت بعض أصول علمي البلاغة والنقد، وفتحت آفاقا أمام الدارسين، فأولوها أهمية قديما وحديثا، وعدوها وثيقة تاريخية لعلمي البلاغة والنقد. إن مفردات هذه الصحيفة ليست بأمر حادث، إنما استقاها بشر مما وقف عليه من علم، وقرر بنودها بعد أن أمعن النظر والاستقراء في معطيات الأدب والبيان العربي.

إن قولي هذا لا ينتقص من أهمية الصحيفة ومكانة صاحبها؛ فلبشر الفضل في السبق والتقعيد بكلماته ومعانيه الخاصة، بعد هضمه معارف عصره وعلومه، وإلى هذا المعنى يشير عبد القاهر الجرجاني يرحمه الله، إذ يقول: (إن كان ما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر، وينال بطلب واجتهاد.. فهو الذي يجوز أن يدعي فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية)[٤٣]، وهذا ما قرره أستاذي نضر الله وجهه عندما قال: (لو تتبعت معظم الأفكار

الواردة في الصحيفة لأمكنك إرجاع خير ما فيها إلى جذور عربية انقدحت أصولها في ذهن بشر فأتقن تحصيلها وتمثلها، ثم أبدع في تطويرها وتعميقها، ثم أجاد في وضع هذه الضوابط الرائعة)[٤٤].

والله أسأل الرحمة والمغفرة لأهل العلم خاصة والمسلمين عامة.

الحواشي

١. ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، ١/١٣٥-١٣٩، ط٧، مكتبة الخناجي – القاهرة، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
٢. ينظر: العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ٤/١٤٦-١٤٧، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م).
٣. ينظر: كتاب الصناعتين، أبوهلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٣٤، ط١، دار إحياء الكتب العربية، (١٣٧١هـ/١٩٥٢م).
٤. ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ١/٢١٢، ط٥، دار الجيل، بيروت – لبنان، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).
٥. ينظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني الحسن بن محمد، ١/٩٨، ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، (١٤٢٠هـ).
٦. ينظر: غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، برهان الدين إبراهيم بن يحيى الكتبي المعروف بالوطواط، ص١٥٥، طبعة بولاق.
٧. ينظر: ضحى الإسلام، أحمد أمين، ٣/١٤٢، ط٧، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة.
٨. ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ١٠، ط٤، دار الثقافة، بيروت – لبنان، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م).
٩. ينظر: البيان العربي، د. بدوي طبانة، ص٧٢-٧٨، ط٧، دار المنار – جدة، دار الرفاعي – الرياض، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
١٠. ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، ص٤١، ط٩، دار المعارف.
١١. ينظر: البحث البلاغي روافده ومدارسه، د. محمود حسن مخلوف، ص١٢١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
١٢. ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، ص٣٩.
١٣. الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد محمود شاكر، ١/٨١ ، ط٢، دار المعارف.
١٤. ينظر: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: محمد علي البجاوى، ص٥٠، دار نهضة مصر.
١٥. ديوان أبو النجم العجلي، تحقيق: د. محمد أديب عبد الواحد جمران، ص١٦١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
١٦. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ١/٧٩.
١٧. العقد الفريد، ابن عبد ربه الأدنلسي، ٦/١٢٠.
١٨. حديث رقم: (٧٩١)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ناصر الدين الألباني، ٢/٤١٨، مكتبة المعارف – الرياض، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
١٩. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمد محمود شاكر، ١/٦٣، دار المدني – جدة.
٢٠. البيان والتبيين، الجاحظ، ١/٦٦.
٢١. شرح ديوان حسان بن ثابت ﷺ، عبد الرحمن البرقوقي، ص٣٧١، ، المطبعة الرحمانية – مصر، (١٣٤٧هـ/١٩٢٩م).
٢٢. ينظر: خزانة الأدب ولب لباب العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٤، ٤/١١٠-١١٥، مكتبة الخناجي – القاهرة، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
٢٣. ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ١/٢١٨-٢٢٢.
٢٤. هكذا في المصدر السابق، أما في ديوان علقمة فالبيت في القصيدة مثبت هكذا: فأَتبعَ آثار الشِّياهِ بصادقٍ ... حثيثٍ كغيثِ الرَّائحِ المُتحلِّبِ. ديوان علقمة بن عَبَدَة، شرحه وعلق عليه: سعيد نسيب مكارم، ط١، دار صادر – بيروت، (١٩٩٦م).
٢٥. هكذا ورد البيت في الشعر والشعراء، أما في ديوان امرىء القيس مثبت في القصيدة هكذا: فَلِلسّاقِ

مصادر صحيفة بشر بن المعتمر

أُلْهُوبٌ وللسَّوْط دِرَّةٌ ... وللزَّجْر منْه وَقْعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ. شرح ديوان امرىء القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٥٠، ط٥، دار المعارف.

٢٦. ينظر: حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: نظيف محرَّم خواجه، ٣/٦٣-٦٥، ط١، النشرات الإسلامية، فرانتس شتاينر، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

٢٧. شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة الإمام أبي سعيد بن الحسن السكري، ص٢٣، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

٢٨. الحديث حسن، رقمه: (٨٨٠)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، ٢/٤٥٠.

٢٩. الحديث مرسل، حديث رقم: (٦٨٦٤)، كنزل العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، ٣/٣٤٦، ط٥، مؤسسة الرسالة، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٣٠. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، ١/١٨٦.

٣١. البيان والتبيين، الحاحظ، ٢/٩.

٣٢. شرح ديوان الفرزدق، ضبط: إيليا الحاوي، ٢/٣٢٣، ط١، دار الكتاب اللبناني، (١٩٨٣م).

٣٣. ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ١/١٣٧. والأغاني، أبو فرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، ٢/١٥٧، ط٨، دار الفكر – بروت.

٣٤. البيان والتبيين، الجاحظ ٢/١٣.

٣٥. ديوان الحطيئة، اعتنى به وشرحه: حمدو طمَّاس، ص١٣٦، ط٢، دار المعرفة، بيروت – لنان، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

٣٦. البيان والتبيين، الحاحظ، ١/٨٣.

٣٧. المستطرف في كل فن مستظرف، محمد بن أحمد الإبشيهي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ٢/٦٢، ط٢، دار الكتب العلمية – بيروت، (١٩٨٦م).

٣٨. الحديث عن ابن عباس وفيه هشام بن زياد وهو ممن ضعف وترك حديثه، نصب الراية لأحاديث الهداية، عبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق: محمد حوامة، ٣/٦٣، ط١، مؤسسة الريان، بيروت – لبنان، دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٣٩. حديث رقم: (١٢٧)، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم، صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، ١/٥٩، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٤٠. الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، ٢/٢٤٤، ط٣، مؤسسة الرسالة – بيروت، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٤١. نفسه، ٢/١٥١.

٤٢. غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، الوطواط، ص١٥٥.

٤٣. أسرار البلاغة في علم البيان، الإمام عبد القاهر الجرجاني، صححها على نسخة الإمام محمد عبدة وعلق على حواشيها: محمد رشيد رضا، ص٢٩٤-٢٩٥، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م).

٤٤. البحث البلاغي روافده ومدارسه، د. محمود حسن مخلوف، ص١٢٣.

المصادر

١- الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، ط٣، مؤسسة الرسالة – بيروت، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٢- الأغاني، أبو فرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، ط٨، دار الفكر – بروت.

٣- أسرار البلاغة في علم البيان، الإمام عبد القاهر الجرجاني، صححها على نسخة الإمام محمد عبدة وعلق على حواشيها: محمد رشيد رضا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م).

٤- البحث البلاغي روافده ومدارسه، د. محمود حسن مخلوف، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

٥- البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، ط٩، دار المعارف.

٦- البيان والتبيين، الجاحظ عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٧، مكتبة الخناجى – القاهرة، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٧- البيان العربي، د. بدوي طبانة، ط٧، دار المنار – جدة، دار الرفاعي – الرياض، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٨- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ط٤، دار الثقافة، بيروت – لبنان، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م).

٩- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد

محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: محمد علي البجاوى، دار نهضة مصر.

١٠- حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: نظيف محرَّم خواجه، ط١، النشرات الإسلامية، فرانتس شتاينر، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

١١- خزانة الأدب ولب لباب العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٤، مكتبة الخناجى – القاهرة، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

١٢- ديوان أبو النجم العجلي، تحقيق: د. محمد أديب عبد الواحد جمران، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

١٣- ديوان الحطيئة، اعتنى به وشرحه: حمدو طمَّاس، ط٢، دار المعرفة، بيروت – لنان، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

١٤- ديوان علقمة بن عَبَدَة، شرحه وعلق عليه: سعيد نسيب مكارم، ط١، دار صادر – بيروت، (١٩٩٦م).

١٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة، ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

١٦- شرح ديوان امرىء القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، دار المعارف.

١٧- شرح ديوان حسان بن ثابت ﷺ، عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية – مصر، (١٣٤٧هـ/١٩٢٩م).

١٨- شرح ديوان الفرزدق، ضبط: إيليا الحاوي، ط١، دار الكتاب اللبناني، (١٩٨٣م).

١٩- شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة الإمام أبي سعيد بن الحسن السكري، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

٢٠- الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد محمود شاكر، ط٢، دار المعارف.

٢١- صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٢٢- ضحى الإسلام، أحمد أمين، ط٧، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة.

٢٣- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمد محمود شاكر، دار المدني – جدة.

٢٤- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م).

٢٥- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، الحسن ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت – لبنان، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٢٦- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، برهان الدين إبراهيم بن يحيى الكتبي المعروف بالوطواط، طبعة بولاق.

٢٧- كتاب الصناعتين، أبوهلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي محمد البيجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، (١٣٧١هـ/١٩٥٢م).

٢٨- كنزل العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، ط٥، مؤسسة الرسالة، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٢٩- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني الحسن بن محمد، ١ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، (١٤٢٠هـ).

٣٠- المستطرف في كل فن مستظرف، محمد بن أحمد الإبشيهي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ط٢، دار الكتب العلمية – بيروت، (١٩٨٦م).

٣١- نصب الراية لأحاديث الهداية، عبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق: محمد حوامة، ط١، مؤسسة الريان، بيروت – لبنان، دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

تكملة
ديوان أبي حيان الأندلسي
(ت ٧٤٥ هـ)

د. عبد الرازق حويزي
جامعة الطائف

لا يختلفُ اثنان حولَ مكانة " أبي حيان الأندلسيّ " في الميدانِ العلميّ، والعطاء الثقافيّ، فهو يُعدُّ مِن أبرز رموزِ الثقافةِ العربيَّةِ على مرّ عصورها بما أضافَ إلى مكتبةِ التراث العربيَّ من مؤلفاتٍ مُتنوعة، تفخرُ بها على مرِّ التاريخ، وهذه المؤلفاتُ في مجملها تنَبِّئُ عن عُمقِ ثقافتِه، وسعةِ اطلاعه، وسلامةِ رأيه، وصحةِ استنتاجه، وقوّةِ حُجَّتِه، ونَصاعةِ برهانِه.

فقد أحاطَ علمًا بفنونِ اللغة العربية، والقراءات القرآنية، وتاريخ العربِ، وأنسابهم، وقصص السالفين، وغير ذلك من العلومِ الشَّرعيةِ ممَّا مَكَّنَهُ من تفسيرِ القرآن الكريم في كتابه الشهير المعروفِ بـ" " تفسير البحر المحيط "، هذا فضلاً عن سائرِ مؤلفاتِه الغزيرة في اللغةِ والنحو والأدب، وغريبِ القرآن.

ونظرًا لهذه المكانة السَّاميةِ التي تبوَّأها في ميدان الثقافةِ العربيَّةِ فقد اهتمَّ به، وبتراثِه العِلميِّ والأدبيِّ رهطٌ من الباحثينَ المعاصرينَ، حيث تصدَّى بعضُهم لتحقيقِ كتبِهِ ونشرِها، على حين تصدَّى بعضُهم لدراستِها لاستجلاءِ منهجِه في الدَّرْسِ والبحث، والكشفِ عن قيمتها، وأصدائها في الدِّراساتِ اللُّغوية المعاصرة.

وليس الهدف من السُّطور الآتية التعريف بـ" أبي حيان "، فقد وَضعت الدكتورة " خديجة الحديثي " كتابًا قيِّمًا، موسومًا بـ " أبي حيان النحويّ " تكفَّل بهذا الأمرِ وغيره، وليسَ الهدف منها أيضًا وضع ببليوجرافيا بما كتبَ " أبو حيان "، أو بما كُتِبَ عنه، فهذا الأمر يفتقر إلى بحثٍ آخر قائمٍ بذاته، وإن كانت مقدماتُ محقِّقي كتبِه قد أتتْ على هذا الأمر، كما هو الحال في مقدمة تحقيق كتاب: "تذكرة النحاة"، و "تفسير البحر المحيط"، وغيرهما.

وإنما الهدف الأساس الذي تسعى إليه هذه السّطور كما هو واضح من عنوانها هو محاولة

وضع تكملةٍ لديوان " أبي حيان الأندلسيّ " ليظهرَ الجانبُ الأدبيُّ عنده في أنصع صورةٍ، إذ لا يزال هذا الجانبُ عنده مفتقرًا للدراسةِ، والدليلُ على ذلك ما يضمُّه هذا البحثُ من مادةٍ شعريّة جديدة، غابت عن التحقيقات والدّراسات السابقة، التي تناولتْ إبداعَه الشّعريّ المتمثل في ديوانه الذي بُذلتْ عدّة محاولاتٍ في تحقيقه والاستدراك عليه تطلعًا لنشره كاملاً، ولكن لا يزال هذا الديوانُ بحاجةٍ إلى إعادةِ نظرٍ. وهذا بيانٌ بتلك المحاولات:

(١) نال الباحث "هاشم مهدي الشريف" قصبَ السَّبق في الالتفاتِ إلى ديوان "أبي حيان الأندلسيّ"، حيث تصدَّى لتحقيقه عام ١٩٦٤م في رسالته للماجستير التي تقدَّم بها إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة، بإشراف الدكتور " عبد العزيز الأهواني ". ينظر بحث الدكتور " محمد عويد الساير " الموسوم بـ " فهارس الجهد الجامعي لدراسة الأدب الأندلسي، الرسائل والأطاريح أنموذجًا "، المنشور في مجلة الذخائر، ع٢٥، ٢٦ عام ٢٠٠٦م، ص ٢٠٥.

(٢) ثم تلتْ هذه المحاولة محاولاتٌ أخر، لم تفد منها، فنشر الدكتور " أحمد مطلوب "، والدكتورة " خديجة الحديثي " في بغداد عام ١٩٦٦م مجموعةً شعريَّة، وسماها بـ" من شعر أبي حيان " وقعت في ٢٠٤ صفحة، وطبعتها مطبعة العاني.

(٣) ثم تصدَّى الدكتور " مطلوب "، والدكتورة "خديجة" لتحقيق الديوان، فأخرجاه كاملاً في بغداد عام ١٩٦٩م، وطبعته مطبعة العاني أيضًا، ووقع في ٥٥٢ صفحة، وضَمَّ حوالي ٢٧١٧ بيتًا. ينظر في وصفِ هاتين المحاولتين وحصرٍ لمؤلفاتِ " أبي حيان الأندلسيّ " المنشورة: المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٢/ ٢٤٦ – ٢٤٩، وينظر أيضًا تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان القسم السادس (١٠ – ١١) ص ٤٥٠ – ٤٥٤ للوقوف على مظان بعض مؤلَّفاته المخطوطة.

(٤) ثم نشر المجمع الثقافي بأبي ظبي موسوعته الشعرية في (CD) عام (٢٠٠٣م)، وكان ديوان "أبي حيان الأندلسيّ" من بين ما ضمَّت، فأصبح متاحًا إلكترونيًا، مُيسرًا للاقتباس والنسخ، هذا بالإضافة إلى إتاحته ورقيًّا من قبل.

وقد أُثرت بعضُ الاستدراكات على ديوان "أبي حيان الأندلسي" بالتحقيق السَّابق، أشار إليها د."عبد الحميد الهرامة" في بحثه الموسوم بـ"دواوين القرن الثامن الهجريّ بالأندلس: تعريف واستدراك، المنشور في السِّجل العِلميّ لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات القسم الرابع، اللغة والأدب، نشر مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤١٧ هـ، ص ٥١٧ – ٥١٨. الذي ذكر فيه معلومات مهمّة بشأن ديوان "أبي حيان الأندلسي"، حيث أتى على ذكر:

أ- استدراك الدكتور "عبد القادر زمامة" المنشور في مجلة دعوة الحق المغربية، ع (٢٢٣) ص ١٥٦ – ١٦٢، عام ١٩٨٢م، ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ٢، مج ٥٨، ص ٢٥٩ – ٢٧٦، عام (١٩٨٣م)، فلزم عليَّ الرجوعُ إلى هاتين المجلتينِ، فوجدتُ أن المستدركَ المنشور في المجلة الثانيةِ تحت عنوان: "من آثار أبي حَيَّان النّفري الأَندلُسي" هو نفسه المنشور في المجلة الأولى، وبالعنوان نفسه. ويضم هذا المستدركُ قصيدة "أبي حيان الدّالية" في تعظيم علم النّحو، ومدح "سيبويه"، وقد حقَّقَها الدكتور "عبد القادر زمامة"، وعلَّق عليها، وشرح ألفاظها، وأشارَ إلى خُلُوّ ديوان "أبي حيان" منها، وتقع هذه القصيدة في (١٠٦) ستة أبيات، ومائة بيت، ومطلعها: [من الطويل]

١- هُوَ العلم لا كَالعلم شَيءٌ تُراوِده
لَقَد فازَ باغيه وَانجح قاصدُه

ب - إشارة الدكتور " محمد بن شريفة " لهذه القصيدةِ في كتاب: " الزمَان والمكان " لابن الزبير ص ١٢.

وفي نهايةِ تعريفِ الدكتور " عبد الحميد الهرامة " بالديوان أشارَ إلى إخلالِ الديوان بها، وقال: " وفي القصيدة ما يدلُّ على أنَّ من شعره ما ندَّ عن القَيد ".

ثم وضَعَ في نهاية بحثِه استدراكًا على بعض الدواوين منها ديوان " أبي حيانَ الأندلسِيّ "، الذي احتلَّ من ص ٥٤٠ - ٥٥٠، وقد استدركَ عليه القصيدةَ الدَّاليَّةَ السَّالفة الذِّكر عن مخطوطة "ابن الأزرق" الموسومة بـ" روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام " في (١٠٥) خمسة أبيات، مائة بيتٍ، وأثبتَ قبَلها مقطَّعة لاميَّة من كتاب " تَاج المفرق في تحلية علماء المشرق ". هذا هو كلُّ ما ضمَّه استدراكُه المنشور في هذا المصدر.

قلتُ: وقد تعرَّضَ الدكتور: " حسن الملخ " لهذه القصيدةِ في مَقَالِه الموسوم بـ " من تاريخ النحو العربي شعرًا: دالية أبي حيَّانَ الغرناطيّ "، المنشور في مجلة تراث الإمارات العربية المتحدة، ع١٤، ص ٢٨ - ٣٠، سنة ٢٠٠٠م، ورجَّح أنها رسالته في تفضيل النَّحو المذكورة في ثبت مصنَّفاته. ينظر هَامش كتاب: "تحفة الأريب في نحاة مغني اللبيب" بتحقيقه.

وأتى الدكتور " عبد الحميد الهرامة " في بحثه المشار إليه آنفًا على جهد الأستاذ " سعيد أعراب " في عددين متتاليين من مجلة دعوة الحق المغربية عام ١٩٦٧م في تعريفه بنسخة ديوان " أبي حيان الغرناطي الأندلسيّ " التي تضمُّها مكتبةُ وزَّان المغربية، فرجعتُ أيضًا إلى العددين، وهما ع٥، ص ٧٥ - ٨٠، السنة ١٠، ١٩٦٧م، وع ٦، ٧، ص ١١٧ - ١٢٠، عام ١٩٦٧م، فألفيتُ الأستاذ "أعراب " يدرسُ - تحت عنوان: " نظرات في ديوان أبي حَيَّان الغرناطي " - شعر " أبي حيان الغرناطي" دراسة أدبية موزّعًا أشعاره على أطوار حياته، ومعتمدًا في دراسته على النسخةِ المخطوطة المشار إليها، فعرَّف بها، وقال: إنها تقع في ١٨٠ صفحة، وهي مكتوبةٌ بخط شرقي واضح، ولا تضمُّ كل شعر " أبي حيان "، إذ تضم (٢٦٣٥) بيتًا، وأن جامعَها هو أحد تلاميذ " أبي حيان "، وغلب على ظن الدكتور "عبد الحميد الهرامة " أنه " الصفديُّ ت ٧٦٤ هـ". وذكر الأستاذ " سعيد أعراب " أنه كتب بحثًا عن حياة " أبي حيان "، نشره في مجلة البحث العلمي، ع٣، السنة الأولى، ص ٢٤١.

وقال الدكتور: " محمد عويد الساير " في بحثه المنشور في مجلة المورد، ع١ ص ١٤٤، عام ٢٠٠٩م، والموسوم بـ " التراث الشعري الأندلسي في كتاب معجم التراث الشّعري المطبوع للدكتور سامي مكي العاني ": إن الدكتور " عبد الحميد الهرامة " استدركَ على الديوان بتحقيق الدكتور " أحمد مطلوب "، والدكتورة " خديجة الحديثي"، ضَمَّنه كتابه الموسوم بـ " القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ص ٤١٨ - ٤٢٤ "، الصادر عن دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٩٩م. قلت: لم أر هذا الاستدراك، ويبدو أن قوامَ هذا الاستدراك ينهض على القصيدة الدَّالية المشار إليها آنفًا، بدليل قلّة عدد صفحَاته.

(٥) ثم صدرت طبعة جديدة فاخرة، محققة على يد محقق ثبت، له اهتمام ملموسٌ بتراث "أبي حيَّان الأندلسي "، وهو الدكتور الفاضل: " وليد

السّراقبي "، وقد اعتمَد في تحقيقه على نسخة أخرى – كما ورد في مقدّمة تحقيقه - غير التي اعتمدَ عليها المحققان العراقيان، أهداها إليها الدكتور الفاضل " محمد خير البقاعي "، وهي من مقتنيات جامعة الملك عبد العزيز بالرياض، ويجد الباحث هذه النسخة في بعض الروابط الإلكترونية، منها الأربعة الآتية:

http://makhtota.ksu.edu.sa/makhtota/348/1

http://www.al-mostafa.info/data/arabic/depot/gap.php?file=m013546.pdf

http://www.mediafire.com/?4nn2dwwkvyn

http://archive.org/details/diwan-ibnhayyan-alnahawi

وقد تولَّت مؤسسة جائزة " عبد العزيز سعود البابطين " للإبداع الشعري نشرَ هذا التحقيق إسهامًا منها في خدمة التراث الشّعري، فتمَّ نشره عام ٢٠٠٩ م، وطبعتْه دار الوفاء لدُنْيا الطباعة والنشر بالإسكندرية، ووقع في ٥٠٠ صفحة، وضم (٣١٩) ما بين مقطعةٍ وقصيدةٍ، احتوت على (٢٨٨٨) بيتًا، أي بزيادة (١٥٠) بيتًا تقريبًا عن الطبعةِ العراقية السابقةِ، إضافة إلى تصحيحها لأوهام تلك الطبعة كما ذكر المحقق الكريمُ. وهذه الزيادة متمثلة في القصيدة الدّالية المشار إليها آنفًا، وهي تضم (١٠٦) من الأبيات، وبعض المقطعات الأخرى، وإضافة بعض الأبيات على بعض قصائدِ التحقيق السابق.

ومن المؤكد أن أمرَ الاستدراكات، وما أشار إليه الدكتور " عبد الحميد الهرامة "، والدكتور: "محمد عويد الساير"لم يصل إلى علم المحقق الفاضلِ، وإلاَّ لوجدنا الإشارة إلى الاهتمام بالديوان والاستدراك عليه في مقدمةِ تحقيقه زيادة على ذكره للطبعة العراقيةِ.

وبينما كنتُ أطالعُ الجزء السابع من موسوعة "ابن فضل الله العمري" الموسومة بـ "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وهو بتحقيق الأستاذ " عبد العباس عبد الجاسم "، وقد نشر المجمعُ الثقافي بأبي ظبي هذا الجزء عام ٢٠٠٣م، بينما كنتُ أطالعُ هذا الجزء منذ سنوات سلفت، ثم بتحقيق الأستاذ الفاضل " كامل سلمان الجبوري " المطبوع عام ٢٠١٠م، وقفتُ على اختيارات كثيرة " لأبي حيان الأندلسي " مذكورةٍ في هذا الجزءِ، ورأيتُ في هوامشِ بعضِ صفحاتِ هذا الجزء إشارات إلى إخلال الطبعة العراقية للديوان بكثير من الأشعار، فحدا بي هذا الأمرُ إلى الالتفاتِ لديوان " أبي حيان "، ثم هَدَتْني متابعةُ البحث إلى وجودِ التَّحقيقِ الجديدِ للدّيوان المشار إليه سلفًا، فتوقفت لحين الاطلاع عليه، وبمطالعةِ مصادرِه وجدتها مشتملةً على الجزء السَّابع من " مسالك الأبصار " بتحقيق " عبد العباس عبد الجاسم "، فانصرفتُ، ونفضتُ يدي من الموضوع، ولكن بمراجعةِ البحث وجدتُ أنَّ كثيرًا من الاختيارات المذكورة في " مسالك الأبصار " قد أخل بها أيضًا التحقيقُ الجديدُ لديوان " أبي حيان "، فعاودت البحثَ من جديد، إذ تبيَّنَ لي أن الحصيلةَ المذكورةَ في هذا الكتابِ ممَّا يُضاف للدّيوان ليسَتْ قَليلة، حيثُ تَبْلغ (٢٣٠) بيتًا تقريبًا من حصيلة هذه التَّكملة التي بلغتْ حوالي (٤٠٠) بيت تقريبًا. ووجدتُ اختلافًا كبيرًا في قراءةِ نصوصِ شعر " أبي حيان الأندلسي " بين تحقيقَيْ " مسالك الأبصار "، فاعتمدتُ تحقيق الأستاذ " الجبوري " أصلاً لجودَته، وضبطِ نصُوصه إلا في مواضع قليلة جدًّا، اعتمدتُ فيها على التحقيق الثَّاني، وإذا اقتضَى مِني الأمرُ لردّ تصحيفٍ وضعتُ ما تدخَّلتُ فيه من كلماتٍ بين قَوسَين، وهي لا تَتَجَاوزُ أصابعَ اليد الواحدة عدًّا، وخرَّجتُ القصائدَ والمقطَّعات على مصادرِها مُثبتًا رواياتِ بعضِ ألفاظِها، ومرتبًا

الأشعار على حُروف المعجم من الهمزة إلى الياء، وشارحًا - بالاعتماد على معجم تاج العروس - بعض الألفاظ الغريبة، وفاصلاً بين ما خلصت نسبتُه " لأبي حيان الأندلسي "، وما لم تخلص.

ولست أزعم أنَّ هذه الحصيلةَ في مجملِها جديدةٌ، فربما يكونُ بعضُها واردًا في بعض المستدركاتِ التي لم اطَّلع عليها، وربما يكون بعضها موجودًا في الدِّيوان، ودَخَل عليَّ أمر وجودِها فيه، فجَلَّ مَن لا يسهو، وربما يكون هناك من الفضلاء من سبقني إلى نشرِها دون علمي، ولستُ أزعم أيضًا أنها تمثلُ مع ما نُشِر في الدِّيوان كُلَّ ما نظمه " أبو حيان "، أو هي كلُّ ما أُثِرَ له في مصادر التراث العربي من أشعار، فحسبي أنني أجتهدُ في خدمة التراث العربي، واللغة العربية، وها هي ذي تكملةُ ديوان "أبي حيان الأندلسي":

قافية الهمزة

(١)

وقال: [من الطويل]

١- لئن كان زَيدٌ في خُمولٍ بعلْمِه
وعـمْـروٌ أخُـو جَـهـلٍ يَـنَـالُ سَـنَاءً

٢- فقدْ يرسُبُ اليَاقوتُ في الماءِ عَنوَة
وَيطفُو عَليه ما يكُونُ غثاءً

التخريج: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ٦٨/٣.

قافية الباء

(٢)

وقال: [من البسيط]

١- عشقتُه عندَما تمَّتْ محاسنُه
وقد تسيّج وردُ الخدّ بالزّغبِ

٢- حلوُ الحديثِ لطيفُ الرُّوحِ طيّبُه
كأنَّما صِيغَ مِن دُرٍّ ومِن ذَهبِ

٣- مطاوعٌ لي فيمَا قَدْ أرومُ بِهِ
مِن غيرِ فَحْشَاء نأتِيها ولا رِيَبِ

٤- مُكمّل الخلق من فرق إلى قدم
مبرّأ الخَلقِ من عَجبٍ ومن غَضَبِ

٥- رشفتُ منه رُضَابًا طَيِّبًا لعسًا
وذقتُ من رِيقِهِ أَحْلَى من الضّربِ

٦- سَكرتُ من ريقِه المعسولِ إنَّ بِهِ
لخَمْرةً هي تُزْرِي بابنةِ العِنبِ

٧- جَذَبتُ من قَدِّه غُصْنًا فَجَاذَبَني
ما أثقل الغصنَ من أَرادَفِه الكثبِ

٨- وَقَدْ عَجِبتُ لبدرٍ فَوقَ خُوطَتِه
وقيل مَا إنَّ عَهْدَنا البدرُ في القضبِ

٩- وكان في خَدّه خالٌ فَفَارقَه
لَمَّا رَأى حمرةً تَرميه باللَّهبِ

١٠- وفرّ محتَميًا بالأَنف محتَجبًا
واسودّ من لفحةِ أدنتْهُ للعَطَبِ

١١- وخافَ من حُمْرةِ نملِ العِذارِ وقد
رامَ التَّنَزُّلَ مِن عُلُوٍّ إلى صَبَبِ

١٢- فظلَّ حَيرانَ رِفقًا فوقَ عَارضِه
يَظما إلى شهدِه من ريقِه الشَّنبِ

الشرح: " والفَرْقُ: الطّريقُ في شَعَرِ الرّأس... ويُقال: الفَرْقُ من الرّأس: ما بينَ الجَبين إلى الدّائرةِ ". تاج العروس ٢٦/٢٨٠. والشَّنَبُ: مُحَرَّكَةً: مَاءٌ ورِقَّةٌ، تَجْري عَلَى الثَّغْرِ. وقيل: مَاءٌ

ورِقَّةٌ وبَرْدٌ وعُذُوبَةٌ في الفَم". تاج العروس ٣/١٥٧. والخوطة: "الغُصْنُ النَّاعِمُ مُطْلَقاً، أو هو كلُّ قَضيب مَا كانَ". تاج العروس ١٩/٢٧٦، و"اللَّعَسُ: لَوْنُ الشَّفَةِ إذا كانَتْ تَضْرِبُ إلى السَّوَادِ قَلِيلاً، وذلك مِمّا يُسْتَمْلَحُ". تاج العروس ١٦/٤٨٠.

التخريج: مسالك الأبصار ٧/٢٤٥ - ٢٤٦ (ط. الجبوري)، ٧/٢٦٥ - ٢٦٦ (ط. الجاسم).

(٣)

وقال: [من مجزوء الرمل]

١- أتــــرى يـــــدْري حَـبـيـبـي
مَـــا أُقَـــاسِــــي مِـــن لـهـيـبِ

٢- يـــا حـبـيـبـي ذابَ قـلـبي
مِـــنْ غَـــرامـــي ونَـحـيـبـي

٣- أنــــتَ بـــدرٌ أنـــتَ شـمسٌ
أنــــتَ مَـعـشــوقُ الـقُـلـوبِ

٤- يـــا هــــلالاً يـــا غـــزالاً
مَـــالِـكـــا قَـلْـبـي الـكَـئـيـبِ

٥- لـــكَ وجـــهٌ قَـمَـرِيٌّ
وقـــــوامٌ كـالـقـضـيـبِ

٦- وعـيـــونٌ رامـيــاتٌ
لـــيَ بـالـسَّـهْـمِ الـمـصـيـبِ

٧- وخــــدُودٌ دامـيــاتٌ
مــثـلَ تُـفَّـاحٍ خَـضـيـبِ

٨- وفـــمٌ عــذبٌ صـغـيـرٌ
مُـنْـبِـتُ الـــدُّرِّ الـعَـجـيـبِ

٩- فـيـهِ شـهـدٌ فـيـه مـسْـكٌ
لـــلـــمـذاقِ وَلِــطـيـبِ

١٠- يـا غـريـبَ الـحـسْـنِ رفـقًـا
بـمـعـنّـاكَ الـغَـريـبِ

١١- أنــتَ فـي كُـلِّ زمــانٍ
لَـسْـتَ تَـخْـلُـو مِـن رَقِـيـبِ

١٢- فـمـتـى يَـرجـو مـحـبٌّ
اجـتـمـاعًـا عَـن قَـريـبِ

١٣- يـا حَـبـيـبـي إنْ يَـدُمْ ذا
مـتُّ شَـوقًـا لـلـحَـبـيـبِ

التخريج: مسالك الأبصار ٧/٢٤٢ (ط. الجبوري)، ٧/٢٦١ - ٢٦٢.

(٤)

وقال: [من البسيط]

١- نعمَ السَّميرُ كتابُ الله إنَّ لَه
حلاوةٌ هي أحْلَى من جنى الضَّرَبِ

٢- به فنونُ المعاني قَدْ جُمعنَ فَمَا
يفُتنَ من عَجَبٍ إلاَّ إلى عَجَبِ

٣- أمرٌ ونهيٌ وأمثالٌ وموعظةٌ
وحكمةٌ أُودعتْ في أفصحِ الكتبِ

٤- لطائفٌ يجتليها كلُّ ذي بَصر
وَروضةٌ تجتنيها كلُّ ذِي أَدَبِ

التخريج: تفسير البحر المحيط ١/١٠٢، وقد وردت في مقدمة تأليف "أبي حيان الأندلسي" لهذا الكتاب، ولم ينسبها لنفسه. قلت: لا شك في نسبتها إليه، فهي تشبه شعره، لاسيَّما كلمة القافية في البيت الأول التي تشبه عنوان كتابه الموسوم بـ" ارتشاف الضرب"، ثم إن السياق الذي وردت فيه الأبيات يؤكد نسبتها إليه، هذا فضلاً عن عدم نسبتها لغيره.

قافية التاء

(٥)

وقال: [من الرمل]

١- وبروحي من إذا أبصرته
ذَهَبَتْ رُوحي عليه حسراتْ

٢- شادنٌ سكرانُ من دَلّ الصّبا
منه أضحَتْ مُهْجَتي في حَبْكَراتْ

٣- شبّهوه (بهلالٍ) في السَّنَا
أيْنَ منه خَفَرٌ في الوَجَناتْ

٤- مِن بَني الأَتْراك مَعْسُولِ اللّمَى
قَمَريّ الوجْه نُوريّ الصّفاتْ

٥- أسمرٌ قدْ هزَّ لي مِن قَدّه
أسمرًا يُزْري بخَطيّ القناة

٦- قَوْسُه الحاجبُ والسَّهْمُ لَهُ
طَرْفُهُ والقَدّ يَسْطُو بالظُّباتْ

٧- قَدْ غدا من حُسْنِه في شِكّة
يهزمُ العشَّاقَ منه بالتفَاتْ

٨- إنْ دَنَوا مِنْه فَسيفٌ يُنْتَضَى
أو نَأَوا عَنْه فَسَهْمٌ منه آتْ

٩- أو تَكُونُوا بينَ قُرْبٍ وَنَوىً
أَعْمَلَ الخطيّ في ذي النَّظَراتْ

الشرح: حَبْكَرات: جمع حبوكرى، وهي أعظم الدواهي. ينظر تاج العروس ٥٢٢/١٠، والواو زائدة في حبوكرى. ينظر كتاب سيبويه ٢٩١/٤. والظُّبات: جمع ظُّبَةٌ، وهي حَدُّ السَّيْفِ أَو السِنانِ. ينظر تاج العروس ٥٢١/٣٨، والقناة: الرمح، والقناة: كُلّ عَصًى مُسْتَوِيَةٍ. ينظر تاج العروس ٣٤٩/٣٩، ٣٥٠.

التخريج: مسالك الأبصار ٢٤٣/٧ (ط.الجبوري)، ٢٦٢/٧ (ط. الجاسم)، وورد البيت الثالث في الطبعة الأولى هكذا: " شبّهوه بالهلال في السنا "، وورد في الطبعة الثانية هكذا: "شبّهوه في الهلال بالسنا".

(٦)

وقال في مليح اسمه " عيسى ": [من مخلع البسيط]

١- وشَادِنٍ مِن بَني ثقيفٍ
بسهمِ ألحاظِه رُميتُ

٢- وخَالفَ في المعجزاتِ عيسَى
فَذَاكَ يُحْيي وذَا يُميتُ

التخريج: ترجمان الزمان في تراجم الأعيان للعلائي ج ٧٢/١٦، وهما في سلافة العصر لعبد العزيز بن محمد الزمزمي ١٨٩، وأرجح نسبتها "لأبي حيان الأندلسي" نظرًا لتأخر عصر هذا الشاعر، إذ توفي عام (٩٧٦هـ) فإنه نسبتهما لأبي حيان لا تزال قائمة.

قافية الحاء

(٧)

وقال: [من المتقارب]

١- غُزيّلةٌ ترتعي في الحَشَا
(سحيرًا) وتَزري بسُمْرِ الرّماحْ

٢- حمَى البطنَ عن بردِها نهدُها
كمَا قَدْ حمَى المتنَ ردفُ رَدَاحْ

٣- شَكَا غلَظَ السَّاقَ خلخالُها
كمَا رقّةُ الخَصْرِ تشكُو الوِشاحْ

٤- فلو خطّ هذا بموضع ذا
لقدْ كانَ هَذَا وذاكَ استراحْ

٥- لهَا أعينٌ هُنّ غيّبنَني
سُودٌ تُخيفُ أسودَ الكِفَاحْ

٦- فلا تَغْتَررْ بسَقَام بها
فكمْ كَسّرتْ مِن قُلوبٍ صِحَاحْ

٧- ولا تعتقدْها سِوَى أسهُم
ألمْ تَرَ مَا أثّرتْ مِنْ جِراحْ

التخريج: مسالك الأبصار ٧/٢٤٤ (ط.الجبوري)، ٧/٢٦٣ (ط. الجاسم)، وورد ت الكلمة الأولى في عجز البيت الأول في الطبعة الأولى هكذا: "سحرًا"، ووردت في الطبعة الثانية: "سمرًا تزري".

(٨)

وقال: [من الطويل]

١- تلمّح في عشّاقه فأشَاحا
وشدَّ على الخَصْرِ النَّحيلِ وِشَاحَا

٢- وأضْفَى عَلى الجِسْمِ النَّحيلِ مفاضَةً
فشاهدتُ لَيلي قَدْ أجَنَّ صَبَاحَا

٣- وجرَّ قَنَاةً كالقَوَام لدونَة
وَسَلَّ حُسَامًا كاللّحَاظِ جِراحَا

٤- وأوتَرَ قوسًا كالهلالِ انحناؤه
وفوّق سَهْمًا كالقَضَاءِ مُبَاحَا

٥- رأى منه أوصافًا فضمّ شبيهَها
إليهنَّ فَازدادَ المليحُ سلاحَا

٦- وقد كانَ يُغْنيه عن الدِّرع درعُه
وعن رمحه قدٌّ يفوقُ رماحَا

٧- وعن قوسه والسَّهم قَوسٌ وَحاجبٌ
وعن سَيفه لحظٌ يفلّ صِفَاحَا

٨- مجذّبُ عينٍ جاذب بفتورها
إليه قُلوبًا بالحيَاة شِحَاحَا

٩- تُقيّدُ مَن يَرْنُو إليها بحسنها
فَمُدْنفُها ما يَستطيعُ سَرَاحَا

١٠- ومَا ضَاقَ منه العَينُ إلاّ لبُخْله
بوصْلي وإنْ فَاقَ الأَنَامَ سَماحَا

١١- أرى رَشَدًا فيه الغوايَةَ مثلما
فسادي أراه في هَوَاه صَلاحَا

١٢- وقد جَدّ حبّي في هَواه نهايةً
وكانَ ابتداءَ الحبِّ فيه مُزَاحَا

١٣- ومَا الحبُّ إلاّ نظرةٌ إثرَ نَظْرَةٍ
تزيدُ نموًا إن تزده لحَاحَا

الشرح: مفاضَةً من الدروع: الواسعة. تاج العروس ١٨/٥٠٣.

التخريج: مسالك الأبصار ٧/٢٤٣(ط. الجبوري)، ٧/٢٦٢ – ٢٦٣ (ط. الجاسم).

(٩)

وقال في غلام اسمه " عثمان"، ومعه عبد له أسود: [من الطويل]

١- وريم حَكَى بدرَ الدُّجَى في جَمَاله
وغُصْنَ النّقَا في القَدِّ والظبي في اللّمحِ

٢- شَكا وَهجًا من طُولِ صوم وَحرّة
فَخَفَّفَ عنه بعضَ ذلك بالسّبحِ

٣- تجرَّد عَن جسم سَبيكة فضّة
فيا حُسن ما انشقَّ الظلامُ عن الصّبحِ

٤- وقارنَه في العَومِ زِنْجِيُّ جِلْده
فلاحا لنا ضدّين بالحسنِ والقبحِ

٥- وقالُوا غُروبُ الشَّمْسِ في البَحْرِ آيةٌ
ونحن رأينا ذاك في الحلوِ لا الملْحِ

٦- وكمْ مَرّ لي وقتٌ تمنّيتُ وصلَه
وذُو الصَّبر للأيَّام يظفرُ بالنُّجحِ

٧- فَسُحْقًا لأيَّام تَقَضّتْ بخيلة
وسُقْيًا ليومٍ صَالحٍ بالمنَى سَمْحِ

٨- رَأيتُ الذي أَهْواه فيه مُجَالِسي
تَعَاطَى كؤوسَ الأُنسِ بالجدّ والمزحِ

٩- وَيَبْسِمُ عنْ سِلْكٍ من الدُّرِّ أشنبٍ
وينسمُ عن مِسكٍ ذكيّ على النّفحِ

١٠- هُمُ أشبَهُوا بالشَّمْسِ نُورَ جَبينِه
وبينهما فرقٌ سَليمٌ من القَدْحِ

١١- تغيبُ ونُور الشّمْسِ لا شَكَّ واحدٌ
وعثمانُ ذو النُّورَينِ يمسي كَمَا يضحي

١٢- ومَا أنسَ لا أَنسَى انفِرَادي بوصْلِه
عشيَّةَ مَا أشكو أُقَاسِي من البَرْحِ

١٣- فَنَامَ قريرَ العَينِ مِلءَ جُفونِه
وجَفْني ذو قَرْحٍ ودَمْعيَ ذُو سَحِّ

التخريج: مسالك الأبصار ٧/٢٤٤ (ط.الجبوري)، ٧/٢٦٤ (ط. الجاسم).

(١٠)

وقال: [من الوافر]

١- فَضَائلُكم فَضَلْنَ النَّاسَ طُرًّا
وساعَدَها عَلَى الجودِ السَّمَاحُ

٢- تسحُّ فَيُغْمَر الأَدْنى وأَقْصَى
فَشَتَّانَ اقترابٌ وانتزَاحُ

٣- ومَا استَمْنَحْتَهَا زَادَتْكَ دُرًّا
كعينِ الماءِ تكثرُ إذْ تُمَاحُ

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ١/٢٤١.

قافية الدال

(١١)

ومنه قوله: [من الكامل]

١- ذو غُرّةٍ نُوريّةٍ ذُو طُرَّةٍ
ظلميّةٍ فيها ضَلالُ مَن اهتدى

٢- شرَكَ النَّواظرِ والخواطرَ طَرْفُهُ
فلكم به طيرُ القُلوبِ تصيّدا

٣- ما إن يهُزّ مثَقَّفًا من قدّه
إلاّ وكَانَ به فُؤَادي مُقَصَّدا

٤- ولَمَّا يَسلُّ مهنّدًا من لحظه
إلاّ غَدَا وَسطَ الجَوَانحِ مُغْمَدا

٥- لما يغنيّك القَريضَ مُردِّدًا
إلاّ وأنساكَ الغَريضَ وَمَعْبدا

٦- غَنّى فأطربَ كلَّ شيءٍ لحنُه
حتى الجماد عداه منه ما عَدا

٧- كمْ حرّكتْ نغمٌ له منْ سَاكِنٍ
ولكم بها نغمًا لدينا أوْجَدا

٨- كَادَتْ تَطيرُ منَ السُّرورِ قلوبنُا
لو لم يكنْ قَلبٌ لجسمٍ قيّدا

٩- شَـرُفَـتْ عَـلـى أبـصـارنـا أسـمـاعُـنَـا
إذ قـامَ فـيـهـا بـالأغَـانـي مُـنْـشِـدا

١٠- فلئنْ غدا في الحسْنِ أوحدَ عصره
فـلـقـدْ غَـدَا فـي الـحـزنِ قَلـبـي أوحَـدا

١١- يا نَائمًا مِلءَ الجفونِ دَعِ الجفَا
وارحــم مـلـيًّـا مِــن هَــواك مُـسـهّـدا

١٢- ولـقـدْ بَـدَا لـي مِـنْـكَ وُدٌّ ظَـاهِـرٌ
يـا لـيـتَ شِـعْـري مـا عـدا عـمّـا بَـدا

الشرح: الغريض (ت ٩٥ هـ) عبد الملك، مولى العبلات، من مولدي البربر: من أشهر المغنين في صدر الإسلام، ومن أحذقهم في صناعة الغناء. سكن مكة وغنى سكينة بنت الحسين. وكان يضرب بالعود، وينقر بالدف، ويوقع بالقضيب.كنيته أبو يزيد أو أبو مروان. ولقب "الغريض" لجماله ونضارة وجهه". الأعلام ٤/١٥٦، ومعبد هو: "معبد المغني (ت ١٢٦ هـ) معبد بن وهب، أبو عباد المدني: نابغة الغناء العربي في العصر الأموي. كان مولى لبني مخزوم (أو لابن قطن، مولى معاوية)، ونشأ في المدينة يرعى الغنم لمواليه، وربما اشتغل في التجارة. ولما ظهر نبوغه في الغناء أقبل عليه كبراء المدينة. ثم رحل إلى الشام فاتصل بأمرائها وارتفع شأنه. وكان أديبًا فصيحًا. وعاش طويلاً إلى أن انقطع صوته. ومات في عسكر الوليد بن يزيد". الأعلام ٧/٢٦٤.

التخريج: مسالك الأبصار ٤/٢٤٥ (ط.الجبوري)، ٧/٢٦٤ – ٢٦٥ (ط. الجاسم).

(١٢)

وقال يرد على ناصر الدين بن شافع:

[من الطويل]

١- أناصرَ دين الله أصبحتَ مُنْجِدي
فلستُ أبَالى مَن أغارَ وأنجدا

٢- (فتوقظني) من بعد ما كنتُ خَاملاً
فأطلقتُ من شِعري الذي قد تقيدَا

٣- شفعتَ بإحْسَانٍ فَسُمِّيتَ شَافعًا
وإن كنتَ وَتْرًا في المكَارِمِ أوْحَدَا

٤- غدا حاكمًا فى العلمِ أعدلُ حَاكمٍ
إذا قالَ قولاً كانَ حُكمًا مُؤيَّدَا

التخريج: مخطوط السفينة ١٢/٢٨ ب، ومطبوعه ١٢/٢٦٦، وورد البيت الثاني فيه هكذا "لتوهب بي... أطلقت".

(١٣)

وقال: [من الطويل]

١- شكا لي صديقي حبَّ سَوداءَ أُغْرِمَت
بمصِّ لِسَانه مِنْه، تَرْشُفُه وِرْدَا

٢- فقلتُ له: دَعْهَا تُواظبْ مَصَّه
فإنَّ لِسَانَ الثَّورِ ينفَعُ للسَّوْدَا

التخريج: السحر والشعر ص ١٩٣.

(١٤)

وكتب إلى " ابن فضل الله العمري ":

[من الطويل]

١- أيا سيّدًا حازَ المعالي والمجدَا
ليهنكَ مولىً محسنٌ أنجزَ الوَعْدَا

٢- على أنَّه قد راحَ جزءٌ من أوّلٍ
وجزءان فاختلّ الكتابُ ومَا أجدَى

٣- يذَكِّرُني ما قَدْ بقِي حُسنُ مَا مَضَى
فيُنْشِئُ لي غمًّا ويُنبتُ لي حِقْدَا

٤- وفقدي لبعض منه فَقدي لكلّه
فيا ليتَ أَنّي كُنْتُ أرزأهُ فَقْدَا

٥- فأبكيه ما قد شبّ نارٌ بفارسٍ
بطرفٍ زكا دَمْعًا وقلبٍ ذكا وَقْدَا

٦- وأندبُه ندبَ الهلوك وحيدها
وقد نظمتْ من درٍّ أدمعها عقدَا

٧- ومن عرض الحسناء تبدي غضارةً
بلا خِطبةٍ من راغبٍ لا يرى نقدَا

٨- أراك ازدرتْ عيناكَ حسنَ شَبابها
فأزريتَ بالمهْدي وما كانَ قَدْ أَهْدَى

٩- ولو سحت بخلاً لأغنى عزَّ أُمَّة
فلَمْ يَنْتَجِزْ وَعْدًا ولمْ يَنتهزْ رَدًّا

١٠- ولكنَّنا قدْ شَطّتْ بنا غُربةُ النّوى
فأذكرني مَا قَدْ جَرَى السُّؤدَد العدَّا

١١- فلا تعجبنْ منْ سيّدٍ نجلِ سيّدٍ
يلاطفُ بالإحسانِ رِقًّا له عَبدَا

١٢- ببابكَ أَضْحَى النَّاسُ يجمعُهم هوىً
ولم أرَ فيه مَنْ غدا للوَرَى ضِدًّا

١٣- كمشتركين اسمًا ووصفًا كلاهما
يميّزُهُ وَصفٌ غدَا لقبًا فَردَا

١٤- أنافَا على الصَّوّاغِ في أذنيهما
فمِنْ صَاعد نجدًا ومن هابطٍ وَهْدَا

١٥- ينفّقُ بالأيمان سلعةَ مَا ادَّعَى
فيعرفه عِلْمًا ويُنْكرُه جَحْدَا

١٦- كتابيَ ملكي لمْ أكنْ بائعًا لَه
ولا وَاهبًا بَلْ مَزْحُ نظْم له أدَّى

١٧- أَيَسلُبُهُ هذا الصّويّغُ عُنْوَةً
وأتْركه إني إذًا لم أكنْ جَلْدَا

١٨- فلا تحسبنْ أنِّي تَروكٌ طِلابَهُ
ولو أَنَّني في الرَّمْسِ أسكُنُه لَحْدَا

١٩- فإنْ أُحْضرَ الدِّيوانُ يُفْضِي إلى الرِّضَا
ويَقضي له بالسّكنِ أتبعُهُ حَمْدَا

٢٠- وإن لا يكن علمًا فإني أبثُّها
عقاربَ سُمٍّ تَلْسَبُ العَظْمَ والجلْدَا

٢١- وهأنذا أرسلتُ سَهْوًا رِسَالَةً
تخبّطُه مَسًّا وتربطُه شَدًّا

٢٢- يطوفُ به بحرًا وبرًّا إذَا أَتَى
بذنبٍ فقد ألقى بها هائمًا بردَا

٢٣- تعلَّمَ فيه النَّحْوَ مَنْ كَانَ من بَني
أبي مُرّة عبدَ الطلى بَدنا مردَا

٢٤- فيغنى بمُرْدِ الجنّ عن مُرْدِ إنسِنا
ينادمُهم فيمَا أعادَ ومَا أَبدَى

٢٥- وما الشِّعر والآدابُ إلاّ فُكاهةٌ
تَرى الجدّ هَزْلاً أو تَرَى هَزلَه جِدًّا

٢٦- ومَن لم يكنْ في طبعه أدبٌ فما
يلذُّ به أنْ سمعُه عَنْه قَد سُدًّا

٢٧- ومحكم نفح للكلامَ هو الذي
يقلّبُ في أنواعِه بَاذلاً جُهْدَا

٢٨- يقبّلُ روضَ العلم أخضله النَّدى
فيقطفُهُ زَهرًا وينشقُهُ ندًّا

٢٩- وينظِمُ ما قد كان نثرًا وينشرُ الّـ
ـذي كان نظمًا سالكًا منتهَى قصدَا

٣٠- فَلا بمذالِ اللَّفظِ سُوقيّةٍ ولا

بحُوشيّه قدْ باتَ ينحتُه صَلدَا

٣١- ولكنّه سهْلُ المنَاحي لَطيفُه

(يلذُّ) به سمعًا ويرشُفُه شهدَا

٣٢- ومَنْ حَازَ آدابًا وَعِلْمًا وَسؤدَدًا

يكن ك"ابن فضل الله" أسنى الوَرَى حَدًّا

٣٣- عَلى أنَّه لا مثْلَ "أحمدَ" في الوَرَى

أعزُّهمُ نفسًا وأشرفُهم جدًّا

٣٤- وَأوقدُهم ذِهنًا وأنقدُهم لُغا

وأبعدُهم صِيتًا وأقربُهمْ وِرْدا

٣٥- يلوذُ النَّدى والعِلمُ والحِلمُ والتُّقَى

بحِقْوَيه لا يلقَى له أبدًا نِدًّا

٣٦- غَنيٌّ بأوصافِ الكَمالِ فلا يُرَى

يريدُ بمدحٍ لا فخارًا ولا مجدَا

٣٧- ليرأسَ وَيَسْعَدَ مَن يلازمُ بابَه

فَمِن بابِه نِلْنَا الرِّئَاسَةَ والسَّعْدَا

الشرح: تَلَسَّبُ: تلدغ. ينظر تاج العروس ٢٠٦/٤.
وأبو مُرَّة: كُنْيَة إبليس - لَعَنَه الله تعالى - قيل: تَكَنَّى بابنةٍ له اسمُها مُرَّة". تاج العروس ١١١/١٤، و"الحَقْوُ: الإزارُ". تاج العروس ٤٥٤/٣٧.

* أحمد: هو أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (ت ٧٤٩هـ)، الموسوعي الشهير، والمؤرخ اللبيب، والأديب اللوذعي، صاحب موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، والتعريف بالمصطلح الشريف، وذهبية العصر، وهذه الكتب الثلاثة منشورة، وديوان شعره جمع أكثر من مرة، منها: صنعة الأستاذ "كامل سلمان الجبوري" المنشورة في مجلته الذخائر، وينظر في التعريف به مقدمة ديوانه، ومقدمة الأستاذ كامل الجبوري في تحقيقه لمسالك الأبصار.

التخريج: مسالك الأبصار ٢٣٣/٧ - ٢٣٤ (ط. الجبوري)، ٢٥١/٧ - ٢٥٢ (ط. الجاسم) دون البيت الأخير. وورد البيت (٣١) فيهما هكذا: "فلذ به".

(١٥)

وقال: [من الوافر]

١- جديدُ الحسنِ في خَلقٍ تَبَدّى

فحارَ الطَّرفُ وارتاعَ الفُؤادُ

٢- فَقُلْتُ وقدْ مَضَى قَلْبي إليه:

أعِدْه فقال: ماضٍ لا يُعادُ

التخريج: مسالك الأبصار ٢٤٧/٧ (ط.الجبوري)، ٢٦٧/٧ (ط. الجاسم).

(١٦)

وقال في داليته الشهيرة في إعلاء شأن علم النحو، ومدح سيبويه، وذم مناوئيه: [من الطويل]

٣٣- به نُظِّمَتْ في إثْرِ شتٍّ عُقودُه

وزَيَّنَها من بعد شَينٍ فَوائدُهْ

٦٤ - فَدَسَّ له يَحيى وقدْ جَمعَ الوَرَى

بِنَادٍ فَوافَى لا توانى واعدُهْ

٦٥- سَؤولاً له عن مُعضلٍ (بَاتَ) شيخُه

يُنَقِّحُهُ حَتَّى تَبَدَّتْ مَنَاكِدهْ

٩٣- لَه نسبةٌ كعبيَّةٌ عَاصِمِيَّةٌ

زُبَيرِيَّةٌ طالتْ وَطابتْ موالِدُهْ

التخريج: تحفة الأريب في نحاة مغني اللبيب

٢٥٣/١ - ٢٥٦، وقد أورد السيوطي مؤلف هذا الكتاب هذه الدالية في مائة بيت وعشرة أبيات، على حين وردت في الديوان ص ٣٥٤ - ٣٦٣ في ستة أبيات ومائة بيت، ولم ترد هذه الأبيات في القصيدة، وقد وضعتُ إزاء كل بيتٍ رقمَه فيها، وقد أخلّت جميع تحقيقات القصيدة بهذه الأبيات، والأبيات السابقة في مخطوط السفينة ٢٤/٢١، وما بعدها، ومطبوعه ٢٥٦/١٢، وورد

* لعل المقصود بـ" يحيى " هو " يحيى بن زياد الفراء الكوفي " (ت ٢٠٧هـ) أحد المقربين للكسائي والمناوئين لسيبويه. ينظر السجل العلمي لندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات (القسم الرابع، اللغة والأدب) ٥٤٧، وورد البيت (٦٥) في تحفة الأديب هكذا: " بان شيخه "، وورد في السفينة هكذا: " باب شيخه ".

قافية الراء

(١٧)

وقال: [من الطويل]

١- إذا كان إحسَاني لكمْ تهدرونَه
على غيرِ شيءٍ كنتُ أَوْلى لهمْ هَدْرا

٢- إذا كان بدرُ الأفق يأبى بزوغَه
عليّ منعتُ العينَ أن تنظرَ البَدْرا

٣- إذا كان خلّى مظهرًا لي تَكَبُّرًا
عليّ فإني أَمْلأُ الأرضَ لي كِبْرا

٤- إذا كان ذو جاهٍ ومالٍ تزورُه
سنينَ فلَمْ ينفعْك فاخْطُطْ له قَبرا

٥- إذا كان مأمولاً ترُجّي بلوغَهُ
وفاتَ فلا تُحْدِثْ لَه أبدًا ذكرا

٦- إذا كان سرٌّ ضِقْتَ صَدْرًا بحفْظه
فلا تعتبَنْ مَن ضَاقَ يومًا به صَدْرا

٧- إذا كان بعضُ المالِ يكفيكَ فاقتَنعْ
تَصُونُ به وجهًا وتحيى به حُرّا

٨- إذا كان عُسرٌ قدْ أضرّكَ فاصطبرْ
له وارتَقِبْ مِن بعدِه عَاجِلاً يُسْرا

٩- إذا كان فضلُ المرءِ وافَاكَ بَاديًا
فَأَجْزِلْ لَه فَضْلاً وَزِدْ فَوقَه شُكْرا

١٠- إذا كان سعدٌ لم تُبالِ بكُلِّ مَن
يعاديك فاعملْ صالحًا وادّخرْ أَجْرا

١١- إذا كانَ خُبْثٌ في صَديقكَ فاحْترزْ
فإنّ خَفَايَا الخُبث تبغي لك الشَّرّا

١٢- إذا كانَ وُدُّ المرءِ فيكَ مُعلّلا
بأمر تقضّى إن قُضي (ملك) الأمرا

١٣- إذا كانَ سُوءُ الظَّنّ حَزْمًا فعوّلنْ
عليه فَحُسنُ الظَّنِّ يزجي لك الضُّرّا

١٤- إذا كان هَفْوٌ من مَواليكَ فَليكنْ
له منكَ عَفوٌ تلقَه صَاحبًا بَرّا

التخريج: مسالك الأبصار ٢٤٦/٧ (ط.الجبوري)، ٢٦٦/٧ - ٢٦٧ (ط. الجاسم)، وورد عجز البيت الثاني عشر في الطبعة الأولى هكذا: " قضى لك الأمرا "، وورد في الطبعة الثانية هكذا: " قضى فلك الأمرا ". وبتسكين آخر الفعل (قضي) يستقيم الوزن.

(١٨)

وقال في رثاء صديق له : [من الطويل]

١- صغيرٌ ولكن في العُلى أكبرُ الوَرى
وقورٌ ولكنْ في الزكَا الآيةُ الكُبرَى

٢- وما طره حتى عذب لك منجدا

لقد شَرُفتْ ذِكرًا وجَلَّتْ بكمْ قدرًا

٣- ويا عجبًا أَنِّى حللتُ بأَرضِها

وما أيْنعتْ رَوضًا ولا انفجَرتْ بحرًا

٤- وما ذاكَ إلاَّ أنَّ رُوحَكَ سَمَتْ إلى

العالَمِ العُلويّ فَهو بها أَحْرَى

٥- تلقَّتْ سِراعًا رُوحَه إذ تصعَّدَتْ

ملائكةُ الرَّحمنِ بالبِشرِ والبُشرَى

التخريج: مخطوط السفينة ١٢/ ٢٩ أ، ومطبوعه ١٢/ ٢٦٧، وكذا ورد صدر البيت الثاني.

(١٩)

وقال: [من الخفيف]

١- مَن نصيرُ المشوقِ من لحظ (حبٍّ)

كَلّم القلبَ كَلْمةً ليسَ تَبْرا

٢- تَبِعَ القلبُ شَخْصه إذ تَولَّى

وكذاك الكَليمُ يتبعُ خِضْرا

التخريج: مسالك الأبصار ٧/ ٢٣٨ (ط.الجبوري)، ٧/ ٢٥٦ (ط. الجاسم)، وورد كلمة (حب) في الطبعة الأولى هكذا: " خد "، ووردت في الطبعة الثانية " خصر ".

(٢٠)

وقال: [من الطويل]

١- وقَالُوا الذي تهواهُ أصبحَ قَد بَدَا

بخدّيهِ شَعرٌ سَالبٌ كُلّ نَاظرِ

٢- ومَا الخدُّ منْه غيرَ مِرآةٍ صَيقَلٍ

وما الشَّعرُ فيه غيرُ هُدبِ النَّواظِرِ

التخريج: مسالك الأبصار ٧/ ٢٤٧ (ط.الجبوري)، ٧/ ٢٦٨ (ط. الجاسم).

(٢١)

وقال: [من الطويل]

١- فلمَّا تَدانَينا وَدُونَ كَلامِنَا

كلامُ الرقاقِ البيضِ والذُّبّلِ السُّمْرِ

٢- بكيتُ وأبدَى ثَغْرُها لي تَبَسُّمَا

ولا عجبٌ أن يبسمَ الزّهرُ للقَطْرِ

التخريج: مسالك الأبصار ٧/ ٢٤٧ (ط.الجبوري)، ٧/ ٢٦٨ (ط. الجاسم).

(٢٢)

وله قصيدة في مدح الرسول - ﷺ - قالها فى طريق الحجاز أولها: [من الطويل]

١- دَرَتْ أنَّ ذَاك الوصلَ يُعقَبُ بالهجرِ

فَأَذْرَتْ جُمَانَ الدَّمعِ فى مَرمَرِ النَّحرِ

منها:

٢- مُداوونَ أجسامًا بتركِ فضُولِها

ومُرْوونَ ألبابًا بعذبٍ مِن الذِّكرِ

منها:

٣- وسَاروا على نهجِ السَّبيلِ فأينعَتْ

لهمْ أَيكةُ العرفَانِ لا أيكةُ الثُّمْرِ

٤- نَبيٌّ لَه فَضلٌ عَلَى كُلِّ مُرْسَلٍ

كمَا فضلتْ شمسُ الضُّحى الكوكبَ الدُّرِّي

٥- إلى العَالمِ العُلْويّ أَسْرَى بأحمدٍ

فصارَ بمسْراه لَه أَعْظَمَ الذِّكرِ

منها:

٦- لَقَد جهِدَ المدّاحُ فى وَصْفِ أَحمدٍ

وما بلغُوا مِعْشَارَ تسْعٍ ولا عُشْرِ

٧- وَحَسْبُكَ أن أَثْنَى عليهِ إلهُنا

فمَاذا عَسى يُثْني ذوو النَّظْمِ والنَّثر ؟

٨- إليكَ رَسولَ الله جُبْنَا سَبَاسِبًا

يظلُّ بها الخِرِّيتُ حيرانَ لا يَدْرى

٩- وإنْ هَالَنَا أَمْرٌ دَعَوْنَاكَ رُغَّبًا

فيُكْشَفُ عَنَّا مَا يهولُ مِن الأَمرِ

١٠- مِن أندلسٍ جِئنَا نُعَاني شَدَائدًا

ففي مَوكبٍ نَسْري وفى مَركبٍ نجرى

منها:

١١- ولو لم يكنْ إلا الكتابُ الذي أَتَى

بِهِ لكَفَانَا شَاهدًا أَبَدَ الدَّهْرِ

١١- نُعفرُ حُرّ الوَجْه فيها لأَن مَشَتْ

بها قدَمٌ للطَّاهرِ الطَّيبِ النَّشْرِ

١٢- وَنلثمُ قَبْرًا - قَدَّسَ الله سرَّه -

حَنينًا إلى السِّرِّ المضمَّنِ في القَبرِ

منها:

١٣- محمَّدٌ يا مَولايَ دَعوة خائف

رَهينِ ذُنوبٍ قد غدا مُثقلَ الظَّهْرِ

١٤- إيَاكَ أَبو حيانَ يرجُفُ قلبُهُ

لِمَا اجترحتْهُ النَّفسُ في سَالفِ العُمْرِ

١٥- ومَا لي سِوى الحبِّ الصَّحيحِ وَسيلَةٌ

وإني لأَرجو أنْ يُحَطَّ بها وِزْري

١٦- عليكَ سلامُ الله مَا حَنَّ شَيِّقٌ

إليكَ وما رَوَّى الثَّرى مُثْجَمُ القَطْرِ

الشرح: السَبَاسِب: جمع سبسب، وهي: "المَفَازَةُ، والقَفْرُ، أَو الأَرْضُ المُسْتَوِيَةُ البَعِيدَةُ". تاج العروس ٣/٤٠. و "الخِرِّيتُ: الماهرُ الّذي يَهتدِي لأَخْرات المَفَاوز، وهي طُرُقُها الخَفِيفَةُ ومَضَايِقُهَا. وقيل: أَراد أَنّه يهتدي في مِثْل ثَقْبِ الإِبْرة من الطريق". تاج العروس ٤/٥٠٧. و "أَثْجَمَت السماءُ: دَامَ مطرُها". تاج العروس ٣١/٣٥٢.

التخريج: مخطوط السفينة ١٢/١٩ أ - ب، ومطبوعه ١٢/٢٦٨.

(٢٣)

وقال في مكسور السِّن: [من الطويل]

١- ثناياك درٌّ والرّضابُ الذي بها

رحيقٌ وقد أضحَى ختامًا على الخَمْرِ

٢- تأرّج منها عرفُها فغدَتْ بها

نشاوى نُفُوسٍ لا تَمَلّ مِن السّكْرِ

٣- وتَاقُوا إليها وهي تَاقَتْ إليهِمُ

وللراحِ في الأرواحِ سِرٌّ كَمَا تَدْرِي

٤- ورامتْ وصولاً للنَّدَامَى فلمْ تَجدْ

سبيلاً بفيضِ مَا يعُوقُ مِن الدرّ

٥- فلا تحسَبُوا أنّ انكسَارَ ثنيّةٍ

يشينُ فكلُّ الخيرِ في ذلكَ الكَسرِ

٦- تأشّرَ منها بعضُها ولَعًا بها

وأحسنُ ما في الثَّغرِ أن صَار ذا أَشرِ

٧- وَصرْنا متى نلثمْه نرشُفْ رُضَابَه

فَتَجْري لَنَا الصَّهْباء مِن لَثْمة الثَّغْرِ

٨- رضابٌ به يُشفَى الأُوام أخو الصّبا

فكالشّهدِ في طَعمٍ وكالمسكِ في نَشْرِ

٩- حباني به فَرْخٌ من التُّرك لم يَصِلْ
مِن العمرِ إلّا أربعًا فوقَ ما عَشرِ

١٠- يكوّن من نورٍ قَوافي نهاية
من الحسْنِ إذ أضْحَى كيُوسُفَ في مصرِ

١١- أنِسْنَا بقربٍ منه من بعدِ وَحْشَةٍ
وأبدَلَنا الوَصْلَ المهنّأ بالهجرِ

١٢- وأمتعنا مِن ريقِهِ وَجبينِه
بأشهَى من الصّهبا وأبهَى من البَدرِ

١٣- بجسم حكى لونًا سبيكةَ فضّةٍ
وقد أُشْرِبَتْ شيئًا يَسيرًا من التّبرِ

١٤- وعينٍ لحصَافته نَاظرٍ
كأنّ بها هاروتَ ينفثُ بالسِّحرِ

١٥- تناسبتِ الأعضاءُ منه فلا تَرى
بهنَّ اختلافًا بلْ أتينَ على قَدْرِ

١٦- أسرّحُ عَيني في الملاحِ فلا أرى
شبيهًا لَه فيهم ولا جَالَ في فِكْرِ

١٧- تمازجَ رُوحَانَا هَوىً وَصبابةً
فبالجِسم في شَفْعٍ وبالرّوحِ في وَترِ

١٨- وجاءَ لنا طَوعَ المرادِ فلا تَرى
عَصِيًّا لنا في الطّموعِ والنَّهي والأمْرِ

١٩- نقضّي به عيشًا من الدَّهْرِ صَالحًا
ونجني به الآمالَ دَانيةَ الثُّمْرِ

الشرح: " الثَّنِيَّةُ مِنَ الأَضْراسِ: الأَرْبَعُ التي في مُقَدَّمِ الفَمِ ؛ ثِنْتانِ من فَوْقُ، وثِنْتانِ من تحت تاج العروس ٣٧/٣٩٥، و " الأُوامُ: العَطَشُ أو حَرُّه ". تاج العروس ٣١/٢٥٣.

التخريج: مسالك الأبصار (ط. الجبوري)، ٧/٢٤٩ – ٢٥٠ (ط. الجاسم) دون البيت الثالث، وورد البيت السابع في مخطوط السفينة ١٢/ ٢٨ ب، ومطبوعه ١٢/ ٢٦٦ برواية: " ثلمة الثغر ".

(٢٤)

وكان الشيخ العلاّمة " أثير الدين " قد توجَّه إلى الإسكندرية، فوقع الشَّناعُ أنه (أحمد بن عبد الدائم) غرق في النيل، ودفن بقرية "بولة"، وهي قرية على شاطئ النيل، فقال أبياتًا منها: [من الطويل]

١- وقَدْ دَفنُوا ذاكَ الخَراءَ ببولةٍ
وحُقَّ لذاكَ المَيْتِ تلكَ المقابرُ

التخريج: أعيان العصر وأعوان النصر ١/٢٥٥.

(٢٥)

وقال: [من الطويل]

١- لَهُ أَبَدًا مِنّي حَنينٌ مجدَّدٌ
ألا إنَّما تِلْكَ الليالي هِي العُمْرُ

٢- وَشَوقٌ إلى لَيلاتِ أُنْسٍ بقُربِه
ووُدٌّ مُقيمٌ لا يُغيِّرُه الدَّهْرُ

٣- ليالٍ إذا ما مَرَّ طيبُ ذِكْرِهَا
تسرُّ بهِ نَفْسي وَيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ

٤- على فقدها يَسْتَحِقُّ النَّوحُ والبُكا
وفي قُربها يستعذبُ النَّظمُ والنَّثرُ

٥- سَقَى اللهُ قَبْرًا ضَمَّ بحرًا من العُلا
مَريعًا وروَّى تربَهُ نائلٌ غَمْرُ

التخريج: مخطوط البدر السافر ٢/١٧٨.

تكملة ديوان أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)

قافية الزاي

(٢٦)

وكتب إلـى " ابـن فضـل الله العـمري ":
[من البسيط]

١- "منطق الخرسِ" صبرًا ألاَّ يَراكَ أَبُو
حيّانَ حتَّى يعودَ القَارظُ العِنْزي

٢- حصلت في كفّ شهمٍ لا يُنَالُ له
غورٌ كريمِ الثَّنا والأصلِ محترزِ

٣- إذا استعارَ كتَابًا لا يَعُودُ لمنْ
أعارَه فعلَ آبي الضّيمِ محتجِزِ

٤- حبُّ الفضَائلِ قدْ أَلْهاهُ لا طَمَعٌ
منهُ ولا يحلّ إلى نداه عُزِي

٥- هَذا وشيمتُه بذلُ اللُّهَى ويرى
إسداءَه للنّدَى من أعظمِ النّهزِ

٦- ومَن يقابلُ بالنبراسِ شَمْسَ ضُحًى
كمَن يقابلُ لجَّ البحرِ بالنّززِ

٧- اضطرَّ قَلْبي لِتَأْليفي لِتُبْصِرَه
عيني كما اضطرّ صدر اللّبيبِ للعجزِ

٨- وقدْ تشوّقتُ للبكرِ التي نشأتْ
من فكري طفلة ليستْ من العَجزِ

٩- فابعثْ بها يا إمامَ العصرِ سالمة
وحلّها بنفيسِ الدُّرّ لا الخَرَزِ

١٠- بحرٌ تناءَى يفوقُ المسكَ نافحُه
إنّ الكرامَ لما قدْ حُزتَ لم تَحُز

١١- يَسري ثنائي في الآفاقِ مُنتهيًا
يجوزُ حيث الدّراري السَّبعُ لم تَجُزِ

١٢- ما فاز ذو شرفٍ بالمدح من أحدٍ
إذا بمدحِ أبي حيّانَ لم يَفُزِ

١٣- ولم يَمِزْ جاهلاً من عالمٍ أَحَدٌ
إذا يكونُ أبو حيّانَ لَمْ يُمَزِ

١٤- وقد جَزيتُ مُسيئًا بالجميلِ فلا
أكونُ ممَّن بسوءٍ في الجميلِ جُزي

١٥- إني لأجزى بكثرِ الرّسلِ مطّلبًا
بنات فكري وغيري لا أراهُ جُزي

١٦- وإنَّ مَن سَامَني سَوءَ الفعالِ كَمَنْ
يرشُّ بالطلّ صَخرَ التّربةِ الجرزِ

١٧- أرض بها ينبتُ الشّري الكريهُ فَمَنْ
يَذُقْهُ ذاقَ وجيّ الحبّة الجمزِ

١٨- لكنَّما صَنْعَتي حَوكُ القريضِ فَمَا
نَسْجي سوى بُرد مدحٍ مُعلمِ الطّرزِ

١٩- وقد تَقَدّمَ لي في فَضْلكم مِدَحٌ
قَصائدٌ بثناءٍ عنه لم تُجَزِ

الشرح: منطق الخرسِ: اسم كتاب ألفه أبو حيان الأندلسي، ذكره " أبو حيان " أكثر من مرة في هذه السطور، وعنوانه الكامل هو: " منطق الخرس في لسان الفرس " فوات الوفيات ٤/٧٩، و " النَّزُّ: ما يَتَحَلَّبُ من الأرض من الماء، تاج العروس ١٥/٣٥١. و اللُّهَى: العطايا. تاج العروس ٣٩/٥٠٢.و " النَّهزُ: الاغتنام. تاج العروس ١٥/٣٦٤ ، والدّراري السَّبعُ: هي النُّجُومُ السَّبْعَةُ المعْرُوفَةُ، وَهِيَ الدَّرَارِيُّ ". تاج العروس ٣/١٦٧، و " التّربةِ الجرز: لا نبات فيها، قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ". سورة السجدة (٢٧).

تاج العروس ٥٢/١٥. الشَّرْيُ: النَّخْلُ يَنْبُتُ من النَّواةِ. تاج العروس ٣٦٧/٣٨.

التخريج: مسالك الأبصار ٢٢٨/٧ (ط. الجبوري) دون البيت الخامس، ٢٤٤/٧ - ٢٤٥ (ط. الجاسم). وكذا ورد عجز البيت السابع عشر، وورد في الطبعة الأولى هكذا: " ذاق وحي الجنة الصمز ".

(٢٧)

وكتب إلى " ابن فضل الله العمري ":
[من البسيط]

١- ما آن للكرمِ الموعودِ إنجازُ ؟
يا مَن له الفضلُ والإحسانُ ينحازُ

٢- أسهبتَ في النَّظم باللفظ البديع وبالـ
ـمعنى الغريبِ لنظم فيه إيجازُ

٣- ما يُشبهُ البحرَ في أمواجه ثَمَدٌ
ولا الصدورُ، تساميهنَّ إعجازُ

٤- فلو تحدثتَ بالآداب كان لها
من لفظك البارعِ المدّ كبتْ أَعْجَازُ

٥- إن كان أشبهكَ الأعلامُ في شَرَفٍ
فأنتَ بالهمّةِ العلياءِ تمتازُ

٦- سَمَوتَ للعالم العُلويِّ حيث يُرَى
للنيّراتِ به فَخْرٌ وإعْزَازُ

٧- يمضي زمانٌ ونورُ النيّرين معًا
يخْفَى وللشُّهْبِ في الآفاقِ إبرازُ

٨- لا تُلْقِيَن إلى ما كانَ من عَرَضٍ
للجَوْهرِ الفَرْدِ فالإعراضُ أوفازُ

٩- في لذّة العلم ما يغني الأريبَ به
عن رتبةٍ غيركم مَا إنْ بها فَازُوا

١٠- ما كان إلاّ انتقالٌ من عَلٍ لِعَلٍ
فيه لمنصبِ فَضلِ الله إحرَازُ

١١- أنتَ الكبيرُ وقدْ هَدّيتَه زَمَنًا
وليس بينكم في الفضلِ إفرازُ

١٢- من ذا يُسَاميكَ في علمٍ وفي أدبٍ
ما الجاسميُّ ومَن ضَمَّتْه شِيرازُ

١٣- إنّ اليراعةَ قدْ خطّتْ براعتكم
في طرسِ نفسٍ به للمُلْكِ أنشازُ

١٤- لأنتُمُ زَهْرَةُ الدّنيا وبَهْجَتُهَا
لها جمالٌ بكم ما فيه إعوازُ

١٥- أُثْني عَليكَ ولا أنفكُّ ذا طَلبٍ
فمنطق الخرس أربى للثّرى جازُوا

١٦- فلا تَجْزني بوَعْدٍ منكَ يمْطُلُني
إن الملحّ لعطفِ الجُودِ هَزّازُ

١٧- (ألحفت) في هَزِّ عطفٍ للنّدَى خَضِلٍ
خلِّ الوُعودَ فمثلي لَيسَ يَنْجَازُ

الشرح: الثَّمَدُ: الماء القليل. تاج العروس ٤٦٧/٧، والنَّيِّران: الشمس والقمر تاج العروس ٦٩/١، وأوفازُ: أي عجلة وإسراع، والمعنى، ينبغي أن يكون في الإعراض عجلة . تاج العروس ١٠٧/١٩، والطِّرْسُ، بالكَسْرِ: الصَّحِيفَةُ. تاج العروس ١٩٤/١٦. و" النِّقْسُ، بالكَسْرِ: المِدَادُ الَّذِي يُكْتَب به. تاج العروس ٥٧٥/١٦، وأنشازُ: أي ارتفاع. تاج العروس ٣٥٣/١٥، و خَضِلٍ: أي مبتل. تاج العروس ٤١٣/٢٨، و اليراعة: القلم. تاج العروس ٤٢٨/٢٢، ولعل المقصود بمن ضمته شيراز هو "سيبويه" النحوي مؤلف "الكتاب"، إذ قبره فيها، أو النحوي، "أبو علي الفارسي"،

مؤلف كتاب "الإيضاح في النحو"، أو اللغوي "علي بن عيسى الربعي"، شارح هذا الكتاب. أما "الجاسمي فإني أرجّح أن يكون هو أبو تمام حبيب بن أوس ابن الحارث بن قيس الخوارزمي الجاسمي الشاعر المشهور (ت٢٣١هـ)، أو هو تحريفٌ لحق بهذه الكلمة، وصوابها "الحاتمي"، وهو الأديب المعروف، والناقد المشهور، صاحب كتاب "حلية المحاضرة"، وهو كتاب في النقد محقق ومنشور.

التخريج: مسالك الأبصار ٧/ ٢٣٠ – ٢٣١ (ط. الجبوري)، ٧/ ٢٤٧ – ٢٤٨ (ط. الجاسم) دون البيت الرابع. وورد الكلمة الأولى من البيت الأخير في الطبعة الأولى هكذا: " ألحجت "، ووردت في الطبعة الثانية هكذا: " الحجب "، وكذا ورد عجز البيت الثالث عشر، ولعله: " في نقس طرس ".

قافية الكاف

(٢٨)

وقال: [من الرمل]

١- أدمُـعـي أجـرى وقلبي قد مَـلَـكْ
قَـمَـرٌ قـدْ لاحَ مـن سُـحْـبِ الـحَـلَـكْ

٢- بـدرُ حُـسْـنٍ حِـيـنَ يَـبـدُو لـلـوَرَى
كـلُّ قـلـبٍ وَدَّ لـو أَضْـحَـى فـلـكْ

٣- صِـيـغَ مـن نُـورٍ فـلا يُـعْـلَـمُ هـلْ
بـشـرًا أنـشـاهُ ربّـي أم مَـلَـكْ

٤- من بني الـتّـرك صغيرٌ لم يَـدَعْ
لـفـؤادي جَـلَـدًا أَوْ لا تَـرَكْ

٥- نـاسـمٌ عـنْ نـفـحـةٍ مِـسْـكـيّـةٍ
بـاسـمٌ عَـن لُـؤلـؤ قـدِ احْـتَـبَـكْ

٦- فـتـنـةٌ تَـدْعُـو الـقُـلـوبَ لـلـهَـوَى
لـو رآهُ نـاسـكٌ لَـمـا نَـسَـكْ

٧- ضَـاعَ قَـلْـبـي فـي هَـواهُ فَـأَنَـا
لـستُ أدري أيّ شـعـبٍ قـدْ سَـلَـكْ

٨- يَـا غـزالَ الـقَـفْـرِ عِـدْنـي زَوْرَةً
تُحيي قلبًا في التَّصَابي قـدْ هَـلَـكْ

٩- بينَ جِسْمي والضَّنَى صلحٌ كَمَا
بـيـنَ نَـوْمـي وجُـفُـوني مُـعْـتَـرَكْ

١٠- فَـغَـرَامـي فـي الـهَـوَى قـد انتهى
وسـقـامـي مُـذْ عَـرَا قـد انـتَـهَـكْ

١١- نَـصَـبَ الـمـعـشـوقُ عَـيـنيـه لَـنَـا
شَـرَكًا والـقَـلْـبُ أَضْـحَـى في الشَّـرَكْ

الشرح: الحَلَكُ: السواد. تاج العروس ٢٧/ ١٢٢.

احْتَبَكَ: أي رصف بنظام محكم، وترابط شديد. ينظر تاج العروس ٢٧/ ١٠١.

التخريج: مسالك الأبصار ٧/ ٢٤٠ – ٢٤١ (ط.الجبوري)، ٧/ ٢٥٩ (ط. الجاسم).

قافية اللام

(٢٩)

وقال يرد على رسالة "ابن فضل الله العمري": [من الطويل]

١- أتـانـي مـن الأوراقِ ثـنتـان فليجُدْ
بـثـالـثـةٍ مَـن كَـانَ جَـادَ وَأَفْـضَـلا

٢- بها يكمُلُ الجزءُ الذي كانَ ناقصًا
وكـمْ نَـاقـصٍ كـمّـلـتَـه فَـتَـكـمّـلا

٣- وكم لشهابِ الدِّين عندي مِن يدٍ
قـبـيـلـهـا كـادتْ يَـدي أن تُـقَـبّـلا

٤- ومَنْ يَكُن الفَاروقُ جدًا له يَكُنْ
لذي العالم العُلويّ أشْرفَ مَنزِلا
٥- دَعوهُ أميرَ المؤمنينَ لأنَّه
به أُيِّدَ الإيمانُ واعتزَّ واعْتَلى
٦- ففي نجله منه مشابهُ علمه
وعزَّةُ نفسٍ قدْ أَبَتْ أن تُذَلّلا
٧- تجافى عنِ الدُّنيا وعن زهراتها
وأعرضَ عَمّا غيرُه كانَ مُبْتَلَى
٨- فلا ذكرَ إلاّ في عُلومٍ يَبُثُّهَا
ولا فِكْرَ إلاّ في القُرانِ إذا تَلا

التخريج: مسالك الأبصار ٢٣٥/٧ (ط.الجبوري)، ٢٥٣/٧ (ط. الجاسم).

(٣٠)

وقال يرد على رسالة " الشهاب ابن فضل الله العمري ": [من البسيط]

١- منطّقُ الخرسِ إنسٌ قد كمُلتَ فلا
تَرى كمثلكَ شِعرًا قدْ سَمَا وَعَلا
٢- لما اعتنى بكَ مولىً لا نظيرَ له
صِرْنا بعزّكَ فينا نَضْربُ المثَلا
٣- تَزَيَّنَ الفَلَكُ الأعلى بزينة مَن
زان الوجودَ وزانَ النيرينِ عَلا
٤- مَوْلى بذكراهُ أفواهُ الوَرَى أرِجَتْ
مسكًا وذاقتْ بها مِن ذكره عَسَلا
٥- قَدْ زيّنَ اللهُ بالتَّقْوى سَريرتَه
وحسّنَ القَولَ منه اللهُ والعَمَلا
٦- رشيدُ فعلٍ شديدٌ في مقالته
فلا نَرى خطأً فيه ولا خَطَلا
٧- فالقولُ آياتُ قرآنٍ يردّدُها
بالفكرِ والعملِ الزاكي به اتّصَلا
٨- ومن يكنْ عُمَرُ الفاروق مَحْتِدَهُ
فلا يكونُ بغيرِ اللهِ مُشتغلا
٩- ألهاه عن بهجة الدُّنيا وزَهْرتها
علمٌ ودينٌ وزهدٌ أَبطلَ الأَمَلا
١٠- وصبرُ نفس عَلى تَقْوَى تُوصّلُه
لجنّةِ الخُلدِ إذْ كانتْ لَه نُزُلا

التخريج: مسالك الأبصار ٢٣٦/٧ - ٢٣٧ (ط.الجبوري)، ٢٥٤/٧ - ٢٥٥ (ط. الجاسم).

(٣١)

وقال مفتخرًا بنفسه وبمؤلفاته: [من الطويل]

١- أُلامُ على تَسْهادِ جَفْنيَ في الدُّجَى
ويدأبُ فكري في اقتناص الفضَائلِ
٢- ولو كنتُ أرضَى بالدَّنايا لنلتُها
وكنتُ بها ما بين غمرٍ وخاملِ
٣- ولكنَّ إدراكَ المعَالي هو الذي
به طابَ ذكري في صدورِ المحافلِ
٤- فنوّه بي من جلّ في أعينِ الوَرى
وكاثَرَ بي مَن حَلَّ أعلى المنَازلِ
٥- بأندلسِ العُظمى نشأتُ هلالَهَا
ولحتُ بمصرٍ، بدْرُها غيرُ آفلِ
٦- ومنها تآليفي إلى الأرض قَدْ سَرَتْ
ينافسُ في تحصيلها كُلُّ فَاضلِ
٧- فبالشرق منها مشرقًا كلّ قادم
وبالغربِ منهَا مغربًا كلّ راحلِ

٨- أتيتُ أخيرًا في النُّحَاةِ وإنَّني

لغبَّرت سَبْقًا في وُجوه الأوائلِ

٩- وَسَهَّلْتُ هذا العِلمَ حَتَّى لَقد غدَا

كشربةِ ماءٍ لَذَّ في حلقِ ناهلِ

١٠- وإنَّ كتَابَ " الارتشاف " لجامعٌ

غَرائبَ علمٍ عُدَّة للأفاضلِ

١١- فكمْ فيه أبكارٌ كَسينَ مُفَوَّفًا

بلفظٍ بديعٍ في المحاسنِ رافلِ

١٢- وأحكامُه قد مثِّلت بمطابقٍ

لها فحكَى التمثيلُ (زَهرَ) الخمائلِ

١٣- أبو الأسود المستنبط النّحو لو رأى

كتَابي لأَضْحى في فهامة باقلِ

١٤- يَرَى محكمًا منه الأَسَاسَ وبانيًا

عليه بما تقضيه حِكمةُ عَاقلِ

١٥- يرتّبُ شَيئًا إثرَ شَيءٍ مُرَاعيًا

له نسبًا فعْلَ الحَكيمِ المعَادلِ

١٦- فَلو أن أرسطُو رأى مَا وَضعتُه

رأى وَضْعَ طِبٍّ مَنْطِقًا لم يُزَاولِ

١٧- ولكنَّما العَقْلُ السليمُ إذا انبرى

لأَمْرٍ بَدَا فيه غريبُ العَقَائلِ

١٨- وصنَّف ناسٌ ما يُمَجُّ سَماعُه

بنقصٍ وتخليطٍ وترتيبِ جاهلِ

١٩- ودَانوا بها شرقًا وغربًا زمانهمْ

فَمَا ظفر الطلابُ منها بطَائلِ

٢٠- خلا أنَّ عَمْرًا قَدَّس الله سرَّه

أتى بكتابٍ نابه الوضْعِ شَاملِ

٢١- به الله أَبقَى مَا بأَيدي نحاتنَا

من العلمِ مَنصورًا بأَقْوى الدَّلائلِ

٢٢- جزى الله عَنَّا سيبويه جَزَاءَ مَن

هَدَانا لأَسنى أو لأَسْمَى الوَسَائلِ

٢٣- وَسائل للقرآنِ والسُّنَنِ التي

نَادَتْ إلينَا ناقلاً إثرَ نَاقِلِ

٢٤ – ولا زالَ مَثْوَاه بشيرازَ سُحْبُه

تدرُّ عَليه وَابلاً بَعْدَ وَابلِ

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ١/ ٢٤٢ – ٢٤٣، وورد عجز البيت الثاني عشر فيه هكذا: " زهو الخمائل "، والأبيات ١، ٦، ٨ – ١٠، ١٣، ١٥ – ٢٤ له في مخطوط السفينة ٢٣ أ – ب، ومطبوعه ١٢/٢٦٨ – ٢٦٩.

(٣٢)

وقال من قصيدة في وصف " غرناطة " والتشوق إليها: [من الكامل]

١- هل تذكرينَ منازلاً بالأَحبلِ

ومنازهًا حَفَّتْ بشَطَّى شنَّلِ

٢- ومشاهدًا ومعاهِدًا وَمناظرًا

للقَاصِرَاتِ اليَعْمُلاتِ الذُّبَّلِ

٣- حيثُ الرياضُ تَفَتَّحَتْ أَزْهَارُهَا

فَشَمَمْتُ أَذْكَى مِن أريجِ المنْدَلِ

٤- والطَّيْرُ تَشْدُو مُفْصِحَات بالغنَا

فَوقَ الغُصُونِ النَّاعِمَاتِ الميَّلِ

٥- فتُثيرُ للمُشْتاقِ دَاءً كَامنًا

وتذيلُ صَائنَ دَمعه المتَهَلِّلِ

الشرح: " شنّل: نهر يقع جنوب غرناطة،

والناظرات أي الحسن الناعم، واليعمل: أي الجمل والناقة المطبوعان على العمل، والذبل: الدقيقة". هامش تاج المفرق. المندل: العُودُ الرَّطْبُ . تاج العروس٣٠/٤٢٧.

التخريج: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ٢/٢٦، وهي في استدراك الدكتور "عبد الحميد الهرامة" في بحثه: "دواوين القرن الثامن الهجري بالأندلس: تعريف واستدراك" المنشور في السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات القسم الرابع (اللغة والأدب) ص ٥٤٠، وقد أثبتُّها هنا لعدم وجودها في التحقيق الجديد لديوان "أبي حيان الأندلسي".

قافية الميم

(٣٣)

وقال: [من الرجز]

١- يا سَائلي عن اقتباسِ العلمِ
مِن رَجَزٍ أو غيرِهِ مِن نَظمِ

٢- لا تأخذِ العلمَ مِن المنظومِ
فإنَّه مضلّةُ الفُهُومِ

٣- ناظمُه ملتزمٌ ما ليس مُلزَما
مؤخِّرًا شَيئًا وشَيئًا مُقَدِّمَا

٤- يجلبُ في اصطلاحِ ذاك العلمِ
ما ليسَ مَعْهودًا لأَهْلِ الفَهْمِ

٥- تَراه حيرانَ لأجلِ الوزنِ
يتركُ سَهلاً ويجيءُ بالحَزْنِ

٦- يأتيكَ بالحُوشيِّ والمعقَّدِ
والغَثّ والسَّفْسَافِ والمُرَدَّدِ

٧- وعوَّضَ التَّوضيحَ بالإشْكَالِ
وبدَّلَ التَّفصيلَ بالإجْمَالِ

٨- كَمَا تَرَى نظمَ أناسٍ دَرَجُوا
كم تعبتْ في فَهمِ ذاك مُهجٌ

٩- لا سيما نَظم الإمامِ الشَّاطِبي
مع ابنِ مالكٍ مع ابنِ الحاجبِ

١٠- أُلاكَ قومٌ صَعَّبُوا العُلومَا
حَتَّى غَدَا جليُّها بَهيمَا

١١- مَا النَّظْمُ إلاَّ شأنُ قَلبٍ قدْ نزكْ
لذاكَ لا يصلُح إلاَّ للنزكْ

١٢- وللنَّدَى وللوَغَى والزَّهرِ
وللقِرَى وللثَّنَا والبَحْرِ

١٣- والنَّثْرُ للجدِّ وللعلومِ
فإنَّه ملقحُ الفُهومِ

١٤- يعيدُها في أقربِ الزَّمَانِ
مَا لا يُعيدُ النَّظمَ في أزمانِ

١٥- أَنَّى يُضَاهي مُطْلَقًا مُقَيَّدٌ
للنَّثرِ فَضلٌ نوره لا يُجْحَدُ

١٦- حَوى عُلومَ أوَّلٍ وآخِرٍ
ومعجزًا لناظمٍ وَنَاثرِ

١٧- أتى به للنَّاسِ خيرُ مُرْسَلِ
نثرًا بليغًا جَاءَ خير منزلِ

الشرح: كلمة نزك الأولى بمعنى: الرمي بغير حق، ونزك الثانية في قافية البيت بمعنى: إساءة القول. ينظر تاج العروس ٢٧/٣٧١. البَهيم: أي الأسود المظلم. تاج العروس ٣١/٣١٢

* ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) هو: محمد بن عبد الله الطائي الجياني، أبو عبد الله، من علماء اللغة العربية المشهورين، ولد في جيان بالأندلس، ورحل إلى دمشق، وتوفي فيها، ألف كتبًا كثيرة في العلوم اللغوية، منها: الألفية، وهي منظومة في النحو، وتسهيل الفوائد وغيرهما. ينظر الأعلام ٢٣٣/٦.

* ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) أبو عمرو، جمال الدين، عثمان بن عمر، أحد علماء اللغة العربية المشاهير، كردي الأصل، عرف بابن الحاجب لعمل والده حاجبًا، ولد في صعيد مصر، ونشأ في القاهرة، ورحل إلى دمشق، ومات بالإسكندرية. ومن أشهر مصنفاته في العلوم اللغوية: " الكافية " في النحو، و " الشافية " في الصرف، ومنظومة في العروض، وغيرها. ينظر الأعلام ٢١١/٤.

* الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) هو أبو محمد، القاسم بن فيرة الرعيني، إمام القراء في عصره، عالم بالقراءات القرآنية، والعلوم اللغوية والشرعية، ولد بشاطبة، وتوفي بمصر. وهو صاحب "حرز الأماني"، وهي قصيدته المعروفة بالشاطبية، وهي في القراءات القرآنية. ينظر الأعلام ١٨٠/٥.

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٢٤٣/١ – ٢٤٤.

(٣٤)

وزاد بيتًا رابعًا على أبيات " علي نور الدين القصري " في روضة مصر: [من الخفيف]

١- **فبِلُجِّ البحارِ يسبحُ نُونٌ**
وبِفَجِّ القفارِ يَسْنَحُ رِيمُ

الرواية: ورد البيت في نفح الطيب برواية: "يسفح ريم".

الشرح: النون: الحوت. تاج العروس ٢٣١/٣٦، والفَجُّ: الطَّرِيقُ الواسِعُ بين جَبَلَيْنِ. تاج العروس ١٣٧/٦، ويسنح: أي يمر من جهة اليسار إلى جهة اليمين. تاج العروس ٣٠٦/٦، والريم: الرِّيْمُ: الظَّبْي الخَالِص البَيَاضِ ٢٩٨/٣٢.

التخريج: الوافي بالوفيات ٣٦٦/٢٢، وأعيان العصر ٤٠٦/٣، ونفح الطيب ٥٧٩/٢، وهو في ديوانه المنشور في الموسوعة الشعرية، ولم يرد في التحقيق الجديد لديوان "أبي حيان الأندلسي".

(٣٥)

وكتب إلى القاضي الأديب البارع (ناصر) الدين شافع بن علي يستدعي منه كتاب "الترشيح في النحو" لـ "خطاب الماردي": [من الطويل]

١- **أيا من حَوَى الآدابَ طُرًّا ونالَهَا**
وحازَ المعالي قدَّها وتوامَها

٢- **علوم لسانِ العُرْب مولاي سنة**
إلى ذهنِك الوقَّاد ألقتْ زِمامَها

٣- **لأقبلْت (نحو) النحو تقرئ كتْبه**
فأصبحتَ فِينَا شيخَها وإمامَها

٤- **وأبديتَ من علمِ البديع بدائعًا**
يُحَسِّنُ منها نَثْرَها ونظامَها

٥- **وما ألغيتْ منكَ اللغاتُ فقد تحدّ**
ث أليست حوشي ينيرُ ظَلامَها

٦- **(أثنيت) لأصحابِ البيانِ بَوَارقًا**
أَيَانَ قَضَى تَحْيَا وَمَا هو سَامَها

٧- **قَوَفْتَ القَوافي والعَروض تعرضتْ**
فأغربتَ (إذ) أعربتَ منها انعجامَها

٨- **إلى شَافع أرسلتُ نَظمي شَافعًا**
فكنتُ كمَن أهدى لسحبٍ سجامَها

٩- ومـن نـحـنُ إلا أسـهـمٌ هـو رأسُـهـا
وما نـحـنُ إلاّ أعـضُـبٌ هـو سَـامَـهـا
وإن زَعَـمُـوا أنَّ الـسِّـهـامَ مُـصيبـةٌ
فما بمصِيب غيـرَ مَـنْ قـدْ أقَـامَـهـا

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٢٤٨/١ - ٢٤٩، وورد في ديباجة الأبيات: "أمير الدين"، والصواب ما تم إثباته على ما ورد في المقطعة السابقة، وأعيان العصر وأعوان النصر ٥٠٥/٢، وورد في البيت السادس في تحفة الأديب هكذا: ": أتنيت لأصحابِ"، وورد في البيت السابع: "فأغربتَ إذا"، وأضفت كلمة (نحو) في صدر البيت الثالث لاستقامة البيت.

قافية النون

(٣٦)

وقال في الجمل التي لها محل من الإعراب، والتي لا محل لها: [من الطويل]

١- وخذْ جُمَلاً ستًّا وَعَشْرًا فنصْفُها
لها مَوْضِعُ الإعْـراب جَـاء مُبَيَّنَا
٢- فَـوَصْـفِـيَّـة حَـالِـيّـة خـبـريّـة
مضافٌ إليها واحْـك بـالـقـول فعْلَنَا
٣- كَذلكَ في التَّعليق والشَّرط والجَزَا
إذا عَـامـلٌ يَـأتـي بـلا عَـمَـلٍ هُـنَـا
٤- وفي غيرِ هذا لا محَلَّ لها كمَا
أَتَـتْ صـلَـةً مَـبْـدُوءةً، فـاتَـك الـعَـنَا
٥- مفسّرةً أيضًا وَحَشْوًا كذا أتَـتْ
كَذلكَ في التَّحضيض، نلْتَ به الغنَى
٦- وفي الشَّرْطِ لم يَعْملْ كَذاكَ جَوابه
جَـواب يـمـيـنٍ مـثـله، سَـرَّك الـمـنَـى

الرواية: (١) ورد البيت الأول في الكشكول برواية: " ونصفها ".

(٢) وورد البيت الثاني في عمدة القاري برواية: "واحْكِ بالقَولِ معْلَنَا".

(٤) وورد البيت الرابع في الكشكول برواية: "ولك المنى".

(٥) وورد البيت الخامس في الكشكول برواية: "لا تعمل... فادره فاتك العنا".

(٦) وورد البيت السادس في الكشكول برواية:

" مفسّرةً تأتي وفي الحشو مثلها * كذاك في التحضيض فافهمه باعتنا ".

التخريج: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٥٢/١، وهي بلا نسبة في الكشكول للعاملي ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٣٧)

وقال: [من الطويل]

١- يُـريكَ الـفَتَـى أَمْـرًا وَيكْتُم غَيْـرَه
فـلا تَـغْـتَـررْ يـومًـا بـمَـا لاحَ للـعَـينِ
٢- وَتُبْدى السَّجَايا مِنْهُ صدْقًا وَعفةً
وكمْ قَدْ أكَنَّتْ من فُجورٍ ومنْ مَينِ

الشرح: المَيْن: الكَذِبُ. تاج العروس ١٤١/٣٦.

التخريج: مخطوط السفينة ٢٩/١٢ ب، ومطبوعه ٢٦٩/١٢.

قافية الواو

(٣٨)

وقال: [من الطويل]

١- ألا إنَّ تَسهيلَ الفَوائدِ في النَّحْو
كـتـابٌ غَـريـبٌ كُـلّ نَـادرةٍ يـحـوي

٢- هَلِ الكتْبُ إلاّ أنجمٌ هُو شَمْسُها
سَناهُنَّ يُمْحَى إن بَدَتْ أيَّ مَحْوِ

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٧٥٧/٢.

قافية الياء

(٣٩)

وقال في مدح الإمام "الشافعي، محمد بن إدريس ت ٢٠٤ هـ "يرحمه الله تعالى: [من الطويل]

١- غُذيتُ بعلم النَحو إذ دَرَّ لي ثَديا
فَجسمي بِهِ ينمى وَروحي بِهِ تَحيا

٢- وَقَد طالَ تَضرابي لِزيدٍ وَعَمرِهِ
وَما اقترفا ذَنباً وَلا تَبعا غَيّا

٣- وَما نِلتُ مِن ضَربيهما غَيرَ شُهرةٍ
بِفَنٍ وَما يُجدي اشتهاري بِهِ شَيّا

٤- أَلا إِنَّ عِلمَ النَحو قَد بادَ أَهلُهُ
َما أَن تَرى في الحَي مِن بَعدهم حَيّا

٥- سَأَتركه تَركَ الغَزالِ لظله
وَأُتبِعُهُ هَجراً وَأُوسِعُهُ نَأيا

٦- وَأَسمو إِلى الفقه المُبارَك إِنَّهُ
لِيُرضيكَ في الأُخرى وَيُحظيك في الدُنيا

٧- وَما الفِقهُ إِلا أَصلُ دينٍ محمد
فَجَرِّد لَهُ عَزماً وَجَدِّد لَهُ سَعيا

٨- وَكُن تابِعاً " للشافعيّ " وَسالِكاً
طَريقَتَه تبلُغ بِه الغايةَ القُصيا

٩- أَلا يا "ابن إدريس" قَد اتضحَ الهُدى
وَكَم غامضٍ أَبدى وَكَم دارسٍ أَحيا

١٠- سَمي الرَّسول المُصطفى وابن عَمه
فَناهيك مَجداً قَد سَما الرتبة العليا

١١- هُوَ استنبط الفن الأصولي فاكتسى
بِهِ الفقهَ مِن ديباجِ إنشائِه وَشيا

١٢- فقسَّم ألفاظَ اللِّسَانِ لظاهرٍ
نصّ وتأويل لما فهْمُه أعْيَا

١٣- وَفصَّلَ إجمالاً وقيَّدَ مطلقًا
وخصّ عمومًا بالشُّروطِ وبالثنيا

١٤- وبالوصْفِ والغَاياتِ والعقلِ خمسة
وباليدِ لين وانتحَى الأمر والنهيا

١٥- بفعلٍ وترك جازمينِ فإن يكن
دليلٌ لغير الجزمِ وافقه رعيا

١٦- وما كان في موضوعه حقيقة
ومَا لا مجاز ذو ابتعاد وذو دنيا

١٧- فقالوا: تريد حَلَّ في رأسي أغصن
وحمرة خدّ قد حمَى الشّفةَ اللّميا

١٨- له النَّثرُ والنَّظمُ الذي سَارَ ذكرُه
فلا لحنَ فيه يَنْتَحيه ولا عيّا

١٩- وكم حكم قد قيّدت من كلامه كأنَّ بها
" لُقمانَ " عَادَ المحيّا

٢٠- تآليفُه نور ونورٌ لناظرٍ
فقد أشرقتْ شَمسًا وقد عبقت رَيّا

٢١- ولو لم يكن منها سوى الأُمِّ إنها
لقد أنجبت وُلدًا ودرَّت لهم ثديا

٢٢- فأولادها الأعلامُ في كُلِّ موطنٍ
أضاءتْ بهم من نورِ إشراقِها الدّنيا

٢٣- عليم بتنقادِ المذاهب لا ترى
أخـا مـذهـب إلا يـلاقـي بـه وحيا

٢٤- سخيّ يحاكي الجُودُ جودَ بنانه
فليسَ لما قد حـازَ من عـرَضٍ ثنيا

٢٥- تـقـيّ نـقـيّ يُسـتَجاب دعـاؤُه
إذا المحلُّ خفناه وجدنا به السّقيا

٢٦- شجاع فلو لاقَـى خَميسًا لقلّه
فيطعن من وَلّـى ويأسـر مَـن عَيّا

٢٧- بـه ازدانـتِ الـدنيا وزيّـن أهلها
فـقـلّـد أجـيـادَ الـوجـودِ بـه حَـلـيا

٢٨-وقد كانَ أصحابُ الحديث ذوي كرى
فـحـرَّك مـن أَغْـفَـى ونـبَّـه ذَا الـرؤيـا

٢٩- وأَجْـرى لهم عينَ المباحث ثَرَّةً
يـفـيءُ عليـهـا الـظّـلُّ تبـيـانـه فـيّا

٣٠- وصارُوا ذَوي بحثٍ وفهمٍ وبالذي
تـقـرر مـن قـولِ الأُصُـولِ رووا ريّا

٣١- ومَـن ظَـنَّ أنَّ الفقهَ نقلٌ مجرَّد
بـغـيـرِ دلـيـلٍ فـهـو ذُو مُـقـلـةٍ عميا

٣٢- وعلم أصولِ الفقه والنَّحو واللُّغا
أداةٌ لـعـلـم الـفـقـه يَـشْـتـارهـا أَرْيَـا

٣٣- فيحلُو ويعلُو مَن غدا حَاليًا بها
وعـاطـلـهـم يـجـنـي بتخليطه شـريَـا

٣٤- شَأى "الشَّافعيُّ" النَّاسَ دينًا ودربة
وذهـنًـا بـه يـفـري مـذاهـبـهـم فـريَـا

٣٥- ونـاظـرَ أعـلامَ الـزَّمـان فسـلْ به
عميـدَ بـنـي شـيـبـان (فـاوْبَـأَه) لقيَا

٣٦- أعـارَ لـه فـي لـيـلـةٍ كُـتُـبًـا لـه
فما أسحرتْ حتَّى أَحاط بها وَعْيَا

٣٧- أبـرّ عليه فـي مسائلِ كتبْه
فـأذكـره مـا كـان مـنـهـا لـه نسـيَـا

٣٨-وأفحم "بِشرًا" في اللُّغا و"الزبير"
في غرائب أنسابٍ فَأسْكَت واستحيا

٣٩- وشعر هُذَيل صحَّحَ ابن قريبهم
عليه فكم مَـيْـت بتصحيحه حَيًّا

٤٠- جَـرى وجَـرى نـاسٌ لأبعدِ غاية
فأحرزها إذ كـانَ قـدْ بَـذَّهُـم جَـرْيَـا

٤١- ولَـمَّا تـرامَـوا للمَعَالي وَسَابقوا
إلـى غَـرَضٍ كـفـوًا وسـابَـقَـهـم رَمْـيَـا

٤٢- وكانَ إمامُ العصر "أحمد" عالمًا
جَـلالـتـه إذ كـان يـجـهـلُـه يـحـيَـا

٤٣- (فقالوا) له: لو كنتَ تعرفُ قَدْرَه
سعيتَ إلـى تقبيلِ راحـتـهِ سَعْيَا

٤٤-و "يحيى" وما "يحيى" وما ذو رواية
وما إنْ "ليَحيى" ذكر علم به يحيَا

٤٥- سوى ثلبِ أقْوامٍ مَضَوا لسبيلهم
سيسأل عنها حين يُسأل عن أشيَا

٤٦- ومَا ضَرّ نورَ الشَّمس - إذ كانَ نَاظرًا
إليـه - عُـيـونٌ لم تـزلْ دَهـرَهـا عَمْيَا

٤٧- وكانَ الإمامُ "الشَّافعيُّ" مُعظَّمًا
إليه انتهتْ في عَصره رتبةُ الفُتْيَا

٤٨- فَمَا كانَ مفراحًا بمالٍ يُصيبُهُ
ولا أَسِيًا حُزْنًا لِمَا فَاتَ مِن دُنيَا

تكملة ديوان أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)

٤٩- ولا راقه حسنٌ ولا شَاقَهُ هَوًى

إلـى وَجْـنـةٍ حـمـراءَ أو شَـفَـةٍ لَمْيَا

٥٠- ولكنَّما حفظُ الشَّريعةِ هَمُّه

وتوضيحُه مَا كان منها لهم خفْيَا

٥١- حكيمُ قريشٍ في صميمِ نصَابهم

صحيحُ انتسابٍ لا ولاء ولا سَبْيَا

٥٢- ولما أتى مصرَ انبرى لإذائه

أناسٌ طَوَوْا كَشحًا على بغضه طَيًّا

٥٣- أتَى نَاقِدًا مَا حَصَّلُوه وهادمًا

لما أصَّلوا إذ كان بنيانُهم وَهْيَا

٥٤- فدَسُّوا إليه عندَما انفردُوا به

شقيًا لهم مِثلَ الإلــه لَـهُ يديا

٥٥- فشَجَّ بِمفتاحِ (الحديث) جبينَه

وراحَ قَتيلاً لا بَـواء ولا نعيَا

٥٦- بلى قَدْ نَعَاه العِلمُ والدِّينُ والحجَى

وتَردادُ صَوتٍ في الدُّجَى يسردُ الوَحْيَا

٥٧- وكان شهيدَ الدَّارِ ثاني شهيدها

ومن أهلِ مِصرٍ كان قتلُهما بَغْيَا

٥٨- سَمَا رُوحُه لما قضَى نحبُه ضُحًى

إلى العالم العُلويّ يَسري به سَرْيَا

٥٩- إلى جنَّةٍ يحيَا بها عِندَ ربِّه

له رزقُه فيها مع الشُّهدا الأَحْيَا

٦٠- فرعيًا لِعلمٍ كانَ أتحفَنَا به

وسقيًا لِقبرٍ ضَمَّ جُثمانَه سَقْيَا

الشرح: الأُمّ: اسم كتاب شهير في الفقه الشافعي، ألفه الإمام الشافعي، وشكك الدكتور "زكي مبارك" في نسبته "للشافعي"، ورد عليه بعض المحققين، يرجع في ذلك إلى الرابط التالي: http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=258821 .

و " الخَميسُ: الجَيْشُ الجَرَّارُ ". تاج العروس ٢٤/١٦، ويَشْتارها: أي يجتنيها. تاج العروس ٢٥٢/١٢، والأَرْي: العسل. تاج العروس ٦٣/٣٧، وشريًا: الحنظل. تاج العروس ٣٦٧/٣٨ ، وشَأى: أي سبق. تاج العروس ٣٤٦/٣٨، وبَوَاءً: إذا قُتِلَ به، وصار دَمُه بِدَمه. تاج العروس ١٥٤/١، وعميدَ بني شيبان: لعله " أبو عمرو الشيباني " (ت ٢٠٦ هـ)، مؤلف معجم " الجيم "، بِشر: لعله أبو بشر، وهو سيبويه، العالم المعروف، إمام النحاة، صاحب الكتاب في النحو، توفي عام (١٨٠ هـ)، كتب عنه "كوركيس عواد" كتابًا بعنوان: سيبويه إمام النحاة"، يرجع إليه في معرفة أخباره. ويحيى هو الفراء، واسمه يحيى بن زياد، وقد سبق ذكره، والزبير، هو مصعب بن عبد الله الزبيري، النسابة المعروف، توفي عام (٢٣٦ هـ)، فهو أقرب زمنا من الزبير بن بكار، مؤلف كتاب نسب قريش، المتوفى عام (٢٥٦ هـ)، وأحمد هنا هو أحمد بن حنبل، الفقيه المعروف، توفي عام (٢٤١هـ).

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٢٥٧/١ - ٢٥٩، والأبيات ١ - ١١، ٢٣، ٣٢، ٤٢ - ٤٨، ٥٢ - ٥٦، ٦٠ في مخطوط السفينة ١٢/ ٢٢-٢٣، ومطبوعه ٢٤٨/١٢ - ٢٥٠، ولم يرد في صلة الديون ص ٣٩٢ من هذه القصيدة سوى الأبيات (١ - ١١)، باختلاف في رواية البيت (١١) عن التحفة، وآثرت رواية البيتين: الخامس، والحادي عشر من الديوان، وقال المحقق في تخريجها ص ٤٢٠: " والقصيدة مخطوطة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بعنوان قصيدة في مدح الشافعي، رقم التسلسلي ٨٠٧٩٥،

رقم الحفظ ٢/١٦٩٤ (مكتبة المصغرات الفلمية بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية). قلت: لم يتم الرجوع إلى مخطوط القصيدة، وقد أوردت القصيدة كاملة هنا لإمكانية قراءتها مجتمعة. وورد في تحفة الأديب عجز البيت رقم (٣٥) هكذا: "فاو به"، وورد صدر البيت رقم (٤٣) هكذا: "فقالت"، وورد صدر البيت رقم (٥٥) هكذا: "فشَجَّ بِمِفتاحِ الحديد جبينَه"، وكذا ورد صدر البيت رقم (١٧).

(٤٠)

وكتب إلى "ابن فضل الله العمري": [من الطويل]

١- وبلّغتُ من عُمْري ثمانينَ حِجَّةً
وَسَبْعًا أرى الأشْياخَ لَيْسَتْ كَمَا هِيَا

٢- وفي عينيَ اليُسرى وفي شَقِّ هَامَتي
وَقَلْبيَ فِكْرٌ يتركُ الفِكْرَ نَائِيَا

٣- ولا نظمَ إلاَّ بانتظامِ مَنيّتي
ولا نثرَ إلاَّ بانتثارِ عِظَامِيَا

التخريج: مسالك الأبصار ٢٣٥/٧ (ط.الجبوري)، ٢٤٠/٧ (ط. الجاسم).

(٤١)

وقال: [من المتقارب]

١- ويوردك اللهُ عينَ الحياةِ
فَتَحْيَا بها مَائةً وَافِيَهْ

التخريج: نفح الطيب ٥٧٣/٢، ويضاف هذا البيت للقصيدة رقم (٦٤)، ص ٣٩٤ في صلة الديوان، ويوضع فيها بعد البيت رقم (١٢)، وهو في ديوانه المنشور في الموسوعة الشعرية، ولم يرد في التحقيق الجديد لديوان أبي حيان.

ما نسب إليه وإلى غيره:

(١)

ونسب إليه: [من مجزوء الرجز]

١- عُلّقتُه مُكَاريًا
شَرَّدَ عَن جَفْنِي الكَرَى

٢- قدْ أشْبَهَ البَدْرَ فَلا
يَمَلُّ مِن طُولِ السُّرَى

التخريج: الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ٢٣٥/١، وقدم لهما المؤلف بقوله: " قال أنشدني شيخنا الشيخ سري الدين أبو الوليد بن هاني الأندلسي، قال شيخنا أثير الدين أبو حيان لنفسه: وذكر البيتين. وهما لشهاب الدين أحمد بن صالح السنبلي في الوافي بالوفيات ٤٢٤/٦، وفوات الوفيات ٧٠/١، والنجوم الزاهرة ١٩٢/٧، ١٤٦/٨، وهما بلا نسبة في التذكرة الفخرية ١٢٦ باختلاف في رواية بعض الألفاظ في بعض هذه المصادر.

(٢)

ونسب إليه: [من الكامل]

إنـي تـركـتُ لـذا الـورى دنـياهُـمُ
وظللتُ أنتظرُ المَمَاتَ وَأَرْقبُ

وقطعتُ في الدُّنيا العَلائقَ وَليسَ لي
ولدٌ يموتُ ولا عقارٌ يُخربُ

الرواية: (١) ورد البيت الأول في مخطوط ترجمان الزمان في تراجم الأعيان لذي... الموت".

(٢) وورد البيت الثاني فيه برواية: "تخرب".

التخريج: مخطوط ترجمان الزمان في تراجم الأعيان للعلائي ج ١٦/ ٧٣ ، وهما لمحمد بن إبراهيم بن محمد، بهاء الدين النحاس في أعيان

تكملة ديوان أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)

العصر وأعوان النصر ٤/٢٠٠.

(٣)

وردت مقطعة رائية من بحر البسيط في ثلاثة أبيات فقط في صلة الديوان برقم (٣٣)، ص ٣٦٩ مشفوعة في تخريجها ص ٤١٣ بتشكيك "ابن حجر العسقلاني" في نسبة قصيدتها "لأبي حيان الأندلسي"، ومعززة بإشارة إلى أنها في (٢٠) بيتًا، قلت: وقفت على القصيدة في (١٨) ثمانية عشر بيتًا في كتاب الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ٦٧/١.

(٤)

ونسب إليه: [من مخلع البسيط]

١-حَنَّ إلى كأسه الخليعُ
لما بدا النَّورُ والرَّبيعُ

٢- واكتستِ الأرضُ ثوبَ حسنٍ
من سُندسٍ وَشْيُهُ بديعُ

٣- كَأَنَّ أزهارَه نجومٌ
لها بَاكرَ الثَّرَى طلوعُ

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٢٦٤/١، وهي لابن مسعود الخشني (ت ٦٠٤هـ) في الموسوعة الشعرية. وله شعر في شرح غريب السير.

(٥)

ونسب إليه: [من السريع]

١- أنكرَ صحبي أنْ رَأَوا طَرفَهُ
ذا حمرةٍ يشقى بها المغرَمُ

٢- لا تنكروا الحمرةَ في طرفِه
فالسيفُ لا يُنكَرُ فيه الدَّمُ

الرواية: (١) ورد البيت الأول في نفح الطيب برواية: " حمرة يشفى ".

التخريج: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب ٢٦٣/١، وهما لأبي ذر الخشني في نفح الطيب ٩٠/٤.

وبعد، فهذه تكملةٌ لديوان "أبي حيان الأندلسي"، وهي - بالطبع - لا تضمُّ كلَّ ما أخلَّ به الديوان، أضعُها بين أيدِي إخواني الباحثينَ إسهامًا في إظهارِ الجانبِ الأدبيّ عنده ليأخذَ حظَّه مِن الدراسةِ كمَا أخذَ الجانبُ النحويُّ لديه من الدراسات الموسَّعةِ، وأقدمُها هديةً لأخي المحقق الفاضل الدكتور "وليد السراقبي" مهنئًا إياه على جهده في خدمة اللغة العربية وتراثها، وراجيًا أن يتقبَّلَها بقبولٍ حَسَنٍ، وأن يكونَ لها أثرُها في طبعةٍ تاليةٍ للديوان. وعلى الله قصد السبيل.

المصادر

١- الأعلام: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٢- أعيان العصر وأعوان النصر: للصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق: علي أبي زيد، وزملائه، مطبوعات مركز جمعة الماجد، دبي، ١٩٩٧م.

٣- البدر السافر: لجعفر بن ثعلب الأدفوي (ت٧٤٨هـ)، مخطوط، مكتبة الفاتح، تركيا، رقم ٤٢٠١.

٤- تاج العروس من جواهر القاموس: للمرتضى الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ)، تحقيق: لفيف من المحققين، سلسلة التراث، الكويت.

٥- تاج المشرق في تحلية علماء المشرق: لخالد البلوي (ت ٧٦٧ هـ)، مقدمة وتحقيق: الحسن السايح، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب.

٦- تاريخ الأدب العربي: لكارل بروكلمان، ترجمة: حسن محمود إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.

٧- تحفة الأريب في نحاة مغني اللبيب: للسيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق ودراسة: حسن الملخ، وغيره، عالم الكتب الحديث،

الأردن، ط٢، ٢٠٠٨م.

٨- التذكرة الفخرية: بهاء الدين المنشئ الإربلي (ت ٦٩٢هـ)، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤ م.

٩- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: لابن حبيب (ت ٧٧٩هـ)، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.

١٠- ترجمان الزمان في تراجم الأعيان: للعلائي، مخطوط مكتبة أحمد الثالث، رقم ٢٩٢٧.

١١- تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥ هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل عبد الموجود، وزملائه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١٢- الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب: لابن خطيب الناصرية (ت ٨٤٣ هـ)، تحقيق صالح السلمي، ماجستير جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ

١٣- ديوان أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ): تحقيق: وليد السراقبي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٩ م بدعم من جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري التراث الشعري

١٤- السجل العلمي لندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات القسم الرابع (اللغة والأدب)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٣م. مقال عبد الحميد الهرامة، دواوين القرن الثامن الهجري بالأندلس، تعريف واستدراك.

١٥- السحر والشعر: لسان الدين بن الخطيب السلماني (ت ٧٧٦ هـ)، تحقيق: كمال شبانة، وزميله، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٥م.

١٦- السفينة: لأحمد بن مبارك شاه (ت ٨٦٢ هـ)، مكتبة فيض الله، ١٦٢٠، وتحقيق: حامد خضرجي، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر .

١٧- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل عصر: لابن معصوم، علي بن أحمد الحسني (١١١٩هـ)، مكتبة الخانجي، ١٣٢٤ه

١٨- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لبدر الدين العيني الحنفي، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.

١٩- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٢٠- كتاب سيبويه: عمرو بن عثمان سيبويه، (ت ١٨٠ه)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

٢١- الكشكول: بهاء الدين العاملي (١٠٣١ هـ)، تحقيق: الطاهر الزاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي، القاهرة.

٢٢- مجلة دعوة الحق المغربية ع٥ – ٧، السنة ١٠، عام ١٩٦٧م، ع (٢٢٣)، عام ١٩٨٢م.

٢٣- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ٢، مج ٥٨، عام ١٩٨٣م

٢٤- مجلة المورد، ع١ ص ١٤٤، عام ٢٠٠٩م، مقال الدكتور: " محمد عويد السابر " الموسوم بـ " التراث الشعري الأندلسي في كتاب معجم التراث الشعري المطبوع للدكتور سامي مكي العاني".

٢٥- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري الجزء السابع تحقيق الأستاذ " عبد العباس عبد الجاسم "، المجمع الثقافي بأبي ظبي ٢٠٠٣م، وتحقيق الأستاذ الفاضل " كامل سلمان الجبوري " المطبوع عام ٢٠١٠م،

٢٦- المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع: محمد عيسى صالحية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٣م.

٢٧- الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي عام، ٢٠٠٣م م.

٢٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ)، قدم له وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٢٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: المقري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٣٠- الوافي بالوفيات: للصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق: نخبة من المحققين، دار نشر فرانز شتاينر، شتوجارت، ألمانيا.

الدرس النحوي في كتاب الظاء ليوسف أبي الحجاج المقدسي (ت٦٣٧هـ)

أ. م. د. أحلام خليل محمد خليل
جامعة بغداد - العراق - كلية العلوم الإسلامية

مقـالات

المقدمة

يُعدُّ كتاب الظاء من سلسلة كتب الضاد والظاء، وهو من أوسع الكتب في هذا الباب؛ إذِ اختصّ باستقصاء ما جاء من الكلمات بالظاء لذا سمَّى المؤلف كتابة : الظاء .

المؤلِّف :

هو أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن إسماعيل بن عبد الجبار بن يوسف الجُذامي الصُّويْني المقدسيّ الأصل، المصري المولد والدار، وُلد بمصر ليلة الأحد، العشرين من رجب سنة ٥٧١هـ سمِع الحديث وقرأ القرآن، واشتغل بالنحو واللغة وقرأ الأدب وقال الشعر، توفي ليلة الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٣٧هـ ودِّفن بسفح المقطّم بالقاهرة[١].

منهج الكتاب: بدأ المؤلف كتابه بقوله :

[هذا كتاب جمعت فيه حروف الظاء المستعملة في كلام العرب، بحسب الشهرة والإمكان، ومنحصر قسمة الكتاب في ثلاثة أبواب، بحسب وقوعه فاءَ وعيناً ولاماً] .

ثم تحدَّث عن مخرج حرف الظاء وصفته، مُشيرًا إلى أقوال الخليل وابن دريد والأزهري وابن جني في ذلك وختم المقدمة بقوله: (وتدبرت ما في التنزيل من الظاءات فوجدت فيه إحدى وعشرين كلمة، منها في الباب الأول سبع كلمٍ، ومنها في الثاني ست كلمٍ، ومنها في الثالث ثماني كلمٍ. وأومأتُ خلال الألفاظ الظائية إلى أشباهها من الضاد، إيماء الراعي إلى حبتر ولم آل جهدًا في الإيضاح).

أما الأبواب الثلاثة التي أشار إليها المؤلف فهي:

الباب الأول : فيما وقع الظاء فيه فاء الكلمة .

الباب الثاني : فيما وقع الظاء فيه عين الكلمة .

الباب الثالث : فيما وقع الظاء في لام الكلمة .

قيمة الكتاب :

ولكتاب الظاء أهمية كبيرة، وتكمن قيمته في النقاط الآتية :

- يُعدُّ أوسع الكتب في الكلمات الظائية .
- انفرد بذكر كلمات ظائية لم تذكرها كتب الضاد والظاء المنشورة .
- انفرد بالنقل عن كتب لم تصل إلينا، ككتاب المتنبهات على الجمهرة لعلي ابن حمزة، وكتاب الأفعَال لابن طريف الأندلسي، وكتاب الهادي للقطب النيسابوري، وكتاب الصناعة للعكبري، وكتاب تكملة الصناعة لعبد اللطيف البغدادي .
- انفرد برواية أشعار شعراء تخالف رواية دواوينهم المطبوعة، وذِكْر أبياتٍ أخلّت بها الدواوين المطبوعة .
- في الكتاب كثير من المسائل الصرفية .
- في الكتاب آراء كثيرة للمؤلف، وردود على الآخرين .
- نقل عنه الخفاجي في (شفاء الغليل) .

وقد ذكرتُ الإشـارات النحوية التي وردت في كتاب الظاء وفق تسلسلها...

مسألة في اسم الفعل والإغراء :

جاء في كتاب الظاء[٢]:

[وفي حديثة، ﷺ: أنّه مّر على راع فقال: يا راعي، عليكَ الظَّلَفَ من الأرض، لا تُرَمِّضْها، فإنّك راعٍ، وكلُّ راعٍ مسؤول].

يريد: ارعَ الغنمَ فيما صَلُبَ من الأرض، وقوله: لا ترمضها : أي لا ترعها في الرمضاء وهو حّر الشمس والرمضاء تشتد في الرمل ..

قال المؤلِّف : [الظّلَفَ : منصوب بالإغراء، والعامل فيه (عليك) وهو اسم للفعل والكاف حرف خطاب].

قوله : منصوب بالإغراء فيه لَبسٌ، فهل يعني أن في الكلام معنى الإغراء أو أنه أسلوب إغراء، فإذا كان المعنى الأول - وهو الصواب - فهو موافق لما ذكره النحاة .

فقالوا في: كذبَ عليك البزرَ، إن مُضَر تنصب به، واليمن ترفع، فمعنى كذبَ عليك البزرَ أي الزمه وخذه، ووجه ذلك أن الكذب عندهم في غاية الاستهجان وممّا يُغرى بصاحبه ويأخذه المكذوب عليه، فصار معنى : كذب فلان الإغراء به، أي الذمه وخذه، فإنه كاذب، فإذا قرن بـ(عليك) صار أبلغ في الإغراء كأنك قلت : افترى عليك فخذه، ثم استعمل الإغراء بكل شيء، وإنّ لم يكن مما يصدر منه الكذب.

قال أبو علي الفارسي في كذبَ عليك البَزْرَ، إنّ فاعل (كذب) مضمر أي كذب السَّمن أي : لم يوجد، والبزرَ[٣] منصوب بـ(عليك) أي : الزمه[٤].

وإذا كان المعنى الثاني فلا يجوز جعل (الظلفَ) اسماً منصوباً على الإغراء؛ لأن عامل المُغرى به لا يكون إلاّ مستترًا جوازًا أو وجوبًا، جوازًا إذا لم يكرر المغرى به وألاّ يكون معطوفًا مثل (أخـاكَ)، وإذا كان مكررًا أو معطوفًا حذف عاملة وجوبًا، وعللوا ذلك بأن التكرار والعطف يُغني عن ذكر العامل. فـ(الظلفَ) مفعول به لاسم الفعل (عليك) قال تعالى: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[٥] فـ(أنفسكم) مفعول به لاسم الفعل (عليكم)....

مسألة في ظننتُ

جاء في كتاب الظاء[٦] :

وظننتُ من أفعال القلوب، مواضِعُه نحوية، سابُع

الدرس النحوي في كتاب الظاء ليوسف أبي الحجاج المقدسي (ت٦٣٧هـ)

سبعةٍ، إذا تضمن معرفة الشيء على صفة فتقول :

(ظننتُ زيدًا عالمًا). ويتعدى إلى مفعولين ولا يجوز الاقتصار على أحدهما؛ لأن الثاني عَرَضٌ للأول، ويجوز لك أن تسكت عنهما وفي التقرير ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾[٧] .

قوله (سابُع سبعةٍ): أي أنّه واحد من الأفعال السبعة وهي ظننتُ، وحسبت، وخلت، وزعمت، وعلمت ورأيت، ووجدت .

وقد علَّل ابن السراج (ت٣١٦هـ) عدم الاقتصار على أحد المفعولين بقوله: (واعلم أن ظننت وحسبت وعلمت وما كان نحوهن لا يجوز أن يتعدى واحد منها إلى أحد المفعولين دون الأخر، لا يجوز ظننت زيدًا، وتسكت حتى تقول: قائمًا وما أشبه، من أجل إنما يدخل على المبتدأ والخبر، فكما لا يكون المبتدأ بغير خبرُ كذلك (ظننت) لا تعمل في المفعول الأول بغير مفعول ثانٍ)[٨].

وأما قول: ظننتُ ذاك، فذاك إشارة إلى المصدر، كأنّك قلت: ظننتُ ذاك الظن، ولو كان إشارة إلى غيره لم يكن من المفعول الثاني بُدٌّ.

وتقول: ظننت به، إذا جعلته موضع ظنّك، كما تقول نزلت به، فإن جعلت الباء زائدة، بمنزلة: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[٩] لم يجز السكوت عليه .

وإذا ابتدأت بها أعملتها. وإذا توسطت أو تأخرت جاز فيها الإعمال والإلغاء[١٠]، وتلْغى مصادرها إلغاء أفعالها، ويُجمع فيها للمتكلم بين ضميري الفاعل والمفعول، وكذلك المخاطب، فنقول: ظننتني منطلقًا، وظننتُك ذاهبًا .

وإذا أردتَ بـ(ظننتُ): اتهمت، تعدّى إلى مفعول واحدٍ، فنقول: ظننتهُ فهو ظنين.

وقرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائي : (بظنين) بظاءٍ مُشالة . وقرأ الباقون: بضاد غير مُشالة[١١].

مسألة في العامل المضمر :

جاء في كتاب الظاء[١٢].

[في المثل : إلاّ حظيةٌ فلا أليـة)[١٣]. حظيةٌ: مرتفع بعامل مضمر يقدره: إلا يكنْ لك في النساء حظيةٌ فإني غير أليةٍ] .

إن العامل في (حظيةٌ) مستتر، والمستتر هو ما ليس له صورة منطوقة في اللفظ بل يكون مفهومًا.

وقدّر المستتر فعلاً، ويعد هذا الفعل من عوامل الأسماء القوية. وجاء في جمع الأمثال توجيه إعرابي مخالفًا لما ذكره يوسف أبو الحجاج: (نصب حظية وألية على تقدير: إلا أكن حظيةً فلا أكون أليةً وهو فعيله بمعنى فاعلة).

مسألة في المدح والذم

جاء في كتاب الظاء[١٤] : [وقولهم: عُظْمَ البطنُ بطنُك في التعجب بمعنى عَظُمَ وهو مخفف ومنقول، ويكون ذلك في المدح والذم ويجوز في غيرهما للتخفيف دون النقل] .

قال ابن السكيت (ت٢٤٤هـ): (متى قُصيدِ المدحُ أو الذمُ في (فَعُلَ) أو (فَعِلَ)، بضم العين وكسرها جاز تسكين العين ونقل حركتها إلى الفاء فتقول عَظْمَ البطنُ بطنُك، على التسكين، وعُظْمَ البطنُ بطنُك على التسكين والنقل معاً .

ومتى لم يقصد المدح أو الذم جاز التسكين ولم يجز النقل كقولك: قد عَظْمَ البطنُ بطنُك، ولا يجوز ضمُّ العين)[١٥] .

قال ابن هشام (ت٧٦١هـ) : (وكل فعل ثلاثي صالح للتعجب منه، فإنه يجوز استعماله على فَعُل

-بضم العين- إما بالأصالة كـ(ظَرُفَ وشَرُفَ) أو بالتحويل كـ(ضَرُبَ) و (فَهُم)، ثُم يُجرى حينئذٍ مُجرى نِعم وبئسَ في إفادة المدح والذم وفي حكم الفاعل وحكم المخصوص)[١٦].

وجاء في النحو الوافي: (وصوغه على وزن (فَعُل) بقصد تأديته لمعناه اللغوي المعين مع المدح الخاص به، أو الذم الخاص، مع الإشعار بالتعجب فيهما، يقتضي الأحكام الآتية :

١- اعتبار الفعل بعد تلك الصياغة لازمًا، مجردًا من الدلالة الزمنية وجامدًا كامل الجمود فلا مضارع له ولا أمر، ولا غيرهما من بقية المشتقات.

٢- صحة تحويل الفعل الثلاثي الصحيح غير المضعف تحويلاً مباشرًا إلى صيغه (فَعُل) بضم العين، فيفيد بعد التحويل معناه اللغوي مقرونًا بالمدح أو الذم الخاصين بمعناه، مع التعجب في كل حالة تبعاً لمعناه اللغوي الأصلي قبل التحويل ففي (فَهِمَ) المتعلم وعَدل الحاكم). نقول: (فَهُم المتعلم وعَدُل الحاكم).

فيفيد التركيب الجديد معنى الفعل في اللغة مزيداً عليه مدح المتعلم بالفهم فقط، ومدح الحاكم بالعدل فقط، مع التعجب في الحالتين)[١٧].

مسألة في التفريق بين المضاف والمضاف إليه وحذف المضاف .

جاء في كتاب الظاء[١٨]. [والعِظام جاء في التنزيل كثيراً : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾[١٩].

وقال ابن قيس الرقيات[٢٠] في الأعظُم :

رَحِمَ اللهُ أعظماً دفنوها

بسجستانَ طلحة الطلحاتِ

أراد: أعظم طلحة الطلحاتِ، فغلط فنوَّنَ .

والوجه: إذا فرق بين المضاف والمضاف إليه أن لا يُنوّن، كما قال كذلك ذو الرمة[٢١]:

كأنّ أصواتَ في إيغالهنّ بنا

أواخرِ الميس أصواتُ الفراريج

أراد: كأنّ أصواتَ أواخر الميس من إيغالهنّ بنا.

والتأويل: أن يقدر أعظُمَ طلحة، ثم حذفه وأعرب طلحة بإعرابه، وأقامه مقامه][٢٢].

استشهد صاحب كتاب الظاء ببيت يُشكَلُ فيه الإعراب. وقوله : (إن الشاعر غلط فنوّن) صائب فالتنوين يحُذف في مواضع :

١- لدخول أل .

٢- للإضافة

٣- لمانع الصرف .

٤- للوقف غير النصب .

٥- للنداء .

٦- لدخول (لا) .

والبيت الذي ذكره لذي الرمة لا يوافق ما جاء به وهو بيت ابن قيس الرقيات، فالفصل في بيت الرقيات لم يكن ظرفًا أو جارًا ومجرورًا .

قالوا: إن الفصل بين المضاف والمضاف إليه قبيح، اعترض المبرد على سيبويه في تجويزه الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف والجار والمجرور[٢٣].

وزعم كثير من النحويين أنه لا يُفصل بين المتضايفين إلاّ في الشعر وعدّوا الفصل بالظرف أو الجار والمجرور جائزاً في السعة[٢٤].

وجاء في ديوان شعر ذي الرمة :- كأنّ أصواتَ

الدرس النحوي في كتاب الظاء ليوسف أبي الحجاج المقدسي (ت٦٣٧هـ)

أواخر الميس فجرَّ بإضافة الأصوات وفصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله (من إيغالهن)، ومثل هذا لا يجوز في الكلام وإنما يجوز في ضرورة الشعر[٢٥].

وفي بيت ابن قيس الرقيات أكثر من وجه إعرابي، فيروى بنصب (طلحة) وجرّه، فالنصب على المدح، أي: أعني. وأما الجر فَبِهِ مضاف محذوف، تقديره: وأعظم طلحة[٢٦].

ويُنسب إلى أبي الحسن بن كيسان قوله :

[إنّه أراد (أعظم طلحة) فنصب فنوّن، وهذا القول ضعيف جدًا؛ لأن العرب إذا حالت بين المضاف والمضاف إليه لا تنون][٢٧].

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾[٢٨].

قرأ ابن عامر (وكذلك زُيِّنَ) بضم الزاي، وكسر الياء. (قتلُ) برفع اللام. (أولادَهم) بنصب الدال .. (شركائِهم) بخفض الهمزة .

وقرأ الباقون: بفتح الزاي والياء، ونصب اللام، وخفض الدال، ورفع الهمزة)[٢٩]. فقراءة ابن عامر فصلت بين المضاف والمضاف إليه

وجاء في كتاب الظاء[٣٠] :

[ويقّال للعينِ : الناظِرةُ . قال امرؤ القيس :

تصُدُّ وتُبدي عن شتيتٍ وتتّقي

بناظرةٍ من وحشِ وجْرَةَ مطفلِ

ومذهب المحققين أن مضاف (مطفل) محذوف استغناءً عن الأول، تقديره: ناظرةُ مُطفلِ. فيكون الكلام: بناظرةٍ من ناظرةِ مُطفلِ من وحش وجرةَ فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامهُ، وإنما يفعلون ذلك إذا أمِنوا الإلباس][٣١].

مسألة إدخال حرف الجر على (يا ذا الجلال)

جاء في كتاب الظاء[٣٢]:

[لظَّ بالمكان لظاً، وألظَّ به إلظاظاً : إذا لزمه ولم يفارقه ...]

وفي الحديث : (ألِظّوا بياذا الجلال والإكرام)[٣٣]

ويُروى : بذي الجلال .

وأدخل حرف الجر على (يا ذا) على تقدير الحكاية للجملة كما تقول : مررتُ بتأبّط شرًا].

والذي أراه أن هناك اسمًا محذوفًا بعد حرف الجر يُقدّر بكلمة (قول) أي الزموا أنفسكم بقول: يا ذا الجلال والإكرام .

فالباء حرف جر وهو من عوامل الأسماء. وعوامل الأسماء أقوى من عوامل الأفعال فهو يحتاج إلى معمول ولا يمكن أن يتوالى عاملان ولم يذكر أو يُقدَر معمول العامل الأول إلا في باب التنازع .

قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾[٣٤].

فـ(إنْ) حرف شرط جازم يجزم فعلين و(لم) حرف نفي وجزم وقلب، فكلاهما عاملان لذا يُقدّر معمول لـ(إنْ) بـ(كنُتم). وليس هناك تقارب بين قوله عليه الصلاة والسلام و(مررتُ بتأبطَّ شرًا) .

وهنا لا بد من إجراء مقابلة بين ما ذكره يوسف أبو الحجاج وما ذكره غيره من العلماء عند ذكرهم حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: (الظّوا بياذا الجلال والإكرام)

ومن العلماء من ذكر هذا الحديث في سلسلة كتب الضاد والظاء، أذكرُ منهم :

١. **كتاب الضاد والظاء:** لأبي الفرج محمد بن عبيد الله بن سهيل النحوي المتوفى بعد سنة (٤٢٠هـ): جمع ابن سهيل في كتابه ما يكتب

بالضاد وما يكتب بالظاء مما يجري في محاورة الناس وفي مكاتباتهم، واجتنبت غريب الكلام ووحشيه الذي يثقل استعماله .

وابن سهيل النحوي لم يذكر التخريج الإعرابي لقول الرسول عليه الصلاة والسلام (الظوا بياذا الجلال والإكرام) واكتفى بذكر معنى الحديث، فقال: (الزموا هذه الكلمة وداوموا السؤال بها)[٣٥]، والكلمة هي: (ياذا الجلال والإكرام)وهذا قد يؤيد ما ذهبت إليه أن هناك مجروراً محذوفاً بعد حرف الجر يقدر ب (كلمة أو قول)، فالكلمة تعطي معنى القول أو الكلام مثل كلمة توحيد.

ولا ندري من أين أتى يوسف أبو الحجاج بهذا التأويل الإعرابي وهو الجر على الحكاية ، فقد يكون من اجتهاده الشخصي مع العلم أن ابن سهيل من النحاة وهو أسبق زمنًا من أبي الحجاج. وابن سهيل النحوي لم تترجم له كتب الطبقات، ولم يذكره أحد غير ابن مالك الطائي المتوفى سنة (٦٧٢هـ) في كتابه: (الاعتماد في نظائر الظاء والضاد)، قال: (فأما الضَّهر بالضاد، فقال أبو بكر بن دريد الأزدي، الضّهر صخرة في جبل تخالف لونه فيما زعموا، وكأنه ليس عنده بثبت، وذكر محمد بن عبيد الله بن سهيل النحوي في كتابه الظاء...)[٣٦].

٢. **ظاءات القرآن:** لأبي الربيع سليمان بن أبي القاسم التميمي السرقوسي المتوفى آخر القرن السادس الهجري.

أفرد قسم من الباحثين مصنفات مستقلة لذكر ظاءات القرآن الكريم ليعلم أن ما عداها إنما هو بالضاد. ومن هذه المصنفات منظومات شعرية تشتمل على أصول الكلمات الظائية.

ويذكر محقق الكتاب **الدكتور حاتم الضامن** أنه لم يقف على ذكر لأبي الربيع في كتب التراجم، وكان غرض المؤلف جمع ما ورد في القرآن الكريم من حرف الظاء وما سواه جاء بالضاد، وجعل ظاءات القرآن في واحد وعشرين أصلاً، هي:

١. مادة (حظر) : وقعت في موضعين.

٢. مادة (حظظ) : وقعت في سبعة مواضع.

٣. مادة (حفظ): وقعت في اربعة واربعين موضعا.

٤. مادة (شوظ) : وقعت في موضع واحد .

٥. مادة (ظعن): وقعت في موضع واحد.

٦. مادة (ظفر) : وقعت في موضعين.

٧. مادة (ظلل): وقعت في ثلاثة وثلاثين موضعا.

٨. مادة (ظلم): وقعت في خمسة عشر وثلاثمئة موضع.

٩. مادة (ظمأ) : وقعت في ثلاثة مواضع.

١٠. مادة (ظنن): وقعت في تسعة وستين موضعا.

١١. مادة (ظهر): وقعت في تسعة وخمسين موضعا.

١٢. مادة (عظم): وقعت في ثمانية وعشرين ومئة موضع.

١٣. مادة (غلظ): وقعت في ثلاثة عشر موضعا.

١٤. مادة (غيظ): وقعت في أحد عشر موضعا.

١٥. مادة (فظظ) : وقعت في موضع واحد.

١٦. مادة (كظم): وقعت في ستة مواضع.

١٧. مادة (لظي): وقعت في موضعين.

١٨. مادة (لفظ) : وقعت في موضع واحد.

١٩. مادة (نظر) : وقعت في تسعة وعشرين ومئة موضع.

٢٠. مادة (وعظ): وقعت في خمسة وعشرين موضعا.

٢١. مادة (يقظ): وقعت في موضع واحد.

قال أبو الربيع السرقوسي[٣٧]:

التلظّي: وما تصرف منه بالظاء، أصل يطرد، وفي القرآن منه موضعان: في المعارج: ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ الآية ١٥، وفي سورة الليل: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ الآية ١٤. وأصله اللزوم والإلحاح، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (ألظّوا بياذا الجلال والإكرام)، أي: ألزموا أنفسكم بهذا الدعاء.

ويظهر من كلامه أنه لم يقل بإدخال حرف الجر على (ياذا) على سبيل الحكاية وهو أقدم زمنًا من يوسف أبي الحجاج .

٣. **كتاب الفرق بين الضاد والظاء:** لأبي بكر عبد اللّه بن علي الشيباني الموصلي المتوفى سنة (٧٩٧هـ). وقد ذكر ترجمته محقق الكتاب الدكتور **حاتم الضامن**، فذكر أن المؤلف اتبع منهجًا واضحًا في كتابه: (الفرق بين الضاد والظاء) فجعله في قسمين: قسم خاص بباب الضاد، رتبه على حروف الهجاء، وقسم خاص بباب الظاء، رتبه على حروف الهجاء أيضًا. ويعدُّ الكتاب أول أثر ينشر لأبي بكر الشيباني الموصلي.

قال في باب الظاء / الألف:

الإلظاظ: الدوام على الشيء، والإلحاح. وفي الحديث (ألظوا بياذا الجلال والإكرام).

ويلاحظ من قوله أنه لم يشر الى التوجيه الإعرابي الذي ذكره يوسف أبو الحجاج المتقدم عنه بأكثر من مائة عام.

نتائج البحث

بعد هذه الوقفة القصيرة عند الأقوال النحوية في كتاب الظاء يمكن الإشارة إلى ما يلي :

١. المؤلف يوسف أبو الحجاج المقدسي لم يفصح عن مذهبه النحوي، فلا ندري أهو من المعدودين على المذهب الكوفي أم المذهب البصري ؟

ولكن يمكن الاستنتاج من أقواله أنه موافق للنحو الكوفي وإن لم يرد في أقوال يوسف أبي الحجاج تعصب لأحد المذهبين.

٢. كانت مصادر أقوال المؤلّف النحوية ما ذكره من سبقه من العلماء وإن لم يكن هذا العالم نحويًا مشهورًا، فقد ذكر قولاً لابن السكيت الذي قال عنه ثعلب :

(لم يكن له نفاذ في النحو).

٣. استشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر العربي .

٤. لم يظهر رأي أبي الحجاج في الاقوال النحوية التي جاءت في كتابه، ولم يفصل القول فيها، فكانت أقواله غامضة بعض الشيء.

الحواشي

(١) ينظر في ترجمته : التكملة في وفيات النقلة للمنذري ٥٣٨/٣ وقلائد الجمان : لابن الشعار الموصلي ٢٢٥/١٠ وتاريخ الإسلام : للذهبي (الطبقة ٦٤) ٣٣٤ ونثر الجمان في تراجم الأعيان : للفيومي ٢/ت١١٨ .

(٢) ص٥٢ – ٥٣ .

(٣) البَزْرُ : بزْر البقل وغيره ، ودُهن البَزْر والبزْر وبالكسر أفصح (ينظر مختار الصحاح مادة (بزر) ص٥١ .

(٤) ينظر شرح الرضي على الكافية ٨٧/٣–٨٨ .

(٥) المائدة ١٠٥ .

(٦) ص٧٠–٧١ .

(٧) الفتح ١٢ .

(٨) الأصول في النحو ٢١٧/١ ، وينظر الإيضاح العضدي ١٦٦.

(٩) البقرة ١٩٥ .

(١٠) ينظر منثور الفوائد ٥٥ ، وشرح قطر الندى ١٧٣ .

(١١) المفتاح ٣٦٠ . وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٤١ .

(١٢) ص٩٧ .

(١٣) ينظر الأمثال لأبي عبيد ١٥٧ وجمهرة الأمثال ١/ ٦٧ .

(١٤) ص١٠٩ .

(١٥) إصلاح المنطق ٣٥ .

(١٦) أوضح المسالك ٢/ ٢٨٨ ، وينظر النحو الوافي ٣/ ٣٤٧ .

(١٧) النحو الوافي ٣/ ٣٨٦ .

(١٨) ص١١٢ .

(١٩) البقرة ٢٥٩ .

(٢٠) ديوانه ٢٠ .

(٢١) ديوانه ٢/ ٩٩٦ (ويروى أنقاض الفراريج) .

(٢٢) يُراجع الإنصاف في هذه المسألة فقد فصل القول فيها مع ذكر الشواهد نفسها ١/ ٤١ وينظر المقتضب ٤/ ٣٧٦، والمفصل٩٩ والتبيان للعكبري ١/ ٢٦٢وشرح الاشموني ١/ ٥٢٩.

(٢٣) الانتصار ٣٠-٣١ .

(٢٤) ينظر أوضح المسالك ٢/ ٢٢٦ .

(٢٥) عُني بتصحيحه وتنقيحه كارليل هنري ، عالم الكتب، بيروت .

(٢٦) الانتخاب ص٢٤ .

(٢٧) مشكل إعراب الأشعار الستة الجاهلية ص٦٥ .

(٢٨) الأنعام ١٣٧ .

(٢٩) التيسير في القراءات السبع ص٢٨٣ ، ومفردة عبد الله بن عامر الشامي ٦٤ . وينظر في هذه الآية : معاني القرآن للغراء ١/ ٣٥٧ ، وتفسير الطبري ٨/ ٣٢ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٠٨ والبحر المحيط ٤/ ٢٢٩ .

(٣٠) ص١٢٧ .

(٣١) ينظر مشكل إعراب الأشعار الستة الجاهلية ص٦٥ .

(٣٢) ص١٨٠-١٨١ .

(٣٣) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٤٢٠ ، والفائق ٣/ ٣١٧ والنهاية ٤/ ٢٥٢ .

(٣٤) البقرة ٢٤ .

(٣٥) كتاب الضاد والظاء ص ٥٩ .

(٣٦) الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ص ٣٢ .

(٣٧) ظاءات القرآن ص ٢٢-٢٣

ثبتُ المصادر

١- الاعتماد في نظائر الظاء والضاد: جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجياني (ت٦٧٢هـ)، تح د. حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق ٢٠٠٣.

٢- إصلاح المنطق: ابن السكيت (ت٢٤٤هـ)، تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .

٣- الأصول في النحو: أبو بكر بن السراج البغدادي (ت٣١٦هـ) تح د. عبد الحسين الفتلي – مطبعة النعمان – النجف ١٩٧٣ .

٤- الأمثال: أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت٢٤٤هـ) . تح د. عبد المجيد قطامش، بيروت ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠ م .

٥- الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب : ابن عدلان الموصلي (ت٦٦٦هـ)، تح د. حاتم صالح الضامن بيروت ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥ م .

٦- الانتصار لسيبويه من المبرد : أحمد مختار عمر، مجلة كلية المعلمين الليبية العدد الأول ١٩٧٠ .

٧- الإنصاف في مسائل الخلاف: أبو البركات عبد الرحمن الأبناري (ت٥٧٧هـ)، تح محمد محيي الدين عبد الحميد مصر ١٩٦١ .

٨- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تح محمد محيي الدين عبد الحميد . الطبعة الثامنة . دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨٦ .

٩- الإيضاح العضدي : أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) تح د. حسن فرهود شاذلي مصر ١٩٦٩ .

١٠- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨هـ .

١١- تاريخ الإسلام : الذهبي، تح د. بشار عواد وشعيب الأرناؤوط ود. صالح مهدي بيروت ١٤٠٨ – ١٩٨٨ .

١٢- التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسن العكبري، تحقيق البجاوي – القاهرة ١٩٧٦ .

١٣- تفسير الطبري (جامع البيان): الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٥٤ .

١٤- التكملة لوفيات النقلة، المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي (ت٦٥٦هـ)، تح د.بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م .

١٥- التيسير في القراءات السبع : أبو عمرو والداني (ت٤٤٤هـ) تح د. حاتم صالح الضامن، مكتبة الصحابة، الإمارات – الشارقة الطبعة الأولى ٢٠٠٨ .

١٦- جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكري، تح أبي الفضل وقطامش، مصر ١٩٦٤ م .

١٧- ديوان ذي الرمة (شرح أبي نصر)، تح د. عبد القدوس أبي صالح، دمشق ١٩٧٢ - ١٩٧٣ .

١٨- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : تح د. محمد يوسف نجم بيروت ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨ م .

١٩- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : علي بن محمد الأشموني (ت٩٢٩هـ)، تح محيي الدين عبد الحميد -مطبعة ألبابي الحلبي- مصر (د.ت) .

٢٠- شرح الرضي على الكافية : رضي الدين الاسترآبادي (ت٦٨٦هـ) تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، تونس ١٩٩٦ .

٢١- شرح قطر الندى وبل الصدى: جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) – الطبعة الحادية عشرة، مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣ .

٢٢- الضاد والظاء: أبو الفرج محمد بن سهيل النحوي (ت٤٢٠هـ)، تح د. حاتم صالح الضامن. دار البشائر دمشق ٢٠٠٤ .

٢٣- ظاءات القرآن : أبو الربيع سليمان بن أبي القاسم التميمي السرقوسي (ت ٥٩٠هـ)، تح د. حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق ٢٠٠٣.

٢٤- الظاء: يوسف بن إسماعيل بن أبي الحجاج المقدسي (ت٦٣٧هـ)، تح د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر دمشق ٢٠٠٤ .

٢٥- غريب الحديث: أبو عبيد، تح د. حسين محمد محمد شرف القهرة ١٩٨٤ – ١٩٩٩

٢٦- مجمع الامثال: الميداني، تح محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩.

٢٧- الفائق في غريب الحديث: الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تح البجاوي وأبي الفضل، مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٧١ .

٢٨- الفرق بين الضاد والظاء: أبو بكر عبد الله بن علي الشيباني الموصلي (ت٧٩٧هـ)، تح د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق ٢٠٠٣ .

٢٩- قلائد الجمان : ابن الشعار (ت٦٥٤هـ) نشر د. فؤاد سزكين، ألمانيا .

٣٠- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي (ت٦٦٦هـ) عُني بترتيبه محمود خاطر بك، راجعته وحققته لجنة من علماء العربية، بيروت ١٩٨١ .

٣١- مشكل إعراب الأشعار الستة الجاهلية: محمد بن إبراهيم الحضرمي (ت٦٠٩هـ) تح د. أنور أبو سويلم ود. علي الهروط، عمان – دار عمار ١٩٩١ .

٣٢- مشكل إعراب القرآن: مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ)، تح د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر دمشق ٢٠٠٣ .

٣٣- معاني القرآن: الفراء، يحيى بن زياد (ت٢٠٧هـ) ج١ تح نجاتي والنجار، ج٢ تح شلبي – القاهرة ١٩٥٥ – ١٩٧٢.

٣٤- المفتاح في اختلاف القَرأَة السبعة المُسمَّين بالمشهورين: أبو القاسم عبد الوهاب القرطبي (ت٤٦٣هـ)، تح د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر دمشق الطبعة الأولى ٢٠٠٦ .

٣٥- مفردة عبد الله بن عامر الشامي: أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)، تح: د. حاتم صالح الضامن، دار ابن الجوزي السعودية، ١٤٣١هـ .

٣٦- منثور الفوائد: أبو البركات عبد الرحمن الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تح د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣ .

٣٧- المفصل: الزمخشري، مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٣هـ .

٣٨- المقتضب: المبرد (ت٢٨٥هـ)، تح محمد عبد الخالق عضيمة، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة .

٣٩- نثر الجمان في تراجم الأعيان: الفيومي، أحمد بن محمد (ت٧٧٠هـ)، مصورة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث رقمها ٧٨١، عن نسخة جستربيتي .

٤٠- النحو الوافي: عباس حسن، دار المعارف بمصر ١٩٧٤ .

٤١- النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد (ت٦٠٦هـ) تح الزاوي والطناحي، مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٦٣ – ١٩٦٥ .

فن الخط العربي وأعلامه خلال العصر المملوكي
(٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

خالد عبد الله يوسف
باحث - مؤسسة المكنز الإسلامي
القاهرة - مصر

فن الخط العربي وأعلامه خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

حظي فن الخط باعتباره أنبل الفنون قاطبة على رعاية خاصة من سلاطين دولة المماليك، ليس فن الخط فحسب بل الفنون والصناعات عمومًا، بلغت في عصرهم أعظم درجات الرفعة والازدهار، وكانوا من أعظم رعاة الفن في الحضارة الإسلامية، وأسخى المنفقين على الفنون، وأصبحت القاهرة في عهدهم حاضرة العالم الإسلامي، ومركزًا لتجويد فن الخط، أثر سقوط بغداد عقب الغزو المغولي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. يقول ابن خلدون موضحًا ذلك: «ثُم لمّا انْحَلَّ نظام الدولة الإسلامية وتَنَاقص ذلك أجمع، ودُرِست معالم بغداد بدُرُوس الخلافة، فانتقل شأنها من الخط والكتابة، بل والعلم إلى مصر والقاهرة، فلم تزل أسواقه بها نَافِقة لهذا العهد، وله بها مُعلّمون يرسُمُون لتعليم الحروف بقوانين في وَضعِها وأشكالُها مُتعارفة بينهم فلا يلبث المُتعلّم أن يُحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع، وقد لُقنها حَسنًا وحَذِق فيها دُربة وكتاباً وأخذها قوانين علمية، فتجئ أحسن ما يكون»[1].

وكان فن الخط في دولة المماليك من المواد الأساسية التي تُدرّس في المدارس والمساجد والكتاتيب الملحقة بها، التي انتشر تشييدها بصورة كبيرة، وقد جرت العادة ببناء كُتّاب لتعليم الأيتام بجوار المسجد أو المدرسة، عُرف بكُتّاب أو مكتب السبيل، يقوم بالتدريس فيه مُعلّم يطلق عليه «المؤدّب» وفي بعض الأحيان «الفقيه»، يساعده في التدريس «العريف»، وهو ما تؤكده غالبية وثائق الوقف المملوكية، فنقرأ في وثيقة وقف السلطان حسن أنه قرر للمكتب مؤدّبان وعريفين حافظين لكتاب الله وعدد الأيتام مائة، فيجلس كل مؤدّب ومعه عريف وخمسون نفرًا من الأيتام، بالمكان المعد لهم في كل الأيام التي جرت العادة بتعليم الأيتام بمكاتب السبيل بها، فيقريهم المؤدّب ما يطيقون قراءته من القرآن العظيم، ويعلمهم ما يحتملون تعلمه من الخط العربي وهجائه، ويساعده

العريف المذكور في ذلك[٢]. تولى تعليم الخط كذلك أحد الخطاطين المشهورين، كما ورد في وثيقة وقف السلطان الغوري «ومن ذلك ثلاثمائة درهم تصرف لرجل كاتب مأمون عالم بعلم الكتابة، مُجازًا بالأقلام السبعة يقرره الناظر في وظيفة التكتيب بهذا الوقف، على أن يتردد للمكتب المذكور أو الموضع الذي يعينه الناظر يومين في كل أسبوع، ويعلم الناس فنون كتابته ما يرغبون في تعلمه منه على جاري عادة أمثاله في ذلك[٣].

لم تقتصر عناية سلاطين المماليك على تعليم فن الخط إلى الأطفال من أيتام المسلمين، بل كان من الدراسات التي يتلقاها مماليك الطِّباق[٤]، أو الكُتَّابية، حيث شاع في العصر المملوكي أن تُجلب المماليك الصغار، فيوضعون في أماكن خاصة مع أترابهم، فيتعلم المملوك الخط العربي، والقرآن، والعلوم الشرعية. وقد جنح بعض المماليك إلى دراسة الفقه، والأدب، فصار منهم الأديب، والشاعر، والفقيه. ويذكر المقريزي ذلك قائلاً: «وكانت للمماليك بهذه الطِّباق عادات جميلة: أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان، ونزّله في طَبَقة جِنْسه، وسلَّمه لطواشي برسم الكتابة. فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط العربي، والتمرن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار»[٥].

بل كانت إجادة الخط في بعض الأحيان مبررًا لزيادة ثمن المملوك، فيروى أنه لما أحضر تاجر الأمير بدر الدين بَيْلِيك بن عبد الله الخازندار، نائب السلطنة ومقدَّم الجيوش بعد ذلك، قال للملك الظاهر بيبرس: إنه يكتب خطًا جيدًا، فأمر السلطان أن يكتب، فأخذ القلم وكتب: لولا الضرورات ما فارقتكم أبدًا .. ولا ترحَّلْتُ من ناس إلى ناسِ، فأَعجبَ السلطان كونه كتب هذا البيت دون غيره، وزاد في ثمنه[٦].

المدرسة المملوكية في فن الخط

تتبع المدارس الفنية المختلفة لفن الخط غالبًا مراكز الخلافة، فأولى المدارس الخطية هي المدرسة العراقية، التي أرست أصول وقواعد هذا الفن، وانتهت جودة الخط وتحريره في بداية القرن ٣هـ/٩م إلى الوزير أبي علي محمد بن مُقلة (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م) وأخيه أبي عبد الله (ت٣٣٨هـ/٩٤٩م)، وتفرد أبو عبد الله بالنَّسخ، والوزير ابن مُقلة بالدَّرج، وكان الكمال في هذه الصناعة لابن مُقلة؛ وقد وُزّر لثلاثة من الخلفاء العباسيين، وهو الذي هندس الحروف وأجاد تحريرها، وأسس قواعدها، وعنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها، ثم أخذ عن ابن مُقلة تلميذيه محمد بن السِّمسِاني (ت٤١٥هـ/١٠٢٤م)، ومحمد بن أسد الغافقي (ت٤٠٩هـ/١٠١٨م)، وعنهما أخذ الأستاذ أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البوَّاب (ت٤١٣هـ/١٠٢٢م)، وهو الذي أكمل قواعد الخط وتممها واخترع غالب الخطوط التي أسسها ابن مُقلة. وقد بلغت الأقلام التي نُقلت عن ابن البوَّاب ستة عشر خطًا، منها الطُّومار، والثُّلث، والمُحقَّق، والنَّسخ، والرَّيحان، وقد كُتب لطريقته في الخط السيادة على العالم الإسلامي، واستمرت في مصر وبلاد الشام حتى نهاية القرن ١٠هـ/١٦م وكان الخطاط محمد بن حسن الطِّيبي في نهاية العصر المملوكي من أواخر من قدم نماذج على طريقته في مختلف الخطوط. ولابن البوَّاب قصيدة رائية شهيرة، يذكر فيها صفات الأقلام، وآداب وقواعد الكتابة، مطلعها:

يـا مـن يُـريـد إجَـادة الـتَّـحْـريـر
ويــرُوم حُـسـن الـخـطّ والـتَّـصـويـر
إن كـان عـزْمَـك فـي الـكـتـابـة صـادقـاً
فـارغـب إلــى مــولاك فـي الـتَّـيـسـيـر

وممن كتب على ابن البوَّاب محمد بن عبد الملك، وعنه أخذت الشَّيخة المحدِّثة الكاتبة الملقَّبة بشُهْدَة ابنة الإبَري (ت٥٧٤هـ/١١٧٨م)، وجوّد عليها الخط أمين الدين، يَاقُوت بن عبد اللّه المعروف بالملِكي (ت٦١٨هـ/١٢٢١م)، الذي انتشر خطه في الآفاق، ولم يكن في آخر زمانه من يقاربه في حسن الخط ولا من يؤدي طريقة ابن البوَّاب في النَّسخ مثله، وممن كتب على يَاقُوت الملِكي أبو الحسن علي بن زنكي المعروف بالوَليُّ العَجَمي، ثم أخذ عنه الشيخ عفيف الدين محمد الحلبي، وعنه أخذ ولده عماد الدين محمد المعروف بابن العفيف[٧].

ثم انتهت رئاسة الخط في القرن ٧هـ/١٣م إلى جمال الدين يَاقُوت بن عبد الله المُستَعصِمي (ت٦٩٨هـ/١٢٩٨م)، آخر المُجوّدين في المدرسة العراقية، الذي نقل الأداء الخطي للأقلام الستة التي نُسبت إليه وهي الثُّلُث والنَّسخ والمُحقَّق والرَّيحان والتَّواقيع والرِّقَاع، بعد تعيينها وتحديد قواعدها إلى مستوى أكثر سرعة وأرشق شكلاً وأوسع وظيفة[٨]. فكان هذا الفنان في تاريخ فن الخط بمثابة الموضع الذي تلاقت عنده الأنهر المنهمرة من جهات متعددة لتهدأ وتصفو ثم تنفصل مرة ثانية إلى روافد مختلفة. وقد كان لطريقته في تغيير شكل القطّ[٩] في القلم الذي كان جاريا حتى ذلك الوقت- إذ زاد من تحريفه وجعل شحمه غير مرهَّف كثيرًا- تأثير واضح على أنواع الخطوط الستة كلها. وعلى الرغم من أنه ظل متمسكًا بالقواعد التي جاء بها ابن مُقلة وطورها ابن البوَّاب، إلا أنه أضفى على أسلوب الأخير ظرفًا، وابتكر على هذا النحو أسلوبًا خاصا به. وقد برز ذلك بصورة واضحة في تجويده للخط المُحقَّق والرَّيحان بصورة خاصة.[١٠]

وبعد أن أصبحت القاهرة المملوكية المركز الثاني الهام بعد بغداد مباشرة في فن الخط، في هذا الوسط سارت طريقة ابن البوَّاب موازية لمدرسة بغداد، إذ اعتنق خطاطو القاهرة فيما بعد النتائج التي توصل إليها يَاقُوت المُستَعصِمي، واستمروا بإخلاص وصدق يفوق ما كان في مراكز الفن الأخرى[١١]، ووصل إلينا العديد من الأعمال الخطية التي ظهرت في العصر المملوكي، كما وصلتنا كتب عن نظريات فن الخط، وآراء ومشاهدات حول طريقة تعليمه. وكما ذكرنا سابقًا أن ابن خلدون الذي عاش في هذا الوسط قد بيّن لنا المستوى الرفيع الذي بلغه الخط في مصر، كما قدم لنا بعض المعلومات حول طريقة تعليمه، ويوجد اليوم بين أيدينا العديد من الكتب التي يمكن من خلالها أن ندرك بوضوح أسس التعليم التي أشار إليها ابن خلدون[١٢]. كما نجد أن معظم المؤلفات التراثية التي تعني بأدبيات صناعة الخط، جاءت في العصر المملوكي ومنها «العِناية الربَّانية في الطريقة الشَّعبانية» لزين الدين شعبان بن محمد الآثاري (ت٨٢٨هـ/١٤٢٥م)، و«صُبح الأعَشى» لأحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، الذي أفرد فيه قسمًا مستفيضًا عن فن الخط، وأدوات الكتابة، و«منهاج الإصابة» لشمس الدين الزفتاوي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، و«لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف» لحسين بن ياسين (٨هـ/١٤م)، و«العُمدَة في الخط» لعبد اللّه الهيتي (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م)، و«تحفة أولي الألباب في

صناعة الخط والكتاب» لعبد الرحمن بن الصَّائغ (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، بالإضافة إلى عدد من المنظومات، وشروحات رائية ابن البواب في الخط.

وبالطبع كان المصحف الشريف هو الميدان لفن تجويد الخط، ومن آداب كتابة المصحف أن يُكتب بأَحسن الخطوط وأَقومِها وأتمَّها وأكملِها، ولا يجب أن يُكتب بالخطوط الناقصة التي ليست بموزونة ولا معتدلة، لئلا يتصحَّف على قارئه ويكثُر الخطأ واللحن والزلل فيه عند القراءة[١٣]. لذلك كانت الخطوط الكبيرة المتصلة الحروف والتي عُرفت بالنسبة لفن الكتابة، بالمُحقَّق والرَّيحان والثُّلُث، قد ازداد وازداد التقدير لها بعد قيام دولة المماليك، إن تطوير هذه الخطوط جاء موازيًا لتطوير خط النَّسخ، وقد كان ابن البوَّاب نفسه باتفاق الروايات أستاذ في هذا المجال، لكن فيما يبدو لم يبقى أي مصحف من الخطوط التي ذكرناها من زمنه أو حتى بعد مائة عام من وفاته، واكتسب الخط المُحقَّق اسمه جزئيًا من التوازن والتناغم الذي ينجزه بين العمودية والأفقية، واسمه هذا إنما يدل على أنه قد بلغ درجة الكمال في ذلك العصر الذي شهد هذا الفن الخطي الجليل، وكان للمُحقَّق ميزة أن يكون مع الرَّيحان الذي يفوقه قليلا في الرهافة، هو الخط المُفضل لعدد كبير من المصاحف خلال العصر المملوكي في مصر وبلاد الشام، حيث كُتبت بالخط المُحقَّق والرَّيحان أكبر المصاحف حجمًا وأجملها فنّاً وأَنْفسُها صناعة في تاريخ القرآن وفي تاريخ الخط على حد سواء[١٤].

وفي المقارنة بين الرَّيحان والمُحقَّق يقول ابن البوَّاب: «وأما الرَّيحان، فهو بالقياس إلى المُحقَّق كالحواشي إلى النَّسخ»، ويضيف صاحب «لمحة المختطف» وفي الجملة وضع حروف الرَّيحان على مثال حروف المُحقَّق، إلا أن فيه دِقّة ويُضبط بجملة قلمه، ومما يختص بهذين القلمين أن لا يُطمس فيهما ميم، ولا واو، ولا عين، ولا قاف، ولا فاء. وأن يكونا مُنيرين. والفرق بين المُحقَّق والرَّيحان أن الرَّيحان يكون إعرابه بقلمه، ويكون إعرابه مُفتَّح الأعين، والمُحقَّق يكون إعرابه بغير قلمه. وأن المُحقَّق أصل، ويقال إنه أول قلم صُنّف، والرَّيحان مُستنبط منه»[١٥]. كما أن لكل قلم من الأقلام السبعة شيئاً يَختصّ به، فالمُحقَّق والرَّيحان للمصاحف والأدعية، والنَّسخ للحديث والتفسير ونحوهما، والثُّلُث للتعليم، والتَّواقيع يكُتّب به التَّواقيع الكبار للملوك والأمراء والقضاة، والرِّقَاع لتواقيع الصغار والمراسلات، والمُؤنَّق لكتابة الشعر»[١٦].

ومن خلال هذا البحث سنقدم عرضًا لسِير أعلام وأساتذة فن الخط، الذين ساهموا في تجويده وانتشاره خلال العصر المملوكي، سواء أفي مصر أم بلاد الشام، حيث كانت نفس المسيرة الفنية التي كان عليها في مصر، لتبعية الشام للدولة المملوكية، وسنوجز حياة كل واحد منهم، ومدى ما قدمه في هذا الميدان، وأنواع الخطوط التي كانوا يكتبون بها، وشيوخهم، ومن أخذ عنهم، وأعمالهم التي وصلت إلينا، ولعلنا في عرض وذكر سِير هؤلاء الأعلام، نقدم نذرًا يسيرًا لتكريمهم، ولتراثهم القائم على المعرفة والحب.

• عماد الدِّين الشِّيرازي

الكاتب المُجِّود محمد بن محمد بن هبة اللّه، عماد الدِّين، ابن القاضي شمس الدين ابن الشِّيرازي الدمشقي، ولد سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م، من أفاضل دمشق وأعيانها، كان والده القاضي شمس الدين أبو نصر من كبار العلماء، فقيهًا شافعيًا عارفاً بالمذهب، ووُلّي نيابة دمشق زمنًا طويلاً، والعماد الشِّيرازي هو شيخ الكتابة المنْسُوبة[١٧]، في زمانه، وبلغ فيها مبلغًا عظيمًا، أخذ الخطّ

على الوَلِيّ العجمي، وانتهت إليه رئاسة التجويد في الخط لاسيما المُحقَّق والنَّسخ، سمع الحديث، وقدم القاهرة وحدّث بها، وروي عنه الحافظ جمال الدين المِزِّي (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) والشيخ علم الدين البرزالي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م) وطائفة أخرى من المشايخ، وتصدى العماد الشِّيرازي لتعليم الكتابة، فانتفع به جمع كبير من الناس، وقيل أن خطه كان أجود من شيخ الصناعة ابن البوَّاب، كما تولى ناظرًا على الأملاك الظاهرية والتعلّقات المختصة بالملك السعيد ابن الظاهر بيبرس، وذلك في أواخر الدولة الظاهرية[١٨].

ويروى الصّفَدي عنه قائلاً: «حُكي لي أن العماد الشِّيرازي بلغه أن رَبْعة[١٩] في بغداد بخط ابن البوَّاب كتبها بخفيف المُحقَّق، فاستعمل من ورق الطير[٢٠] جُملة وأخذه معه وتوجه إلى بغداد، وأخذ تلك الرِّبْعة جزءًا فجزءًا، وكان يضع ورق الطير على خط ابن البوَّاب فيشِفّ عما تحته، ويجلي الكتابه له، فيكتب عليها لا يخلّ بشيء منها، وقد رأيت أنا من هذه الرَبْعة التي كتبها عماد الدين جزءًا وما في الورقة مكتوب إلا وجهة واحدة، والآخر بغير كتابة، فكنت أتعجب لذلك، فلما سمعت هذه الواقعة علمت السبب في ذلك»[٢١]. وتوفي العماد الشِّيرازي بدمشق سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، ودُفن بسفح جبل قاسيون.

ويُورد القلقشندى في «صُبح الأعَشى» جُملة من آراء عماد الدين الشِّيرازي في فضل القلم، واشتقاقه وأوصافه، ففي مساحة الأقلام في طولها وغِلظها، يقول العماد: «أحمد الأقلام ما توسطت حالاته في الطول والقِصر والغِلظ والدقة، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليه الأنامل فيبقى مائلاً إلى ما بين الثُّلُث، والغليظ المفرط لا تحمله الأنامل»[٢٢].

• عماد الدين بن العفيف

عماد الدين محمد بن العفيف محمد بن الحسن الأنصاري، المعروف بابن العفيف، الكاتب المُجِّود المُحرّر شيخ الديار المصرية، صاحب الخط المَنْسُوب، وإمام الكُتاب في زمانه، أخذ الخط عن والده الشيخ عفيف الدين محمد الحلبي. وكان ابن العفيف صالحًا خيّراً فقيهًا حسن الأخلاق، له نظم ونثر وخُطب ومعرفة بالنحو، قرأ العربية على بهاء الدين بن النحّاس (ت٦٩٨هـ/١٢٩٨م)، كما تولى مشيخة خانقاة الأمير أقبغا عبد الواحد بقرافة القاهرة، وكتب ابن العفيف العديد من المصاحف بخطه، وتصدّى لتعليم الخط زمنًا طويلاً، فانتفع به عامة الناس، وكانت وفاته بالقاهرة سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م، وله إحدى وثمانون سنة، وكان ابن العفيف في زمانه كابن البوَّاب، رُوي بعضهم في المنام فقيل له ما فعل اللّه بك، قال تأنقت في كتابة «بسم اللّه الرحمن الرحيم» فغُفر لي بذلك وقيل لما كانت الكتابة شريفة كان حسن الخط فيها فضيلة[٢٣].

ويذكر القلقشندي في مواضع متفرقة من «صُبح الأعَشى» بعضاً من آراء ابن العفيف في أوضاع فن الخط، وقوانين ووجوه تجويد الكتابة وتحسينها، ففي كيفية إمساك القلم عند الكتابة، ووضعه على الورق يقول ابن العفيف: «وتكون الأصابع مبسوطة غير مقبوضة؛ لأن بسط الأصابع يتمكن الكاتب معه من إدارة القلم، ولا يتكئ على القلم الاتكاء الشديد المُضّعف له، ولا يمسكه الإمساك الضعيف فيضعف اقتداره في الخط، لكن يجعل اعتماده في ذلك معتدلا»[٢٤]، وعند ذكر تناسب الحروف ومقاديرها في كل قلم، يذكر القلقشندي أن الشيخ عماد الدين قد أشار إلى ضوابط في ذلك على ما

فن الخط العربي وأعلامه خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

تقتضيه أوضاع الكُتّاب يجب الوقوف عندها فقال: «واعلم أن مقادير الحروف متناسبة في كل خط من الخطوط»[٢٥]. وفي قطّ القلم وأنواعه يقول ابن العفيف: « والقطّ نوعان: النوع الأول- المحرّف، وطريق بريه أن يحرف السكين في حال القطّ، وهو ضربان، قائم ومصوّب: أما القائم فهو ما جعل فيه ارتفاع الشحمة كارتفاع القشرة، وأما المصوّب، فهو ما كان القِشر فيه أعلى من الشحم. والنوع الثاني- المستوى، وهو ما تساوي سناه، وأجودهما المحرّف»[٢٦]. وقال الشيخ شمس الدين بن أبي رُقيبة: «سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف عن الكتابة بالأقلام، والتحريف والتدوير، فقال: الرِّقَاع والتَّواقيع أميل إلى التدوير بيَن بيَن، قطَّة مُربَّعة، والنَّسخ والمُحقَّق والمُشعر أميل إلى التحريف، والمُحقَّق أكثر تحريفاً منهما»[٢٧].

ومن المصاحف المخطوطة التي وصلت إلينا بخط ابن العفيف مصحف محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٤٢ مصاحف)، بآخره توقيع ابن العفيف ونصه «كتبه العبد الفقير الضعيف المدعوّ بابن العفيف حامدا لله تعالى ومصليا على نبيه وآله وصحبه».

• شمس الدين بن أبي رُقَيبة

محمد بن علي بن أحمد بن أبي رُقَيبة المُجوّد، ولد بعد سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، ولازم الشيخ عماد الدين بن العفيف وأخذ عنه ومهر في طريقته في الخط المَنْسُوب، كما أخذ أيضًا عن شمس الدين ابن الأكفاني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) وغيره، وتولي حسبة الفسطاط مرات عديدة، وأدب الملك الكامل شعبان بن الناصر، بل كان أحد أئمة السلطان الأشرف زين الدين شعبان ومقربًا جدًا منه، وتوفي رحمه الله سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م[٢٨].

• شمس الدين الزَّفتاوي

محمد بن أحمد بن علي الزَّفتاوي، ولد سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، أخذ الخط عن شمس الدين محمد ابن علي بن أبي رُقيبة، وبرع فيه. وسمع الحديث على خليل بن طرنطاي، وتصدى لتعليم الناس، فكتب عليه جماعات، وكان أثيرًا في معرفة الخطوط المَنْسُوبة، لا يرى خطًا منها إلا ويعرف الذي كتبه لا يُلحق في معرفة ذلك، وصنّف الزَّفتاوي كتابًا في صنعة الكتابة سماه» منهاج الإصابة في أوضاع الكتابة» وانتفع به المصريون في تجويد الخط، وكان مع هذا حسن المحاضرة ممتع المُذاكرة لا تمل مجالسته، وتعلم منه الكتابة العديد من الشيوخ والكُتّاب منهم القلقشندي، والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) وكفى به شرفا، الذي يقول عنه: لازمته مدة وتعلمت الخط المَنْسُوب منه، وناولني مصنفه «منهاج الإصابة في معرفة الخطوط» ويقول المقريزي:»اجتمعت به في مجلس شيخنا أوحد الزمان علاء الدين علي بن عُصفور، وأخبرني أنه يكتب بالذِّراع الحديد الذي تُقاس به الثياب خطًا مَنْسوبًا كما يكتب بالقلم»[٢٩]. وكانت وفاة الزَّفتاوي رحمه الله سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م.

يقول الزَّفتاوي في مقدمة رسالته: «ولما رأيت هذه الصناعة الشريفة الثناء، العظيمة السناء، قد درست معالمها، وفسدت آلاتُها، وتغيرت حالاتُها، عملت هذا الكتاب وسمَّيتُه «منهاج الاصابة في معرفة الخطوط وآلات الكتابة».... وبوّبتُه أبوابًا، بدأت فيها بذكر من وضع الخط وأصَّلُه، ومن فصله ووصله، وذكر من وضع الخط العربي وأقامه، وصنع حروفه وأقسامه، وفضل الخط والقلم وما لهم في ذلك من الحكم، ثم نذكر الدواة وصفتها وآلاتها، والسكين وحالاتها، والمداد وأصنافه، والحبر

وأوصافه، والبَرْي وأحكامه، والقطّ وأقسامه، والتسوية والمط، والشكل والنَقط. وذكرت حروف المعجم المفردة وأشكالها وهيئاتها وصفاتها»[٣٠].

كما يورد الزَّفتاوي في مصنفه فوائد سمعها من شيخه شمس الدين بن أبي رُقيبة، فيقول: «قد رأيت أن أذكر فوائد سمعتها من الشيخ شمس الدين قال: سألت الشيخ عماد الدين عما يقبح ويطمس من الأقلام فقال: كلما غلُظَت الأقلام كان الطمس فيها على خلاف الأصل، وكلما رقَّت كان الفتح فيها على خلاف الأصل، ثم قال: ما عدلنا عن الفتح إلى الطمس إلا لأجل التلطيف»[٣١]. وقال: «سألت الشيخ عن الكتابة بالأقلام والتحريف والتدوير فقال: الرِّقَاع والتَّواقيع أميل إلى التدوير، والثُّلث بين قَطَّة مربعة، والنَّسخ والمُحقَّق والمُشعّر أميل إلى التحريف، والمُحقَّق أكثر تحريفا منهما. قال: وسألته عن المَشْق[٣٢] فقال: وضع كل سطر في قلمه مناسب ممشق ذلك القلم، فالمُحقَّق يكون مَشْقه مبسوطًا قوامًا لأن سطره كذلك، والمَشْق في النَّسخ يكون مرطبًا ترطيبًا يسيرًا لأن سطره يكون طالعاً أكثر من النَّسخ، وأما الرِّقَاع والتَّواقيع فهما متقاربان فالمَشْق فيهما يكون مقوسًا، والتَّواقيع أكثر تقويسًا فيكون سطره كذلك. قال: وسألته عن السين هل تكون مصدّرة في جميع الأقلام؟ فقال: تصدير كل قلم بحسبه، فسين النَّسخ مصدرة تصديراً لطيفاً مع الرد، والثُّلث تصديره أكثر مع الردّ، و الرِّقَاع يجوز فيه التصدير مع القلب والتصدير مع الردّ، والتوقيع سينُه مصدّرة مع القلب وليس فيه رد قولاً واحداً، وأما المُحقَّق فليس فيه تصدير وإنما السين فيه مبسوطة مع الرد. قال: لا يجمع الكاتب بين القلب وبين الردّ في موضع واحد. وقال : سين الصاد في الرِّقَاع، وفي التَّواقيع، لا تكون إلا مصدرة، وفي النَّسخ، والمُحقَّق، والثُّلث تكون مردودة»[٣٣].

ومما وصلنا بخط الزَّفتاوي نسخة من قصيدة «البردة» للإمام البُوصيري (ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، وتخميسها لناصر الدين محمد الفيومي، محفوظة بمكتبة جامعة ميشيجان تحت رقم (Isl. Ms. 228) انتهى من كتابتها سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، بآخرها توقيع الزَّفتاوي وتاريخ نسخها ونصه «تمت مع التخميس بحمد الله وعونه وصلى الله على نبيه محمد كتبها محمد بن علي الشهير بالزَّفتاوي عفا الله عنه بكرمه في العشر الأول من شهر الله المحرم افتتاح عام ثلاث وثمانين وسبعمائة».

• شرف الدِّين بن الوحيد

محمد بن شريف بن يوسف الزُّرعي ثم المصري، شرف الدين بن الوحيد، ولد بدمشق سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، سافر إلى العراق واجتمع بيَاقُوت المُستَعصِمي، وجوّد عليه الخط، وبرع وبلغ الغاية في كتابة الأقلام السبعة، أما الخط المُحقَّق والرَّيحان وفصاح النَّسخ، فما كتبه أحسن منه، لأنه أتى في ذلك بالإبداع، فلم يكن في زمانه من يدانيه فيهما، فكان يضرب المثل بحُسن كتابته، ويُطنب الصَّفَدي في مدح خطه قائلاً: «فاقت كتابته على من تقدّمه الأوائل، فلو رآه ابن البوَّاب لجوَّد تحت مثاله، وعلم أن بدر هذا فاق على هلاله، أو ابن مُقلة شخص إليه إنسانه، وعلم أنه ما تُلْحق إجادته ولا حسانَه، أو الوَليّ التِّبْريزي لتحقق أنه قد برّز وسبقه، وأنه ما يشم ريحانه ولا محققه. وكان قد فضح الأوائل والأواخر بفصاح نَّسخه، وتفرَّد هو بكمال الخط وترك غيره يخبط في مَسْخه»[٣٤].

وسافر ابن الوحيد إلى القاهرة، واتصل بخدمة السلطان بيبرس الجاشنكير قبل توليه السلطنة وأعجبه خطُّه، وحظي عنده، فكتب له خَتْمة بالذهب

في سبعة أجزاء في ورق بغدادي قطع النصف بلِّيقة ذهب[٣٥]، بخط الثُّلث، دخّل فيها ألف وست مائة دينار لِّيقة، فدخل في الخَتْمة ست مائة دينار وأخذ الباقي، فقيل له في ذلك فقال: متى يعود آخر مثل هذا يكتب عليّ هذه الخَتْمة، وزمّكها[٣٦] وذهبّها صَنْدل المشهور، يقول الصّفَدي: «ورأيتها أنا وهي وَقْف بجامع الحاكم بالقاهرة، وفي ديوان الإنشاء بالقلعة غير مرة، وما أظنها يكون لها ثان من حسنها، ولا مثل تزمّيكها، فإنهما كانا فردي زمانهما، ولما انتهى من كتابتها أدخله بيبرس الجاشنكير ديوان الإنشاء، فما أنجب في الدّيوان، وهذا تعجيز من الله تعالى لمثل هذا الكاتب العظيم»[٣٧].

وهذه الخَتْمة محفوظة الآن في المتحف البريطاني بلندن تحت رقم (Add.22406-13)، ولا شك أنه أهم المصاحف المخطوطة في العصر المملوكي، ليس فحسب أنه أقدمها، لكن أيضًا أعظمها وأروعها خطًا وتذهيبًا، والمصحف مكتوب في سبعة أسباع، وهو المصحف المملوكي الوحيد المجزأ بهذا الشكل، في نهاية كل سُبع توقيع ابن الوحيد والآمر بكتابته ونصه «أمر بكتابة هذا السُبع الشريف واخوته المقرُّ الكريم العالي المولويُّ المخدوميُّ الرُّكنّي أعز الله نصره أستاذ الدار العالية وكتب محمد بن الوحيد حامدا لله تعالى ومصليا على نبيه محمد وأله وصحبه ومُسلما وفرغ منها بأسرها في سنة خمس وسبعمائة»[٣٨].

وكان ابن الوحيد في حياته يبيع المصحف نسخًا بلا تذهيب ولا تجليد بألف درهم. فابن تمام السَّراج (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) قد كتب عليه وكان يحاكي خطه، وكان يكتب المصاحف فيقول له: اكتب أنت المصحف وهاته إليِّ، فإذا أتي به يزن له أربع مائة درهم، ويأخذ الشيخ شرف الدّين فيكتب في آخره: كتبه محمد بن الوحيد، ويبيعه هو بألف درهم[٣٩]. وتوفي ابن الوحيد بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة سنة ٧١١هـ/١٣١١م.

ولابن الوحيد نظم ونثر كثير، كما قام بشرح لرائية ابن البوَّاب في الكتابة، ولعله أقدم شرح لها، ثم شرحها العديد من بعده، وعنوان القصيدة كما هو مثبت على صفحتها الأولى «قصيدة في آلات الخط المَنْسُوب تأليف الأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي عُرف بابن البوَّاب رحمة الله عليه وشرحها الشيخ شرف الدين ابن الوحيد قدس الله روحه»[٤٠].

كما يورد صاحب «لمحة المختطف» العديد من آراء ابن الوحيد في الكتابة والأقلام، ففي كيفية قطّ القلم، يقول ابن الوحيد: نظما:

وإنّ عمادَ الخطِّ تحقيقُ بريه
وقَطّه أزهى وأدعى إلى العين
وقد رمز الأستاذ إلى الشعر قطهُ
بما بين تدوير وتحريفَة السن
أراد بأن الخط يجري منوّعاً
على حَسَب المكتوب كل على وزن

وقال أيضًا نثرًا: لكل قلم قطّة تخصه. وهذا معنى قول ابن البوَّاب: « ما بين تحريف إلى تدوير» ولو أنه أراد قطّة واحدة بين المحرف والمدور، في جميع الأقلام، لم يكن رمزًا. والعيانُ يَشهد للتأويل، كما بيَّنه»[٤١].

وفي كيفية إمساك القلم عند الكتابة، يقول ابن الوحيد: «لا يُدفَع إلى الجهة اليسرى إلا لَحْم الأصبع الوسطى، كما أن الدِّفع من الشمال إلى اليمين إنما يكون بلحم الإبهام، ومن فوق إلى أسفل بالسّبابة. ويقول في ذلك نظمًا:

تَصرُّفُه بين الثلاث تركّبَت

على خِنْصَرها في الإقامة والظعن

ثم قال: فمن أمسكه فوق ظُفر الأصْبَع الوسطى كان ذلك ضعفا منه»[٤٢].

• نجم الدين بن البُصَيْص

نجم الدين موسى بن علي بن محمد الحلبي، المعروف بابن البُصَيْص، الإمام الكاتب المُجّوِد المتقن، ولد سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، كتب الأقلام السبعة وجوَّدها، يقول الصّفَدي: «شيخ الكُتّاب في زمانه، ونادرة عصره وأوانه، كتب الأقلام كلها، وتفرَّد بكتابة قلم «المزوج» وأتقنه، واخترع قلماً آخر سماه «المُعجِز» أتى فيه بمحاسن إذا أطنب فيه الواصف ظن أنه مُوجز، وكان خطّه كأنه حدائق ذات بهجة، وسطوره من حسنها تُفَدّي بكل مُهْجَة، لو عاينه الوليّ التّبريزي لم يكن له تبريز، أو ابن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م) لاعترف له بالتعجيز»[٤٣].

وكتب على ابن البُصَيْص جماعة من أعلام فن الخط، منهم: الشيخ العلّامة كمال الدين بن الزّملَكَاني (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، والشيخ الإمام بدر الدين الحرّاني المعروف بابن المحدّث (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، والقاضي علاء الدين بن الآمدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، وجماعة آخرون. وكتب ابن البُصَيْص الكثير من الدروج والقطع الخطية، بالإضافة إلى الكتابات على العمائر، ومنها الطراز الذي في الطّارمة بأبواب قلعة دمشق، أيضًا طراز الكتابة في المدرسة الظاهرية الجوانيّة، نسبة إلى الملك الظاهر بيبرس، والكتابة على باب الأمير سيف الدين بَهادُر آص المنصوري، أحد أمراء الألوف بدمشق، وكان يكتب أيضًا نقوش على أشغال المعادن وغيرها، ويُطعّم كل سطر بدرهم، وكان يكتب العديد في اليوم الواحد. كما كتب في آخر عمره خَتْمة بالذهب عوضًا عن الحبر، وتوفي رحمه الله سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م[٤٤].

يقول الصّفَدي شعراً في مدح خطه[٤٥]:

يَشْهدُ لابن البُصَيْص خطّ

يسلب مِمّن يراه عَقْله

بأنّه النَّجْم في عُلاَه

وما رأى مثله ابن مَقْلة

ومن الجدير بالذكر أن ابنه محمد بن موسى له شرح لرائية ابن البوَّاب في علم الكتابة، يقول في مقدمة الشرح:» فإنه قصدني بعض الأصحاب أن أشرح القصيدة التي نظمها الشيخ الإمام العلّامة علاء الدين علي بن هلال المعروف بابن البوَّاب في الخط المَنْسُوب والأمر المطلوب، والحث على هذه الصناعة، فإنها أفضل بضاعة وأحسن العبادة والطاعة، وهي التي تدخرها الملوك في الخزائن والذخائر، وهي أعظم وأنفس من اليواقيت والجواهر، ... وابن البوَّاب هو الذي كتب المَنْسُوب وجميع الأقلام وحررها وبينها وصنف قصيدته المشهورة التي قصدت أن أشرحها»[٤٦].

ثم يستطرد بذكر والده قائلا:» والكتابة تنقسم إلى أقسام عديدة من الأقلام التي كتبها الكُتّاب، فالذي جمعه وحرره الشيخ والدي وذكر في الكتابة، ورتبه على هذا الترتيب ولم يسبق إليه، فقال: الكتابة تنقسم إلى أقسام، من ذلك ما ينقسم إلى أصلين، الأصل الأول: قلم المُحقَّق، وهو أول ما يبدأ به، وذلك لتحقيق حروفه، وهو أن يكون واوه مفتوحة، وكذلك فاؤه وميمه، ومنه يستخرج قلم الرَّيحان. النَّسخ وهو الذي يكتب به الأحاديث النبوية وكتب الفقه وكتب اللغة وغيرها، والأصل الثاني: هو قلم الثُّلث، وهو أصل الكتابة

المنْسُوبة، ومتى أتقنه الكاتب أتقن جميع حروف الكتابة..... ثم إن والدي الشيخ نظر إلى الأصل الأول، وهو قلم المُحقَّق والى الأصل الثاني، وهو قلم الثُّلث فجمعهما فامتزج بعضهما ببعض فسمي قلم الأشعار، وهو القلم السابع، ومنهم من يسميه «المؤنق» فهذه الأقلام السبعة التي جمعها والدي ووضعها ورتبها على هذا الترتيب، ثم إن والدي برع في الكتابة وحذا حذو ابن البوَّاب والوَليّ وأزيد، ولكنهما بالسبق حازا التفضيل، وكتب قلم «المزوج» وتفرد به، وفاق من تقدمه، وإلى زماننا هذا لم يأت من كتب مثله، واخترع قلمًا وسمي «المعجِر والمخلّع»، وجمع فيه سائر الأقلام»[٤٧].

• شهاب الدين غازي

الكاتب المُجوِّد المشهور غازي بن عبد الرحمن ابن أبي محمد، الشهاب الدمشقي، ولد سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، كتب عليه جماعة من الكُتّاب وأبناء الرؤساء وأرباب الآداب، أدرك الوَليّ العجمي، وادّعى أنه كتب عليه، والصحيح أنه كتب على جمال الدين ابن النَّجّار (ت٦٥١هـ/١٢٥٣م)، وأجاد قلم الرِّقَاع، وكان يُكتّب الناس على طريقة الوَليّ العجمي ويستحسنها، ويقول: ما كتب أحد مثله. وكان يجلس بالمدرسة العزيزيّة بدمشق ويكتب فيها، وكتب عليه عامّة من أجاد الخطّ في زمانه، كشمس الدين محمد بن أسد النَّجار (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م) ونجم الدين ابن البُصَيص، وابن الأخلاطي (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، وغيرهم، وإن كان النَّجار قد كتب على محمد بن هبة الله ابن الشِّيرازي (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، وابن البُصَيْص كتب على ابن المهْتار الدمشقي(ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، وابن الأخْلاطي كتب على ابن التِنّبي (ت٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، ولكن أكثر انتفاعهم إنما كان بالشهاب غازي. وكان إمامًا في التوقيف، ومعرفته بالخط أكثر من كتابته باليد، وتوفي رحمه الله سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[٤٨].

• عبد الرحمن الصَّائغ

عبد الرحمن بن يوسف الزين القاهري، ويعرف بابن الصَّائغ وهي حرفة أبيه، شيخ فن الخط على الإطلاق، ولد بالقاهرة سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م ونشأ بها وتعلم الخط المَنْسُوب من الإمام شمس الدين الوسيمي، ولازمه في إتقان خط النَّسخ حتى فاق عليه حسبما صرح به كثيرون، ولكن أحب ابن الصَّائغ طريقة ابن العفيف فسلكها، واستفاد فيها من الزَّفتاوي.

وتصدى ابن الصَّائغ للتكتيب فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى، ونسخ العديد من المصاحف وغيرها من الكتب والقصائد، وصار شيخ الكُتّاب في عصره دون منازع، كما قُرر مُكتَّباً في عدة مدارس، وشهد له الحافظ ابن حجر العسقلاني بكونه الغاية في إتقان فن الخط بمهارته وبراعته، وأثنى عليه في تاريخه، وكانت وفاة ابن الصَّائغ رحمه الله سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م، ويقال أنه أول من اخترع إعطاء الشهادة لمن يستحقها أو الإجازة في الخط، أي أُجيز لصاحبها بتعليم غيره فن الخط، وقد كانت العادة أن الخطاط لا يضع اسمه على القطعة التي كتبها إلا بعد أن يتحصل على الإجازة[٤٩].

يقول محمد بن حسن الطّيبي: «لا أعلم أن أحد من الكُتّاب اتصف بالكامل في علم الكتابة وأشير إليه في الأنام بالاصابة في جميع الأقلام بعد الأستاذ الكبير علي بن هلال الشهير بابن البوَّاب إلا الشيخ الإمام العلّامة وحيد الدهر وفريد العصر ذو الكتابة الرائقة، من حاز قصب السبق في الميدان، ولم يلحق غباره ممن تقدمه ولا من عاصره من الأقران، زين الدين عبد الرحمن المعروف بابن

الصَّائغ رحمه الله تعالى، فإنه نسجها على منهاج لم ينسج أحد على منواله، وحرر أمثلة الحروف فلم يجيء أحد بمثاله، لأنه جمع محاسن الكتابة وحررها، وقسم بياضاتها ونورها، وقسم مقاديرها وناسبها، فضبطه لها أحسن ضبط، فإذا نظرت إلى كتابته شبهتها بالزهر في رياض الجنان، أو بعقود الجواهر في نحور الحسان، فمن مشي على طريقته عد من الكتاب الحسان، ومن مشي على غيرها فهو جاهل لحان، ساقط عن الكتبة مهان، ليس له بينهم قدر ولا شأن»(٥٠).

ويوجد العديد من المصاحف والقصائد التي وصلتنا بخط ابن الصَّائغ والمحفوظة في عدد من مكتبات العالم، منها مصحف تحت رقم (1503) MS بمكتبة تشستربيتي بدبلن-أيرلندا، نسخه سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م، ومصحفان بدار الكتب المصرية، الأول تحت رقم (١١ مصاحف)، جاء بحرد متنه ما نصه «تشرف بكتابة هذا المصحف الكريم العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن ابن الصَّائغ حامدًا الله تعالى على نعمه مؤمنًا به ومصليًا على رسوله سيدنا محمد وآله وصحبه وعشرته الطيبين الطاهرين ومسلمًا تسليمًا كثيرًا. وليعلم الواقف على هذا المصحف الشريف أن الله تعالى أعانني على كتابته بقلم واحد في مدة ستين يوما فما دونها فالله الحمد والمنة، وافا فراغه يوم وفاء النيل المبارك السادس من ذي الحجة الحرام عام احدى وثمانية مائه».

مصحف آخر بدار الكتب المصرية وقف السلطان فرج بن برقوق محفوظ تحت رقم (١٦ مصاحف) بآخره قيد فراغ من كتابته ونصه «كان الفراغ من كتابة هذا المصحف الشريف الجليل المعظم في شهر رمضان المعظم قدره سنة أربع عشرة وثمانمائة، وعمل برسم مولانا السلطان المالك الملك الناصر فرج ابن السلطان الملك الظاهر الشهيد برقوق خلد الله ملكه وأعاد عليه من بركات القرآن العظيم آمين. على يد العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن الصَّائغ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

كما تحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة من قصيدة «البُردة» للإمام البُوصيري بخط ابن الصَّائغ كتبها سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م، تحت رقم (٤٥٥ أدب)، أمر بكتابتها السلطان الأشرف برسباي وجاء في آخرها ما نصه «كتبه العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن الصايغ حامدًا لله على نعمه ومصليًا على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه ومسلما»، لم يقتصر ابن الصَّائغ على الكتابة وتدريس فن الخط، ولكن له مُصنِّف في علم الخط بعنوان «تحفة أولى الألباب في صناعة الخط والكتاب» تناول فيها الموازنة بين الخط واللفظ، وأنواع الخطوط، والأقلام وبريها، ومسك القلم، وهندسة الحروف وأسماؤها(٥١)، كما أخذ الخط على يديه وصار على دربه عدد كبير من الخطاطين المعاصرين له منهم:

• محمد الشمس بن سعد الدين

كان أبوه خازنًا لكتب الخانقاة الشيخونية، أخذ الكتابة عن ابن الصَّائغ، وتصدى لتعليمها في الجامع الأزهر، وتوفي رحمه الله سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٨م(٥٢).

• إبراهيم بن يوسف بن عيسى الفَرْنوي ثم القاهري

كان ممن كتب على الصَّائغ، وبرع في الكتابة وتصدى للتكسب فانتفع به عدد كبير من الناس، منهم ابن أخيه محمد بن علي الفَرنوي، وياسين الجلالي، والجلال عبد الله الهيثمي، ويحيى بن

يشبك الفقيه، وكان خيّرا مُباركًا في تعليمه للخط، وتوفي سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م[٥٣].

• محمد بن حسن النواجي القاهري الشافعي، الشاعر المشهور

وينسب لنواج بالغربية من دلتا مصر، ولد بالقاهرة بعد سنة ٧٨٥هـ/١٣٥٦م، حفظ القرآن وجوده، وسمع الحديث على ابن حجر العسقلاني، والولي العراقي (ت٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م) وكتب عنه أماليه وحضر دروسه، وأخذ الخط عن ابن الصائغ، وكان حسن الكتابة، جيد الضبط، متقن فيما يقيده بخطه، كتب لنفسه الكثير، وكذا لغيره، وكان سريع الكتابة، يروى أنه كتب صفحة في نصف الشامي في مسطرة سبعة عشر بمدة واحدة، وكان النواجي بارعًا في الأدب، حتى فاق أهل عصره، ومن مصنَّفاته الأدبية «صحائف الحسنات في وصف الخال» و «روضة المجالسة في بديع المجانسة» و«مراتع الغزلان في وصف الحسان من الغلمان» و «حلبة الكميت»، وتوفي النواجي سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م[٥٤].

• محمد بن أبي بكر شمس الدين الصندلي ثم القاهري المالكي

كتب نحو خمسمائة مصحف، ومن نُسّخ «صحيح البخاري» الكثير، وكذا من كتاب «البحر المحيط» لأبي حيّان، وتصدى لتعليم الكتابة فانتفع به جماعة وتوفي قبل سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م[٥٥].

• محمد بن إسماعيل الشمس بن الشهاب الكجكاوي العينتابي الأصل القاهري

اشتهر ذكره بشرف النفس والتصميم في الحق وعدم المُحاباة وترك قبول الهدية، وشارك في العديد من الفنون، كتب بخطه الكثير لنفسه، ولغيره من كتب العلم وغيرها، وكتب أكثر من رَبْعة ومصحف، ووقف بعضها قصدًا للثواب، بل أهدى لكل من السلطان الأشرف قايتباي، والأمير جانبك الدَّوَادَار[٥٦] ويشبك الدَّوَادَار وغيرهم رَبْعة، وامتنع من قبول ما يثيبونه في مقابل ذلك وهو شيء كثيرا للغاية. وكتب ربع القرآن وضبطه في ليلة واحدة لاضطراره لذلك في الارتفاق بثمنه في ملاقاة شيخه في الحج، وتوفي رحمه الله سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م[٥٧].

• شعبان الآثاري

الأديب الشاعر زين الدِّين شعبان بن محمد بن داود الموصلي الأصل، المعروف بالآثاري، ولُقب بالآثاري لإقامته في أماكن الآثار النبوية، وهم جماعة كثيرون منسوبون إلى خدمة الآثار النبوية أو إلى الإقامة بالمحل التي هي فيه. ولد الآثاري بالقاهرة سنة ٧٦٥هـ/١٣٥٥م، وتولى حِسبة الفسطاط سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م في زمن الملك الظاهر برقوق. أخذ الآثاري الخط عن شمس الدين الزِّفتاوي، وبرع فيه، وصار رأس من كتب عليه وأجازه فصار يُكتّب الناس، من شيوخه أيضًا المُحتسب نور الدين الطَّنبذي، والعلّامة شمس الدين الغُماري (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م)، وله العديد من التصانيف الأدبية تزيد على الثلاثين غالبها منظومات، وألفيته في النحو بعنوان «كفاية الغلام في إعراب الكلام»، وعمل أرجوزة في النحو أيضًا سماها «الحلاوة السكرية» وأخرى سماها «عنان العربية» وأخرى في العروض سماها «الوجه الجميل في علم الخليل»، وأخرى في علم الكتابة وهي الشهيرة « العِناية الربَّانية في الطريقة الشَّعبانية»، وديوان في النبويات سماه «المنهل العذب»، وتوفي الآثاري سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م[٥٨].

ويذكر القلقشندي في «صُبح الأعشى» آراء

الآثاري في الخط والقلم وينعته دائمًا بصاحبنُا الشيخ زين الدين شعبان الآثاري، بقوله: «ونظم في صنعة الخط ألفية وسمها «بالعِناية الربّانية في الطريقة الشَّعبانية» لم يُسَبق إلى مثلها»[٥٩]. ثم يورد بعضًا من أقواله في الخط، كتناسب الحروف ومقاديرها في كل قلم فيقول: «واعلم أن صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثاري في ألفيته قد جعل طول الألف سبْعَ نقط من كل قلم، ومقتضاه أن يكون العرض سُبُع الطول، ثم قال: إن ما زاد عن ذلك فهو زائد في الطول، وما كان ناقصًا عن ذلك فهو ناقص، وعلى ذلك تختلف المقادير المقدّرة بالألف من الحروف بنقص قدر الثمن من الطول، فالألف واللام قَدّر سواء في كل خط، وكذلك الباء وأختاها، والجيم وأختاها، والعين والغين قدر سواء، والنون والصاد، والضاد، والسين، والشين، والقاف، والياء المُعرّقة[٦٠] قدر سواء، والراء، والزاي، والميم، والواو قدر سواء. قال: وكل عراقة بدأت بها في كل خط ما فعلى مثلها يكون انتهاؤها، ثم قال: فتفهّم هذا القدر فإنه كثيرا ما يختلط على الكُتّاب الحُذَّاق»[٦١].

يقول شعبان الآثاري في مقدمة ألفيته وسبب نظمها[٦٢]:

فجاءني من لا أطيقُ ردَّه ... يسألني وضع الأصول بَعْده

على طريق للخطوط جامعه ... وللكرام الكاتبين نافعة

فجئتُه بهذه الألفيَّة ... على أُصول أُتقِنت مبنيَّة

تعين في الأوضاع كُلَّ طالب ... مُوقَّع أو ناسخ أو كاتب

قد ضُمِّنت أحكام علم الخطّ ... والشَّكل ثم البَرْي ثم القَطِّ

كما يذكر الآثاري في نهاية ألفيته شيخه الزَّفتاوي وسلسلة إسناده في الخط بقوله[٦٣]:

هذا الذي سعيتُ في تحصيله ... والحمد لله على تكميله

وللإمام الكاتب الزَّفتاوي ... شيخي وكلّ طالب وراوي

هذه طريق السبعة الأقلام ... عني وعن أئمّة أعلام

وسندي فيها إلى ابن مُقلة ... أذكُره لمن يروم نقله

أخذتها عن شيخنا محمد ... ابن علي وهو فيها يقتدي

عن شيخه المحتسب الشعباني ... ابن أبي رُقيبة المهراني

عن العماد بن العفيف عن أبيه ... عن الوّلي العجمي عن النبيه

يَاقُوت المُستَعصمي العمدة ... عن زينب ولُقّبت بُشهدة

عن الإمام الإبريّ عن علي ... عن المحمَّدين عن أبي علي

محمد وهو الوزير البادي ... في الخط بالتقريب للعباد

على الجميع سابغات الرحمة ... من ربهم وسابلات النعمة

• ناصر الدين القَرنْدلِي

محمد بن بَكتُوت الظاهري، الكاتب المُجّود المعروف بالقَرنْدلي، شجعه على الكتابة القاضي جمال الدين أبو الربيع سليمان بن ريّان (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)، فإنه رأى خطه فلازمه وجعل ينسخ له المجلدات، فنسخ له «الكشاف» وغيره، ورتّب له الطعام وخصص له أجرا، وألزمه بالكتابة فأجاد وكتب المَنْسُوب في الأقلام السبع وأتقنها، وكتّب أولاده وأقاربه، وبرع منهم القاضي بهاء الدين بن ريّان، وكان ناصر الدين يدعي أنه كتب على شرف الدين بن الوحيد، ولم يكن لذلك صحة، لكنه كتب صغيرًا على خطيب بعلبك أبي بهاء الدين محمود الكاتب، ثم قويت يده في الكتابة بعد ذلك، فقارب النهاية في الحسن. ويروي أنه كان يضع المحبرة في يده الشمال والمُجلّد من «الكشاف» على زنده ويكتب منه وهو يغني ويكتب ولا يغلط، وكتب بن بَكُتوت الكثير من المجلدات والرّبْعات والخِتَم بخط المُحقَّق الكبير، في قطع الورق البغدادي كاملاً، ويذكر الصّفَدي أنه كتب عليه أربعة عشر سطرًا قلم الرِّقَاع، وكانت وفاته سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، ودفن بطرابلس الشام(٦٤).

• ناصر الدين الرَّملي

محمد بن محمد بن محمد الرَّملي، ناصر الدين المُجوّد، وصاحب الخط المَنْسُوب، أخذ الخط على ناصر الدين القَرنْدلي، وكَتَب الناس عليه دهرًا طويلاً، فكتب عليه بدر الدين بن قليج العلائي، وابن عمه أبو الخير ببيت المقدس، ثم انتقل إلى الشام فأقام بها مدة كبيرة، ثم رحل إلى القدس فأقام بها، وكان أكثر إقامته بالقدس، وكتب بخطه عدد كبيرا من المصاحف وغيرها، وتوفي رحمه الله سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، وقد جاوز الثمانين(٦٥).

• خطّاب بن عمر الدّنْجَاوي

خطّاب بن عمر الدَنجيهي أو الدّنْجَاوي(٦٦) ثم القاهري، الأزهري الشافعي، حفظ القرآن وجوّد الكتابة على ياسين الجلالي، والشمس بن الحمصاني، والجمال الهيتي، ومن قبلهم على ابن سعد الدين، وكتب بخطه أكثر من خمسين مصحفًا، وصار أحد الكُتّاب ممن استكتبه العديد من الأمراء المماليك منهم الأمير يشبك الدَّوَادَار القاموس، وجاني بك أمير آخور كبير وغيره، بل والسلطان قايتباي في عدة مصاحف، وكان من وظائف خطّاب بن عمر أيضًا التصدر للتكتيب بالجامع الأُزبكي مع قراءة مصحف فيه، وكذا قراءة البخاري وقراءة مصحف بتربة السلطان قايتباي بقرافة المماليك، وكان له أيضًا تعلقًا بالأدب، وتوفي رحمه الله سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م. يقول عنه الشاعر الشهاب المنصوري(٦٧):

بذي التهذيب خطّاب تسامت
صحايف زانها خطّا وضبطا
فلو نطق الطُروس لفضّلته
وقال أجود الكُتاب خطّا

ومن مصاحف خطّاب بن عمر بدار الكتب المصرية مصحف تحت رقم (١٢٦ مصاحف) جاء بحرّد متنه ما نصه» كتبه خطاب بن عمر الدنجاوي سنة تسع وثمانين وثمانمائة من الهجرة النبوية» والمصحف وقف السلطان الأشرف قايتباي كما جاء في أوله «وقف هذا المصحف الشريف مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباي نصره الله تعالى وجعل مقره بجامعه الأشرفي الكائن بخط الكبش بتاريخ التاسع عشر من شهر الله المحرم الحرام سنة تسعين وثمانمائة»، مصحف آخر تحت

رقم (٥٥ مصاحف) كتبه للأمير جانبك السيفي بنهايته توقيع الشيخ خطّاب ونصه « كتب هذا المصحف الشريف برسم المقر الأشرفي الكريم العالي المولوي الأميري الكبيري السيفي جاني بك أمير آخور كبير الملك الأشرفي عز نصره خطاب بن عمر الدنجاوي حامدا لله تعالى سنة ٨٧٩هـ».

كما أرسل السلطان قايتباي سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م مع المقصورة التي عملها للحجرة النبوية الشريفة مصحفًا كبيرًا حُمل على جمل بمفرده، وكان من النوادر، كتبه شاهين الرومي النوري، ومات ولم يكمله فأكمله الشيخ خطّاب بأمر السلطان، ويذكر ابن إياس أنه باق إلى الآن في الحجرة الشريفة[٦٨].

• جَوَاد بن سليمان

جَوَاد بن سليمان بن غالب بن مَعْن، والملقب بعز الدين بن أمير الغرب، نسبة إلى جبال الغرب ببيروت، وينتهي نسبه إلى النعمان بن المنذر، ولد سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م، أتقن الخط المَنْسُوب، والأقلام السبعة، وبلغ فيها المنتهى، وأشهر من برع في الكتابة الدقيقة، أو الكتابة بقلم الغُبَار[٦٩]، وكتب جَوَاد المصاحف والهياكل المدورة، وأتى في ذلك بالعجائب، وكان من أتقن الناس للصنائع، برع في جميع ما يعمله بيده من الكتابة المنّوعة المنْسُوبة التي هي غاية إلى الصياغة، يقول الصّفَدي: وأما عمل النَشَّاب فكان سَهمُه فيه وافرا، وسَعْدُه في عمله وإفراده متضافرًا، وأما القّصّ فهو فيه غريب القصّة، ولم ينس له فيه حصّة، أما الكتابة فكان فيها غاية، يكتب من الطومار إلى قلم الغُبَار، ويعمل النجارة الدق، والتطعيم، والخياطة، والتطريز، والزّركش، والبيطرة، والحدادة، ونقش الفولاذ. ومدّ قوسًا بين يدي الأمير سيف الدين تَنْكِز زنته مئة وثلاثة وعشرون رطلًا، وكتب مصحفًا مضبوطًا مشكولاً يُقرأ في الليل، وزن ورقه سبعة دراهم ورُبع، وجِلده خمسة دراهم، وكتب آية الكُرسي على أرْزّة، وعمل زرّ قُبّع[٧٠] لابن الأمير سيف الدين تَنْكِز اثنتي عشرة قطعة، وزنه ثلاثة دراهم، يُفكّ ويُركَّب بغير مفتاح، وكتب عليه خَفرًا مُجري بسواد سورة الإخلاص والمعوذتين والفاتحة وآية الكرسي وغير ذلك، يُقرأ عليه وهو مركّب، ومن داخله أسماء الله الحُسنى لا يبين منها حرف واحد إلى حين يُفكّ، وجعل لمن يفكّه ويركِّبُه مائة درهم، فلم يوجد من يُحسن ذلك. وأما عمل الخواتيم ونقشها وتحريرها وإجراء المينا عليها وطِلاها فأمر باهر مُعجِز لا يلحقه فيه أحد، ولا في إتقانها، فلم أرى من أتقن ذلك مثله ولا قاربه، ورأيت لاميّة العجم وقد كتبها قصّاً للأمير تنكز وهي في غاية الحسن»[٧١]، وتوفي رحمه الله سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م.

• بدر الدين بن المحدّث

الشيخ الإمـام الحسن بن علي بن محمد بن عدنان بن شجاع، بدر الدين الحرّاني، المعروف بابن المحدّث المُجوّد، كتب على الشيخ نجم الدين ابن البُصَيص، فيقال: إنه ما ظهر من تلاميذه في حُسن الكتابة مثل بدر الدين، ومثل الشيخ كمال الدين محمد بن علي بن الزملكاني، وكـان ابن المحدث أديبًا فاضلاً في فنه، ينظم وينثر، كتب عليه الكثير من أهل دمشق، وفرّغ نفسه لتعليم فن الخط، وقنع ورضي بذلك، وله كُتَّاب خـارج باب الجابية بدمشق، وكان الأمير الأفـرم المنصوري نائب السلطنة في الشام قد أمره أن يدخل ديوان الإنشاء، فرفض الشيخ بدر الدين وقـال: أنـا إذا دخلت بين المُوقّعين ما يُرتَّب لي أكثر من خمسة دراهـم في كل يوم، وما يجلسونني فوق أحـد من بني فضل الله، ولا فوق بن القلانسي، فما أكون إلا دون هؤلاء، ولو تكلمت قالوا: واحد كان فقيه كُتَّاب، يريد أن يجلس فوق السّادة المُوقّعين، وهذا أنا كل

يوم يحصل لي من التكتيب الثلاثون درهمًا والأكثر والأقل، وأنا كبير هذه الصَّناعة، وأتحكّم في أولاد الرؤساء[٧٢]. ونظم في ذلك قائلاً[٧٣]:

غـدوت بـتـعـلـيـم الـصِّـغـار مُـؤجَّـرا

وحولي من الغلمان ذو الأصْل والفَصْل

يـقـبِّـل كـفِّـي مـنـهـم كـلُّ سـاعـة

ويُـعـطـونـنـي شـيـئـاً أعـمُّ بـه أهْـلـي

يقول الصّفَدي: «واجتمعت به غير مرة وأخذت من فوائده، وكان له مكتب خارج باب الجابية بدمشق، ويكتّب أولاد الرؤساء في المدرسة الأمينية بجوار الجامع الأموي، وله شعر كثير، وخمّس لاميّة العجم»[٧٤]. وتوفي رحمه الله سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م.

• عماد الدين بن الزمُكحُلِ

إسماعيل بن عبد الله المعروف بابن الزمُكحُلِ، أحد أعلام الكتابة الدقيقة والخط المَنْسُوب، وأعجوبة زمنه في كتابة قلم الغُبَار، مع أنه لا يطمس واوًا ولا ميمًا، فكان يكتب آية الكرسي على أرُزّة، وكذلك سورة الإخلاص كتابة بيّنة تُقرأ بتمامها وكمالها لا ينطمس منها حرف واحد، وكان له بدائع في فن الكتابة، وكتب ما لا يحصى من المصاحف الحمائلية، وتوفي رحمه الله سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م[٧٥].

• إبراهيم بن عثمان الرَّقّي

إبراهيم بن أحمد بن عثمان بن أبي المعالي البرهان أبو إسحاق، الدمشقي الأصل، القاهري الشافعي المُوقَّع[٧٦]، ويعرف بالرَّقّي نسبة لمدينة الرقّة بسورية، ولد الرَّقّي في القاهرة ونشأ بها، وحفظ القرآن، و«العُمدة»، و«التنبيه» و«ألفية النحو»، وعرض على الإمام جلال الدين البلقيني (ت٨٢٤هـ/١٤٢١م)، والوَليّ العراقي، وشمس الدين بن الجزري (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م) وأجازوه، وجوّد الخط على عبد الرحمن الصَّائغ وبرع فيه، بحيث أجازه بالأقلام كلها، وعمل في توقيع الدَّست، وحج مراراً وجاور غير مرة، ونسخ هناك عدة مصاحف، وزار القدس والخليل وسمع هناك على التقي أبي بكر القلقشندي (ت٨٦٧هـ/١٤٦٢م)، والجمال بن جماعة، يقول السَّخاوي: «كان حسن العشرة كثير السكون، فيه رئاسة وحشمة وتواضع، ولأوصافه التي انفرد بها صار أوحد أهل الديوان، وسافر إلى مكة وتوفي هناك ودفن بالمعلاة سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م»[٧٧].

ومن المصاحف المخطوطة التي وصلتنا بخط إبراهيم الرَّقّي، مصحف تحت رقم (٩٤ مصاحف) دار الكتب المصرية، بأوله وقفية باسم السلطان الأشرف برسباي نصها «وقف هذا المصحف الشريف مولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر برسباي، على طلبة العلم الشريف وجعل مقره خزانة كتب مدرسته التي أنشأها بخط الحريرين بالقاهرة المحروسة» وجاء بآخر المصحف توقيع إبراهيم الرَّقّي وتاريخ كتابته ونصه «تشرف بكتابة هذا المُصحف المَعظَّم المُكرّم العبد الفقير إلى رحمه ربه القدير المعترف بالتقصير إبراهيم بن أحمد بن عثمان الرَّقّي المُوقَّع بالأبواب الشريفة عفا الله تعالى عنه ووافق الفراغ من كتابته يوم الجمعة المبارك ثالث عشر ربيع الأول سنة ثلاثين وثمانمائة».

• غَازِي بن قُطْلوبُغا

غَازِي بن قُطْلوبُغا التُّركي، شرف الدين، شيخ الكُتّاب المُجوِّدين بالقاهرة، وأحد أجناد الحلقة بمصر، جوَّد الخط على شمس الدين بن أبي رُقَيبة، ثم نبغ في زمانه وخالفه في طريقته، وانتهت إليه الرئاسة في الخط المَنْسُوب، وانتشر خطه

في الآفاق، واخترع طريقة مولَّدة من طريقة ابن العفيف وابن خطيب بَعلَبكّ ومهر فيها، وتصدى لتعليم الناس احتسابًا بمدرسة الظاهر بيبرس بين القصرين، وتوفي بالقاهرة رحمه الله سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م[٧٨].

• ياسين الجلالي

ياسين بن محمد بن مخلوف بن أبي القسم محمد الجلالي، القاهري الحنفي، ويعرف بياسين المُكتّب، ولد سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م بجلالة من الصعيد جنوب مصر، ثم قدم القاهرة وهو صغير، فحفظ القرآن و«العُمدَة»[٧٩]، و«القُدوري» في الفقه الحنفي[٨٠]، وكتب على إبراهيم الفرنوي (ت٨٧٥هـ/١٤٧٠م) وفاق في خط النَّسخ، وبرع فيما عداه، وتصدى لتعليم الخط، وممن كتب عليه الأمير جانم مملوك جانبك الجداوي الخازنداري فقربه من أستاذه وصار يؤم به، وحج وجاور، وممن كتب عليه حينئذ الفخري أبو بكر بن ظهيرة، واستقر ياسين الجلالي في تدريس الخط في المدرسة الجيعانية، ومدرسة الأشرف برسباي وغيرهما[٨١]. وممن كتب عليه أيضًا الخطاط شاهين الرومي النُّوري الإنباني نائب كاتب السر، وكان قد جوّد الكتابة أولا البرهان الفرنوي ثم الشيخ ياسين بعد ذلك وبرع فيها، وكتب عدة مصاحف وغيرها وقدم بعضها للسلطان الأشرف قايتباي[٨٢].

• محمد بن المُهْتار الصّفَدي

محمد بن علي بن المُهْتار أمين الدين الصّفَدي، وكان يُعرف عند بعض الناس بدَوريش، الكاتب المُجوّد، كتب المَنْسُوب الفائق، وفاق كُتّاب العصر يقول عنه الصّفَدي: «لم أر ولا غيري مثل الصَّفاء الذي كان في خَطّه في سائر الأقلام، والقوة التي يشهد بها أرباب العلوم والأعلام، والتحرير الذي لم تشاهد العيون مثله في اليقظة والأحلام»[٨٣]. نشأ محمد بن المُهْتار بصفد وكان يكتب خطًا قويًّا إلى الغاية، لكن خَطّه في هذا الوقت غير مَنْسُوب، فرحل إلى دمشق، ونزل عند الشيخ العلّامة كمال الدين بن الزّملكاني بوّابًا في المدرسة الرواحيّة، فحنا عليه لحسن كتابته، وكتب على الأشياخ المُجوّدين، ومهر، ثم عاد إلى صفد وأقام قليلاً، ثم توجه إلى بغداد، وكتب هناك على طريقة يَاقُوت المُستَعصِمي، وجوَّد النَّسخ الفَضَّاح، ثم قدم القاهرة سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م. وقد اتّصل بالقاضي الرئيس ضياء الدين بن الخطيب، وقد أحبّه، فجعله نائبه في الفروع من الحسبة، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م [٨٤].

• نور الدين البدماصي

علي بن عبد الرحمن نور الدين البدماصي القاهري، الكاتب المُجّود، كتب الخطَّ المَنْسُوب، وعرف صناعة الوراقة، كما كان يتكسَّب بتحمل الشهادة في حوانيت الشُّهود، وجاور بمكة سنين، يقول عنه المقريزي: «وعَرفتُه بمكة أيام مجاورتي بها، ثم عاد البدماصي إلى القاهرة وعلَّم الناس الخط المَنْسُوب، فجاد به جماعة حتى وفاته سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، ونِعم الرجل كان»[٨٥].

• ابن خطيب بَعْلَبَكّ

محمود بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهاب السُّلَمي، الشيخ بهاء الدين، المعروف بابن خطيب بَعْلَبَكّ، الكاتب المُجوّد المتقن المُحرر، ولد سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، وعني بالخط فجوده إلى الغاية، وكان يخطب جيدًا بنغمة حسنة، وكان محبوبًا لكرم أخلاقه وعفّته، وكتب عليه جماعة من أولاد الأعيان من أهل دمشق وغيرهم، وبرع في الكتابة منهم عدد كبير، وتوفي رحمه الله بمنزله

بدمشق سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م، ودفن بمدرسة الشيخ أبي عمر بالصالحية، يقول الصّفَدي في مدح خطه: «كان فردًا في زمانه، وندرة في أوانه. كاتب أين الرّياض من حروفه القاعدة، والعقود من سطوره التي تبيت العيون في محاسنها ساهدة، كم روَّض قلُمه طرسًا، وجلاً على الأبصار عرسًا، وخضع له الكُتّاب، فلا تسمع إلا همسًا، ألفاته أحسَنُ اعتدالاً من القدود الرشيقة، ولاماته أظرف انعطافًا من الأصداغ المسوّدة على الخدود الشريقة، وعيّناته أسحر من العيون الدُّعّج، ونوناته أسلب للقلب من الحواجب البُلّج»[٨٦].

ووُصف خطه عند الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب الشام، فأحضره وأمره أن يكتب له نسخة من «صحيح البخاري»، فاعتذر له بأنه مشغول بتعليم أولاد الناس، فقال: أنا أصبر عليك، فأعطاه الورق والأجرة وأغفله مدة تزيد على سنة، ثم طلبه فأحضر له منه مجلدًا، فرماه في الأرض وضربه ضربًا كثيرًا، ودفع إليه المُجلَّد، يقول الصّفَدي أنه رأي المُجلَّد في بَعْلبَكّ وهو نسخ عجيب إلى الغاية، ويقول ابن حجر العسقلاني:» رأيته بخطه نسخة كاملة في ثلاث مجلدات، وهي باسم تَنْكِز وقابلها المزِّي بقراءة ابن كثير وهي أعجوبة في الحسن والصحة. فكأنه أكمل المجلد المذكور»[٨٧].

وينظم الصّفَدي في خط ابن خطيب بَعْلبَكّ قائلاً[٨٨]:

إن ابنَ الخطيب وابنَ هلالٍ

ليسَ ذا مثل ذا على كلِّ حالِ

أيُّ نون أمسكت من خطِّ هذا

فهي من حُسنِها بألف هِلال

• محمد الزَّيْلعِي

محمد الزَّيْلعِي شمس الدين، الكاتب المُجوّد، كان بارعًا في الخط المَنْسُوب، وبالميقات، تعلَّم الناس منه، وأخذ عنه غالب أهل بلاد الشام، وانتهت إليه رئاسة فن الخط في دمشق، وكان ماهرًا أيضًا في معرفة الأعشاب، أخذ ذلك عن ابن القماح، وكان يقول إنه أفضل منه في ذلك، وتوفي رحمه الله سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م[٨٩].

وممن كتب على الزَّيْلعِي الكاتب المُجوّد محمد ابن محمد الشمس الجّشي الدمشقي، كان بارعًا في كتابته وتميز وكتب مصاحف كثيرة جدًا وغير ذلك، وتصدى للتكتيب وانتفع به غالب الشاميين، وكان صالحًا خيرًا، وتوفي سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٨م[٩٠].

• فخر الدين السنباطّي

محمد بن عثمان بن يوسف، فخر الدين السنباطّي، الحنفي، سمع من الحافظ شرف الدين الدمياطي (ت٧٠٥هـ/١٣٠٥م)، وحدّث عنه، كما حدّث عن الشيخ عبد العزيز الديريني (ت٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، وقال الشعر الجيد، وكتب الخط المَنْسُوب، وكان إمامًا في معرفته، وجوّد عليه الكثير من الناس، وعدد من أمراء المماليك، وتوفي سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، وكان رحمه الله شريف النفس، عازفًا عن الدنيا[٩١].

• جمال الدين الدمشقي

عمر بن محمد بن عثمان الدمشقي، جمال الدين، الشيخ الإمام المُجوِّد المحرِّر المتقن شيخ الكتابة والتجويد في عصره، يقول عنه الصّفَدي: « فريد الكتابة لا ابن البُصَيص ولا ابن الوحيد. كتب الناس عليه بمصر والشام، وتخرَّج به جماعة من أولاد الأعيان والأعلام. ورُزق في مصر الحظوة، ولم يتقدم لأحد معه خطوة. وعاد إلى دمشق وأقام

بها حتى وفاته رحمه الله سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م. وحصَّل من تجويد الخط آلاف من الذهب المصري، ولو شاء كانت دنانيره على حروفها تجري، وكتب مجلدات بخطه الفائق»[٩٢]. وكان يكتب بالقاهرة في مدرسة الظاهر بيبرس في بين القصرين، وكان يعلم الخط لأحمد بن الأمير سيف الدين بَكتمُر الساقي كل شهر بمائتي درهم، وكل مسّودة يأخذ عليها جملة من المال، وكان يقول: أخذت من الكتابة خمسة آلاف دينار مصرية[٩٣]، ولما سمع الصّفَدي هذا الكلام أنشد قائلا[٩٤]:

احرِصْ على الخَطِّ فلابُدَّ من
حظٍّ يَفوقُ المُكثِرَ المثري
هذا الدِّمَشقيُّ بأقْلامِهِ
أصابَ كَنْزَ الذَّهبِ المصري.

• محمد بن الشمس السُّهَيلي

محمد بن علي بن زكريا الشمس السُّهَيلي الأصل القاهري، حفظ القرآن وقرأ في الجوق، وجوّد الكتابة على علي بن محمد مشيمش، والجمال الهيتي، وتميز في خط النَّسخ وغيره، وكتب الكثير، وكان بارعًا أيضًا في التذهيب، وغسل اللازورد، ومما كتبه للدوادار يشبك من مهدي تفسير الإمام الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) في مجلد، وكان باسمه بالقلعة طبقة من طِباق القاعة، فكان بها من المماليك يودعون عنده، وتحصل من تعليمهم نحو ألفي دينار[٩٥].

وتحتفظ دار الكتب المصرية بمصحف بخط مملوك من تلاميذ الشمس السُّهَيلي محفوظ تحت رقم (١٤٣ مصاحف) بآخره توقيع الخطاط ونصه «خدمة المملوك كرتباي من أقباي من طبقة المقدم تلميذ الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي السُّهَيلي في سنة تسع وسبعين وثمانمائة».

• جمال الدين الهيتي

عبد الله بن علي بن عبد الله بن محمد جمال الدين الهيتي ثم القاهري الأزهري الشافعي الكاتب، اعتنى بالكتابة فأخذها عن الزين عبد الرحمن الصَّائغ، والبرهان الفرنوي وغيرهما، وتميز فيها، وكان مرجعًا في رسمها منفردًا بطرائقها، وصنف في رسومها رسالة، وكان شيخًا خيرًا مُحتسبًا بتعليمه، وتوفي رحمه الله سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م[٩٦]. ومُصنّف الهيتي في الخط والقلم بعنوان «العُمدَة» يقول في مقدمته: «فقد سألني بعد إخواني وأصحابي وأحبابي من طالبي علم الكتابة أن أكتب لهم مقدمة في أصول علم الكتابة، فتوقفت في ذلك لعلمي أني لست أهلاً لذلك، ثم عاودوني فأجبتهم لما سألوا في ذلك، وسميتها «العُمدة» لنطلب من الله قربه»[٩٧]. وتضمنت الرسالة عدة أبواب منها: باب في معرفة القلم واختيار السكين التي تصلح للبري، وكيفية إمساك القلم حين الكتابة وغير ذلك، وباب في أصول المفردات، منها الكلام على المفردات الأولى في أصول المُحقَّق وغيرها.

• موسى بن إسماعيل الكناني

موسى بن إسماعيل بن أحمد الشريف الكناني الججّيني، الدمشقي الحنفي، ولد تقريبًا سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م، وسمع من لفظ الحافظ الكبير شمس الدين أبو بكر الشهير بالمحب الصامت (ت٧٨٩هـ/١٣٨٧م) الجزء الثاني من «الثقفيات»، وحدّث وسمع منه الفضلاء، وكتب الخط المَنْسُوب، بل كان شيخ الكُتّاب بدمشق، وتوفي رحمه الله سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م[٩٨]. وتحتفظ دار الكتب المصرية بمصحف بخط موسى الكناني، محفوظ تحت رقم (١٧ مصاحف) انتهى من كتابته سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م، وأوله وقف باسم السلطان أبو النصر المؤيد شيخ على طلبة العلم

الشريف بالجامع المؤيدي بباب زويلة. وبآخره توقيع الججّيني ونصه «كتب هذه الخَتْمة الشريفة المعظمة المكرمة موسى بن إسماعيل الكناني الحنفي الشهير بالججّيني حامدا لله تعالى على نعمه ومصليًا على نبيه وآله وصحبه وسلم وذلك في ثاني شعبان سنة عشرين وثمانمائة».

• علي بن محمد عُصفور

علي بن محمد بن عبد النصير العلاء السَّخاوي الأصل الدمشقي ثم المصري، الكاتب المُجوّد ويُلقَّب «بعُصفور»، كان كاتبًا مجيدًا بارعًا بسائر الأقلام، أخذ الخط على الزين محمد بن الحراني ناظر الأوقاف بدمشق، ودخل حلب فاجتمع به ابن خطيب الناصرية (ت٨٤٣هـ/١٤٣٩م)، وقال: «إنه كان حسنًا عاقلاً ديِّنًا، وقد أقام بالقاهرة وعمل في توقيع الدَّست، ووقَّع عن جماعة من أكابر الأمراء، وهو الذي كتب العهد للسلطان الناصر فرج بن برقوق بسلطنته الثانية عوضا عن أخيه عبد العزيز سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م»[٩٩]. وتوفي بعد ذلك سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م. وقال فيه بعضُ أدباء العصر بعد وفاته[١٠٠]:

قد نسخ الكتاب من بَعده
عصفورُ لمَّا طار للخُلد
مذْ كتب العهد قضى نَحْبَه
وكان منه آخر العهد

يقول عنه ابن حجر العسقلاني: «كتب عليه جماعة من الأعيان وانتفعوا به، وكان يكتب على طريقة يَاقُوت المُستَعصِمي، وكان شيخنا الزَّفتاوي صديقه ويكتب على طريقة ابن العفيف، وكان بارعًا في كتابة الخط المَنْسُوب على طريقة الشاميين، ووُلّي توقيع الدَّست، فكان بعضهم يقول: «ضاع عُصفور في الدَّست»[١٠١].

• عمر بن عثمان الجعفري

عمر بن عثمان بن مؤمن بن دارم بن يحيى بن هرماس الشريف الجعفري، شريف الدين، خطيب جامع التوبة بالعقيبة بدمشق، ولد بعد سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، أجاز له أحمد بن إدريس بن مزير، ونخوة بنت محمد النصيبي (ت٧١٩هـ/١٣١٩م)، وغيرهما، وسمع من «أسماء ابنة صصري» (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) وغيرها، وكتب الخط الحسن المَنْسُوب، وبرع فيه إلى الغاية، وكان جيد الخطابة فولي خطابة جامع التوبة مدة طويلة، كما تولى التدريس بالمدرسة الخاتونيَّة، يقول ابن كثير: «وكان من أماثل الناس، وقد درّس وأفتى وقرأ الحديث قراءة حسنة، وتوفي رحمه الله سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م»[١٠٢]. وتقتني مكتبة البودليان بجامعة أوكسفورد بمصحف بخط عمر بن عثمان الجعفري، محفوظ تحت رقم (Canon Or 123) ومؤرخ بسنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م.

• عبد الله بن حجاج البَرَماوي

عبد الله بن حجاج بن أحمد بن موسى البَرَماوي القاهرة، المُكتّب، ويعرف بابن حجاج، أخذ الخط على نور الدين الوسيمي وغيره، وبرع وتصدى لتعليم الكتابة، وكتب درجاً قرضه له الحافظ ابن حجر العسقلاني ولغيره أيضًا، وتوفي حوالي سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م[١٠٣]، وتحتفظ دار الكتب المصرية بمصحف بخط عبد الله بن حجاج، محفوظ تحت رقم (٤٥٨ مصاحف) بنهايته توقيع البَرَماوي، ونصه «من كتابة عبد الله بن حجاج البَرَماوي غفر الله له ولوالديه ولكل المسلمين أجمعين».

• محمد بن حسن الطّيبي

محمد بن الحسن بن محمد بن أحمد بن عمر الطّيبي الشافعي، والطّيبي نسبة لطيبة نشا

بدلتا مصر، أحد أعلام الخطاطين في أواخر العصر المملوكي، يقول الطّيبي عن شيوخه في فن الخط: «فنحمد الله الذي وفقنا لأخذ هذه الصناعة من الأستاذين العارفين بها كالعلّامة الجناب العالي الناصري محمد بن كزل العيساوي نائب ثغر دمياط، كان رفيق العلّامة الشيخ عبد الرحمن الصَّائغ، على العلّامة الشيخ شمس الدين الوسيمي، والعلّامة مُحرر هذه الصناعة ووازنها الشيخ جمال الدين الهيتي تغمدهم الله برحمته. وعلى أربعة من المشايخ غير هذين كلهم مضوا إلا واحد وهو الشيخ ياسين الجلالي»[١٠٤].

ويقدم الطّيبي في مصنفه «جامع محاسن كتابة الكُتّاب» الذي كتبه لخزانة كتب الأشرف قانصوه الغوري آخر سلاطين دولة المماليك، نماذج من الخطوط المتداولة في عصره وضبطها، ويوضح مذهب ابن البوَّاب وأسلوبه، ووضع بين أيدينا نماذج من أساليب الخط وأركان الكتابة حسب طريقة ابن البوَّاب، وبيّن طريقته في الكتابة. ومع أن الفارق الزمني بينهم خمسة قرون، فإن نماذجه هذه تظل عظيمة الشأن وذات قدر رفيع؛ لأنها أحسن أمثلة معبرة عن الخطوط الإسلامية عبر العصور، ولأن كثيرًا من الأشخاص سمعوا عن هذه الخطوط من غير أن يروها، فهم لا يعرفون مثلاً كيف كان شكل الجليل والمُحقَّق والرَّيحان؟ وكان الطّيبي آخر من قدم نماذج على طريقة ابن البوَّاب في مختلف الخطوط[١٠٥].

الأمراء الخطاطين

عُـرف عن العديد من أمـراء دولـة المماليك عنايتهم وبراعتهم في فن الخط، وحرص الكثير منهم على إتقانه وتجويده، ومنهم:

• الأمير سيف الدين بَيْدمُر البدري

أحد المماليك الناصرية، وتنقل حتى صار من الأمـراء في آخر دولة الناصر محمد بن قلاوون، وولـي نـيابة طرابلس، فـي زمـن الـملك الكامل شعبان، ثم ولي نيابة حلب في سلطنة المظفر حاجي، وكان يكتب الرَّبْعات بخط يده، ويبالغ في تذهيبها وتجليدها، يقول الصّفَدي: وقد حاول أخذ خَتْمة مني وهو بدمشق، وبذل الرغائب لي فأبيت، وزخرفت الأعذار في عدم الخروج عنها، وتوفي بَيْدمُر رحمه الله سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م»[١٠٦].

• أيبـك بـن عبـد الله التُركي عز الدين، الكاتب المُجوّد

كـان مملوك طوغـاي الجاشنكير الناصري فأعتقه، برع في الخط المَنْسُوب، وكان شيخه في الخط فخر الدين السنباطي، حتى فاق فيه أقرانه، وتصدى لتعليم الناس فن الخط في مدرسة أم السلطان الأشـرف شعبان السيدة خوند بركة بالتبانة، وتوفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م. وأثنى عليه الحافظ ابن حجر العسقلاني بقوله: «وكان خيّرًا فاضلاً»[١٠٧].

• الأمير أرغـون شاه الناصـري بن عبد الله الـدَّوَادَار الناصري، سيف الدين

نائب السلطنة في عصر الناصر محمد بن قـلاوون، اشتراه الملك المنصور قـلاوون لولده الملك الناصر فربي معه، وولاه نيابة السلطنة بمصر، وكـان عالمًا فاضلاً، يعرف مذهب أبي حنيفة ودقائقه، وسمع «صحيح البخاري» من ابن الشحنة بقراءة الشيخ أثير الدين أبي حيان، وبرع في الفقه وأصوله، وكتبه بخطه مجلدة واحدة في الليل على ضوء القنديل. كما اقتنى الكثير من الكتب، وحصَّل منها جملة كبيرة إلى الغاية[١٠٨].

• الأمير قجماس الأسحاقي، الظاهري جقمق نائب الشام

نشأ في خدمة أستاذه وجوّد الخط في طبقته، وكتب بخطه قصيدة «البردة» للبُوصيري وقدمها لأستاذه فاستحسنها، وولاه الأشرف قايتباي نيابة دمشق، وبعدها نيابة الإسكندرية، وشيّد وهو أمير آخور مدرسة عظيمة بالدرب الأحمر، وتوفي سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م وكان رحمه الله ساكنًا خيّرًا من خيار أبناء جنسه، متواضعًا مع العلماء والصالحين(١٠٩).

• الأمير جانم السيفي، جانبك الجداوي الخازنداري

قرأ على التاج السكندري في القرآن، وكتب الخط المَنْسُوب، وأتقنه مع ياسين الجلالي، وكتب العديد من المصاحف، منها مصحف جليل أتقنه وزمّكه، وكان وسيلة لتخلصه من الظاهر خشقدم بعد أستاذه، وقد استقر به الأشرف قايتباي بسفارة الدَّوَادَار الكبير في نيابة حماة (١١٠). وتحتفظ مكتبة شيستربتي بدبلن بمصحف رقم (MS.1483)، بخط جانم بن عبد الله السيفي كتبه سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، للملك الظاهر أبو سعيد خشقدم. كما تحتفظ دار الكتب المصرية بمصحف تحت رقم (١٩ مصاحف) بخط جانم السيفي الدَّوَادَار الكبير، بأوله وقف باسم الملك الأشرف قايتباي ونصه «كتب هذا المصحف الشريف لمولانا المقام الشريف ناصر الملة المحمدية ... المالك الملك الأشرف أبي النصر قايتباي عز نصره» وبآخره توقيع جانم السيفي ونصه «تشرف بكتابة هذا المصحف الشريف الراجي عفو ربه الكريم جانم السيفي جاني بك الدَّوَادَار الكبير كان تغمده الله برحمته».

• الأمير بُزلار العُمري، سيف الدين الناصري

من مماليك الملك الناصر حسن، رُبّي صغيرًا مع أولاد السلطان، وقرأ وكتب وتأدب، وجاد خطه، فبرع في كتابة الخط المَنْسُوب، واشتغل بالعلم وشارك في فنون منه لاسيما في علم النجوم، فإنه كان له منه حظ وافر، وتقدم مع ذلك في أنواع الفروسية من الرمح والنّشاب، وكان أيضًا أميرًا فقيهًا له مشاركة جيدة في فروع المذهب والنحو، والأدب والتاريخ (١١١).

• الأمير سيف الدين تغري برمش، بن عبد الله الجلالي المؤيدي الحنفي

ويعرف بالفقيه، أحد مماليك الملك المؤيد شيخ، تولى نيابة القلعة زمن الملك الظاهر جقمق، وكان فصيحًا باللغة التركية والعربية، محبا لطلبة العلم وأهل الخير، وله إلمام بكتابة الخط المَنْسُوب، وكان أحسن علومه الحديث، فقد اعتنى به وطلبه، وفيه كان غاية اجتهاده، وأخذ عن ابن حجر العسقلاني بقراءته «الكفاية» للخطيب البغدادي وغيرها ولازمه، وقرأ عليه سنن «ابن ماجه»، ووصفه بصاحبنا المُحدّث الفاضل، وسمع وقرأ الكثير على العديد من المشايخ، وبالجملة فكان فاضلا ذاكراً لجُملة من الرجال والتاريخ وأيام الناس، مُشاركًا في الأدب وغيره، جيد الخط فصيحاً عارف بفنون الفروسية، مُحبًا في الحديث وأهله مُستكثرًا من كتبه. توفي رحمه الله سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م(١١٢).

• تغري بردي البكلمشي

ولي حاجب الحجاب سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، زمن السلطان الظاهر جقمق، ثم صار دوادارًا كبيرًا، فعظم أمره، وشيد مدرسة بشارع الصليبة،

بجوار جامع ابن طولون، ووقف عليها أوقاف كثيرة، وكان يكتب الخط المَنْسُوب، ويتفقه ويسأل الفقهاء ويدرس التاريخ، يقول عنه العيني: «كان يكتب خطًا جيدًا وعنده ذوق من الكلام وتحرير في الأحكام»(١١٣).

• الأمير سيف الدين شيخو، الساقي الناصري

من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، كان أمير على دمشق في زمن المظفر حاجي سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، وكان يتلو القرآن ويكتبه دائمًا، وبرع في الكتابة بالخط المَنْسُوب، بقلم خفيف المُحقَّق من أحسن ما يكون، يقول عنه الصّفَدي: «وخطُّه روضة أينعت أزهارها، أو سماء تعاقبت فيها شموسها وأقمارها، لو رآه ابن هلال فتنه بدر وجهه، ولو عاينه ابن مُقلة قال: كذا يكون الإنسان، ومَقَل ما بيديه في حُسن الخطّ من الإحسان. كتب بخطه المليح رَبْعة في رُبع البغدادي الكبير، بقلم المُحقَّق الذي يتعذّر فيه التحرير، فجاءت من أحسن ما يكون، ووقفها بالجامع الأموي، وكان عنده مغالاة في جمع الكتب النفيسة من كل فن»(١١٤)، وتوفي رحمه الله بالقاهرة سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م.

• الأمير طَشبُغا، سيف الدين الدَّوَادَار الناصري

وليّ الدَّوَادَارية في أول دولة الملك الناصر حسن بن قلاوون، وأُخرج إلى دمشق سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، ثم أعطي طبلخاناه بدمشق، وزوّجه نائب دمشق الأمير سيف الدين أيتمش بابنته بعدما شاور السلطان والأمراء في ذلك، يقول عنه الصّفَدي: «كان يكتب كتابة حسنة مَنْسُوبة، وكان خطه كأن سطوره جداول قد ترقرقت، أو عقود جواهر قد تنظّمت وتنسّقت، وكان فيه ميل إلى الفضلاء، وعندما كان بدمشق يستعير مني «التذكرة الصلاحية» التي لي جزءاً بعد جزء يُطالعها»(١١٥) وتوفي رحمه الله سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م»، ويقول عنه ابن حجر العسقلاني: «كان يحب الفضلاء ويكتب خطًا حسنًا، ويدمن مطالعة الكتب الأدبية»(١١٦).

• جانبك من يلخجا، الظاهري جقمق

صاهر الأمين الأقصرائي الحنفي شيخ الإسلام (ت٨٨٠هـ/١٤٧٥م)، الذي انتهت إليه رئاسة الحنفية في عصره، وكان جانبك قد جوّد الخط وبرع فيه، وكتب عدة مصاحف وغيرها وقرأه على صهره(١١٧).

• الأمير يوسف بن أسعد، صلاح الدين الدَّوَادَار

تدرج إلى أن صار دَّوَادَار الأمير سيف الدين قبْجق، ثم أخذ إمارة حلب، وتولي الحُجوبية بها في أيام الأمير علاء الدين ألطنبغا الحاجب، ثم طُلب إلى مصر، ووُلّي الإسكندرية عوضاً عن بكتمر والي الولاة سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، وكان يكتب خطًا جيدًا حسنًا، وله مشاركه في التواريخ وتراجم الناس، واقتنى كتب كثيرة من كل فن، وتوفي بدمشق سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م(١١٨).

• الأمير قَشْتمر المنصوري، سيف الدين، نائب حلب

تنقل في الولايات إلى أن وَلِي نيابة مصر بعد قتل الناصر حسن، ثم نقل إلى نيابة دمشق، وبعد ذلك نيابة صَفَد، وكان يكتب خطًا حسنًا، أما كتابة اسمه على المراسيم والتَّواقيع، فكان خطه في غاية القوة. وكان أميرًا كبير القدر، كثير الخير، مُلازمًا لدراسة القرآن(١١٩).

• أحمد بن بَكتمُر الساقي

أحمد بن علي بن قرطاي الشهاب أبو الفضل سبط محمد بن بَكتمُر الساقي الحنفي، ويعرف بسيدي أحمد بن بَكتمُر، ولد بالقاهرة سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م، ونشأ بها في ترف زائد ونعمة سابغة، ومع ذلك كان في دين كثير، كونه يغالي في اقتناء الكتب النفيسة بالخطوط المَنْسُوبة والجلود الفاخرة، وغير ذلك من القطع المَنْسُوبة الخط، وقد اشتغل في الفنون وأتقن صنائع عدة، وبرع في الفقه، وكتب على العلاء بن عُصفور، فبرع في الكتابة وفنونها حتى فاق في الخط المَنْسُوب لاسيما على طريقة يَاقُوت المُستَعصِمي، وكان فاضلاً أديبًا شاعرًا، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م[١٢٠].

• مُقْبِل بن عبد الله الرومي، عتيق السلطان الناصر حسن

كان يحب العلم والعلماء، واشتغل في الفقه على مذهب الإمام الشافعي، ثم تعمق في التصوف وفلسفته، وأحب كلام الشيخ محي الدين ابن العربي، وكتب الخطّ الحسن إلى الغاية، مع إتقان الحساب وغيره، وتوفي رحمه الله سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، وله نحو الستين سنة[١٢١].

• طنبغا الشريفي

ويسمى عبد الله أيضًا، عتيق الشريف شهاب الدين نقيب الأشراف بحلب، سمع مع أولاده من الجمال بن الشهاب محمود، وتعلّم الخط معهم، ففاق في الخط الحسن، وكتب الناس عليه، واستقر في تعليم الخط بالجامع الكبير، ثم رحل إلى دمشق فأقام بها مدة وحدّث، وعلّم الناس الخط، ثم تحول إلى القاهرة فقطنها إلى أن توفي سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م[١٢٢].

• طيبغا الدَّوَادَار، الآنوكي

كان من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، فأعطاه لابنه آنوك، فاستقر عنده جمدارًا، يقول ابن حجر: «وكانت كتابته غاية في الحسن، وقد تعلم الخط المَنْسُوب، ويميل إلى الفضلاء، ويداوم المطالعة في الكتب، فلا يزال يستعير منها ما يعجبه فلا يرده حتى يطالعه»[١٢٣].

• أُلجَاي الدَّوَادَار الناصري

أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، وقد جعله دَّوَادَار صغيرًا مع الأمير بهاء الدين رسلان، ثم دَّوَادَار كبيرًا، فباشر ذلك أجمل مباشرة بعفة ونزاهة وتأن، وكان متأدبا فاضلا يكتب الخط الحسن، ويحب الفضلاء ويعتني بأمرهم، ويجاريهم في عدة فنون من فقه وغيره، وكان حنفي المذهب، يحفظ كثيرا من المسائل، وكان الشيخ تقيّ الدين السُّبكي يلازمه (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، وكان له شغف بالكتب النفيسة فاقتنى منها شيئًا كثيرًا، ولم يزل مشهورا بالخير حتى وفاته سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م[١٢٤].

• الأمير بَيليك بن عبد الله، بدر الدين الخازندار الظاهري

نائب السلطنة ومقدَّم الجيوش، كان أميرًا جليل المقدار عالي الهمة، كثير البرّ والمعروف والصدقة، سمع الحديث وطالع التواريخ، وكان يكتب خطًا حسنًا، وله وقف بالجامع الأزهر على زاوية لمن يشتغل بالمذهب الشافعي، وله أوقاف أُخَر على جهات البرّ وتوفي بالقاهرة سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة الصغرى[١٢٥].

• **يحيى بن يشبك الفقيه**

هو ابن الأمير الخير الفقيه يشبك المؤيدي، سبط الملك المؤيد شيخ، ولد سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، ونشأ في عز وترف، وجوّد الكتابة على البرهان الفرنوي وغيره كياسين الجلالي، وبرع فيها، بحيث كتب بخطه أشياء بديعة، وقد رقاه الظاهر خشقدم وجعله أمير أربعين، وسافر في أيامه إلى الحجاز أميرًا على الركب الأول، وإلى البلاد الشامية لتقليد بعض النواب، وتوفي رحمه الله سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م، ودفن بالمؤيدية مدرسة جده[١٢٦].

• **الأمير أرسلان الدَّوَادَار، بهاء الدين، الناصري**

تنقل في خدمة الأمير سلار نائب السلطنة، واختصّ به، ثم حظي عند الملك الناصر محمد بن قلاوون فولاه الدّوَادَرية، وكان القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر مُوقّع الدَّست قد درّبه وهذّبه، وكان يكتب خطًا جيدًا إلى الغاية. فصار يكتب في المهمات كتابة سريعة بعبارة جيدة. واستولى على الملك الناصر محمد بن قلاوون وتمكن منه حتى أنه لم يبق لأحد معه ذكر، وتوفي سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م[١٢٧].

• **الأمير أيدمر الدَّوَادَار، عز الدين**

أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، جعله دَّوَادَار مدّة، ثم أنعم عليه بإمرة دمشق سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، وكان خيّرًا، وله اشتغال وعناية بالعلم، ويكتب الخط المَنْسُوب[١٢٨].

• **الأمير علي بن أمير حاجب، علاء الدين**

والي مصر، كان أبوه من الأمراء الظاهرية بيبرس، ونشأ هو على طريقة حسنة، إلى أن قرره الناصر محمد بن قلاوون في ولاية القاهرة، فباشرها مدة، ثم أعطي أمرة عشرة، وكانت له عناية بالخط والكتب خاصة المدائح النبوية، فوجد في تركته خمسة وتسعون مجلدًا من المدائح النبوية، وتوفي رحمه الله سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م[١٢٩].

ومما وصلنا بخط علي بن أمير، مصحف شريف محفوظة بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة تحت رقم (١/٥٥) فرغ من كتابته سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، والمصحف وقف المقر الأشرفي العالي المولوي أقبغا على المدرسة الأقبغاوية التي أنشأها بالجامع الأزهر الشريف.

• **الأمير منكلي بغا الصلاحي، علاء الدين، الحاجب**

أحد المماليك الظاهرية برقوق، وولي حِسبة القاهرة في زمن الملك المؤيد شيخ، وكان يعلم قليلا من الفقه، ويكتب الخط الحسن، وقد أُرسل إلى تيمورلنك رسولاً في زمن الناصر فرج بن برقوق، وتوفي سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م[١٣٠]

الحواشي

١. مقدمة ابن خلدون، ص٤٦٩
٢. كتاب وقف السلطان الناصر حسن، ص١٦٣-١٦٤
٣. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٧٠.
٤. الطَبقة في العمارة المملوكية وحدة سكنية مستقلة، والطباق أنواع منها: الطباق الحربي الملحق بالقلاع والحصون، وكان مخصصًا لإيواء المماليك السلطانية. انظر: محمد أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، ص٧٥-٧٦.
٥. المواعظ والاعتبار، الجزء٣، ص٦٩٢.
٦. المنهل الصافي، الجزء٣، ص٥١٣؛ الوافي بالوفيات، الجزء١٠، ص٣٦٦.
٧. صبح الأعشى، الجزء٣، ص١٧-١٨؛ تحفة أولي الألباب

فن الخط العربي وأعلامه خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

في صناعة الخط والكتاب، ص٤٤-٥٣؛ حكمة الإشراق، ص١٠٢-١٠٣؛ يوسف ذنون، الخط العربي بعد ظهور الإسلام، عالم الكتب، مجلد٣/جزء٣، ١٩٨٢م، ص٣٥٩.

٨. الخط العربي وحدود المصطلح الفني، ص١٤٠.

٩. قطّ القلم، يقال قطَطْت القلم أقُطُّه قطّا، إذا قطعت سِنّه وأصل القطّ القطع، وأنواعه تختلف بحسب مقاصد الكُتّاب، وهو المقصود من البراية، وعليه مدار الكتابة، انظر: صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٢.

١٠. فن الخط، أوغوردرمان، ص٢٤.

١١. الخط العربي وحدود المصطلح الفني، ص١٤١.

١٢. فن الخط، ص٢٥.

١٣. رسائل إخوان الصفا، مجلد٣، ص١٤٦.

١٤. خطوط المصاحف. إدهام حنش، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد٥٤/جزء٢، ص، ١٤٠، ٢٠١٠م؛ روائع فن الخط والتذهيب القرآني، ص٤٤-٤٥.

١٥. لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف، ص٤٣

١٦. لمحة المختطف، ص٤٧.

١٧. الخط المَنْسُوب: هو الخط الذي تقارن نسب حروفه بمقاييس ونسب الألف. انظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي، أحمد شوقي بنبين، ص١٣١.

١٨. الوافي بالوفيات، الجزء١، ص٢٠١-٢٠٢؛ العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٣٥١؛ البداية والنهاية، الجزء١٧، ص٥٩٠-٥٩١؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء٧، ص٣٠٣؛ نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء٣١، ص١١٣؛ عِقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان، الجزء٢، ص٣١١.

١٩. ربعة: كلمة تُطلق على القرآن عندما يُكتب مُجزّأ.

٢٠. ورق الطير: هو القطع الصغير من الورق، وهو نوع من الورق الشامي رقيق للغاية. وفيه تكتب ملطّفات الكتب وبطائق الحمام، انظر: صبح الأعشى، الجزء٦، ص١٩٢.

٢١. الوافي بالوفيات، الجزء١، ص٢٠٢

٢٢. صبح الأعشى، الجزء٢، ص٤٤٤.

٢٣. الوافي بالوفيات، الجزء١، ص٢٣٨؛ النجوم الزاهرة، الجزء٩، ص٢٢٧-٢٢٨؛ تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب، ص٥٣-٥٥.

٢٤. صبح الأعشى، الجزء٣، ص٤١.

٢٥. صبح الأعشى، الجزء٣ ص٤٧.

٢٦. صبح الأعشى، الجزء٢، ص٤٥٢.

٢٧. صبح الأعشى، الجزء٢، ص٤٥٣.

٢٨. تاريخ ابن قاضي شهبة، ص٥٣٦؛ إنباء الغُمر،الجزء١، ص١٤٥.

٢٩. الضوء اللامع، الجزء٧، ص٣٠؛ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، الجزء٢، ص٨٩؛ درر العقود الفريدة، المجلد٣، ص١١٩.

٣٠. موسوعة تراث الخط العربي، ص٢٢٠-٢٢٢.

٣١. موسوعة تراث الخط العربي، ص٢٧٨.

٣٢. المَشْق: هو مد الحروف في الكتابة.

٣٣. موسوعة تراث الخط العربي، ص٢٧٩.

٣٤. أعيان العصر وأعوان النصر، الجزء٤، ص٤٦٦.

٣٥. اللِّيقة: وتسمى أيضًا الكُرسُف، وهي حشوة من القطن أو الحرير أو الصوف الخام المستخدمة في المحبرة. انظر: صبح الأعشى، الجزء٢، ص٤٥٨.

٣٦. التزمّيك: كلمة يكثر ورودها، ويراد بها النقش والتزيين بالذهب والألوان، أو خطوط عريضة بحرف ذي خط دقيق في لون مختلف.

٣٧. أعيان العصر، الجزء٤، ص٤٦٨.

38. Qur'ans of the Mamluks, p 34.

٣٩. الدرر الكامنة، الجزء٣، ص٤٥٣؛ أعيان العصر، الجزء٤، ص٤٦٧.

٤٠. موسوعة تراث الخط العربي، ص١٦٩.

٤١. لمحة المختطف، ص٣٨.

٤٢. لمحة المختطف، ص٤٧-٤٨.

٤٣. أعيان العصر، الجزء٥، ص٤٨١.

٤٤. أعيان العصر، الجزء٥، ص٤٨٢؛ الوافي بالوفيات، الجزء٢٦، ص٥٣٥؛ النجوم الزاهرة، الجزء٩، ص١٦٥؛ الدرر الكامنة، الجزء٤، ص٣٧٦.

٤٥. أعيان العصر، الجزء٥، ص٤٨٢.

٤٦. شرح قصيدة ابن البوَّاب، يوسف ذنون، المورد، مجلد٢٩/عدد١، ص١٣٤-١٣٥، ٢٠٠١م.

٤٧. شرح قصيدة ابن البوَّاب، ص١٣٦-١٣٧.

٤٨. الوافي بالوفيات، الجزء٢٣، ص٥٧٥-٥٧٦؛ أعيان العصر، الجزء٤، ص٢٠-٢١؛ الدرر الكامنة، الجزء٣، ص٢١٥-٢١٦.

٤٩. الضوء اللامع، الجزء٤، ص١٦١-١٦٢؛ إنباء الغمر، الجزء٤، ص١٩١-١٩٢؛ تحفة خطاطين، ص٢٥٣.

٥٠. جامع محاسن كتابة الكُتّاب، ص١٨.

٥١. تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب. دار بوسلامة، تونس.

٥٢. الضوء اللامع، الجزء١٠، ص١٠٢.

٥٣. الضوء اللامع، الجزء١، ص١٨٢.

٥٤. الضوء اللامع، الجزء٧، ص٢٢٩-٢٣١.

٥٥. الضوء اللامع، الجزء٧، ص٢٠٣.

٥٦. الدَّوَادَار: لقب يطلق على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين الأول وهو الدَّواة، والثاني فارسي وهو دار، ومعناه ممسك، ويكون المعنى «ممسك الدواة». انظر: صبح الأعشى، الجزء٥، ص٤٦٢.

٥٧. الضوء اللامع، الجزء٦، ص٣٠١-٣٠٣.

٥٨. إنباء الغمر، الجزء٣، ص٣٥٣؛ المنهل الصافي، الجزء٦، ص٢٤٨-٢٤٩؛ الضوء اللامع، الجزء٣، ص٣٠١-٣٠٣؛ دُرر العُقود الفريدة، الجزء٢، ص١٢٢-١٢٣.

٥٩ صبح الأعشى، الجزء٣، ص١٨.

٦٠. عَرَاقة الحرف: ذيله الهابط كحرف الجيم والعين.

٦١. صبح الأعشى، الجزء٣، ص٤٧-٤٨.

٦٢. موسوعة تراث الخط، ص٣٠٧.

٦٣. موسوعة تراث الخط، ص٣٦٦-٣٦٧.

٦٤. الوافي بالوفيات، الجزء٢، ص٢٥٦-٢٥٧.

٦٥. إنباء الغمر، الجزء٢، ص٨٦؛ الضوء اللامع، الجزء١٠، ص١٥.

٦٦. دَنْجَيّة، مدينة بين دمياط وسمنود على شاطئ النيل، نُسب إليها جماعة ممن لهم فضيلة، يقال لكل منهم الدّنْجَاوي أو الدَنجيهي، وهو أنسب، انظر: البُلدانيات للسَّخاوي، ص١٩١.

٦٧. الضوء اللامع، الجزء٣، ص١٨١؛ بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء٣، ص٢٣٣.

٦٨. بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص٢٠٤.

٦٩. قلم الغُبار: سمي بذلك لدقته، ويتجلى من صغره إنه أشبه بالغُبَار، واستخدم في كتابة رسائل الحمام والرسائل السرية، والكتابة الدقيقة، وكان يكتب بقلم ذات سن دقيقة ومستديرة.

٧٠. يقول العلَّامة المرحوم أحمد باشا تيمور في شرح كلمة قُبع: وهو يطلق الآن على غطاء خفيف للرأس يشبه الطاقية، والمعروف في اللغة القُبَّعة، ويقصد بالزر الهنة الناتئة في وسطه من أعلاه، ويطلق في مصر على ذؤابة الطربوش زرًّا لأنها منوطة بتلك الهنة التي في أعلاه، والمفهوم من العبارة أن بعض الأقباع كانت تتخذ أزرارها من المعادن تركب فيها لتكون كالحلية لها. انظر: مجلة الزهراء، المجلد٢/ الجزء١٠، ص٦٢٧.

٧١. أعيان العصر، الجزء٢، ص٢١٠-٢١٢؛ الوافي بالوفيات، الجزء١٢، ص١٧٨-١٧٩؛ الدرر الكامنة، الجزء٢، ص٢٥-٢٦.

٧٢. أعيان العصر، الجزء٢، ص٢١٠-٢١٢؛ الوافي بالوفيات، الجزء١٢، ص١٧٨-١٧٩؛ الدرر الكامنة، الجزء٢، ص٢٥-٢٦.

٧٣. أعيان العصر، الجزء٢، ص٢١٢.

٧٤. أعيان العصر، الجزء٢، ص٢١٤.

٧٥. المنهل الصافي، الجزء٢، ص٣٩٣؛ إنباء الغمر، الجزء١، ص٣٢٢.

٧٦. هو الذي يكتب المكاتبات والولايات في ديوان الإنشاء السلطاني، وكان يعرف باسم كاتب الدرج. انظر: صبح الأعشى، الجزء٥، ص٤٦٥.

٧٧. الضوء اللامع، الجزء١، ص١٦-١٧.

٧٨. إنباء الغمر، الجزء١، ص١١٨؛ النجوم الزاهرة، الجزء١١، ص١١٣؛ تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد٢/ جزء٢ من المخطوط، ص٤٩٦-٤٩٧.

٧٩. كتاب «عمدة الأحكام مما اتفق عليه الإمامان البخاري ومسلم»، لتقي الدين أبي محمد عبد الغني المقدسي الحنبلي (ت٦٠٠هـ/١٢٠٣م).

٨٠. القُدوري، ويقال "مختصر القُدوري" كتاب مشهور في فروع الفقه الحنفي للإمام أبي الحسن أحمد بن محمد القُدوري البغدادي الحنفي (ت٤٢٨هـ/١٠٣٦م).

٨١. الضوء اللامع، الجزء١٠، ص٢١٣.

٨٢. الضوء اللامع، الجزء١٠، ص٢٩٤.

٨٣. أعيان العصر، الجزء٤، ص٦٦٢.

٨٤. أعيان العصر، الجزء٤، ص٦٦٣؛ الدرر الكامنة، الجزء٤، ص٩٠-٩١.

٨٥. درر العقود الفريدة، الجزء٢، ص٥٥٣؛ إنباء الغمر، الجزء٢، ص١٢٣؛ الضوء اللامع، الجزء٥، ص٢٣٨.

٨٦. أعيان العصر، الجزء٥، ص٤٠٧-٤٠٨.

٨٧. الدرر الكامنة، الجزء٤، ص٣٣٦.

٨٨. أعيان العصر، الجزء٥، ص٤٠٩.

٨٩. إنباء الغمر، الجزء٢، ص١٩٤؛ الضوء اللامع، الجزء١٠، ص١١١.

٩٠. الضوء اللامع، الجزء١٠، ص٣٨.

٩١. كتاب المقفى الكبير، الجزء٦، ص٢٢٣؛ تحفة خطاطين، ص٤٢٧؛ الدرر الكامنة، الجزء٢، ص٤٥٠.

٩٢. أعيان العصر، الجزء٣، ص٦٦١.

٩٣. أعيان العصر، الجزء٣، ص٦٦١؛ الدرر الكامنة، الجزء٣، ص١٨٨.

٩٤. أعيان العصر، الجزء٣، ص٦٦١.

٩٥. الضوء اللامع، الجزء٨، ص١٨٢-١٨٣.

٩٦. الضوء اللامع، الجزء٥، ص٣٤؛ تحفة خطاطين، ص٢٧٦.

٩٧. موسوعة تراث الخط، ص٤١٥.

٩٨. الضوء اللامع، الجزء١٠، ص١٨١.

٩٩. الضوء اللامع، الجزء٣، ص٢٩٨؛ إنباء الغمر، الجزء٣، ص٤١١.

١٠٠. الضوء اللامع، الجزء٥، ص٣١٦.

١٠١. إنباء الغمر، الجزء٢، ص٣٤١.

١٠٢. الدرر الكامنة، الجزء٣، ص١٧٦-١٧٧.

١٠٣. الضوء اللامع، الجزء٥، ص١٧.

١٠٤. جامع محاسن كتابة الكُتّاب، ص١٨.

١٠٥. أطلس الخط والخطوط، ص٢٣٤.

١٠٦. الوافي بالوفيات، الجزء١٠، ص٣٦٣؛ أعيان العصر، الجزء٢، ص٩٨؛ الدرر الكامنة، الجزء١، ص٥١٣.

١٠٧. إنباء الغُمر، الجزء١، ص٨٣؛ الدرر الكامنة، الجزء١، ص٤٢١.

١٠٨. الوافي بالوفيات، الجزء٨، ص ٣٥٨-٣٥٩؛ المنهل الصافي، الجزء٢، ص٣٠٦.

١٠٩. الضوء اللامع، الجزء٦، ص٢١٣.

١١٠. الضوء اللامع، الجزء٣، ص٦٥.

١١١. المنهل الصافي، الجزء٣، ص٣٦١-٣٦٣؛ درر العقود الفريدة، الجزء١، ص٤٨٢.

١١٢. المنهل الصافي، الجزء٤، ص٦٨-٧١؛ الضوء اللامع، الجزء٣، ص٣٤.

١١٣. الضوء اللامع، الجزء٣، ص٢٨.

١١٤. أعيان العصر، الجزء٢، ص٥٣٠-٥٣١؛ الوافي بالوفيات، الجزء١٦، ص٢١١؛ المنهل الصافي، الجزء٦، ص٢٦٢-٢٦٣.

١١٥. أعيان العصر، الجزء٢، ص٥٨٥.

١١٦. الدرر الكامنة، الجزء٢ ص٢١٩.

١١٧. الضوء اللامع، الجزء٣، ص٥٤.

١١٨. تاريخ ابن قاضي شُهبة، مجلد٢، جزء١ من المخطوط، ص٤٤٣ ؛ أعيان العصر، الجزء٥، ص٦٠٩.

١١٩. تاريخ ابن قاضي شُهبة، مجلد٣/جزء٢ من المخطوط، ص٣٥٤.

١٢٠. الضوء اللامع، الجزء٢، ص٣١.

١٢١. إنباء الغمر، الجزء٢، ص١٢٩.

١٢٢. إنباء الغمر، الجزء٢، ص٥٢٩.

١٢٣. الدرر الكامنة، الجزء٢، ص٢٣٠.

١٢٤. الدرر الكامنة، الجزء١، ص٤٠٥؛ المقفى الكبير، الجزء٢، ص٢٧٧-٢٧٨.

١٢٥. الوافي بالوفيات، الجزء١٠، ص٣٦٥-٣٦٦.

١٢٦. الضوء اللامع، الجزء١٠، ص٢٦٥.

١٢٧. المقفى الكبير، الجزء٢، ص١٧-١٨؛ المنهل الصافي، الجزء٢، ص٣٠٠-٣٠١.

١٢٨. المقفى الكبير، الجزء٢، ص٣٦١.

١٢٩. الدرر الكامنة، الجزء٣، ص٣٠.

١٣٠. السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء٧، ص٢٥٧.

المصادر والمراجع العربية

- ابن الصائغ، عبد الرحمن. تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب، ط٢، تحقيق هلال ناجي، دار بو سلامة: تونس،١٩٨٢م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن حجر العَسْقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.
- ابن حجر العَسْقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي. إنباء الغُمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: القاهرة، ١٩٦٩م.
- ابن حجر العَسْقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار الجيل: بيروت، ١٩٩٣م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. المقدمة، المطبعة الشرفية، القاهرة، ١٩٠٩م.
- ابن قاضي شُهبة، تقي الدين أبي بكر. تاريخ ابن قاضي شُهبة. تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي: دمشق، ١٩٩٤م.
- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل. البداية والنهاية، ط١، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر: القاهرة، ١٩٩٨م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. العبر في خبر من غبر، ط١، تحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٨٥م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. البُلدانيات، ط١، تحقيق حسام بن محمد القطان، دار العطاء للنشر والتوزيع: الرياض، ٢٠٠١م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط١، دار الجيل: بيروت، ١٩٩٢م.
- الصفدي، خليل بن أيبك. أعيان العصر وأعوان النصر، ط١، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر: بيروت، ١٩٩٨م.
- الصفدي، خليل بن أيبك. الوافي بالوفيات، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية: بيروت (سلسلة النشرات الإسلامية)، ١٩٦٢-٢٠٠٩م.
- الطّيبي، محمد بن حسن. جامع محاسن كتابة الكُتّاب، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد: بيروت، ١٩٦٢م.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد. عِقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
- القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي. صُبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، ١٩١٤م.
- الكاتب، حسين بن ياسين بن محمد. لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف، ط١، تحقيق هيا الدوسري، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ١٩٩٢.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. السلوك لمعرفة دول الملوك، ط١، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٧م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. المواعظ والاعتبار في ذكر الخِطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان: لندن، ٢٠٠٣م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ط١، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي: بيروت، ٢٠٠٢م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. كتاب المقفى الكبير، ط١، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي: بيروت،١٩٩١م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.
- أمين، محمد. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ط١، دار النهضة العربية: القاهرة، ١٩٨٠م.
- أمين، محمد؛ إبراهيم، ليلى. المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، مركز النشر بالجامعة الأمريكية: القاهرة. ١٩٩٠م.
- أوغوردرمان، مصطفى. فن الخط، ط١، ترجمة صالح سعداوي، إرسيكا: إستانبول، ١٩٩٠م.
- بنبين، أحمد شوقي؛ طوبي، مصطفى. معجم مصطلحات

المخطوط العربي، ط٣، الخزانة الحسينية: الرباط، ٢٠٠٥م.
- حنش: إدهام. الخط العربي وحدود المصطلح الفني، ط١، وزارة الأوقاف: الكويت، ٢٠٠٨م.
- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، دار صادر: بيروت، بدون تاريخ.
- زاده، مستقيم. تحفة خطاطين، إستانبول، ١٩٢٨م.
- فضائلي، حبيب الله. أطلس الخط والخطوط، ط١، ترجمة محمد التنوجي، دار طلاس: دمشق، ١٩٩٣.
- كتاب وقف السلطان الناصر حسن بن محمّد بن قلاون على مدرسته بالرميلة ، ط١، تحقيق هويدا الحارثي، الكتاب العربي: برلين (النشرات الإسلامية)، ٢٠٠١م.
- لنجز، مارتن. روائع فن الخط والتذهيب القرآني، مؤسسة المكنز الإسلامي: القاهرة، ٢٠٠٥م.
- مرتضى الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني. حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق، ط١، تحقيق عبد السلام هارون (نوادر المخطوطات، الجزء٢) دار الجيل: بيروت، ١٩٩١م.
- ناجي، هلال. موسوعة تراث الخط العربي، ط١، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية: القاهرة، ٢٠٠٢م.

المصادر الأجنبية

- David James. Qur'ans of the Mamluks, Alexandira press, London, 1988.

الدوريات

- مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام - دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- مجلة عالم الكتب، دار ثقيف للنشر والتأليف- الرياض.
- مجلة معهد المخطوطات العربية- القاهرة.
- مجلة الزهراء- القاهرة.



كتاب سر السرور
وتصحيح نسبته إلى القاضي أبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري الغزنوي المتوفى (بعد ٥٦٠هـ)

الدكتورة نوال عبد الرزاق سلطان
دبي - الإمارات العربية المتحدة

الكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب "سر السرور" وقد نسب إلى أكثر من مصنف، فالذي تعرض لدراسة وتحقيق كتب "أبي الفتح بن جني"[١] ينسب إليه كتاب سر السرور[٢] معتمدًا على قول ياقوت الحموي في معجم الأدباء[٣]: "ومن كتاب سر السرور لابن جني"، ثم يذكر شيئًا من شعره كقوله:

رأيتُ محاسنَ ضحكِ الربيع ... أطالَ عليها بكاءُ السحابِ

وأيضًا من يتعرض لدراسة وتحقيق كتب ابن رشيق القيرواني[٤] يذكر من مصنفاته: "سر السرور"[٥] معتمدًا على قول ياقوت[٦]: "وله في كتاب سر السرور..."، ثم يذكر بعض أشعاره.

ومن يكتب عن علي بن فضال المجاشعي القيرواني[٧] يقول: "ومن مصنفاته: سر السرور[٨] معتمدًا على قول ياقوت في معجم الأدباء (١٨٣٧/٤): "وفي كتاب سر السرور لابن فضال..." ثم يذكر شيئًا من شعره.

ومن هنا كان لابد لي في هذا البحث من أن أعرف بكتاب "سر السرور"، ومصنفه "القاضي الغزنوي"، وأن أميط اللثام عن هذا السفر العظيم القيم، وعن مدى اهتمام الأدباء والمؤرخين وأصحاب التراجم بالنقل عنه، وأن أعرض للمصادر التي نقلت عنه، فهناك أكثر من عشرين مصدرًا قد أورد ذكره، وصرح بنسبته إلى القاضي الغزنوي، واستقى منه، وإن اختلفت درجة الاستقاء والإرواء...

فكتاب: "سر السرور" من الوثائق الأدبية الثمينة إذ لا يقل أهمية عن اليتيمة وتتمتها، والدمية ووشاحها، وزينة دهرها وعصرة أهل عصرها، والخريدة وذيلها، والحديقة ومختاراتها، فقد حفظ لنا "سر السرور" كثيرًا من تراجم شعراء القرنين الخامس والسادس. وسأذكر تلك المصادر وفق

التسلسل الزمني. والله ﷻ من وراء القصد، وهو يهدي إلى سواء السبيل.

أما المصنف "القاضي الغزنوي"[٩] فيسوق لنا ترجمته كما يسوق لنا ترجمة والده مع ذكر مصنفاته " ابن أيبك الصفدي " في: "الوافي بالوفيات" فيقول: "محمد بن محمود النيسابوري[١٠] الغزنوي[١١] أبو العلاء، ذكره تاج الإسلا[١٢] في "تاريخ مرو" فقال: " لقيته ببلخ في شهر رجب سنة سبع وأربعين وخمسمئة. وقال: هو من أهل غزنة، كان إمامًا، فاضلًا، واسع العلم، متفننًا، مناظرًا، عارفًا بالأدب، مليح المحاورة، كثير المحفوظ، جمع كتابًا مليحًا في شعراء عصره سماه "سر السرور"، وكان والده من مشاهير العلماء صاحب الكتب الحسان مثل: التفسير، وخلق الإنسان، وقدم ولده محمد نيسابور مرتين من صاحب غزنة إلى السلطان سنجر بن ملكشاه وكان ولي القضاء بغزنة". وتذكر المصادر أن والده أبا القاسم محمود بن أبي الحسن علي بن الحسين النيسابوري الغزنوي الملقب ببيان الحق[١٣] كان قاضيًا، وأنه رزق بولدين: القاسم ومحمد، وقد ذكرهما في مقدمة كتابه جمل الغرائب، وقد عاش في نيسابور، وربما تحول عنها بعد أن سقطت (سنة ٥٣٦هـ)، وذكر البغدادي أنه رحل إلى "الخُجَنْد"[١٤] وأنه ألف فيها كتابه: "إيجاز البيان" عام (٥٥٣هـ)[١٥]، ثم رحل إلى دمشق إلى أن توفي فيها[١٦]، لكن المصادر التي اطلعت عليها لم تشر إلى أن بيان الحق والد أبي العلاء قد غادر البلد إلى دمشق، كذلك لم تذكر كتب التراجم تاريخ ومكان وفاته على وجه التحديد، وقد أشارت إلى أنه رزق بولدين: القاسم، وبه يكنى، ومحمد أبي العلاء (صاحب سر السرور).

وأقدم من كتب عنه فيما بين أيدينا من المصادر هو "ياقوت الحموي" في "معجم الأدباء" يقول ياقوت عن بيان الحق[١٧]: " كان عالمًا، بارعًا، مفسرًا، لغويًا، فقيهًا، متفننًا، فصيحًا، له تصانيف ادعى فيها الإعجاز منها:

كتاب" خلق الإنسان"[١٨] و"جمل الغرائب في تفسير الحديث"، و" إيجاز البيان في معاني القرآن"[١٩]، وغير ذلك". كما أورد له بيتين سوف نأتي على ذكرهما بعد قليل. لكن الصفدي يستفيض في ترجمته، ويعدد مصنفاته، ومنها بالإضافة إلى ما ذكره ياقوت[٢٠]:

- كتاب باهر البرهان في مشكلات معاني القرآن، في التفسير[٢١].
- كتاب الأسولة الرائعة والأجوبة الصادعة، في التفسير.
- كتاب التبصرة والتذكرة، يشتمل على ألف نكتة في الفقه.
- كتاب المقلدات في علم العربية، يشتمل على قصائد مختارة من شعر العرب، أعربها.
- كتاب شوارد الشواهد وقلائد القصائد، يشتمل على قصائد مختارة.
- كتاب المقرطات، قصائد مختارة من شعر المحدثين.
- كتاب ملتقى الطرق في مختلف الفقه.

وذكر البغدادي له أيضًا كتاب "درر الكلمات على غرر الآيات الموهمة للتعارض والشبهات"، و"زبدة التفاسير ولمعة الأقاويل"[٢٢].

ونسب له كذلك كتاب: "الموجز في الناسخ والمنسوخ"، وتوجد منه نسخة في مكتبة "شستربتي" تقع في عدة ورقات، ويؤكد محقق الإيجاز أنها ليست له قطعًا[٢٣].

مقالات

وأورد بعض من ترجم له بيتين من أبيات شعره[٢٤]، وحكى لنا الصفدي على لسان ابنه أبي العلاء قصتهما كما رواها "أبو الخطاب عمر ابن محمد بن عبد الله العليمي"[٢٥]، قال: "سمعت القاضي أبا العلاء محمد بن محمود بن أبي الحسن الغزنوي وكان قدم علينا نيسابور رسولًا يقول: شهد عند الإمام والدي شيخ على بعض أصحابه، فاعترته شبهة في صدقه، وهم برد شهادته، فأخذ المشهود عليه يزكيه وينسبه إلى كل خير. فندم والدي على ما بدر منه وقال:

فلا تحقرن[٢٦] خلقًا من الناس عله

ولي إله العالمين وما تدري فذو

القدر عند الله خافٍ على الورى

كما خفيتْ عن علمهمْ ليلةُ القدرِ

وربما ورث القاضي أبو العلاء الشاعرية عن والده، فقد ذكرت بعض المصادر أن للقاضي أبي العلاء شعرًا، وأوردت له عدة أبيات من الشعر، منها ماذكره برهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني(ت٥٩٣هـ) في كتابه "الهداية" في فقه الحنفية، ونقله عنه ابن حجر(ت٨٥٢هـ) في "الدرر الكامنة"، وأيضًا الإمام السخاوي(ت٩٠٢هـ) في البلدانيات[٢٧]. يقول ابن حجر: "عن برهان الدين المرغيناني[٢٨] صاحب الهداية قال: أنشدني معين الدين أبو العلاء محمد بن محمود الغزنوي النيسابوري لنفسه:

لكسرة من جريش الخبز تشبعني

وشربة من قراح الماء ترويني

وخرقة من قشيب الثوب تسترني

حيًا، وإن مت تكفيني لتكفيني

وقال بعدهما:

ولا أردد في الأبواب مضطهدًا

كما يردد ثورٌ في الفدادينِ

لأجعلنَّ ولايات فُتنتُ بِهَا

فِداءَ عِرْضي وَأَمْوَالي فِدَا دِيني

وتذكر بعض المصادر أن له ابنًا فقيهًا اسمه "أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد بن نوح القاضي الغزنوي الحنفي" توفي بحلب سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة[٢٩]. وكان عالمًا، وله مصنفات منها: الحاوي القدسي في الفروع، وروضة اختلاف العلماء، وروضة المتكلمين في أصول الدين، وعقائد الغزنوي، وكتاب الأصول في الفقه، والمقدمة الغزنوية في الفروع، والنتف في الفتاوى، وغير ذلك. ولا أدري حقيقة الأمر؟ وأميل إلى نفيه وإن لم أقطع بذلك، فالقاضي أبو العلاء هو: محمد بن محمود بن أبي الحسن علي وليس محمود بن سعيد بن نوح، ومع هذا فهو من القضاة والفقهاء، ومن الممكن أن يكون ابنه من القضاة والفقهاء الحنفية. وربما هذا عالم آخر من علماء غزنة. والله - تعالى - أعلى وأعلم.

شيوخه:

لم تذكر لنا كتب التراجم التي ترجمته شيئًا عن شيوخه، ومن الطبيعي أنه أخذ عن والده بيان الحق، إذ كان من أجلة العلماء والفقهاء والقضاة، ومع صيانة وورع، كما روى لنا ابنه أبو العلاء في القصة التي وردت آنفًا، وكان والده ممن يقرض الشعر كذلك، فاستقى من هذه البيئة العلمية المتنورة. وقد ورد في بعض المصادر التي بين يدي اسم شيخ له هو: "أبو القاسم طلحة بن نصر المقدسي"، قال العماد: "قرأت بخط السمعاني في تاريخه[٣٠] ذكر أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري قال: "أنشد شيخُنا "أبو القاسم طلحة بن نصر

كتاب سر السرور وتصحيح نسبته إلى القاضي أبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري الغزنوي المتوفى (بعد ٥٦٠هـ)

المقدسي"[٣١] قولَ محمد بن الوليد الأندلسي"، أي الطرطوشي، وسيأتي ذكره في حينه. وأيضًا يقول ياقوت في معجم الأدباء: "قال محمد بن محمود: "حدثني "طلحة" أن "أبا الصلت" اجتمع في بعض منتزهات مصر..." . ونلاحظ أن هذين الخبرين كانا لشاعرين أندلسيين نزلا مصر، وحدث "أبو القاسم طلحة بن نصر المقدسي" تلميذه القاضي الغزنوي عنهما.

وفاته:

لم تعين المصادر التي بين أيدينا متى توفي القاضي الغزنوي - رحمه الله تعالى- على وجه التحديد، ونحن نتمسك ببعض الخيوط التاريخية، منها ماذكره أبو سعد السمعاني في "تاريخ مرو" في سيرة أبي العلاء القاضي الغزنوي إذ قال: " لقيته ببلخ في شهر رجب سنة سبع وأربعين وخمسمئة. وقال: هو من أهل غزنة، ثم بعد أن ذكر والده بيان الحق قال: وقدم ولده محمد نيسابور مرتين من صاحب غزنة إلى السلطان "سنجر بن ملكشاه" وكان ولي القضاء بغزنة" .هذا مامر معنا سابقًا، وقد توفي أبو سعد السمعاني(٥٦٢هـ)، فإذا أضفنا له قول أبي الخطاب العليمي المتوفى(٥٧٤هـ)، قال: "سمعت القاضي أبا العلاء محمد بن محمود ابن أبي الحسن الغزنوي، وكان قدم علينا نيسابور رسولًا...." . وقد مر القول معنا سابقًا، فربما كان هذا بعد سنة (٥٥٠هـ). وذكر العليمي تلك القصة التي رواها القاضي الغزنوي لهم.

ونستأنس بقول صاحب هدية العارفين من أن والده ألف كتابه "إيجاز البيان" سنة (٥٥٣هـ)، ولم يذكر هو أو المصادر التي كتبت عنه أن ابنه محمد أبا العلاء قاضي غزنة توفي قبله أو بعده بقليل، والذي يرجح أن وفاته بعد (٥٦٠هـ) من أن المرغيناني الفقيه الحنفي صاحب كتاب الهداية قد ذكر اجتماعه بالقاضي أبي العلاء وأنه أنشده من شعره، وقد مرت الأبيات معنا آنفًا. وقد توفي المرغيناني(٥٩٣هـ)، وهذا محتمل جدًا من أن اللقاء كان قد مضى عليه أكثر من ثلاثين عامًا، مما يرجح أن وفاة القاضي الغزنوي بحدود عام(٥٦٠هـ) أو بعده بقليل. والله - تعالى - أعلم.

وأما كتابه "**سر السرور**" فقد جمع فيه شعراء عصره، وضمنه ذكرًا للأدباء والشعراء الذين عاشوا في القرنين الخامس والسادس الهجريين[٣٢]، وقد ورد ذكر الكتاب في المصادر القديمة التي ترجمت القاضي الغزنوي، أو في ترجمة من ذكرهم فيه.

ففي **خريدة القصر** ورد ذكر "سر السرور" في معرض الحديث عن الشاعرة: "**سلمى البغدادية**"[٣٣]، يقول صاحب الخريدة[٣٤]: "قرأت بمذيل السمعاني بخطه يقول: "رأيت اسمها في سر السرور للقاضي أبي العلاء النيسابوري يقول: وجدت في بعض التعاليق منسوبًا إليها... وذكر الشعر.

وفي الحديث عن **النجيبة القحطانية**، زوجة علي بن محمد المدائني، يقول: "كانت امرأة شاعرة، أجازت شعر الوزير المغربي".

وكذلك ورد ذكر أبي العلاء النيسابوري في ترجمة **أبي الربيع سليمان بن فياض الإسكندراني**[٣٥]، يقول صاحب الخريدة[٣٦]: "وقرأت فيما صنفه السمعاني أن "سليمان بن الفياض" تلميذ الحكيم "أمية بن أبي الصلت" المصري، وعليه قرأ من علومهم المهجورة، وله شعر، وكان بغزنة سنة ٥١٦هـ. قال: ومن شعر سليمان فيما ذكره صديقنا أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري - رحمه الله - وذكر الأبيات... وقال بعد ذلك: وكتب سليمان إلى القاضي أبي العلاء الغزنوي من لوهور[٣٧]:

الـغـزنـويـون إخـــوان لـزائـرهـم

مــادام مـنـهـم إزاء الـسـمـع والـبـصـر

وفي معرض ذكر الأمير **منصور بن دبيس بن صدقة**،[٣٨] قال العماد الأصفهاني في الخريدة: " قرأت في مذيل السمعاني يقول: " قرأت في كتاب سر السرور: الأميرُ منصورٌ شعرُه مما يرتاح إليه الطبع السليم، ويهتز له القلب السقيم، اهتزاز الغصن القويم بعليل النسيم".

ويقول العماد الأصفهاني في موضع آخر في ترجمة **صدقة**: " قال السمعاني" قرأت في كتاب "سر السرور": " لما خلع سرخاب ربقة طاعة السلطان، والتجأ إلى صدقة وأجاره....."، ثم يعقب بما حدث له.

ويسوق العماد الأصفهاني بعض الأبيات التي أنشدها ملك العرب "**دبيس بن صدقة**"[٣٩] لأخيه منصور مما تضمنه كتاب "سر السرور" فيقول: " قرأت في كتاب السمعاني: ذكر صديقنا أبو العلاء القاضي في كتاب سر السرور: " أنشد ملك العرب دبيس بن صدقة لأخيه منصور......"، وذكر الأبيات.

وفي ترجمة **محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفهري أبو بكر الطرطوشي الأندلسي المالكي**[٤٠] الكاتب بمصر، يقول العماد الأصفهاني[٤١]: " قرأت بخط السمعاني في تاريخه ذكر أبو العلاء محمد ابن محمود النيسابوري قال: "أنشد شيخُنا "أبو القاسم طلحة بن نصر المقدسي"[٤٢] قولَ محمد ابن الوليد الأندلسي.......". ثم ساق بعض شعره.

وفي ذكر "**أبي المسك كافور بن عبد الله الليثي الحبشي**"[٤٣] يقول صاحب الخريدة[٤٤]: " قال السمعاني: "قرأت في كتاب سر السرور لصديقنا أبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنة لكافور هذا "... وذكر الشعر المروي عنه.

وورد ذكر الكتاب في **معجم الأدباء** كذلك عندما ذكر ياقوت الحموي أبا **جعفر البحاثي القاضي الزوزني**[٤٥] قال[٤٦]: "وذكر محمد بن محمود النيسابوري في كتاب "سر السرور" أن شعر البحاثي نيف على عشرين ألف بيت، وأنه وقف عليه في تسعة مجلدات، فانتخبت من ذلك المنتخب في هذه الورقة".

وفي ترجمته **لمحمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي**[٤٧]، نراه يذكر أقوال محمد ابن محمود في البيروني، كما يذكر له شعرًا في "أبي الفتح البستي"[٤٨] يقول ياقوت: " ويمدح أبا الفتح البستي من كتاب "سر السرور"[٤٩].

كذلك في ترجمته **للفضل بن إسماعيل التميمي أبي عامرالجرجاني**[٥٠]، قال ياقوت: " أديب، أريب،... ذكره محمد بن محمود النيسابوري في كتاب" سر السرور" فقال[٥١]: "رباع الفضل بتصانيفه عامرة، ورياض الأدب بكلماته ناضرة، فكأن الربيع فضلة من بدائعها، والزهر ضرة لروائعها، وشعره يُطرقُ السحرُ بين يديه...، تقرأ آيات الإحسان من أبياته، وتخفق عذبات الإبداع من راياته، وله تصانيف باسم الشيخ الأجل عبد الحميد أهداها إليه بغزنة، فأشرقت بها أرجاؤها، وأغدقت أنواؤها، منها: كتاب " البيان في علم القرآن"، وكتاب "عروق الذهب من أشعار العرب"، وكتاب " سلوة الغرباء"، وغيرها".

كما ذكره ياقوت في ترجمة "**أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت**"[٥٢] يقول ياقوت[٥٣]: "ومن شعر أمية منقولًا من كتاب سر السرور"...، ثم يذكر خبرًا عنه للقاضي الغزنوي فقد كان يروي أخباره في سر السرور، فيقول: " قال محمد بن

كتاب سر السرور وتصحيح نسبته إلى القاضي أبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري الغزنوي المتوفى (بعد ٥٦٠هـ)

محمود: حدثني طلحة أن أبا الصلت اجتمع في بعض منتزهات مصر...".

كما ذكره ياقوت في ترجمة "**علي بن محمد الماوردي**"(٥٤)، يقول(٥٥): "قرأت في كتاب "سر السرور" لمحمد بن محمود النيسابوري هذين البيتين منسوبين إلى الماوردي هذا(٥٦):

وفي الجهلِ قبل الموتِ موتٌ لأهلهِ

فأجسادُهُم دون القبورِ قبورُ

كما أورد ياقوت ذكر "سر السرور" في ترجمة: "**عطاء بن يعقوب الغزنوي**"(٥٧) **أبو العلاء** المعروف بناكل، يقول ياقوت(٥٨): "قال صاحب سر السرور: إذا اجتمع الأفاضل في مضمار التفاضل، واتزنوا بمعيار التساجل، كان هذا الشيخ هو الأبعد إحضارًا، والأرجح مقدارًا، أقر له بالتقديم رجالات الآفاق، وأذعن له بالترجيح فضلاء خراسان والعراق،... حتى سافر كلامه من غزنة إلى العراق، ومن ثم إلى سائر الآفاق، حتى إني حُدثت أن ديوان شعره بمصر يُشترى بمائين من الحمر، الراقصات على الظفر، والمشهور أن ديوان شعره العربي والفارسي يُشترى بخراسلن بأوفر الأثمان، وكيف لا ؟ وما من كلمة من كلماته إلا وحقها أن تملك الأنفُس وتقتنى، وتباع بالأنفَس وتشترى" ويسوق ياقوت شيئًا من نثره وشعره.

وهذا إن دل فإنما يدل على مايتمتع به صاحب "سر السرور" القاضي الغزنوي من أدب رفيع، وقلم سيال وأنه ملك ناصية اللغة، فطبع كتابه بطابع عصره القرن السادس، فأسلوبه قريب من أسلوب العماد الأصفهاني صاحب الخريدة عصريه.

وقد مر معنا آنفًا في مطلع البحث ذكر كتاب "سر السرور" في ترجمة

أبي الفتح بن جني، وابن رشيق القيرواني، وعلي بن فضال المجاشعي. هذا وإن دل على شيء فهو يدل على أهمية كتاب "سر السرور" من جهة، ورسوخ قدم القاضي أبي العلاء الغزنوي في معرفة الشعراء وتراجمهم في القرنين الخامس والسادس واختياراته الموفقة لأشعارهم من جهة أخرى، وبأسلوبه الأدبي النثري المميز المنمق من جهة ثالثة، مما حدا بياقوت الحموي، والقفطي، والصفدي وغيرهم مما سنأتي على ذكره من الإكثار من الاستشهاد بأشعار كتاب "سر السرور" وأقوال القاضي الغزنوي الثقة في حكمه على الشعراء.

كما نجد لسر السرور ذكرًا عند **ابن الصلاح الشهرزوري في " طبقات الفقهاء الشافعية"**: في سيرة الوزير **نظام الملك الطوسي**(٥٩). يقول ابن الصلاح(٦٠): "وحكى القاضي أبو العلاء الغزنوي في كتاب "سر السرور" أن نظام الملك صادف في سفره رجلًا في زي العلماء، قد مسه الكلال فقال له: أيها الشيخ أعييت أم عييت ؟ فقال: أعييت يامولانا، فتقدم إلى حاجبه ليقدم إليه بعض الجنائب(٦١) وأن يصلح من شأنه، وأخذ في اصطناعه. وإنما أراد بسؤاله اختباره، فإنّ عيي: في اللسان، وأعيى: تعب".

ونجد **القفطي** يذكر القاضي الغزنوي وكتابه "سر السرور" في مصنفه: "**المحمدون من الشعراء**" فيما يورده في بعض التراجم، فعلى سبيل المثال عند ذكر "**محمد بن إبراهيم الأسدي أبي عبد الله**"(٦٢)، يقول القفطي(٦٣): "أنبأنا السمعاني في كتابه قال: "وذكر صديقنا أبو العلاء محمد ابن محمود الغزنوي – رحمه الله – قال: قرأت بخط محمد بن إبراهيم الأسدي المكي... وذكر القصة، ثم قال في نهاية الترجمة: "وذكر القاضي أبو العلاء النيسابوري أن أبا عبد الله محمد

ابن إبراهيم الأسدي ولد بمكة في المحرم سنة إحدى وأربع مئة، وتوفي بغزنة مستهل محرم سنة خمسمئة".

وفي "**بغية الطلب في تاريخ حلب**" لـ: "**عمر ابن أحمد بن أبي جرادة**" المعروف بـ "**ابن العديم الحلبي**"، ورد ذكر كتاب " سر السرور" كثيرًا في ثنايا ترجماته، وسأقتصر على بعض الأمثلة.

فمثلاً عندما ذكر ابن العديم ترجمة "**دبيس ابن صدقة**" قال[٦٤]: "أخبرنا الشريف افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال: أخبرنا أبو سعد السمعاني: قال: ذكر صديقنا أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنة في كتاب "سر السرور" قال: حدثني من صحب ملك العرب أبا الأغر "دبيس ابن صدقة بن منصور ابن دبيس الأسدي" أن هجيراه كان إنشاد هذين البيتين:

إن الليالِيَ للأنام مناهلٌ
تُطوى وتُبسطُ فيهما الأعمارُ
فقِصارُهن مع الهمومِ طويلةٌ
وطِوالهن مع السرورِ قصارُ

وفي موضع آخر يقول ابن العديم في سيرة "دبيس بن صدقة":[٦٥] " قال: أخبرنا الإمام أبوسعد عبد الكريم بن محمد المروزي قال: " كتبت من كتاب "سر السرور" لأبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنة قال: "لما قام المسترشد بأعباء الخلافة واستتب أمره خالفه أبو الحسن علي بن أحمد الملقب بـ: الذخيرة أخو المسترشد بالله، وانحدر إلى واسط، ثم اتصل بدبيس بن صدقة، ولم تطل الأيام حتى خاس بعهده، وأخفر ذمته على ماقبل، وأمكن أخاه من رقبته، فعند ذلك كتب إليه..". وذكر ماقيل من الشعر.....

وفي ترجمة الأستاذ الوزير "**أبي إسماعيل الحسين بن علي بن محمد الطغرائي الأصبهاني**"[٦٦] يقول ابن العديم[٦٧]: " قال السلفي[٦٨]: "وقد أعارني أبو الحسن المالكي[٦٩] كتابًا لمحمد بن محمود النيسابوري بخطه وفيه شيء من بديع شعر الأستاذ أبي إسماعيل ومليحه، الذي ظهرت مهارته فيه وفي تنقيحه، ومن ذلك قوله:.... ثم ذكر الأبيات. قلت: -أي ابن العديم- وهذا الكتاب لأبي العلاء محمد بن محمود سماه "سر السرور".

وفي ترجمة الوزير "**نظام الملك الطوسي**" يذكر القصة التي ستتكرر في معظم كتب التراجم التي ذكرت نظام الملك والتي أكثرنا من الاستشهاد بها لأن هذه المصادر تذكر كتاب "سر السرور" ومؤلفه القاضي النيسابوري الغزنوي. يقول ابن العديم[٧٠]: "قال أبوسعد: قرأت في كتاب "سر السرور" لصديقنا القاضي أبي العلاء محمد بن محمود الغزنوي أن نظام الملك كان في بعض أسفاره إذ صادف رجلًا.... وساق القصة برمتها.

وفي "**تاريخ الإسلام**" للإمام "**شمس الدين الذهبي**" عندما ذكر الوزير "**نظام الملك الطوسي**"، قال[٧١]: "حكى القاضي أبو العلاء الغزنوي في كتاب "سر السرور" أن نظام الملك صادف في سفره رجلًا في زي العلماء، قد مسه الكلال...وذكر القصة

وفي **الوافي بالوفيات نجد الصفدي** يذكر كتاب "سر السرور" في ترجمة القاضي الغزنوي، وفي ترجمة بعض الأعلام المترجم لهم، فعلى سبيل المثال عند ترجمته للشاعرة "**سلمى البغدادية**"[٧٢] يقول الصفدي[٧٣]: "قال ابن النجار: ذكرها القاضي أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري في كتاب "سر السرور" الذي جمعه في شعراء عصره، وأورد لها ثلاثة أبيات من الوافر". ثم ذكر

كتاب سر السرور وتصحيح نسبته إلى القاضي أبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري الغزنوي المتوفى (بعد ٥٦٠هـ)

هذه الأبيات.

وأيضًا في ترجمته "**لصعبة البغدادية**"[٧٤] الشاعرة يقول الصفدي[٧٥]: "ذكرها أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنة في كتاب "سر السرور" الذي جمعه في أخبار شعراء عصره، قال: "أنشدت لها هذين البيتين"، ثم ذكرهما.

وتارة يذكر بعض الأبيات وينسبها معتمدًا في سر السرور إلى قائلها، يقول الصفدي[٧٦]: "وفي كتاب سر السرور لمحمد بن محمود النيسابوري بيتان منسوبان إلى الماوردي"[٧٧]. ثم يذكرهما.

وفي معرض ذكره **لأبي جعفر البحاثي الزوزني** يؤكد ماذكره ياقوت. "وذكر محمد بن محمود الغزنوي في كتابه "سر السرور" من أن شعر البحاثي نيف على عشرين ألف بيت" وأنه في تسعة مجلدات[٧٨].

كما يرد ذكر "سر السرور" في ترجمة "**عطاء بن يعقوب الغزنوي**"[٧٩] أبي العلاء المعروف بناكل، يقول الصفدي[٨٠]: "قال صاحب "سر السرور" في بعض وصفه وتقريظه: "حتى إني حُدثت أن ديوان شعره بمصر يُشترى بمائين من الحمر، الراقصات على الظفر، والمشهور أن ديوان شعره العربي والفارسي يُشترى بخراسلن بأوفر الأثمان، وكيف لا ؟ وما من كلمة من كلماته إلا وحقها أن تملك الأنفُس وتقتنى، وتباع بالأنفَس وتشترى".

وقد أبرز الصفدي مكانة يعقوب الغزنوي وفضله. ونلاحظ أن هذه الترجمة منقولة من معجم الأدباء.

كذلك يرد ذكر "سر السرور" في ترجمة "**محمد ابن إدريس أبي عبد الله الأندلسي**" المعروف بـ: "**ابن مرج الكحل**"[٨١]، حيث يذكر الصفدي أبياتًا له قد ضمنها كتاب "سر السرور"، يقول الصفدي ذاكرًا بعض الأبيات[٨٢]:

وعشيةٍ كانت قنيصةَ فتيةٍ
ألفوا من الأدبِ الصريحِ شُيوخا
فكأنما العنقاءُ قد نصبوا لها
من الانحناءِ إلى الوقوعِ فُخوخا
شملتهم آدابُهُم فتجاذبوا
سر السرور محدثًا ومُصيخا

ونجد ذكرًا للأبيات وقد ضمن فيها "سر السرور" في بعض المصنفات الأندلسية مثل: "**تحفة القادم**" لـ "**ابن الأبار**"، في ترجمة "**ابن مرج الكحل**"[٨٣].

وكذلك في "**برنامج شيوخ الرعيني**" لـ "**أبي الحسن الرعيني**" في الترجمة السابقة، قال أبو الحسن الرعيني[٨٤]: "وأنشدني لنفسه" (أي ابن مرج الكحل)......، وذكر الأبيات السابقة.

كما وردت الأبيات في كتاب "**الإحاطة في أخبار غرناطة**" لمؤلفه: "**لسان الدين ابن الخطيب**"، في ترجمة ابن مرج الكحل[٨٥] أيضًا، يقول لسان الدين: "قال أبو الحسن الرعيني: "وأنشدني لنفسه" (أي الشاعر ابن مرج الكحل).... وساق الأبيات السابقة.

كما وردت هذه الأبيات **في** "**نفح الطيب**" لـ "**أبي العباس أحمد بن محمد المقري**"، في ترجمة "**ابن مرج الكحل**".إذ يذكر المقري أن أبا الحسن الرعيني قال[٨٦]: إنه أنشده الأبيات السابقة. وهذا يدل على أن الأندلسيين والمغاربة كانوا على اطلاع على هذا السفر القيم.

وفي "**طبقات الشافعية الكبرى**" "**لعبد الوهاب تاج الدين السبكي**" نجد ذكر كتاب "سر السرور" في معرض حديثه عن "**نظام الملك الطوسي**" الشافعي المذهب. حيث يورد قصته، يقول[٨٧]:

"قال أبو سعد بن السمعاني: قرأت في كتاب "سر السرور" لصديقنا القاضي أبي العلاء محمد بن محمود الغزنوي أن نظام الملك صادف في سفره رجلًا في زي العلماء... وسرد لنا القصة.

كما ورد ذكر القاضي أبي العلاء الغزنوي في "**الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**" **لابن حجر العسقلاني**، وذكر أبياته التي مرت معنا سابقًا، وإن لم يرد ذكر سر السرور صراحة.

وهناك ذكر للقاضي الغزنوي كذلك **في** "**البلدانيات**" للإمام "**علم الدين السخاوي**"، إذ يقول ناقلًا عن **المرغيناني** في كتابه: "**الهداية**" قوله" أنشدني معين الدين أبو العلاء محمد بن محمود الغزنوي النيسابوري لنفسه..."، ولكنه لم يذكر كتابه وإنما كان في معرض ذكر شعره. وقد مر معنا هذا القول، وأعدناه هنا لنؤيد ماذهبنا إليه من أن القاضي الغزنوي قد ورد ذكره في المصادر منذ القرن السادس، وتوالى ذكره في مصادر القرون التالية.

وإذا ماوصلنا إلى مصنفات الإمام **جلال الدين السيوطي** نجده يكرر ذكر القاضي الغزنوي وكتابه: "سر السرور" في مصنفاته، فعلى سبيل المثال في كتابه: "**نزهة الجلساء في أشعار النساء**" يردد ذكر الكتاب في ترجمته للشاعرة "**سلمى البغدادية**"[٨٨] وينقل كلام ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد نفسه الذي ورد عند القفطي وغيره. فيقول[٨٩]: "قال ابن النجار: ذكرها القاضي أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري في كتاب "سر السرور" الذي جمعه في شعراء عصره، وأورد لها هذه الأبيات". وذكرها.

وكذلك في ترجمته **لصعبة البغدادية**[٩٠] الشاعرة، يقول السيوطي[٩١]: قال ابن النجار: "ذكرها أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنة في كتاب "سر السرور" الذي جمعه في أخبار شعراء عصره، قال: " أنشدت لها هذين البيتين"، ثم ذكرهما.

وفي كتابه: "**طبقات المفسرين**" يذكر "سر السرور" في ترجمة: "**الحسن بن محمد بن حبيب ابن أيوب أبي القاسم النيسابوري**"[٩٢] فيقول[٩٣]: ذكره - أي القاضي الغزنوي - في "سر السرور"، وقال:"هو أشهر مفسري خراسان، وأقضاهم لحق الإحسان".

وكذلك نجد في "**طبقات المفسرين**" **للداوودي** ذكر سر السرور في ترجمة: "**الحسن بن محمد بن حبيب بن أيوب أبي القاسم النيسابوري**"[٩٤] فيورد قولاً مشابهًا لما ذكره شيخه السيوطي في طبقاته، فيقول[٩٥]: ذكره - أي القاضي الغزنوي - في "سر السرور"، وقال:"هو أشهر مفسري خراسان، وأقضاهم لحق الإحسان".

وفي "**طبقات المفسرين**" **للأدرنه وي** أيضًا هناك ذكر سر السرور في ترجمة: "**الحسن ابن محمد بن حبيب بن أيوب أبي القاسم النيسابوري**" فيورد قولًا مشابهًا لما ذكره السيوطي والداوودي في طبقاتهما، فيقول[٩٦]: ذكره - أي القاضي الغزنوي - في "سر السرور"، وقال:"هو أشهر مفسري خراسان، وأقضاهم لحق الإحسان".

ونرى "**حاجي خليفة**" في "**كشف الظنون**" يأتي على ذكر "سر السرور" فيقول[٩٧]: "سر السرور للقاضي أبي العلاء الغزنوي ألفه في ذكر شعراء أوانه". وفي موضع آخر يقول[٩٨]: "ومن الكتب المؤلفة في الشعراء كتاب "سر السرور" للغزنوي".

ونرى السيد الشريف "**عبد الحي الحسني**" في "**نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**" يذكر أبا العلاء الغزنوي " ومصنفه "سر السرور" في

كتاب سر السرور وتصحيح نسبته إلى القاضي أبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري الغزنوي المتوفى (بعد ٥٦٠هـ)

ترجمة "**عطاء بن يعقوب الغزنوي**"[٩٩]. يقول السيد عبد الحي الحسني رحمه الله[١٠٠]: " أبو العلاء، عطاء بن يعقوب الغزنوي، الكاتب العميد الأجل المعروف بـ "ناكوك" ... نقل ياقوت في "المعجم" عن القاضي "معين الدين محمد بن محمود الغزنوي" صاحب "سر السرور" كلامًا في مدائحه قد تأنق فيه بعبارات بديعة لا فائدة من نقلها".

ومن هذا العرض والتتبع للمصادر التي بين أيدينا والتي لانستطيع استقصاءها مهما بذلنا من جهد يتبين لنا بالدليل الذي لاشك فيه أن كتاب "سر السرور" صحيح النسبة إلى القاضي الغزنوي معين الدين أبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري رحمه الله - تعالى - رحمة واسعة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحواشي

١. عثمان بن جني أبو الفتح النحوي، من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، من مصنفاته: الخصائص، والتمام في تفسير أشعار هذيل، والمحتسب في شرح الشواذ، وسر صناعة الإعراب، ولد سنة٣٣٠هـ، وتوفي سنة٣٩٢ هـ.(نزهة الألباء ٢٨٧- ٢٨٨، والمنتظم (وفيات٣٩٢ هـ)، ومعجم الأدباء ١٥٨٥/٤- ١٥٨٩، وإنباه الرواة على أنباه النحاة ٣٣٥/٢ – ٣٤٠، وإشارة التعيين ٢٠٠-٢٠١، والسير١٧/١٧ - ١٩، والعبر٥٣/٣، والبلغة ١٩٤/٢ – ١٩٥، والبغية ١٢٦/٢ – ١٢٧، والأعلام ٢٠٤/٤).

٢. ينظر على سبيل المثال مقدمة علل التثنية ص١٢، فقد نسب محققه د. صبيح التميمي سر السرور إلى ابن جني قائلًا : " ذكره ياقوت في معجم الأدباء واقتبس منه أبيات شعر لابن جني". وأيضًا ذكره د. فاضل السامرائي في كتابه ابن جني النحوي ص ٨٨ قال : " سر السرور ونقل عنه ياقوت". وكذلك د. أسعد طلس في بحثه: "أبو الفتح ابن جني" في مجلة المجمع في دمشق ع٣٢/ ص٣٨٤، يقول: " ذكره ياقوت ولم يذكره الحاج خليفة، ولا بروكلمان، ولم أعثر على ذكر له فيما عندي من المظان". كما ينظر ما كتبه د. غنيم بن غانم الينبعاوي في كتابه: أضواء على آثار ابن جني في اللغة الآثار المخطوطة والمفقودة ص٤٧، يقول: "وحينما عدت إلى معجم الأدباء لياقوت الحموي لم أجد لهذا الكتاب ذكرًا في كتب ابن جني التي أوردها ياقوت نقلًا عن إجازة ابن جني أو في الكتب التي ذكرها ياقوت لابن جني ولم ترد في الإجازة". والبحث كاف في الرد على الأخ الدكتور وفي تبيين المواضع التي ذكر بها "سر السرور" حتى في ترجمة ابن جني نفسه.

٣. معجم الأدباء ١٥٨٩/٤

٤. الحسن بن رشيق القيرواني، كان شاعرًا، أديبًا، نحويًا، لغويًا، عروضيًا، حاذقًا، كثير التصنيف، حسن التأليف، من مصنفاته: العمدة، وقراضة الذهب، والأنموذج، وديوان شعر، والشذوذ في اللغة، ولد بالمحمدية سنة٣٩٠ه، وتوفي بمازر إحدى مدن صقلية سنة٤٦٣هـ. (الذخيرة ٥٩٧/٢/٤ – ٦٠٩، ومعجم الأدباء ٨٦١/٢، وإنباه الرواة ٣٣٣/١ – ٣٣٩، وإشارة التعيين ٨٩ – ٩٠، والعبر ٧٩/٤، والسير ٣٢٤/١٨ – ٣٢٥، ومسالك الأبصار ٨٧/١/١٧ – ٩٦، والبلغة ١١٢ – ١١٣، والبغية٤٨٤/١ – ٤٨٥، ونفح الطيب٢٥٧/٣، والحلل السندسية٢٦٤/١-٢٦٨، ٧٢/٢-٧٥، وإيضاح المكنون ٥٧٧/١، ٦٢٦/٢، والأعلام ١٩١/٢، ومعجم المؤلفين٢٥٥/٣، ومعجم الشعراء الأندلسيين والمغاربة ١٣٢ – ١٣٣).

٥. ينظر الموسوعة العربية العالمية فقد نسبته لابن رشيق في ترجمته.

٦. معجم الأدباء ٨٦٣/٢

٧. علي بن فضال بن علي الفرزدقي المجاشعي القيرواني صاحب نكت المعاني على آيات المثاني ، وشرح عيون الإعراب ، والمقدمة في النحو، والإشارة إلى تحسين العبارة والعوامل والهوامل ، توفي في بغداد و دفن في مقبرة أبرز عام (٤٧٩ هـ). ترجمته في: دمية القصر ٣٦/١-٣٨،٦١-٦٣ (طبعة الكويت) وسياق تاريخ نيسابور (ق٧١)، والأنساب ١٩٨/٥، وتبيين كذب المفتري٢٨٣، وخريدة القصر ٣٦٥/١/٤ – ٣٦٨، والمنتظم ١٦/ ٢٦٣، ومعجم الأدباء ١٨٣٤/٤ – ١٨٣٨، والكامل ٤٥٠/٨، وتاريخ إربل ٣٥٣/٢، والمنتخب ٤٣٢، ٥٩٦ – ٥٩٧ (طبعة قم)، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٨٥/١٦ -٩٥، وإنباه الرواة ٢٩٩/٢ -٣٠١، وفهرسة اللبلي ٤٦، وإشارة التعيين ٢٢٤ - ٢٢٥، والسير١٨/ ٢٢٨

– ٢٢٩، والعبر ٣/٢٩٥، وتاريخ الإسلام : (وفيات ٤٧١ – ٤٨٠)، والمختصر المحتاج إليه١/١٦٩، وتلخيص ابن مكتوم (ق ٧٥ – ٧٦)، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢١٢-٢١٣، والوافي بالوفيات ٢١/ ٣٨١ - ٣٨٤، ومرآة الجنان ٣/ ١٢٨-١٣٢، وطبقات الشافعية للسبكي ٥/ ١٧٩(في ترجمة الجويني) و٧/٢٦٧ (في ترجمة الحريري)، والبداية والنهاية ١٢/١٣٢، وطبقات الفقهاء الشافعيين٢/٢٩٩ – ٣٠١، والبلغة ٢١٢ – ٢١٣، وطبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة (ق٤٣٨ – ٤٤٠)، وطبقات الشافعية له ٢/١٧٧-١٧٨، ولسان الميزان ٦/٦، والنجوم الزاهرة ٥/١٢٤، وبغية الوعاة ٢/١٧٦، وطبقات المفسرين له ٨٢، وطبقات المفسرين للداوودي ١/٤٢١ - ٤٢٢، وطبقات المفسرين للأدرنه وي ١٣٥ – ١٣٦، وكشف الظنون ٢/١٠٢٧، ١١٧٩، ١٤١٨، وشذرات الذهب ٣/٣٦٣، وروضات الجنات ٥/ ٢٣٦ – ٢٣٧، وإيضاح المكنون ١/ ٨٥، ١١٥، ١١٦، ١٧٨، ٢/١٩٤، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٤٤ ، ٦٧٧، وهدية العارفين ١/٦٩٣، والأعلام ٤/٣١٩، ومعجم المؤلفين ٧/١٦٥ – ١٦٦، ومعجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر ١/٣٧٣.والمقابر والمشاهد لابن أنجب الساعي (باب أبرز). وينظر بحثنا عنه : ابن فضال المجاشعي وماتبقى من شعره.

٨. ينظر على سبيل المثال: مقدمة تحقيق الدكتور عبد الفتاح سليم لشرح عيون الإعراب ١٢، قال عنه : "وأشار إليه معجم الأدباء، وهدية العارفين" ،ومقدمة النكت في القرآن١/١٠، بتحقيق الدكتور إبراهيم الحاج علي، وقال عنه: " ولم أقف على موضوعه" .

٩. ينظر: معجم الأدباء٢/٧٤١ – ٧٤٢، ٥/٢١٦٦، ٦/٢٤٣٢/٢٣٣٤، والوافي بالوفيات ٥/٧، وطبقات الشافعية لابن الصلاح ١/٤٤٧ -٤٤٨، وطبقات السبكي ٤/٣٢٨، وطبقات الإسنوي(في ترجمة نظام الملك) ، وكشف الظنون٢/٩٨٧، ١١٠٣).

١٠. نسبة إلى نيسابور وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، وهي قلب لما حولها من البلدان والأقطار، افتتحها عبد الله بن كريز في عهد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وقيل: افتتحها الأحنف بن قيس في زمن عمر، رضي الله عنه، ثم خربها التتر.(معجم البلدان٥/٣٣١-٣٣٣، والروض المعطار٥٨٨، وبلدان الخلافة الشرقية ٤٢٤ - ٤٢٦).

١١. نسبة إلى غزنة، وتسمى غزنين كذلك وهو الصحيح عند العلماء كما يقول ياقوت، وهي مدينة عظيمة، وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند، وكانت منزل بني محمود بن سبكْتكين إلى أن انقرضوا. (معجم البلدان٤/٢٠١-٢٠٢).

١٢. عبد الكريم أبو سعد بن الإمام الحافظ أبي بكر محمد ابن العلامة أبي المظفر منصور بن محمد التميمي السمعاني المروزي الشافعي، أبو سعد السمعاني (٥٠٦هـ - ٥٦٢ هـ)، وهو صاحب كتاب الأنساب، وفضل الشام، وتاريخ مرو، وأدب الإملاء والاستملاء، والأمالي، ومعجم شيوخه، والتحبير في المعجم الكبير، والمذيل (المنتظم ١٨/٧٨ – ٧٩، واللباب١/١٣ – ١٦، ووفيات الأعيان ٣/٢٠٩وفيات سنة ٥٦٢ هـ ، والسير٢٠/٤٥٦ – ٤٦٥، والعبر٤/١١٧٨، ودول الإسلام ٢/٧٦، وطبقات السبكي٧/١٨٠ – ١٨٥، وشذرات الذهب٦/٣٤٠ - ٣٤١، وهدية العارفين ١/٦٠٨ – ٦٠٩، وتاريخ بروكلمان٦/٦٣ - ٦٦).

١٣. ترجمته في: معجم الأدباء ٦/٢٦٨٦، والوافي بالوفيات ٢٥/٢٨٤ – ٢٨٦، وبغية الوعاة ٢/٢٦٨، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/٣١١ – ٣١٢، وطبقات المفسرين للأدرنه وي٤٢٤ – ٤٢٥، وكشف الظنون ١/٢٠٥، ٣٩٣، ٦٠١، وإيضاح المكنون ١/٨٣، ١٦٢، ٤٦٨، ٢/٥٨، ١٤٤، وهدية العارفين ٢/٤٠٣ وفيه: نجم الدين النيسابوري، والأعلام ٧/١٦٧، ومعجم المؤلفين ١٢/١٨٢، ومعجم المفسرين لنويهض ٢/٦٦٦.

١٤. الخُجَنْد: بضم الخاء، وفتح الجيم وسكون النون، وتلفظ بالتاء(خجندة) مدينة فيما وراء النهر وهي أول مدن فرغانة من الغرب، وينسب إليها جماعة وافرة من أهل العلم .(معجم البلدان ٢/٣٩٧ – ٣٩٨، وبلدان الخلافة الشرقية ٥٢٢ – ٥٢٣).

١٥. هدية العارفين ٢/٤٠٣

١٦. هذا ماذكره النعيمي في الدارس في تاريخ المدارس١/٥٨٩، في ترجمة نجم الدين النيسابوري، لكنه – والله أعلم- هو غير بيان الحق إذ لم يذكر ياقوت والصفدي ذلك اللقب ولا غيرهما من المتقدمين، والذي أطلق على بيان الحق هذا اللقب وأنه والد القاضي الغزنوي هو صاحب كشف الظنون فقد أورده عند ذكر تصانيف خلق الإنسان(كشف الظنون ١/٢٢٧)، وكذلك أورده البغدادي في(هدية العارفين ٢/٤٠٣).وأما نجم الدين فربما يكون أحد النيسابوريين الذين درسوا في دمشق. كذلك ذكر النعيمي أن محمدًا خلف أباه في

التدريس في المدرسة المعينية، وليس بين أيدينا دليلًا قاطعًا بذلك.

١٧. معجم الأدباء ٦/٢٦٨٦

١٨. ١/٧٣٣كشف الظنون

١٩. حققه د. حنيف القاسمي ونشره في دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط١ – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م. كما حققه د. علي العبيد ونشره في مكتبة التوبة – الرياض – ط١ – ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٢٠. ينظر مصنفاته في: الوافي بالوفيات ٢٥/٢٨٤ – ٢٨٥، وقد أوصلها محقق إيجاز البيان إلى ثلاثة عشر مصنفًا، كما بلغت عند الأخت الدكتورة الفاضلة سعاد بابقي محققة "باهر البرهان" إلى عشرين مصنفًا.

٢١. حققه أ. صفوان داودي بعنوان: "وضح القرآن"، كما حققته الأخت د. سعاد بابقي ونشرته في جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ط١ – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م. مثبتة العنوان الحقيقي له.

٢٢. إيضاح المكنون ١/٤٦٨، ٦١٠.

٢٣. إيجاز البيان، مقدمة التحقيق١/٢٦

٢٤. معجم الأدباء ٦/٢٦٨٦، وبغية الوعاة ٢/٢٦٨، والازدهار ٧٤، وطبقات المفسرين للداوودي ٢/٣١٢

٢٥. عمر بن محمد البلخي ثم الدمشقي سافر إلى مصر، والعراقين، وخراسان، وماوراء النهر (ت٥٧٤ هـ) . ترجمته في: تكملة الإكمال لابن نقطة٣/١١٧(ضمن ترجمة أمة الرحمن القشيري)، وذيل تاريخ مدينة السلام لابن الدبيثي ٤/٢٤٢، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٢/١٠٤، وبغية الطلب ٢/٦٩٤، ٦٩٧، ٤/١٦٣٥، ١٩٧٣، ١٩٥٢، ٥/٢٣٤١، ٢٤٠٥، ٩/٤١١٢، والسير١٥/٢٩٢، وتاريخ الإسلام١٢/٥٤٢ (تح: أ. د. بشار عواد)، وشذرات الذهب ٦/٤١١.

٢٦. في طبقات الداودي: تحقرن، ولم يقلبها ألفًا.

٢٧. البلدانيات : البلد الثامن والأربعون (طنان).

٢٨. برهان الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني الحنفي (ت٥٩٣ هـ) ، له كتاب بداية المبتدي وكفاية المنتهي ، ثم شرحه ثانية في كتابه: الهداية في شرح البداية. ترجمته في:(السير٢١/٢٣٢، والجواهر المضية٢/٦٢٧ -٦٢٩، وتاج التراجم ١٤٨، طبقات الفقهاء لطاش كبري زادة ١٠١، ومفتاح السعادة له ٢/٢٦٣، وكتائب أعلام الأخيار ٢٠٣آ ،والفوائد البهية١٤١، وهدية العارفين١/٧٠٢).

٢٩. ترجمته في: بغية الطلب ٣/١٠٢٩ ،١١٢٦، والجواهر المضية١/٣١٥ – ٣١٦، والمنهل الصافي ٢/٢٨٣، وتاج التراجم٢٧، وفي طبقات الفقهاء لطاش كبري زاده (هو: أحمد بن محمود١٠٥)، ومفتاح دار السعادة له ٢/٢٨٤-٢٨٥، وطبقات الحنفية لابن الحنائي ٢/١٧٤ – ١٧٦، وكتائب أعلام الأخيار ٢١٢آ ، والأثمار الجنية ١/٣٤٥، وكشف الظنون ١/٩٣٢، ٢/١٨٠٢ -١٨٠٣، ١٨٣٨، والفوائد البهية٤٠، والتعليقات السنية٢/٨٩-٩٠، وإيضاح المكنون ٢/٥٧٠، وهدية العارفين ١/٨٩.

٣٠. له تاريخ مرو وهو مفقود ، والمذيل كذلك ، وللمذيل منتخب انتخبه ابن منظور المصري الإفريقي، ولا ندري في أي الكتابين ذكر ذلك، لكن ذكر ابن العماد مرة قال: "قال السمعاني في تاريخه المذيل وهذا صحيح ، فعندما يذكر المؤرخون تاريخ مرو يقيدونه، أما تاريخه المذيل على تاريخ بغداد فيقولون مذيله أو تاريخه.

٣١. لم أعثر له على ترجمة فيما لدي من المصادر، وأرجو لمن وجد ترجمة له أن يفيدنا مشكورًا .لكن عثرت على ترجمة لنصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي أبو الفتح، شيخ الشافعية في الشام، الفقيه العابد،الزاهد، عاش في القدس ودخل الشام وسكنها سنة(٤٨٠ هـ)، وتوفي فيها سنة(٤٩٠ هـ)، وله من المصنفات: الانتخاب، والتقريب، والتهذيب، ومختصر الحجة على تارك المحجة، وسمع منه أبو بكر الخطيب وأبو بكر ابن العربي(ت٥٤٤ هـ).ترجمته في: (تبيين كذب المفتري ٢٨٦، والعبر٣/٣٢٩، ومعجم البلدان ٥/١٧١-١٧٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي٤/٢٧، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة١/٢٧٤ – ٢٧٦، وشذرات الذهب٣/٣٩٥، وهدية العارفين٢/٤٩٠).ومن المحتمل جدًا أن يكون طلحة المذكور ابنه ، وكان من شيوخ القاضي الغزنوي.

٣٢. ذكر أ. محمد بهجت الأثري محقق الخريدة (قسم العراق) أن سر السرور هو في ذكر شعراء القرن السادس (الخريدة ٤/١/١٦٠)، وربما اعتمد قول صاحب كشف الظنون:"ألفه في ذكر شعراء أوانه". (كشف الظنون ٢/٩٨٧).لكن من خلال التتبع الدقيق يظهر أن القاضي الغزنوي ترجم لشعراء القرنين الخامس والسادس إذ عاش خلالهما. وأحيانًا يورد ذكر بعض الأدباء الذين عاشوا في نهاية القرن الرابع.

٣٣. ترجمتها في (الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٣٠، ونفح الطيب ٤/١٧٨، ونزهة الجلساء ٥٣، وأعلام النساء لكحالة

٢/٢٤٠).

٣٤. الخريدة ٣/٢/٤١٢ (قسم العراق) تح: محمد بهجت الأثري – بغداد – ١٩٧٨م. وينظر الشعر العربي في العراق ٢/٢١٣ – ٢١٤.

٣٥. سليمان بن فياض الإسكندراني، شاعر من مصر، أصله من الإسكندرية، كان تاجرًا، رحل إلى العراق واليمن وخراسان، ودخل الهند، وتوفي فيها سنة (٥١٦ هـ)، وقيل: غرق في البحر. ترجمته في: الخريدة قسم شعراء مصر٢/٢٠٠ -٢٠٢، والأعلام ٣/١٣١.

٣٦. الخريدة قسم شعراء مصر٢/٢٠٢.

٣٧. لاهور: بفتح أوله وسكون ثانيه والهاء وآخره راء ، والمشهور من اسم هذا البلد لهاور، وهي مدينة عظيمة مشهورة في الهند.(معجم البلدان ٥/٣١).

٣٨. بهاء الدولة ، أبو كامل منصور بن دبيس توفي(٤٧٩ هـ) . الخريدة ٤/١/١٦٠ – ١٦١.

٣٩. نور الدولة ، ملك العرب دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي، توفي (٥٢٩ هـ).

٤٠. كان إمامًا، عالمًا، زاهدًا، ورعًا، رحل إلى المشرق، وسكن الشام ومصر، توفي في الإسكندرية عام (٥٢٠ هـ). ترجمته في: المغرب في حلى المغرب ٢/٤٢٤، والخريدة٢/٢٩٠ – ٢٩٢، ووفيات الأعيان٥/١٧٥، والعبر٤/٤٨، والنجوم الزاهرة ٥/٢٣١ ، وأزهار الرياض ٣/١٦٢ – ١٦٥، ونفح الطيب١/٥١٧، وشذرات الذهب٤/٦٢، ومعجم الشعراء الأندلسيين والمغاربة١٨٨

٤١. الخريدة: ٤/١/٤٠٢(قسم صقلية والمغرب والأندلس)

٤٢. مر ذكره ، ولم أعثر له على ترجمة فيما لدي من المصادر.

٤٣. ترجمته في: الوافي بالوفيات٢٤/٣١١ - ٣١٢ ، وعيون التواريخ:١٢/١٩٤ – ١٩٥، ومرآة الزمان(وفيات ٥٢٢ هـ).

٤٤. الخريدة: قسم شعراء مصر/٢/ ٢١٦

٤٥. محمد بن اسحق بن علي البحاثي، زينة زوزن، وصاحب التصانيف العجيبة المفيدة، منها: نحو القلوب، وشرح ديوان البحتري، توفي بغزنة سنة ٤٦٣ هـ.(تتمة اليتيمة ٢/٣٠ – ٣٢، ودمية القصر٢/٤٣٢ – ٤٤٠(تح: د. العاني)، والأنساب ١/٣٠١، ومعجم الأدباء ٦/٢٤٢٧ - ٢٤٣٣، والمنتخب ٥١، وإنباه الرواة ٣/٦٦، والمحمدون ١٨٧ – ١٨٨، قال القفطي: منسوب لجد له من أهل الفضل والنبل مشهور مذكور يعرف بالبحاث، والدر الثمين ١/١١٩، والوافي بالوفيات ٢/١٩٧ – ١٩٨، والجواهر المضية ٣/٨٧، ولب الألباب ٣١ وفيه: البحاث بالمهملة والمثلثة: كقفال: جده، والأثمار الجنية ٢/٥٦٩، وإيضاح المكنون ١/١٦٥، ٢/٦٢٩، والأعلام ٦/٢٩).

٤٦. معجم الأدباء ٦/٢٤٣٢.

٤٧. البيروني نسبة إلى بيرون بكسر الباء الموحدة وسكون الياء وضم الراء وفي آخرها نون، هذه النسبة لخارج خوارزم (الأنساب ١/٤٢٩) ، ولد بضواحي خوارزم ، وسافر إلى بلاد الهند، وكان حكيمًا، فلكيًا، رياضيًا، طبيبًا، أديبًا، مؤرخًا،ز له مصنفات كثيرة منها : "القانون المسعودي"، وعجائب الهند، ومختار الأشعار والآثار. قال ياقوت:" رأيت فهرست كتبه في وقف لجامع بمرو بنحو الستين ورقة بخط مكتنز" . ترجمته في: تاريخ حكماء الإسلام ٧٢ – ٧٤، وتتمة صوان الحكمة ٧٤ – ٧٥، وطبقات الأطباء ٢/٢٠ – ٢١. ومعجم الأدباء ٥/٢٣٣٠ -٢٣٣٥، ونزهة الأرواح ٢/٣٤٨ – ٣٥٢، وبغية الوعاة ١/٤٧، وفيه : أنه كان حيًا(بعد ٤٢٢ هـ) ،وهدية العارفين٢/١١٣ ،ونزهة الخواطر٧٠، والأعلام٥/٣١٤ ، وذكر بعضهم أن وفاته سنة(٤٣٠ هـ) ، وآخرون أنه توفي(٤٤٠ هـ) . ينظر: معجم المطبوعات العربية والمعربة٢/٦١٥ .

٤٨. أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين الشافعي البستي، من بلاد الأفغان، كان شاعرًا وناثرًا مجيدًا، وله كتاب "الفصول القصار"، كما خلف لنا كتابًا في الفقه و ديوان شعر، آخر من حققه أ. شاكر العاشور، ونشره في دار الينابيع – دمشق – ط٢ - ٢٠٠٨م. توفي أبو الفتح ببخارى سنة(٤٠٠هـ، أو ٤٠١ هـ) ينظر(يتيمة الدهر ٤/٣٠٢ – ٣٣٤ (في ترجمة اليميني)، والمنتظم ١٤/٢٣١ – ٢٣٣ وقد جعله مع وفيات (٣٦٣ هـ)، ومعجم البلدان (بست)، ووفيات الأعيان ٣/٣٧٦، والعبر ٣/٧٥، والوافي بالوفيات ٢٢/١٦٨، وطبقات السبكي ٤/٤، والبداية والنهاية١١/٣٣٢٢، ووهم ابن كثير رحمه الله كابن الجوزي فجعل وفاته (٣٦٣ هـ) وهذا لا يصح لأنه كان من كتاب السلطان محمود بن سبكتكين الذي تسلم الحكم بعد سنة(٣٨٧ هـ)، وشذرات الذهب٤/٥٢٤ -٥٢٦، وهدية العارفين ١/٦٨٥، والأعلام ٥/١٤٤.

٤٩. معجم الأدباء ٥/٢٣٣٤ .

٥٠. الفضل بن إسماعيل التميمي أديب، حسن النظم والنثر، قرأ على عبد القاهر الجرجاني، وأبي النصر الرامشي. ترجمته في: دمية القصر ٢/٢٢ – ٣٩، و٢/١٥ –

كتاب سر السرور وتصحيح نسبته إلى القاضي أبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري الغزنوي المتوفى (بعد ٥٦٠هـ)

٢٧ (ط/ د. العاني).(وعليه يعتمد الباخرزي في رواية كثير من الشعر الذي دونه في كتابه،عن حاشية الترجمة في معجم الأدباء، فقد لقيه الباخرزي عام ٤٤٤ه عندما دخل جرجان وأفاد منه)، والسياق ورقة٧٦ ، وبغية الطلب ٢٩٣/٤، ٣١٢/٦ – ٣١٤ ، ومعجم الأدباء ٢١٦٦/٥ – ٢١٧١، والمنتخب من السياق ٤١٣ وفيه: وسمع من أبي بكر المغربي سنة ٤٥٨ه، وإنباه الرواة ٣٧٠/١ (في ترجمة ابن فورجة، قال عنه القفطي: فاضل خراسان، ثم قال: وكان متصدرًا للإفادة بالري في سنة أربعين وأربع مئة)، والوافي بالوفيات ٢٣/٢٤ – ٣٠، وبغية الوعاة ٢٣٧/٢، وطبقات المفسرين للداوودي٣٢/٢، وشذرات الذهب ٣٥٥/٣.

٥١. معجم الأدباء ٢١٦٦/٥.

٥٢. أمية بن عبد العزيز أبو الصلت من أهل الأندلس، كان أديبًا، شاعرًا ، حكيمًا، صاحب فصاحة وبراعة، وعلم بالنجوم، وبالطب رحل إلى مصر، وسجن فيها، ثم انتقل إلى المهدية، وتوفي فيها سنة (٥٢٩ هـ). له كتاب: "الحديقة في مختار من شعر المحدثين"،على غرار اليتيمة، وديوان شعر حققه محمد المرزوقي ونشره بتونس. ترجمته في: المغرب في حلى المغرب ٢٤٣/١ – ٢٤٧، وتاريخ الحكماء ٨٠، وخريدة القصر/ قسم شعراء المغرب ١٨٩/١ – ٢٧٠، ومعجم الأدباء ٧٤٠/٢-٧٤٣، وإخبار العلماء بأخبار الحكماء٥٧ ،وتحفة القادم ٩ – ١٣، والدر الثمين ٢٣٢/١ – ٢٣٣، والوافي بالوفيات ٤٠٢/٩-٤٠٦، وشذرات الذهب٨٣/٤ ، ومعجم الشعراء الأندلسيين والمغاربة١٨٣.

٥٣. معجم الأدباء ٧٤١/٢ – ٧٤٢.

٥٤. علي بن محمد بن حبيب القاضي الماوردي الشافعي، أبو الحسن البصري، روى عنه الخطيب ووثقه، وهو صاحب كتاب الأحكام السلطانية، وأدب الدين والدنيا، توفي ٤٥٠هـ.(معجم الأدباء ١٩٥٥/٥ – ١٩٥٧، ووفيات الأعيان ٢٨٢/٣ – ٢٨٤، والسير ٦٤/١٨، والعبر ٢٢٣/٣، والوافي بالوفيات ٤٥١/٢١ – ٤٥٣، وطبقات السبكي ٢٦٧/٥، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢٣٠/١ – ٢٣٢، وشذرات الذهب ٢١٨/٥ – ٢١٩).

٥٥. معجم الأدباء ١٩٥٦/٥.

٥٦. البيتان موجودان في أدب الدنيا والدين ص ٥١ (نشرة محمد فتحي أبو بكر)

٥٧. عطاء بن يعقوب بن ناكل المعروف بناكوك(كما في نزهة الخواطر) الغزنوي كان من الشعراء، له ديوان بالفارسية، وآخر بالعربية أسر بلاهور ثماني سنوات. (ت٤٩١ هـ) . .ترجمته في: (دمية القصر٩٤١/٢ – ٩٤٣(القسم السادس في ذكر شعراء خرا سان وقهستان وبست وسجستان وغزنة) ، ومعجم الأدباء ٤/ ١٦٢٣ –١٦٢٧، والوافي بالوفيات١١٢/٢٠، وهدية العارفين ١/ ٦٦، ونزهة الخواطر ٦٨/١ – ٦٩) .

٥٨. معجم الأدباء ٤/ ١٦٢٣ –١٦٢٤.

٥٩. الحسن بن علي الطوسي نظام الملك ، وزر لألب أرسلان ملك بلخ، وكان نظام الملك يدبر أمره فرتب له الدواوين، وأحسن أمور الرعية، وبنى له المساجد والمدارس والرباطات إلى أن انقضت مدته سنة خمس وستين وأربعمئة. فتسلم ابنه ملكشاه، فبقي يدبر له الدولة الملكشاهية عشر سنين كذلك إلى أن قتل رحمه الله وهو صائم سنة (٤٨٥ هـ)، ودفن بأصبهان.ومن أولاده: فخر الملك وجمال الملك عثمان. ينظر: ذيل تاريخ بغداد لابن النجار فقد استفاض في سيرته، والأنساب ٢٢١/٣، والمنتظم٩٤/٩-٢٠٧٩٦/١٠، والكامل ٢٠٧/١٠، والمنتخب من سياق نيسابور١٨٩، وبغية الطلب ٢٤٧٨/٥ – ٢٥٠١ ، والروضتين٩٧/١ ، ووفيات الأعيان ١٢٨/٢، وتاريخ الإسلام٥٤١/١٠، والسير٩٤/١٩-٩٦، ومسالك الأبصار ١٧٢/١١ – ١٧٥ ، وهدية العارفين٢٧٧/٢.

٦٠. طبقات الفقهاء الشافعية ٤٤٧/١ – ٤٤٨.

٦١. ستتكرر هذه القصة في كتب التراجم والطبقات التي سنأتي على ذكرها عند ترجمتنا الوزير نظام الملك. وهناك اختلاف بسيط في الرواية من مصدر لآخر. بعضها: أن يركبه جنيبًا.

٦٢. محمد بن إبراهيم الأسدي، ولد بمكة، ونشأ بالحجاز، ولقي أبا الحسن التهامي في صباه فتصدى لمعارضته، ثم خرج إلى اليمن، ثم توجه إلى العراق واتصل بخدمة الوزير أبي القاسم المغربي، ثم عاد إلى الحجاز، ثم سافر إلى خراسان، وتوفي بغزنة سنة خمسمئة.(الخريدة: قسم شعراء الشام ٢٣/٣ – ٢٥، والمنتظم ١٠٤/١٧ – ١٠٥، والمحمدون١٣٨ – ١٤٣، والوافي بالوفيات٣٥٦/١ – ٣٥٧، والبداية والنهاية ٣٣٩٧/١٢، ومعاهد التنصيص ٢٠١/٣، والأعلام ٢٩٥/٥).

٦٣. المحمدون من الشعراء ١٤٣.

٦٤. بغية الطلب: ٣٤٩٠/٧

٦٥. بغية الطلب:٣٤٧٨/٧. نقلت ذلك حرفيًا من البغية،

وربما هناك تصحيف خان إلى خاس أو غلط مطبعي والله أعلم. وقد قال المحقق أ.د.سهيل زكار عن سر السرور: لم أستطع الوقوف عليه.

٦٦. الحسين بن علي مؤيد الدين المعروف بالطغرائي نسبة على من يكتب الطغراء وهي الطرة، صاحب ديوان الإنشاء، كاتب ملك شاه بن ألب أرسلان ، صاحب لامية العجم، وحقائق الاستشهاد، وله ديوان شعر، قتل بهمذان سنة (٥١٥ هـ) . ترجمته في: الأنساب واللباب(المنشئ)، ومعجم الأدباء ١١٠٧/٣ – ١١١٨، وبغية الطلب ٢٦٨٣/٦- ٢٧٠١، وشذرات الذهب٤١/٤. والطغرائي حياته وشعره : د. علي جواد الطاهر – مكتبة النهضة - بغداد – ط١ - ١٩٦٣ م.

٦٧. بغية الطلب ٢٦٨٧/٦.

٦٨. الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد أبو طاهر بن سلفة وإليها ينسب (وهي لقب هـ) السلفي، الأصبهاني، زهرة الحفاظ ، كان من أصحاب الحديث، ومن المعمرين،حدث عن أبي الحسن المالكي. توفي(٥٧٦ هـ) .(وفيات الأعيان ١٠٥/١، وتاريخ الإسلام ٥٧٠/١٢، والسير٥/٢١ ، والعبر ٢٢٧/٤، ووفيات ابن قنفذ ٢٨٩ - ٢٩٠، وغاية النهاية ٩٥/١ – ٩٦ ، وتذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ ٤٦ ، وأزهار الرياض ١٦٧/٣ – ١٧١ ، ٢٧٣، وشذرات الذهب٤٢٠/٦).

٦٩. علي بن أحمد بن منصور بن أحمد بن قبيس الدمشقي الغساني أبو الحسن المالكي، مفتي دمشق ومحدثها الفقيه النحوي، ولد سنة(٤٤٢ هـ)، كان فقيهًا، مفتيًا، يقرئ النحو والفرائض، حدث عنه السلفي ، وابن عساكر. قال ابن عساكر: " سمعت منه الكثير، ومات يوم عرفة سنة ثلاثين وخمسمئة". وقال السلفي: " كان يسكن المنارة، وكان زاهدًا، عابدًا، ثقة،لم يكن في وقته مثله في دمشق،وهو مقدم في علوم شتى". ترجمته في(المنتخب من شيوخ السمعاني ١٢٣/١، ومعجم الشيوخ لابن عساكر ٦٩٩/٢، وإنباه الرواة ٢٣٢/٢، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٩٠/١٧، والسير ١٨/٢٠ – ١٩، والعبر٨٢/٤، والنجوم الزاهرة ٢٥٩/٥، وشذرات الذهب ٩٥/٤(وتحرف فيهما إلى ابن قيس).

٧٠. بغية الطلب: ٢٤٩٠/٥.

٧١. تاريخ الإسلام ٥٤٢/١٠.

٧٢. ترجمتها في: الوافي بالوفيات ٤٣٠/١٥، ونزهة الجلساء ٥٣، ونفح الطيب ١٧٨/٤، وأعلام النساء لكحالة ٢٤٠/٢.

٧٣. الوافي بالوفيات ٤٣٠/١٥.

٧٤. ترجمتها في: الوافي بالوفيات ٣٨/١٦، ونزهة الجلساء ٦٠، وأعلام النساء لكحالة.

٧٥. الوافي بالوفيات ٣٨/١٦.

٧٦. الوافي بالوفيات ٤٥١/٢١ – ٤٥٣.

٧٧. سلفت ترجمته.

٧٨. الوافي بالوفيات ١٩٧/٢ – ١٩٨.

٧٩. سلفت ترجمته.

٨٠. الوافي بالوفيات١١٢/٢٠.

٨١. محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم ، شاعر، غزل، بارع، ولد في بلنسية ، وعاش وتوفي في جزيرة شقر بالأندلس(٦٤٣ هـ).روى عه ابن الأبار، وأبو الحسن الرعيني. ترجمته في(تحفة القادم ١١٧، والوافي بالوفيات ١٨١/٢، والإحاطة في أخبار غرناطة ٣٤٣/٢ – ٣٤٨، ونفح الطيب٤٧/٧ - ٥٣(دار الكتب العلمية).

٨٢. الوافي بالوفيات١٨١/٢.

٨٣. تحفة القادم ١١٧.

٨٤. برنامج شيوخ الرعيني ٢٠٨.

٨٥. الإحاطة :٣٤٣/٢ – ٣٤٨.

٨٦. نفح الطيب ٤٩/٧.

٨٧. طبقات الشافعية الكبرى ٣٢٨/٤.

٨٨. سلفت ترجمتها.

٨٩. نزهة الجلساء٥٣.

٩٠. سلفت ترجمتها.

٩١. نزهة الجلساء ٦٠.

٩٢. أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، المفسر الواعظ، صنف في التفسير والقراءات، والأدب ، وعقلاء المجانين، (ت ٤٠٦ هـ).(الوافي بالوفيات ٢٣٩/١٢-٢٤٠، وطبقات المفسرين للسيوطي ٣٥، وطبقات المفسرين للداوودي ١٤٤/١-١٤٦ ، وطبقات المفسرين للأدرنه وي ٩٧ – ٩٨، وشذرات الذهب١٨١/٣).

٩٣. طبقات المفسرين ٣٥. وفيها: وأقفاهم، وصححتها لغلبة ظني أنها مصحفة، وقد انتقل هذا التصحيف من كتاب إلى آخر من كتب التراجم، وصححتها في البحث أينما وردت، ولن أشير بعد ذلك.

٩٤. سلفت ترجمته.

٩٥. طبقات المفسرين للداوودي١/١٤٥.

٩٦. طبقات المفسرين للأدرنه وي٩٨.

٩٧. كشف الظنون ٢/٩٨٧.

٩٨. المصدر نفسه٢/١١٠٣.

٩٩. سلفت ترجمته.

١٠٠. نزهة الخواطر ١/٦٨.

فهرست المصادر والمراجع

١- المخطوطة:

- تلخيص أخبار النحويين واللغويين: أحمد بن عبد القادر بن مكتوم تاج الدين (ت٧٤٩هـ) مصور ورقي في مركز جمعة الماجد للتراث - دبي - عن دار الكتب المصرية- رقم /٣٠٠١٦٠. ق٧٥-٧٦.
- السياق لتاريخ نيسابور: عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي النيسابوري (ت٥٢٩هـ)، نسخة كوبريلي- ق ٧١، ق٧٦.
- طبقات النحاة واللغويين: ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ) نسخة مصورة عن نسخة الأحمدية - حلب - ق ٤٣٨-٤٤٠.
- كتائب أعلام الأخيار: محمود بن سليمان الكفوي (ت٩٩٠هـ) المكتبة القادرية - بغداد - رقم١٢٤٢ - ق ٢٠٣آ، ٢١٢آ.

٢- الكتب المطبوعة:

- الأثمار الجنية في أسماء الحنفية: ملا علي بن سلطان القاري (ت ١٠١٤هـ). تحقيق: د عبد المحسن عبد الله أحمد، ديوان الوقف السني - العراق - ط١ - ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين ابن الخطيب(ت٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، الخانجي - القاهرة - ط٢ - ١٩٧٣م - ١٩٧٧م.
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء: جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ)، د.ت.
- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء): ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) تحقيق: د. إحسان عباس - دار الفكر - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٠م. و دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٣م.
- الازدهار لما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تح: د.علي حسين البواب -المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ - ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- أزهار الرياض في أخبار عياض: أحمد بن محمد المقري (ت١٠٤١هـ)، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي - المملكة المغربية - دولة الإمارات - ط١ - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- الإشارة إلى تحسين العبارة: علي بن فضال المجاشعي أبو الحسن(ت٤٧٩هـ)، تحقيق: د. حسن الشاذلي فرهود - دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض - ط١ - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين: عبد الباقي اليماني (ت٧٤٣هـ) تحقيق: د. عبد المجيد دياب - مركز الملك فيصل للدراسات والنشر - الرياض - ط ١ - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت - ط ١٢ - ١٩٩٧م.
- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام= نزهة الخواطر.
- الإكمال: علي بن هبة الله أبو نصر ابن ماكولا (ت٤٧٥هـ)، عني بتصحيحه: عبد الرحمن اليماني، حيدر آباد - ط٢، ودار الكتاب الإسلامي - القاهرة - د.ت.
- إمتاع الأسماع: أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ)، تحقيق: أ. محمود شاكر - القاهرة - ط١-١٩٤١م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٦م. والمكتبة العصرية - بيروت - ط١ - ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- الأنساب: عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد السمعاني (ت٥٦٢هـ) - تقديم وتعليق: عبدالله البارودي - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨م.
- أنموذج الزمان في شعراء القيروان: الحسن بن رشيق القيرواني(ت٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد العروسي وبشير بكوش، دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط٢ - ١٩٩١م.
- إيجاز البيان عن معاني القرآن: بيان الحق محمود بن أبي الحسن النيسابوري الغزنوي (ت بعد٥٥٣ هـ)، تحقيق: د.حنيف القاسمي، دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط١ - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل باشا البغدادي (ت١٣٣٩هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. (نسخة مصورة).
- البداية والنهاية: عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي

(ت٧٧٤هـ) تحقيق: مجموعة من الأساتذة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٧م. ودار صادر بإشراف أ. د. سهيل زكار - بيروت - ط١ - ١٤٢٦ه - ٢٠٠٥م.

- برنامج شيوخ الرعيني: أبو الحسن الرعيني(ت٦٦٦هـ)، تح: ابراهيم شبوح، وزارة الثقافة - دمشق - ط١ - ١٩٦٢م.

- بغية الطلب في تاريخ حلب: كمال الدين،عمر بن أحمد، ابن العديم (ت٦٦٠هـ)، تحقيق: أ. د. سهيل زكار، دمشق - ط١ - ١٩٨٨م.

- بغية الملتمس: أحمد بن يحيى الضبي (ت٥٩٩هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري - دار الكتاب المصري - القاهرة - ط١ - ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم - البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٤م. وعلي محمد عمر - الخانجي - القاهرة - ط ١ - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- البلدانيات: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي(ت٩٠٢هـ)، تحقيق: أ. حسام القطان - دار العطاء - السعودية - ١٤٢٢ه - ٢٠٠١م.

- بلدان الخلافة الشرقية: كي لسترنج، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ - ١٤٠٥ه -١٩٨٥م.

- البلغة في تاريخ أئمة اللغة: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، تحقيق: أ. محمد المصري - وزارة الثقافة - دمشق - ط ١ - ١٩٧٢م. ودار سعد الدين - دمشق - ط١ - ١٤٢١هـ - ٢...م.

- تاج التراجم: زين الدين القاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت٨٧٩هـ) تحقيق: أ.إبراهيم صالح، دار المأمون للتراث - دمشق - ط١ -١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان - نقله إلى العربية: عبد الحليم نجار - دار المعارف - مصر - ط ٣ - ١٩٧٤م.

- تاريخ إربل: المبارك بن أحمد شرف الدين الإربلي المعروف بابن المستوفي (ت٦٣٧هـ) تحقيق: سامي الصقار - دار الرشيد - بغداد - ط١ - ١٩٨٠م.

- تاريخ الإسلام: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ) تحقيق: د. عمر عبد السلام التدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨م. وتحقيق: أ.د. بشار عواد، دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط١ -١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- تاريخ بيهق: علي بن زيد أبو الحسن البيهقي (ت٥٦٥هـ) ترجمه عن الفارسية وحققه: يوسف هادي، دار اقرأ - دمشق - ط١ - ٢٠٠٤م.

- تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين - جامعة الإمام - السعودية - ط ١ - ١٩٨٣م.

- تاريخ حكماء الإسلام: ظهير الدين علي بن زيد البيهقي(ت٥٦٥هـ)، تح: أ. محمد كرد علي - مجمع اللغة العربية - دمشق - ط٢ - ١٤٠٩ه - ١٩٨٨م.

- تتمة صوان الحكمة: ظهير الدين علي بن زيد البيهقي، تح: د. رفيق العجم - دار الفكر اللبناني - بيروت - ط١ - ١٩٩٤م.

- تتمة اليتيمة: أبو منصور الثعالبي(ت٤٢٩هـ)، تح: عباس إقبال، طهران - ط١ - ١٣٥٣ه - ١٩٣٤م.

- تحفة القادم: ابن الأبار القضاعي محمد بن عبد الله(ت٦٥٨هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط١ - ١٤٠٦ه - ١٩٨٦م.

- تذكرة ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد، ابن أبي جرادة (ت٦٦٠هـ) تحقيق: أ.إبراهيم صالح، المجمع الثقافي - أبو ظبي - ط١ - ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- تذكرة الحفاظ: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، طبعة مصورة، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٧٤هـ.

- تذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ: يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي(ت٩٠٩هـ)، تحقيق لجنة من الأساتذة - دار النوادر - سوريا - لبنان - ط١ - ١٤٣٢ه - ٢٠١١م.

- تراجم المؤلفين الأندلسيين: محمد محفوظ (ت١٤٠٩هـ) - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط١ - ١٩٨٥م.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت٥٤٤هـ)، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب - ط ٢ - ١٩٨٣م.

- تكملة الإكمال: ابن نقطة محمد بن عبد الغني البغدادي(ت٦٢٩هـ)، تح: د. عبد القيوم عبد رب النبي - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ط١ - ١٤١٠ه - ١٩٨٩م.

- توضيح المشتبه: ابن ناصر الدين الدمشقي(ت٨٤٢هـ) تحقيق: أ. محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ -١٩٨٦ ودار الرسالة العالمية - دمشق - ط١ - ١٤٣١ه - ٢٠١٠م.

- جذوة المقتبس: محمد بن فتوح الحميدي (ت٤٨٨هـ)، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة - ١٣٧١هـ - وتحقيق: أ.د. بشار عواد، دار الغرب الإسلامي - تونس

- ط١ - ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر القرشي (ت٧٧٥هـ) تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو - مكتبة الخانجي - القاهرة -١٣٩٨ هـ -١٩٧٨م.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم - البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٨م.
- خريدة القصر وجريدة العصر: ابن العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ)، قسم شعراء صقلية والمغرب والأندلس: تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم - نهضة مصر - القاهرة - ط١ - ١٩٦٤م. والدار التونسية للنشر - ط٣ - ١٩٨٦م. وقسم العراق، تحقيق: محمد بهجت الأثري. وقسم الشام، تحقيق: د. شكري فيصل - مطبوعات المجمع - دمشق - ط١-١٩٦٤م. وقسم مصر، تحقيق: أ. أحمد أمين ود. شوقي ضيف، ود. إحسان عباس - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - ط٢ - مصورة عن طبعة١٩٥١م.
- الدر الثمين في أسماء المصنفين: علي بن أنجب الساعي (ت٦٧٤هـ) تحقيق: أ. أحمد شوقي بنبين ومحمد سعيد حنشي - المغرب - ط١ - ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ)، حيدر آباد - ط١ - ١٩٧٤م.
- دمية القصر وعصرة أهل العصر: علي بن الحسن، أبو الحسن الباخرزي (ت٤٦٧هـ) تحقيق: د.عبد الفتاح الحلو - دار الفكر العربي، مطبعة المدني - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٨م. وتحقيق: د.سامي مكي العاني - دار العروبة - الكويت - ط٢ - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- دول الإسلام: شمس الدين الذهبي، تحقيق: تحقيق: أ. محمود الرناؤوط - بيروت - ط١ - ١٩٩٩م.
- ديوان أبي الفتح البستي: تحقيق: أ. شاكر العاشور - دار الينابيع - دمشق - ط١ -١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) تحقيق: د. إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط١- ١٩٩٤م. وليبيا- تونس - ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ذيل تاريخ بغداد: ابن النجار (ت٦٤٣هـ)، تحقيق: قيصر فرح - حيدر آباد -١٩٨٦م./ج٥ /- وتصوير دار الكتب العلمية. ج/١٦/ من تاريخ بغداد.
- ذيل تاريخ مدينة السلام: محمد بن سعيد أبو عبد الله الدبيثي (ت٦٣٧هـ) تحقيق: أ.د. بشار عواد معروف - بغداد- ط١- ١٩٧٤م-١٩٧٩م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن محمد بن عبد المنعم الحميري أبو عبد الله (ت ٩٠٠هـ)، تحقيق: د.إحسان عباس- مكتبة لبنان - بيروت - ط١ - ١٩٧٥م. ط٢ -١٩٨٤م.
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: أبو تراب عبد العلي بن جعفر بن مهدي الخوانساري (ت١٣١٣هـ)، تحقيق: أسد الله إسماعيليان - دار المعرفة - بيروت - عن طبعة قم ١٣٩١هـ.
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي(ت٦٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة - ط١ - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- سير أعلام النبلاء: الذهبي - تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١١ - ١٩٩٦م.
- شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ): محمود وعبد القادر الأرناؤوط - دمشق - دار ابن كثير - ط١ - ١٩٩٥م.
- شرح عيون الإعراب: علي بن فضال المجاشعي، تحقيق: حنا جميل حداد - مكتبة المنار - الزرقاء - ط١ - ١٩٨٥م. وتحقيق: عبد الفتاح سليم - مكتبة الآداب - القاهرة - ط١- ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- الشعر العربي في العراق: علي جواد الطاهر، مطبعة العاني - بغداد - ط١ - ١٩٦١م.
- الصلة: خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال (ت٥٧٨هـ)، نشر وتصحيح: عزت العطار الحسني - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ٣ -١٩٩٤م.والدار المصرية -١٩٦٦م.وتحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري - ١٩٨٩م.
- طبقات الحفاظ: السيوطي، تحقيق: أ. علي محمد عمر - مكتبة وهبة -القاهرة - ط١ - ١٣٩٣ه - ١٩٧٣م.
- طبقات الحنفية: علاء الدين بن أمر الله الحميدي المعروف بابن الحنائي(ت٩٧٩هـ)، تحقيق: أ.د. محيي الدين السرحان - ديوان الوقف السني - بغداد - ط١ - ١٤٢٦ه - ٢٠٠٥م.
- طبقات الشافعية: تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ)، اعتنى بتصحيحه: عبد العليم خان -

عالم الكتب - بيروت- ط ١ - ١٩٨٧م.
- طبقات الشافعية: أبو بكر ابن هداية الله الحسيني (ت١٠١٤هـ)، تحقيق: د.عادل نويهض - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط١ - ١٩٧١م.
- طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب السبكي (ت٧٧١هـ)، تحقيق: د. محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو - البابي الحلبي - مصر - ط ١ - ١٩٦٥م. وهجر - ط٢ - ١٩٩٢م.
- طبقات الفقهاء: أبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، تحقيق: خليل الميس - دار القلم - بيروت - ط ١ - ١٩٩٠م.
- طبقات الفقهاء: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زادة(٩٦٨هـ) تنقيح وتعليق: الحاح أحمد نيلة - الموصل - ط٢ -١٩٦١م.
- طبقات الفقهاء الشافعية: ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (ت٦٤٣هـ). تحقيق: محيي الدين علي نجيب - دار البشائر الإسلامية - بيروت - ط١ - ١٩٩٢م.
- طبقات الفقهاء الشافعية: أبو محمد جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي (ت٧٧٢هـ). تحقيق: عبد الله الجبوري - مطبعة الإرشاد - بغداد - ط١ - ١٩٧٠م.
- طبقات الفقهاء الشافعية: محمد بن أحمد العبادي (ت٤٥٨هـ). تحقيق: إي. جي. بريل - ليدن - ط ١ - ١٩٦٤م.
- طبقات الفقهاء الشافعيين: عماد الدين ابن كثير الدمشقي، تحقيق: د. أحمد عمر هاشم - دار الثقافة الدينية - القاهرة - ط١ - ١٩٩٣م.
- طبقات المفسرين: أحمد بن محمد الأدرنه وي (ت ق١١هـ) تحقيق: د. سليمان الخزي - مكتبة العلوم و الحكم - المدينة المنورة - ط ١ - ١٩٩٧م.
- طبقات المفسرين: الحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة - القاهرة - ط١ - ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م. ودار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٠م.
- طبقات المفسرين: الحافظ شمس الدين محمد بن علي الداودي (ت٩٤٥هـ)، تحقيق: علي محمد عمر - مكتبة وهبة - القاهرة - ط١ -١٣٩٢ هـ -١٩٧٢م. ودار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٣م.
- طبقات النحاة واللغويين: أبو بكر بن أحمد، ابن قاضي شهبة - تحقيق: د. محسن غياض - مطبعة النعمان - النجف - ط ١ - ١٩٧٤م.
- العبر في ديوان من غبر: الحافظ محمد بن أحمد الذهبي - تحقيق: د. صلاح الدين المنجد - وزارة الإعلام - الكويت - ط ٢ - ١٩٨٤م.
- علل التثنية: أبو الفتح عثمان بن جني(ت٣٩٢هـ)، تحقيق: د. صبيح التميمي - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ط١ - ١٤١٣ه - ١٩٩٢م.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفق الدين بن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ)، معهد العلوم - فرانكفورت - ألمانيا - ١٤١٦ه - ١٩٩٥م.
- غاية النهاية في طبقات القراء: شمس الدين محمد بن محمد بن محمد ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- الفهرست: محمد بن إسحق النديم (ت٣٧٧هـ)، تحقيق: د. أيمن فؤاد سيد - مؤسسة الفرقان - لندن - ط ١- ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- فهرسة اللبلي: أحمد بن يوسف الفهري (ت٦٩١هـ) تحقيق: ياسين يوسف عياش وعواد أبو زينة، دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط١ - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف: ابن خير الإشبيلي (ت٥٧٥هـ)، تحقيق: فرانشسكو قداره زيدين وتلميذه - المكتب التجاري - بيروت - مكتبة المثنى - بغداد، ومؤسسة الخانجي - القاهرة - ١٩٨٣م.
- الفوائد البهية: عبد الحي اللكنوي(ت١٣٠٤هـ)، اعتنى به أ. أحمد الزعبي - شركة دار الأرقم - بيروت - ط١ - ١٩٩٨م.
- الكامل في التاريخ: عز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري، دار صادر - بيروت - ط ١- ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م. ودار الكتب العلمية - ط١ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله، حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ)، دار الفكر - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٠م. طبعة مصورة.
- لب اللباب في تحرير الأنساب: السيوطي، تحقيق: مكتب البحوث بدار الفكر - بيروت - ٢٠٠٢م.وطبعة دار صادر- مصورة.
- لسان الميزان: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية - بيروت - ط١- ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م. ومؤسسة الأعلمي - بيروت - ط٣ - ١٩٨٦م.
- المحمدون من الشعراء وأشعارهم: القفطي، تحقيق: أ.

رياض عبد الحميد مراد، مجمع اللغة العربية - دمشق - ط١ - ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

- مختصر تاريخ دمشق: ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم المصري(ت٧١١هـ)، تحقيق: د. مطيع الحافظ، ورياض مراد، وروحية النحاس، دار الفكر - دمشق - ط١ - ١٩٨٤م - ١٩٨٨م.

- المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله الدبيثي: الإمام الذهبي - تحقيق: مصطفى جواد - المجمع العلمي العراقي - بغداد - ١٩٧٦م.

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان: عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت٧٦٨هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٠م. وتحقيق: د. عبد الله الجبوري - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٤م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ابن فضل الله العمري(ت٧٤٩هـ)، تحقيق: جماعة من الأساتذة، مركز زايد للتراث والتاريخ - العين - والمجمع الثقافي - أبو ظبي - ط١ - سنوات متعددة.

- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: لابن النجار (ت٦٤٣هـ) انتقاء: أحمد بن أيبك شهاب الدين الحسامي الدمياطي (ت٧٤٩هـ) تحقيق: د. قيصر أبو فرح - دار الكتب العلمية - طبعة مصورة. وتحقيق: محمد مولود خلف - مؤسسة الرسالة - ط١ - ١٩٨٦م.

- معاهد التنصيص: عبد الرحيم العباسي(ت٩٦٣هـ)، تحقيق: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر - ط١ - ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.

- معجم الأدباء = (إرشاد الأريب).

- معجم البلدان: ياقوت الحموي - تحقيق: فريد الجندي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٠م، ودار صادر - بيروت - ط٣ - ٢٠٠٧م.

- معجم الشعراء الأندلسيين والمغاربة: د.عفيف عبد الرحمن، المجمع الثقافي - أبو ظبي - ط١ - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- معجم الشيوخ: ابن عساكر هبة الله علي بن الحسن الدمشقي (ت٥٧١هـ)، تحقيق: د. وفاء تقي الدين، دار البشائر - دمشق - ط١ - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- معجم طبقات الحفاظ والمفسرين: إعداد ودراسة أ.عبد العزيز سيروان - عالم الكتب - بيروت - ط١ - ١٩٨٤م.

- معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة (ت١٤٠٨هـ) مطبعة الترقي - دمشق - ١٩٥٩م. ودار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ١ - د. ت. ومؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ - ١٩٨٦م.

- معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر: أ. عادل نويهض (ت١٤١٧هـ) مؤسسة نويهض الثقافية - بيروت - ط٣ - ١٩٨٨م.

- المغرب في حلى المغرب: علي بن سعيد المراكشي(ت٥٦٢هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف - دار المعارف - مصر - ط٤ - ١٩٩٣م.

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زادة - دار ابن حزم - بيروت - ط١ - ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- المقابر والمشاهد بجانب مدينة السلام: ابن أنجب الساعي، ضبط وتعليق: أ. أحمد شوقي بنبين، وأ. محمد سعيد حنشي - مراكش - ط١ - ٢٠٠٨م.

- المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور: إبراهيم بن أحمد الصيرفيني (ت٦٤١هـ) تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز - بيروت - ط١ - ١٩٨٩م. وتحقيق: خالد حيدر - دار الفكر - بيروت -١٩٩٣م. ونشر بإيران بعنوان: الحلقة الأولى من تاريخ نيسابور، إعداد محمد كاظم المحمودي، طبعة قم - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

- المنتخب من معجم شيوخ السمعاني: أبو سعد السمعاني، تحقيق: د. موفق بن عبد الله بن عبد القادر، عالم الكتب - الرياض - ط١ - ١٤٠٧هـ - ١٩٩٦م.

- المنتظم في التاريخ: أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا - مراجعة: نعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٩٢م.

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: ابن تغري بردي الأتابكي(ت٨٧٤هـ)، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - ط١ - ١٩٨٤م - ١٩٨٦م.

- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة: ابن تغري بردي (ت٨٨٧هـ) تحقيق: جماعة - دار الكتب المصرية - القاهرة - ط١ - ١٩٧٢م.

- نزهة الأرواح وروضة الأفراح: شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري(ت بعد ٦٨٧هـ)، تحقيق: عبد الكريم أبو شويرب - جمعية الدعوة الإسلامية - طرابلس الغرب - ليبيا - ط١ - ١٩٨٨م.

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت٥٧٧هـ) تحقيق: د. إبراهيم السامرائي - مكتبة المنار - الأردن - ط ٣ -

١٩٨٥م. وتحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - ٢٠٠٣م.

- نزهة الجلساء في أشعار النساء: السيوطي - قراءة وتعليق محمود كحلا ومحمد كحلا - مراجعة: أ.د. عبد الإله نبهان - اليمامة - حمص - ط١ - ١٩٩٥م.

- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر: عبد الحي الحسني (ت١٣٤١هـ)، دار ابن حزم - بيروت - ط١ - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- نفح الطيب: أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت - ط١ - ١٩٦٨م. ودار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٩٥م.

- نكت المعاني على آيات المثاني: ابن فضال المجاشعي، تحقيق: د. إبراهيم الحاج علي، مكتبة الرشد - الرياض - ط١ - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

- الهداية شرح بداية المبتدي: برهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني (ت٥٩٣هـ)، تحقيق: أ. تامر وأ. حافظ - دار السلام - القاهرة - ط١ - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل البغدادي- دار الكتب العلمية - بيروت - نسخة مصورة.

- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - اعتناء محمد الحجيري و جماعة - سلسلة النشريات الإسلامية.

- الوفيات: ابن قنفذ، أحمد بن حسن بن الخطيب القسنطيني (ت٨٠٩هـ) تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط٣ - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان (ت٦٨١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ط١ - ١٩٦٨ - ١٩٧١م، ودار إحياء التراث العربي- بيروت - ط١ - ١٩٩٧م.

- يتيمة الدهر: أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة - ط ٢ - ١٩٥٦م.

فهرست المجلات و الدوريات

- مجلة الحكمة - لندن - ع ١٦- س١٤١٩: نظرات في إعراب القرآن المنسوب لقوام السنة الأصبهاني: د. عبد الهادي حميتو.



الوصف النباتي والاستخدامات الطبية لنبات الجعدة بين التراث العلمي العربي والعلم الحديث

الدكتور عبد العليم حسن بلّو
عضو هيئة التدريس في قسم علم الحياة النباتية
كلية العلوم- جامعة حلب- سورية

مقدّمة

إن التراث العربي الإسلامي، والعلمي منه بخاصة، لجدير بالعناية والاهتمام، والسعي الحثيث لكشفه وتحقيقه؛ تأكيداً لمكانته في تاريخ الثقافة البشرية، وإظهاراً للدور الريادي الذي قامت به أمتنا العربية الإسلامية في ميادين الفكر والعلم، وإثارة لعزائم أبنائها كي يجعلوا من مستقبلها امتداداً سليماً لما سلف من أيامها الزاهية.

لقد استطاع العلماء العرب أن يضعوا أسس علم الطبّ والطبّ النباتي، وكانت مؤلفاتهم تعتمد على المنهج التجريبي والتطبيق العملي والبحث والتجوال للوصول إلى الحقيقة العلمية، والتي يجب على المرء في هذه الكمية الضخمة من التراث أن يعرضها للتجارب المتتالية، حتى يتثبت مما كتبه عنها الأقدمون، مستعينًا بأدوات هذا العصر ومناهجه ووسائله، إذ إنّ الأبحاث التي أجريت على النباتات الطبية ما زالت في بداياتها ولا تغطي إلا جزءًا يسيرًا منها، كذلك ما زلنا نجهل الكثير مما تركه لنا الأطباء والعشابون العرب من معلومات ومعالجات بذلوا الجهود الكثيرة حتى توصلوا إليها وكان لها دور أساسي وحيويّ في تحسين الأوضاع والترتيبات الصحية في كثير من بقاع العالم.

لذلك يهدف هذا البحث إلى:

١. الكشف عن جانب من كنوز الحضارة العربية الإسلامية، وإلقاء الضوء على مساهمة العلماء العرب في تطور طبّ الأعشاب وترسيخ مفهوم التداوي بها.

٢. التعرف إلى نبات الجعدة الذي استخدمه العرب قديماً في العلاج، وبيان أهم الأمراض التي استخدم من أجلها.

٣. إجراء دراسة "مقارنة" ومنهجية على الوصف النباتي والاستخدامات الطبية لنبات الجعدة بين التراث العلمي العربي والعلم الحديث.

٤. إثبات أو رفض الاستخدامات القديمة لنبات الجعدة على ضوء المعطيات العلمية الحديثة، والتأكيد على أفضل الاستخدامات الطبية.

الاختصارات

قا: القانون في الطب لابن سينا.

جا: الجامع لمفردات الأغذية والأدوية لابن البيطار.

تذ: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكي.

تص: التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي.

مع: المعتمد في الأدوية المفردة للملك المظفر.

١- التسمية والوصف النباتي لنبات الجعدة

١-١- التسمية والوصف حسب كتب التراث العلمي العربي:

جعدة:

أسماء أخرى: باليونانية فوليون (جا، تذ، تص)، وبالبربرية أرطالس (تذ).

الماهية: نوع من الشيح[١] فيه مرارة وحدة يسيرة (قا، جالينوس في الثامنة في جا)، منه ما هو جبلي وهو الذي يستعمله الأطباء وهو تمنش صغير أبيض دقيق طوله نحو من شبر (ديسقوريدس في الثالثة في جا)، يفرش أوراقًا خضرًا سبطة الوجه العالي مزغبة الآخر، ويحيط بأطرافها شوك صغار، ويرفع قضبانًا لها زهر زغبي أبيض إلى صفرة يخلف كرة محشوة بزرًا كالأنيسون[٢] وعليها كالشعر الأبيض. عطري طيب الرائحة لكن إلى ثقل (قا، جا، تذ). الجعدة الجبلية حشيشة بيضاء صغيرة جعدة الرؤوس (تص)، تدرك بأوائل حزيران. أجودها الضارب إلى المرارة البالغ الحديث[٣]، وقوتها تسقط بعد ثمانية أشهر من أخذها[٤]. وتغشّ ببعض أنواع المرماخور[٥]والفرق مرارتها (تذ).

ومنه صنف ثان وهو أكبر من الأول يعلو نحو ذراع وهو أضعف رائحة وأقلّ مرارة وحدّة (جا، تص، مع). ومنه صنف ثالث يسمى مسك الجن[٦] وهو حشيشة صغيرة (تص).

الطبع: الصغيرة حارة يابسة[٧] في الثالثة والكبيرة حارة يابسة في الثانية (قا، جا، تذ، مع)[٨].

١-٢- التسمية والوصف حسب الفلورات والمراجع الحديثة:

الاسم العربي: الجعدة الرمادية

الاسم اللاتيني (الاسم العلمي):

Teucrium polium L.

الاسم الانكليزي:

Poley, Mountain Germander

الاسم الفرنسي:

Polium, Pouliot de montagne

الأسماء المرادفة العربية: جعدة، بعيثران، قريصة.

الوصف النباتي:

نبات عشبي معمّر، لبدي مبيضّ tomentel-lous-canescent، أو صوفي أبيض white–fleecy،

ارتفاعه من ٢٠-٤٠ سم، متفرع من القاعدة shrubby at base؛ الفروع branches صاعدة أو منتصبة، عنقودية أو مشطية panicled or corym-bose. الأوراق جالسة Sessile، متطاولة Oblong إلى خطية Linear، طولها من ١-٣ سم، مستوية flat أو ذات حافة ملتفة إلى الأسفل Revolute-margined، كليلة (قمتها مستديرة) obtuse، عرفية Crenate. الرؤوس Heads كثيفة، كروية spherical إلى بيضاوية ovate، ذات شماريخ قصيرة Short-Peduncled؛ القنابات Bracts ملوقية[٩] خطية linear-spatulate، أقصر من الأزهار؛ الكأس Calyx أنبوبي جرسي Tubular-Campanulate، طوله ٤ مم، ذو أسنان Teeth بيضوية، حادة acute أو كليلة obtuse، يصل طولها إلى نصف طول الكأس (الأنبوب) تقريباً؛ التويج Corolla أبيض، وأطول قليلاً من الكأس؛ المآبر Anthers نادراً ما تبرز carcely exserted.

ويزهر النبات من أيار إلى أيلول، وهو من الأنواع واسعة الانتشار في الأراضي المحجرة والجبلية (Mouterde 1983) و(Post 1932,1934) .

الانتشار المحلي في سورية:

طرطوس واللاذقية وكسب وصلنفة وعفرين وجبل سمعان ورأس العين وتل أبيض والرقة وقاسيون والضمير ومضايا وغباغب والزبداني ومعلولا وفي البادية السورية في تدمر وجبل البلعاس. سجلنا وجود هذا النوع بكثرة في جبل سمعان وكسب، ولاحظنا أنه لا يرعى من قبل الحيوانات العاشبة[١٠].

الوضع التصنيفي:

حسب **موتيرد** (Mouterde 1983): يتبع هذا النوع صنفان هما:

Teucrium polium L. Var. angustifolium Benth.

يصادف في حلب وإزرع وقصر البنات.

Teucrium polium L. Var. mollissimum Hand.-Mazz.

يصادف في جبل عبد العزيز.

أما حسب بوست (Post 1932,1934): فيتبع له ستة أصناف أربعة منها تصادف في سوريا وهي:

Teucrium polium L. Var. album (Mill.) Fiori

T. album Poir., T. pseudo-hyssopus Schreb.,)

P. album Mill.)

يصادف في اللاذقية وبلودان ودمشق.

Teucrium polium L. Var. angustifolium (Steud.) Benth.

(T. angustifolium Steud., T. capitatm L.)

يصادف في شمال حلب والإسكندرونة.

Teucrium polium L. Var. littorale

يصادف في شمال اللاذقية.

Teucrium polium L. Var. spicatum

يصادف في البادية السورية وجنوب القريتين.

الانتشار العالمي:

حوض المتوسط (البلدان الأوربية والعربية ذات المناخ المتوسطي وتركيا) وآسيا.

ويبيّن الشكل التالي نبات الجعدة Teucrium polium في مرحلة الإزهار:



الشكل يبين نبات الجعدة Teucrium polium في مرحلة الإزهار

١-٣- التحليل والمقاربة مع المتاح من المعلومات الحديثة:

من خلال تأملنا لوصف نبات الجعدة في كتب التراث العلمي العربي، ومقارنتها بالوصف النباتي للنوع .Teucrium polium L في الفلورات الحديثة، نجد تطابقًا مثيرًا لا يدع مجالاً للشك في أنه هو النوع المقصود من قبل العلماء العرب والمسلمين.

وقد تجلى هذا التطابق الوصفي في النقاط التالية:

اسم النبات باليونانية فوليون وهو مشابه لفظيًا للاسم العلمي للنوع polium.

ينقل ابن البيطار عن ديسقوريدس: "تمنش صغير أبيض دقيق طوله نحو من شبر"، وفي الوصف الحديث أنه نبات عشبي معمّر متفرع من القاعدة وطوله من ٢٠-٤٠ سم.

يصف ابن سينا النبات "زهر زغبي أبيض إلى صفرة يخلف كرة محشوة بزرًا وعليها كالشعر الأبيض"، وفي الوصف الحديث أن النبات لبدي مبيض، والرؤوس كروية إلى بيضاوية، والتويج أبيض وأطول من الكأس قليلاً مما يجعل الرؤوس زغبية جعدة وعليها ما يشبه الشعر الأبيض، ويصبح مصفرًا بعد تكون البذور.

وقول ابن البيطار والأنطاكي: "رأس كالكرة فيه كالشعر الأبيض" يشبه الوصف الحديث في الفلورا حيث أن الأزهار متجمعة في رؤوس كروية.

قول الأنطاكي: "تدرك بأوائل حزيران"، حيث يزهر النبات من أيار إلى أيلول.

وبالنسبة للطعم والرائحة وصفه العلماء العرب بأنه: "نبات عطري طعمه مرّ ورائحته ثقيلة".

٢- الاستخدامات الطبية لنبات الجعدة

٢-١- التاريخ العلاجي والتراث:

جالينوس في الثامنة في جا: من ذاق طعم

الجعدة وجد فيها مرارة وحدة يسيرة، ولذلك صارت تفتح سدد جميع الأعضاء الباطنة وتدر البول والطمث وما دامت طرية فهي تدمل الضربات الكبار وخاصة النوع الأكبر من أنواع الجعدة، وإذا جففت الجعدة شفت القروح الرديئة إذا نثرت عليها، وأكثر ما تفعل ذلك الجعدة الصغيرة التي تستعمل في أخلاط الأدوية المعجونة؛ لأن هذا النوع منها ما فيه مرارة الطعم والحدة أكثر من النوع الأكبر حتى أنه قد صار في الدرجة الثالثة من درجات الأشياء المجففة، وفي الدرجة الثانية نحو آخرها من درجات الأشياء المسخنة.

ديسقوريدوس في جا: وقوة طبيخ الصنفين إذا شربا نفعا من نهش الهوام والاستسقاء واليرقان، وإذا شرب بالخل نفع من ورم الطحال وهو يصدع ويضر بالمعدة ويسهل الطبيعة ويدر الطمث، وإذا افترش أو دخن به طرد الهوام وإذا تضمد به ألزق الجراحات.

الرازي في جا: الجعدة جيدة من الحميات المزمنة نافعة من لدغ العقارب.

ابن البيطار: حبيش في جا: الجعدة تخرج الحيات من البطن وتبرىء الحميات الطويلة التي من المرة السوداء والبلغم. الإسرائيلي في جا: طبيخ الجعدة يخرج حب القرع من البطن.

سفيان الأندلسي في جا: الجعدة تحلل الرياح من جميع الأعضاء وتنفع من وجع الجنبين. غيره: تذكي الذهن وتنفع من النسيان واليرقان الأسود.

الرازي في كتاب أبدال الأدوية في جا: وبدل الجعدة في إخراج الدود وإنزال الحيض والبول قشور عيدان الرمان الرطب وثلثا وزنه قشور عيدان السليخة.

الأنطاكي: تقع في الترياق الكبير لشدة مقاومتها السموم والنفع من نهش الحية والعقرب واليرقان، والحميات سيما الربع والحصى وعسر البول والمفاصل والنسا، وتدرّ الفضلات وتحل الرياح حيث كانت، وتنقي الأرحام والقروح وتجففها، وتخرج الديدان.

٢-٢- الاستخدامات في الطب الشعبي:

يستخدم كل من النوعين .T. chamaedrys L و T. polium كمنبه Stimulant ومقوي Tonic، ويستخدم النوع .T. flavum L كمطهر Antiseptic ومضاد للحمى Antipyretic، و يستخدم النوع .T. marum L كمضاد للتشنج Antispasmodic ومدر للصفراء Cholagogue. وبالإضافة إلى ذلك يعتقد أن لخلاصات الأجزاء الهوائية لمعظم أنواع الجنس Teucrium خواص مضادة للالتهاب Anti-inflammatory ومطهرة (Bello et al. 1995).

في سورية يعدّ الجعدة .Teucrium polium L من أفضل أنواع الجنس Teucrium من حيث القيمة الطبية حيث يستخدم في البادية السورية على نطاق واسع، ويسميه البدو جعدة أو دعجة بحسب القبيلة التي ينتمون إليها. ويستخدم لعلاج القرحة وأمراض الكلى والسعال وآلام المعدة والأمعاء والصدر، وكذلك يستخدم النبات لعلاج للسكري[١١] (سينسيتش ٢٠٠٢).

تستخدم الأجـزاء الهوائية للجعدة في الطب العشبي في الأردن لمعالجة السكري (Diabetes Hamdan and Afifi 2004)، وآلام البطن Abdominal Pain وامتلاء البطن بالغازات Flatulence بنسبة كبيرة ، تليها التهابات الجهاز البولي Urinary Ttract Inflammations وعسر الهضم Indigestion وارتفاع ضغط الدم Hypertension والبدانة Obesity، كذلك تستخدم لعلاج الإمساك

Constipation وحصى الكلية Kidney Stones إلا أن هذين الاستخدامين غير موثقين علميًا (Abu-Irmaileh and Afifi 2003).

وتستخدم في **السعودية** لمعالجة الالتهابات والروماتيزم والسكري والقرحة (Tariq et al. 1989).

ويستخدم في **إسبانيا** كمساعد على الهضم Digestive وفاتح للشهية Aperitif ومنحّف Slimming (de Santayana et al. 2005).

وفي فلسطين يستخدم مغلي الأوراق والأجزاء الهوائية لتسكين آلام المعدة stomach pains، كما وجد أن خلاصة النبات مضادة لجراثيم Staphylococcus aureus و Pseudomonas aeruginosa (Essawi and Srour 2000).

وفي فلسطين يشرب مغلي الأوراق والأزهار Teucrium polium لحصى الكلية وعدوى الجهاز البولي (Abu-Rabia 2005).

وفي **المغرب** يشرب مغلي الأجزاء الهوائية لعلاج أمراض الكبد وكموتّر وعائي[١٢] vasopressor، والنبات معروف هناك من قبل ٥٩,٤٪ من المعالجين العشبيين، ومستخدم من قبل ٢٤,٣٪ منهم (Merzouki et al. 2000).

وفي **إيران** يستخدم في الطب الشعبي لآلام الحمل وامتلاء البطن بالغازات Flatulence وكمسكن Analgesic ولاضطرابات الكبد واليرقان Jaundice والسعال ومجهض Abortifacient (Naghibi et al. 2005).

يستخدم شعبيًا لعلاج ارتفاع السكر (Al-Ashban et al. 2005).

٢-٣- الأبحاث الحديثة:

فحصت خلاصات الميثانول وثنائي كلورو ميثان لأوراق وسوق أربعة أنواع من الجنس Teucrium على الفئران، فأظهرت تأثيرات مسكنة Analgesic، مع سمّية منخفضة Limited Toxicity (Bello et al 1995).

تخفيض السكر

تستخدم الخلاصة المائية للأجزاء الهوائية لنبات الجعدة Teucrium polium منذ زمن بعيد كعلاج خافض للسكر Hypoglycemic دون أدنى معرفة عن الآثار الجانبية المحتملة أو عن آلية التأثير (Esmaeili and Yazdanparast 2004).

أعطيت الجرعة عن طريق الفم بمقدار ١ مل من الخلاصة/فأر (بما يعادل ٠,٥ غ من مسحوق النبات/كغ من وزن الجسم) ست مرات كل أسبوع.

لوحظ بعدها انخفاض معنوي (٦٤٪) في تركيز الغلوكوز في الدم Blood Glucose Concentration في الحيوانات المختبرة مقارنة بالحيوانات الشاهدة. وبالإضافة إلى ذلك رفعت الخلاصة الخام مستوى الإنسولين في الدم بشكل معنوي (١٦٠٪).

كذلك اختبرت الخلاصة على جزر لانجرهانز المعزولة من البنكرياس في الزجاج، وأشارت النتائج إلى أن هذه الخلاصة قادرة على زيادة إفراز الإنسولين Insulin Secretion (بمقدار ١٣٥٪) بعد جرعة مفردة من الخلاصة النباتية تعادل ٠,١ مغ من مسحوق الأوراق/مل من وسط الزرع.

لقد أظهرت النتائج بشكل واضح أن الخلاصة النباتية قادرة، وربما دون آثار جانبية، على خفض مستويات السكر في الدم وذلك من خلال تنشيط إفراز الإنسولين من البنكرياس (Esmaeili and Yazdanparast 2004) و(Yazdanparast et al. 2005).

أما نتائج (Iriadam et al. 2006) فأظهرت أن

الخلاصة المائية للأجزاء الهوائية والتي أعطيت للأرانب بجرعة قدرها ٨٢ مغ خلاصة/كغ وزن الجسم (تعادل ٢ غ نبات مجفف/كغ وزن الجسم) لم تسبب أية سمية أو تغيرات سلوكية، لكنها في الوقت ذاته لم تخفض مستويات الغلوكوز، بشكل معنوي، سواء أفي الأرانب الطبيعية أم السكرية.

ولكن أعتقد أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار عدة أمور: الأول أنه أعطيت جرعة مفردة وأجريت التحاليل بعد ٢، ٤، ٦، ٨ ساعات من إعطائها. الثاني مصدر النبات، حيث تمّ الحصول عليه من محل لبيع النباتات الطبية، وفي هذه الحالة إذا تمّ التعرف على النبات وتحديد هويته بدقة، فلا يمكن الوثوق بنقاوة النبات وسلامة التجفيف والحفظ وطول فترة الحفظ.

خفض الدهون

درست التأثيرات الخافضة لدهون الدم Hypolipidemic Effects لنبات Teucrium polium حيث أعطيت الخلاصة المائية للأجزاء الهوائية داخل البريتون (الصفاق) Intraperitoneally بجرعات تتراوح بين ٥٠ و ١٥٠ مغ/كغ ولمدة ١٠ أيام.

خفضت الخلاصة مستويات الكوليسترول بنسبة ٢٩-٤٦٪، والغليسيريدات الثلاثية Triglycerides بنسبة ٣٤٪.

آلية العمل: إن بعض الفلافونوئيدات لها خواص مضادة لزيادة دهن الدم Antihyperlipidemic، بينما بعض التربينوئيدات يمكن أن تمنع أكسدة المواد الدهنية Lipid Peroxidation. إن وجود هذين الصفين من المكونات الفعالة يمكن أن يلعب دورًا في التأثير الخافض للدهون في الدم (Rasekh et al. 2001).

الفعالية المضادة للأكسدة
Antioxidant activity

تم فحص التركيب الكيميائي والفعالية المضادة للأكسدة لخلاصات عدة أنواع من الجنس Teucrium هي T. polium و T. chamaedrys و T. montanu.

أظهر الكشف الكيميائي النباتي بواسطة HPLC ومقياس الطيف الضوئي spectrophotometry وجود الفلافونوئيدات: لوتيولين luteolin وأبيغينين apigenin وديوسميتين diosmetin، وكانت النسبة الكلية للفلافونوئيدات ٠,٢٠ و٠,١٨ و٠,١٥٪ للأنواع الثلاثة على الترتيب وهذه النسب أقل من تلك الموجودة في بعض أنواع الفصيلة الشفوية مثل الزعتر والترنجان و النعناع وإكليل الجبل.

ووجد أن خلاصات الأنواع الثلاثة تمتلك فعالية في التقاط الجذور الحرة free radical وجذور الهيدروكسيل hydroxyl radical scavenging إضافة إلى الخواص المضادة للأكسدة في الزجاج in vitro مما أشار إلى إمكانية استخدام هذه الخلاصات النباتية كمضادات أكسدة طبيعية (Panovska et al. 2005).

الخواص المضادة للالتهاب والمسكنة Anti-inflammatory activity و Analgesic

أظهرت الخلاصة الإيثانولية للنبات بجرعة قدرها ٥٠٠ مغ/كغ من وزن الجسم تأثيرًا معنويًا مضادًا للالتهاب وخافضًا لمستوى الغلوكوز. إن وجود الفلافونوئيدات flavonoids والستيرولات sterols في خلاصة النبات يمكن أن يكون مسؤولاً عن الفعالية المضادة للالتهاب (Tariq et al. 1989).

ودرست الفعالية المسكنة analgesic والمضادة للالتهاب anti-inflammatory للخلاصة (بجرعات

من ١٥٠-٣٠٠ مغ/كغ) وللزيت العطري (بجرعات من ١٠-١٥٠ مغ/كغ).

إن مقارنة تأثير النبات مع هيوسين وإندوميثاسين كأدوية شاهدة أكدت فعاليته في تسكين آلام الأحشاء antivisceral pain، واقترح كعلاج جيد مضاد للتشنج.

واعتبر الزيت العطري مسؤولاً عن الخواص المسكنة، أما الفلافونوئيدات flavonoids والستيرولات sterols في خلاصة النبات فاعتبرت مسؤولة عن الفعالية المضادة للالتهاب (Abdollahi et al. 2003).

الفعالية المضادة للأحياء الدقيقة

Antipyretic and antibacterial actions

درست الفعالية المضادة للأحياء الدقيقة والمضادة للحمى للنبات (Menghini 1984).

ملخص التأثيرات الدوائية

Pharmacological activity

مسكن Analgesic ومضاد للالتهاب Antiinflammatory (Abdollahi et al. 2003) وخافض للسكر Hypoglycemic (Gharaibeh et al. 1988) ومضاد للتشنج Antispasmodic ومضاد للحمى Antipyretic ومضاد للجراثيم antibacterial (Autore et al. 1984) وخافض لدهون الدم Hypolipidemic وخافض لضغط الدم Antihypertensive ومفقد للشهية Anorectic (Rasekh et al. 2001) و(Naghibi et al. 2005).

السمّية Toxicity

سجلت بعض حالات التسمم الكبدي في الإنسان نتيجة استخدام بعض أنواع الجنس Teucrium spp.. وفي إحدى هذه الحالات حدث التهاب كبدي حاد مع ركود صفراوي Acute cholestatic hepatitis عند رجل يبلغ من العمر ٦٧ سنة كان يستخدم النبات Teucrium polium L. كعلاج عشبي خافض لدهون الدم hypolipidemic herbal remedy لمدة ستة أشهر (Mazokopakis et al. 2004).

كذلك درست السمية الحادة والمزمنة acute and chronic toxicity لخلاصة هذا النبات في الفئران. أجري اختبار السمية الحادة خلال ٢٤ ساعة حيث تمّ إعطاء جرعة فموية وحيدة، أدّت إلى تناقص الفعالية الحركية locomotor activity للفئران المختبرة مقارنة مع الفئران الشاهدة.

أما اختبار السمية المزمنة فكان خلال ٣ أشهر، لم تلاحظ زيادة معنوية في وزن الفئران المختبرة ولكن كان هناك زيادة معنوية في وزن الكبد والكليتين، وتناقص معنوي في وزن الخصيتين بالنسبة للذكور، مقارنة بالعينة الشاهدة.

وأظهرت الدراسات التشريحية المرضية والكيميائية الحيوية على الحيوانات المعاملة بخلاصة النبات احتقان وتموّت في أنسجة الكبد congestion and necrotic changes in the liver، وانخفاض مستويات الغلوكوز في الدم، كما زادت تشوهات النطاف sperm abnormalities (Al-Ashban et al. 2005).

المواد الفعالة المعزولة

تربينوئيدات ثنائية Diterpenoids وتربينوئيدات Terpenoids وفلافونوئيدات Flavonoids وستيرولات Sterols (Rasekh et al. 2001) وبيكروبيلين وتيوكرين A [١٣].

حدّد التركيب الكيميائي للزيت العطري المستخلص من الأجزاء الهوائية لنباتات نامية

الوصف النباتي والاستخدامات الطبية لنبات الجعدة بين التراث العلمي العربي والعلم الحديث

في الأردن، حيث احتوى الزيت العطري (ومردوده ٠,٨٪) على ٣٩ مركباً، تمّ التعرف إلى ٣٧ منها. وتبيّن أن المكونات الرئيسة هي 8-cedren-13-ol (٢٤,٨٪) و β-caryophllene (٨,٧٪) و germa-crene D (٦,٨٪) و sabinene (٥,٢٪).

ووجد أن هذا التركيب مختلف عمّا هو عليه في نباتات نامية في بلدان أخرى (خاصة فيما يتعلق بالمكوّن الأول)؛ حيث سجلت نسبة مرتفعة من السيسكوتربينات (٤٤,٩٢٪) ومشتقاتها الأكسيجينية (٤١,٤٦٪)، ونسبة منخفضة من التربينات الأحادية (١٠,٣٤٪) وغياب مشتقاتها الأكسيجينية (Aburjai et al. 2006).

٢-٤- التحليل والمقاربة مع المتاح من المعلومات الحديثة:

يوضح الجدول الآتي مقارنة للاستخدامات الطبية للجعدة بين التراث العلمي العربي والعلم الحديث.

الجدول يوضّح تحليل ومقاربة الاستخدامات الطبية لنبات الجعدة Teucrium polium بين التراث العلمي العربي والعلم الحديث

الاستخدامات الطبية في التراث العلمي العربي	الاستخدامات الطبية في العلم الحديث
ترياق مقاوم للسموم (قا، تذ) وينفع من لدغ العقرب والحية ونهش الهوام كلها ويطرد الهوام (قا، جا، تذ)	مضاد للحشرات (Ricci et al. 2005)
ينفع من اليرقان (قا، جا، تذ)	اليرقان وحصى المرارة (Naghibi et al. 2005)
يبرئ الحميات المزمنة (قا، جا)، ولاسيما الربع (تذ)	مضاد للحمى* (Autore et al. 1984) و(Naghibi et al. 2005)
يـدرّ البـول (قـا، جـا، تـذ) ولعسر البـول والحصى (تذ)	حصى الكلية وعدوى الجهاز البولي (Abu-Rabia 2005).
وجع الجنبين (جا) والمفاصل والنسا (تذ)	مسكن ومضاد للتشنج* (Abdollahi et al. 2003)
تحلّ الرياح (جا، تذ)	طارد للغازات (Abu-Irmaileh and Afifi 2003)
يـدرّ الطمث (قـا، جـا)، وينـقي الأرحـام وتجففها (تذ)	مجهض (Naghibi et al. 2005)
يدمل الجراحات الطرية و القروح الخبيثة (قا) إن تضمد به ألزق الجراحات (جا)، وتنقي القروح وتجففها (تذ)	مضاد للالتهاب* (Abdollahi et al. 2003) ومضاد للجراثيم* (Autore et al. 1984) و(Naghibi et al. 2005)
تخرج الديدان وحب القرع من البطن (قا، جا، تذ)	-
الاستسقاء (قا، جا)	-

لورم الطحال (قا، جا) وصلابته (قا)	–
تذكي الذهن وتنفع من النسيان (جا)	–
–	مضاد للأكسدة* (Panovska et al. 2005)
–	مضاد للسكري (Yazdanparast et al. 2005) و(Esmaeili and Yazdanparast 2004)*
–	خافض لدهون الدم* (Rasekh et al. 2001)
–	خافض للضغط (Rasekh et al. 2001) و(Abu-Irmaileh and Afifi 2003)
الأضرار	
الصداع (قا، جا، تذ)	–
يضرّ بالمعدة (قا، جا، تذ)	–
يسهل (قا، جا)	علاج الإمساك
–	تسمم والتهاب الكبد* (Al-Ashban et al. 2005) و(Mazokopakis et al. 2004)
الأبدال	
بدله في تحليل الرياح الشيح (تذ)	
بدله في إخراج الدود وإدرار البول والطمث وزنه قشور عيدان الرمان الرطب وثلثي وزنه قشور عيدان السليخة (قا، جا، تذ)	
الجرعة	
وشربتها إلى مثقال١٤ (تذ)	من ١٠٠–٥٠٠ مغ خلاصة/كغ من وزن الجسم، أو ٢غ نبات مجفف/كغ (حسب الأبحاث السابقة)

قا: القانون في الطب لابن سينا.

جا: الجامع لمفردات الأغذية والأدوية لابن البيطار.

تذ: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكي.

* الاستخدامات المثبتة علميًا وسريريًا.

وخلاصة القول:

من خلال التحليل والمقاربة للمعلومات الواردة عن نبات الجعدة Teucrium polium في بعض المصادر التراثية العربية (القانون في الطب لابن سينا والجامع لمفردات الأغذية والأدوية لابن البيطار وتذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكي) مع الأبحاث العلمية الحديثة، أمكن تقسيم الاستخدامات الطبية لهذا النبات إلى عدة أقسام:

القسم الأول: استخدامات وردت في كتب التراث العلمي العربي، وتمّ إثباتها علمياً وسريرياً، مثل التأثيرات المسكنة والمضادة للتشنج والحمى، كذلك التئام وتطهير الجروح بسبب الفعالية المضادة للجراثيم والفعالية المضادة للالتهاب.

القسم الثاني: استخدامات لم ترد في كتب التراث العلمي العربي، وتم اكتشافها حديثاً مثل تخفيض السكر وتخفيض دهون الدم والفعالية المضادة للأكسدة.

حيث يمكن استخدام النبات من أجل هذه التأثيرات والفوائد، مع الانتباه إلى استخدام جرعات صغيرة ولفترة قصيرة، بسبب التقارير الحديثة الواردة عن احتمال حدوث تسمم والتهاب كبدي.

القسم الثالث: استخدامات وردت في كتب التراث العلمي العربي، وما زالت واردة في الطب الشعبي في بعض البلدان أو لدى بعض الشعوب، مثل: علاج اليرقان ومشاكل الجهاز البولي والحصى، فيجب التحقق من صحة هذه الاستخدامات بناء على أسس علمية.

القسم الرابع: استخدامات وردت في كتب التراث العلمي العربي، ولم يتم التحقق منها، ولم تعد واردة في الطب الشعبي، مثل: علاج الاستسقاء والطحال وطرد ديدان الأمعاء، وعليه فإننا نوصي بالتوقف عن مثل هذه "الاستخدامات المنسيّة" للنبات ريثما يتم التثبت منها علميًا وسريريًا.

الحواشي

١. ليس المقصود هنا أنه أحد أنواع الجنس Artemisia، ولكن العرب يطلقون كلمة شيح على النباتات التي لها رائحة طيبة وطعم مرّ، انظر لسان العرب لابن منظور، مادة شيح.

٢. هو اليانسون واسمه العلمي Pimpinella anisum L. من الفصيلة الخيمية Apiaceae.

٣. بداية مرحلة الإزهار.

٤. أي تفقد قوتها بعد ثمانية أشهر من جمعها، بسبب تطاير الزيت العطري أو تفكك المواد الفعالة.

٥. أجود أصناف المرو، وهو النوع .Teucrium marum L (syn. Teucrium maritimum Lam.)، انظر معجم أسماء النبات للدمياطي، ص ٥١، وتذكرة داود، ج٢، ص١٤٩.

٦. من الجعدة، وهو النوع Teucrium ivi L. ، انظر معجم أسماء النبات للدمياطي، ص ١٤٤، وتذكرة داود، ج٢، ص ١٥٨.

٧. وردت في (جا): مسخنة مجففة.

٨. انظر القانون في الطب لابن سينا، ج١، ص٢٨٥ ، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ج١، ص١٦٣، وتذكرة داود ج١، ص٢٣٣، والتصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي ص٤٢٠، والمعتمد في الأدوية المفردة للملك المظفر ص ٦٥.

٩. وصف للعضو النباتي إذا كان على شكل ملعقة، وتكتب أيضاً spathulate، انظر (Migahid 1996) الجزء الثالث، ص١٤٠.

١٠. يبدو لي أن سبب ذلك هو طعمه شديد المرارة أو وجود مواد في الزيت العطري تلعب دوراً دفاعياً في النبات.

١١. ثبت هذا التأثير من خلال تجربتي الخاصة التي طبقتها على أحد مرضى السكري، حيث انخفض مستوى الغلوكوز في دمه من ٢٧٥ mg/dl، إلى ١٢٤، بعد أسبوع من تناول مغلي هذا النبات.

١٢. عامل يسبب انقباض الأوعية الدموية (إبراهيم ١٩٩٠) ص ١٢٣٧، وأعتقد أن ذلك يؤدي إلى رفع الضغط الشرياني.

١٣. وهي المادة المسؤولة عن حالات التهاب الكبد، بسبب سوء استخدام النبات، وهي من التربينات الثنائية (سينسيتش ٢٠٠٢).

١٤. مثقال= درهم وثلاثة أرباع= ٨٤ حبة= ٨٤×٠,٠٥ غ= ٤,٢ غ (عبد الرحيم ١٩٩٣).

المصادر والمراجع

- تذكرة داود
- التصريف لمن عجز عن التأليف، للزهراوي.
- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار.
- القانون في الطب لابن سينا
- المعتمد في الأدوية المفردة، للملك المظفر
- معجم أسماء النبات للدمياطي.

The book “Sirru us Surur” and its attribution to justice Abul Ala Mohammed bin Mahmoud Al Nisapuri.

Dr. Nawal Abdul Razzaq Sultan

The book named ‘Sirr us Surur’ is considered one of the valuable documents of literature as it includes biography of poets of 6th and 7th centuries. The writer indicates that this book has been mentioned in the biography of Abu Al-Fatah ibn Jinni, ibn Rasheeque Al-Qirwani and Ali ibn Fadhal al Mujashiyi. It indicates the value of this book and wide knowledge of justice Abul Ala about poets and their biography as well as his best selections of their poetries. The writer’s main focus was on proving that the author of book is justice Al-Ghaznawi so she said “according to this article and the references we have in our hands – which we cannot collect all- it can be said that the attribution of the book ‘Sirru Surur’ to justice Al-Ghaznawi Abul Ala Muhammad bin Mahmood Nisapuri is correct.

Botanical description and medical uses of plant ‘Alja’ada’ between Arab scientific heritage and modern science

Dr. Abdul Aleem Hasan Pillu

The Arab and Islamic heritage and Islamic science in particular is worthy of care and attention and in need of work to be disclosed and researched to confirm its value and position in the history of human culture, and to demonstrate the leading role played by Arab Muslim community in the field of science and philosophy, and to encourage the new generation’s determination for building safe extension from their bright past.

The writer started his topic with his interest for getting information about “Alja’ada” plant which Arab was using as a remedy, mentioning some important disease which this plant was used for. He compared between description of plant and medical use of it according to Arabic traditional science and modern science.

Accordingly, the researcher investigated all the attempts made before to publish his poetry collection, as the author had very high status in the eight century Hijri. He is as well, one of the most prominent symbols of Arab culture throughout the ages. He added many and diverse books to the library of Arab heritage.

Finally the researcher concluded saying: "this is the supplement of poetry collection of Abu Hayyan, which of course, does not include all of his poetry. I am putting it in the hands of fellow researchers contributing in showcasing his literary side so that this aspect can take its part from the study as his grammatical side has been extensively studied".

Arabic grammar in the book "kitabul Za" written by Yusuf Abu Hajjaj Al-Maqdisi(637AD)

Dr. Ahalam Khaleel mohammad khaleel

This research talks about 'kitab al-za' which is one of the book from the series of the books written about Za and Dhad. The book contains all the words which include letter Za, so the author named it as 'kitab al-za'

The author collected all famous words which include letter Za and divided it into three parts according to their occurrence in the words, as starting with Za, ending with Za and the words in which letter Za comes in middle. He described some issues of Arabic grammar and gave example from the holy Qur'an, Hadeeth and Arabic poetry.

However author did not said about his school of thoughts in grammar but it can be understood that he likes Kofi thought of Arabic grammar.

The art of Arabic calligraphy and its masters during the Mamluk era (648 – 923 AH / 1250 – 1517 AD)

Prof. Khalid Abdullah Yusuf

The art of Calligraphy received special care from Mamluk Sultans being the finest among all kinds of arts. Not only the art of calligraphy, but the arts and industries in general, reached in their time to the greatest degrees of progress and prosperity. They were one of the greatest patrons of art in the Islamic civilization, and the most generous spenders on the arts. In their reign Cairo became the capital of the Islamic world, and a center for refining the art of calligraphy, after the fall of Baghdad in 656 AH / 1258 AD following the Mongol invasion.

The researcher has tackled the topic presenting the different forms of this art and also included the biographies of the masters of it who contributed in refining and spreading this art during the Mamluk period (648-923 AH / 1250-1517 AD). Such as: Imad al-Din Shirazi, Shams al-Din ibn Abi Raqiba, Abdel-Rahman and others who had significant impact in this field. The art was one of the essential subjects in the Mamluk state which was taught in schools, mosques and Koranic schools thereto, which had begun to spread substantially.

Intellectual, linguistic, and literary life in Fas between 12th and 13th centuries – A study about factors of its prosperity and aspects

Al-Haj Binyard

This chapter is about intellectual and cultural life in Fas in 12th and 13th centuries along with its booming reasons and manifestation. Indeed there is strong connection between intellectual cultural and linguistic life and social and political life. Whenever this reaches to its peak it leaves effects on that. The intellectual life of Fas had reached to its summit in 8th century, so it multiplied scholars, jurists, poets, and authors. It was said "there was a scholar and pious persons in every hook and corner of the land of Fas". The writer said "the main reason of steadying intellectual life and progressing is existence of intellectual families which were called "families of fas". The scholar Ismail bin Al-Ahmar (807 AH) introduced some of them in his book "the largest families of Fas" and Abdul Kabeer bin Hashim Al-Kattani (1382 AH) mentioned many of them in this book " zahrul aas fi buyutat fas".

That is to say that the writer reached to some results, the most important is that the movement of authoring in many subjects had been active at North West African region, especially in theology, rulings on latest issues, and Arabic literature like; poetry, literature of journeys and proverbs.

Resourses of saheefah Bishr bin al Mutamir

Prof. Usama Abu Hilalah

This research sheds light on the Saheefah of Bishr which has described lots of issues of Rhetoric and Criticism and also opened the door of argument for scholars in past and present. The writer wrote about some historical background of scholar's way. Studying some issues which have been introduced in past tells us that the Arabic criticism and rhetoric were the part of human nature and not began from that Saheefah. If any one goes away in his words he will accept correction without argument. This is the reason that past scholars do not have interest in reasoning because fundamentals and rules are natural according to scholars of rhetoric. Any way saheefah of Bishr has established some fundamental of rhetoric and it opened door to scholars, they gave important to it in past and present. They considered it as historical document of art of rhetoric and criticism.

Completion of the book of poetry of Abu Hayyan Al-Andalusi (d 745 AH)

Dr. Abdul Razzaq Huwaizi

This research tries to put the completion to the poetry collection of Abu Hayyan to show its literary aspect in its best image, since this side still has lacked for study.

This study has collected the sound amount of his poetry that was absent in previous researches and studies. Several attempts were made to edit and publish his whole poetry collection but it still needs to be revised.

Abstracts of Articles

Effect of Islamic politics on public mandate

Dr. Nuruddin Saghiri

Islamic politics is considered the most complex subject among the scholars, as it emerged very late in the movement of Islamic jurisprudence. It emerged in the time when imitation was widespread among the students of jurisprudence on the one hand and on the other hand the Islamic civilization had begun to decline and authorities had went away from Islamic teaching in practicing politics and rule. Secondly it was exposed to too many ups and downs and disorder in its concept on scientific level. The later reason is considered most influential in this concept being deviated from its place for many centuries till the date.

Accordingly, this research seeks to identify features of Islamic politics and its relationship with the public mandate. It consists of two sections, namely:

1. The concept of Islamic politics
2. Ijtihad is key element in Islamic politics

The conclusion has come to confirm that 'Ijtihad' has two types, one to give the legal judgment and second to manage the affairs.

Ilm ul Siyar "international law and international relations" Diversity within unity

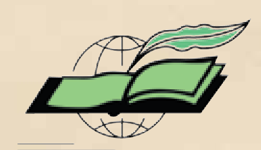
Dr. Uthman Juma Damiriyyah

The scholar aims to highlight the efforts of Muslim scholars in the establishment of this science; Ilm ul siyar "international law and International relations" seven hundred years before western scholars come to know it and he tried to give credit to them. As well as stating the impact of Islam in international law and international relations. So law of Ilm ul siyar is fundamentals of relations between non-Muslims in Muslim's land and non-Muslim's land in war and peace, in other words it is called science of Islamic international law. Muslims scholars started studying biography of prophet (pbuh) and Khulafa -e- Rashideen as a role model so they have to study it to get their way in ruling system. The scholar mentioned some issues like introduction of Islamic international law or ilm ul siyar, its features and its historical updates.

INDEX

Āfāq Al Thaqāfah Wa'l-Turāth

A Quarterly Journal of Cultural Heritage



Published by:
The Department of Studies,
Publications and Foreign Affairs
Juma Al Majid Center
for Culture and Heritage
Dubai - P.O. Box: 55156
Tel.: (04) 2624999
Fax.: (04) 2696950
United Arab Emirates
Email: info@almajidcenter.org
Website: www.almajidcenter.org

Volume 21 : No.83 - Dhu'l Qa'da - 1434 A.H. - September 2013

INTERNATIONAL RECORD NUMBER

ISSN 1607 - 2081

This Journal is listed in the "Ulrich's International Periodicals Directory" under record No. 349378

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE	U.A.E.	Other Countries
Institutions	100 Dhs.	150 Dhs.
Individuals	70 Dhs.	100 Dhs.
Students	40 Dhs.	75 Dhs.

الشروط الخاصة بنشر كتب محكمة ضمن سلسلة آفاق الثقافة والتراث

١ - أن يكون الموضوع المطروق متميّزًا بالجدّة والموضوعية والشمول والإثراء المعرفي، وأن يتناول أحد أمرين:
- قضية ثقافية معاصرة، يعود بحثها بالفائدة على الثقافة العربية والإسلامية، وتسهم في تجاوز المشكلات الثقافية.
- قضية تراثية علمية، تسهم في تنمية الزاد الفكري والمعرفي لدى الإنسان العربي المسلم، وتثري الثقافة العربية والإسلامية بالجديد.

٢ - ألاّ يكون الكتاب جزءًا من رسالة الماجستير أو الدكتوراه التي أعدّها الباحث، وألاّ يكون قد سبق نشره على أيّ نحوٍ كان، ويشمل ذلك الكتب المقدمة للنشر إلى جهة أخرى، أو تلك التي سبق تقديمها للجامعات أو الندوات العلمية وغيرها، ويثبت ذلك بإقرار بخط الباحث وتوقيعه.

٣ - يجب أن يُراعى في الكتب المتضمنة لنصوص شرعية ضبطها بالشكل مع الدقّة في الكتابة، وعزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٤ - يجب أن يكون الكتاب سليمًا خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع مراعاة علامات الترقيم المتعارف عليها في الأسلوب العربي، وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

٥ - يجب اتّباع المنهج العلمي من حيث الإحاطة، والاستقصاء، والاعتماد على المصادر الأصيلة، والإسناد، والتوثيق، والحواشي، والمصادر، والمراجع، وغير ذلك من القواعد المرعية في البحوث العلمية، مع مراعاة أن تكون مراجع كلّ صفحة وحواشيها أسفلها.

٦ - بيان المصادر والمراجع العلمية ومؤلفيها في نهاية كلّ كتاب مرتبة ترتيبًا هجائيًّا تبعًا للعنوان، مع بيان جهة النشر وتاريخه.

٧ - أن يكون الكتاب مجموعًا بالحاسوب، أو مرقونًا بالآلة الكاتبة، أو بخط واضح، وأن تكون الكتابة على وجهٍ واحد من الورقة.

٨ - على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن حياته العلميّة، مبيّنًا اسمه الثلاثي ودرجته العلمية، ووظيفته، ومكان عمله من قسم وكلية وجامعة، إضافةً إلى عنوانه، وصورة شخصية ملونة حديثة.

٩ - يمكن أن يكون الكتاّب تحقيقًا لمخطوطة تراثية، وفي هذه الحالة تتبع القواعد العلمية المعروفة في تحقيق التراث، وترفق بالكتاب صور من نسخ المخطوط المحقّق الخطيّة المعتمدة في التحقيق.

١٠ - أن لا يقل الكتاب عن مئة صفحة ولا يزيد عن مئتين.

١١ - تخضع الكتب المقدمة للتقويم والتحكيم حسب القواعد والضوابط التي يلتزم بها، ويقوم بها كبار العلماء والمختصين، قصد الارتقاء بالبحث العلمي خدمةً للأمّة ورفعًا لشأنها، ومن تلك القواعد عدم معرفة المحكمين أسماء الباحثين، وعدم معرفة الباحثين أسماء المحكمين، سواء وافق المحكمون على نشر البحوث من غير تعديلٍ أو أبدوا بعض الملاحظات عليها، أو رأوا عدم صلاحيتها للنشر.

ملاحظاتٌ

١ - ما ينشر في هذه السلسلة من آراء يعبّر عن فكر أصحابها، ولا يمثّل رأي الناشر أو اتجاهه.

٢ - لا تُردّ الكتب المرسلة إلى أصحابها، سواءً نشرت أو لم تنشر.

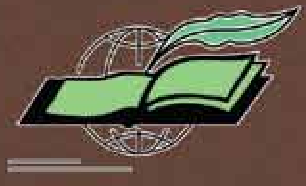
٣ - لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر كتابه بعد عرضه على التحكيم إلاّ لأسباب تقتنع بها اللجنة المشرفة على إصدار السلسلة، وذلك قبل إشعاره بقبول كتابه للنشر.

٤ - يُستبعد أيّ كتابٍ مخالف للشروط المذكورة.

٥ - يدفع المركز مكافآت مقابل الكتب المنشورة وثلاثين نسخة من الكتاب المطبوع.

Āfāq Al Thaqāfah Wa'l-Turāth

A Quarterly Journal of Cultural Heritage



Juma Al Majid Center for Culture and Heritage - Dubai

Volume 21 : No.83 - Dhu'l Qa'da - 1434 A.H. - September 2013

جدول معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم من وضع علماء تاتارستان بروسيا الاتحادية

Table of miracles of the Prophet (PBUH) complied by the scholars of Tatarstan, Russian Federation

Published by:

Department of Studies, Publications and Foreign Affairs

Juma Al Majid Center for Culture and Heritage